

العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

الشيخ علي الطنطاوي

عدد خاص

منشورات

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث - لشعراء الرابطة.
٢- نظرات في الأدب - أبو الحسن الندوي.
٣- ديوان رياحين الجنة عمر بهاء الدين الأميري.
٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث - إعداد د. عبد الباسط بدر.
٥- النص الأدبي للأطفال د. سعد أبو الرضا.
٦- ديوان البوسنة والهرسك - مختارات من شعراء الرابطة.
٧- لن أموت سدى «رواية» - جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية.
٨- ديوان «يا إلهي» محمد التهامي.
٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
١٠- ديوان «مدائن الفجر» - د. صابر عبد الدايم.
١١- العائدة - سلام أحمد إدريسو «الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية».
١٢- «محكمة الأبرياء» مسرحية شعرية - د. غازي مختار طليمات.
١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني - د. حلمي القاعود.
١٤- ديوان حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري - د. جابر قميحة.
١٥- في ظلال الرضا - شعر أحمد محمود مبارك.
١٦- في النقد التطبيقي - د. عماد الدين خليل.
١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي: دراسات وبحوث.

تحت الطبع :

١- د. محمد مصطفى هدارة: دراسات وبحوث.
٢- معسكر الأرامل (رواية) مترجمة عن الأفغانية تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
٣- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر - حليمة بنت سويد الحمد.
٤- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
٥- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة فنية». محمد رشدي عبيد.
٦- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

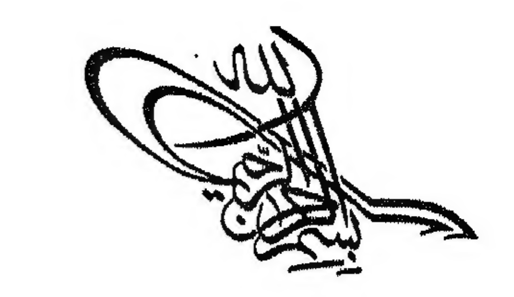
سلسلة أدب الأطفال :

١- غرد يا شبل الإسلام - محمود مفلح.
٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
٣- تغريد البلابل - يحيى الحاج يحيى.
٤- حكاية فيل مغرور - د. حسين علي محمد.
٥- أشجار الشارع أخواتي «شعر للأطفال»... أحمد فضل شبلول.
٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

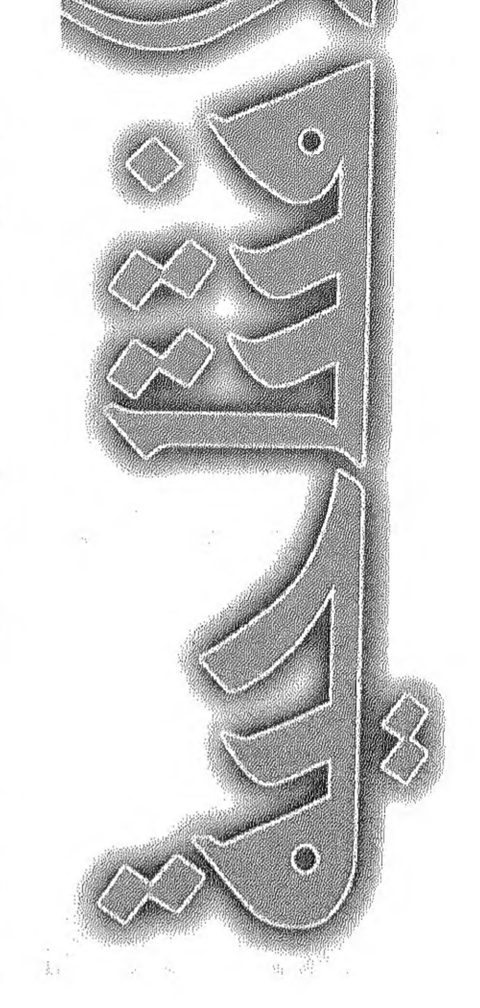
عنوان الموقع في الإنترنت
web page adress: www. Adabislami. org
العنوان في البريد الإلكتروني
E-mail: Info @ Adab Islami. org

معتمدو توزيع مجلة الأدب الإسلامي :

- السعودية: جدة - الشركة السعودية للتوزيع هاتف ٦٥٣٠٩٠٩ - فاكس ٦٥٢١١٤٦
  - الرياض - هاتف ٤٧٧٩٤٤٤ - فاكس ٤٧٧٩٠٣٠
  - الدمام - هاتف ٨٤١٢٢٢٩ - فاكس ٨٤١٣١٤٨
- الإمارات العربية المتحدة - دبي - دار الحكمة - هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ص. ب: ٢٠٠٧
- الكويت: شركة الخليج لتوزيع الصحف والمطبوعات - هاتف ٤٨٤١٠٤٥ - فاكس ٤٨١٦٨٨٤
- البحرين: المنامة - مؤسسة الأيام للصحافة والتوزيع - هاتف ٧٢٥١١١ - فاكس ٧٢٢٧٦٣
- قطر: الدوحة - مكتبة الإشراق - هاتف وفاكس ٤٤٤٧٨١١
- مصر: القاهرة - دار أخبار اليوم - هاتف ٥٧٨٢٦٠٠ - ٥٧٨٢٥٢٠
- الأردن: عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢
- اليمن : صنعاء - دار القلم للنشر والتوزيع والإعلان هاتف ٢٧٢٥٦٣ - فاكس ٢٧٢٥٦٢
- المغرب: الدار البيضاء - الشركة العربية الإفريقية - هاتف ٢٢٤٦٢٠٠ - فاكس ٢٢٤٩٢١٤



في الطريق إلى الطنطاوي



لا يشك أحد ممن عرف الشيخ علي الطنطاوي في علمه وأدبه، أو في كتبه وذكرياته في أنه كان حقاً شيخ الأدباء وأديب العلماء وشاهد القرن العشرين.

ولقد مرت سنوات من حياة الطنطاوي في بلاد الشام كان فيها مالئ الدنيا وشاغل الناس، سواء في خطبه العامة وأحاديثه الإذاعية أم في مقالاته الصحفية وكتبه الكثيرة، وسواء في مواقفه المشهودة ضد الاستعمار والطغيان أم في معاركه الإصلاحية والأدبية.

وعندما انتقل الطنطاوي إلى المملكة العربية السعودية احتل مكانة في قلوب الحكام والناس، وأحبه الخاصة والعامة. وكانت أحاديثه الإذاعية والمرئية حديث الناس، وكان برنامجه المرئي الذي امتد ربع قرن حدثاً فريداً على مستوى العالم العربي كله .

لقد أحست رابطة الأدب الإسلامي العالمية أن هذا الرجل العظيم لم ينل حقه من الإنصاف، إذ كانت سوق المذاهب الأدبية الدخيلة قائمة في معظم الدول العربية ، وكان نقاد هذه المذاهب المتمكنين من وسائل الإعلام والنشر يمجدون نفراً من الأدباء الذين يبدون أقزاماً أمام الطنطاوي وأمثاله مثل محمود شاكر وعمر الأميري ونجيب الكيلاني، وهكذا لم ينل الطنطاوي حقه، ولم ينشر عنه من الدراسات ما يكافئ عطاءه ومكانته.

ومن هنا رأت رابطة الأدب الإسلامي العالمية أن تصدر هذا العدد الخاص عن الشيخ الطنطاوي ، وأعلنت عن ذلك في مجلتها، وكاتبت عدداً كبيراً ممن كانت لهم صلة وثيقة بالأديب الكبير.

ومع أن استجابة من كاتبناهم من معارف الشيخ لم تكن سريعة ولا كافية إلا أن الموضوعات أخذت ترد تباعاً إلى المجلة من محبي الطنطاوي والعارفين لفضله حتى أصدرناها في عدد مزدوج آملين أن يكون ما قدمناه محاولة لإنصاف هذا الأديب الإسلامي الكبير.

رئيس التحرير

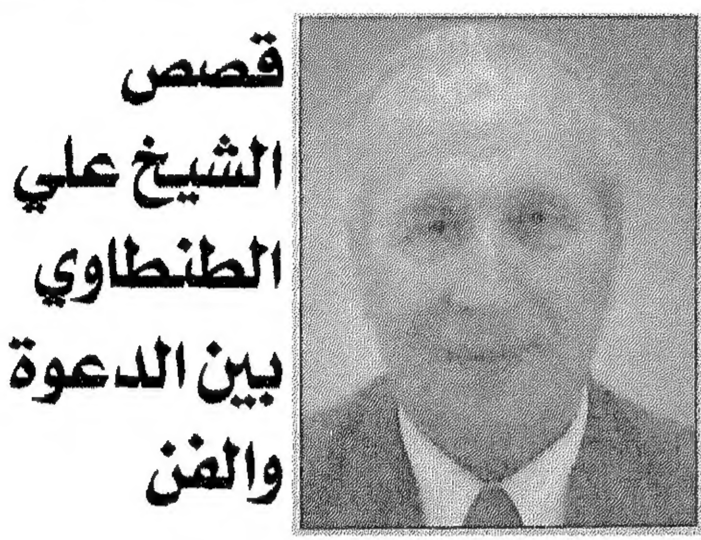


الأدب الإسلامي

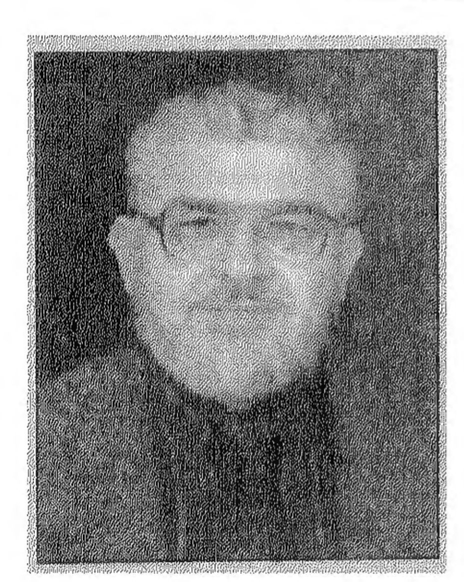
المجلد الثامن
العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون
١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م

مجلة فصلية
تصدر عن :
رابطة الأدب الإسلامي العالمية

علي الطنطاوي في صحافة مصر



قصص الشيخ علي الطنطاوي بين الدعوة والفن



الصورة الأدبية الفنية في أدب الشيخ الطنطاوي



فن السخرية وبعدها الإسلامي في أدب الشيخ علي الطنطاوي

المراسلات والإعلانات : السعودية - الرياض ١١٥٣٤ ص ب ٥٥٤٤٦
هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ - ٤٦٣٤٣٨٨ / فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال٠٥٣٤٧٧٠٩٤

Web page address :www.adabislami.org
E-mail:info@.adabislami.org

في هذا العدد

شروط النشر في المجلة

تستبعد المجلة ما سبق نشره.
- موضوعات المجلة تنشر في حلقة واحدة.
- يرجى كتابة الموضوع على الآلة الكاتبة أو بخط واضح مع ضبط الشعر والشواهد وألا يزيد عن خمس عشرة صفحة.
- يرجى ذكر الاسم ثلاثياً مع العنوان المفصل.

ترسل نبذة قصيرة عن الكاتب.
- توثيق البحوث توثيقاً علمياً كاملاً.
- الموضوع الذي لاينشر لايعاد إلى صاحبه.
- إرسال صورة غلاف الكتاب،موضوع الدراسة أو العرض، أو صورة الشخصية التي تدور حولها الدراسة أو المجرى معها الحوار.

الاشتراكات

- **للأفراد في البلاد العربية : ما يعادل ١٥ دولاراً.**
- **خارج البلاد العربية : ٢٥ دولاراً.**
- **للمؤسسات والدوائر الحكومية : ٣٠ دولاراً.**

أسعار بيع المجلة

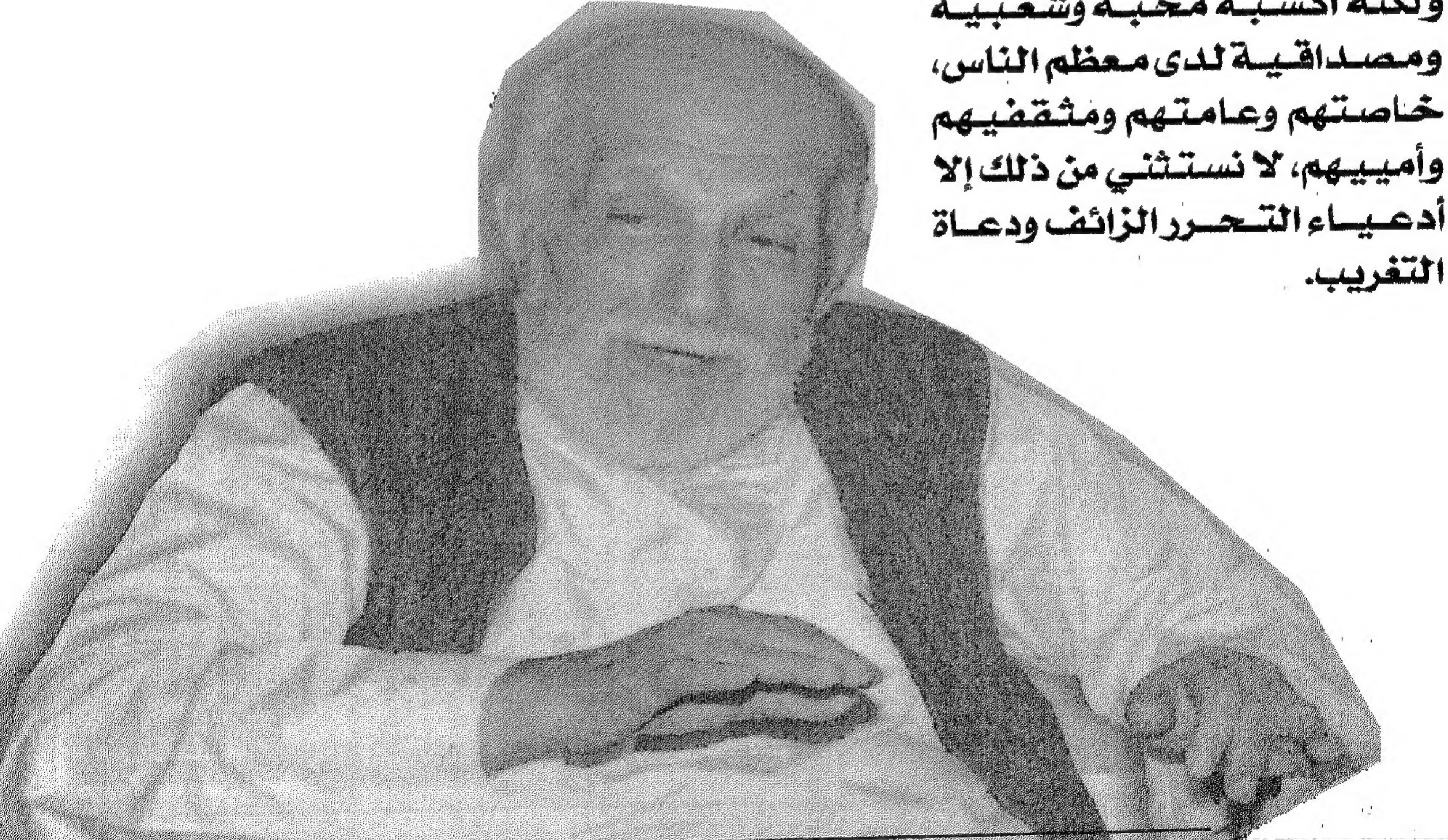
دول الخليج : ١٥ ريالاً سعودياً أو ما يعادلها – الأردن دينار ونصف – مصر أربع جنيهات ونصف – سورية ٧٥ ليرة – لبنان ٣٧٥٠ ليرة ، المغرب العربي ١٥ درهماً مغربياً أو ما يعادلها – اليمن ٢٢٥ ريالاً – السودان ٣٧٥٠ جنيه – الدول الأوربية ما يعادل ٤,٥ دولار.



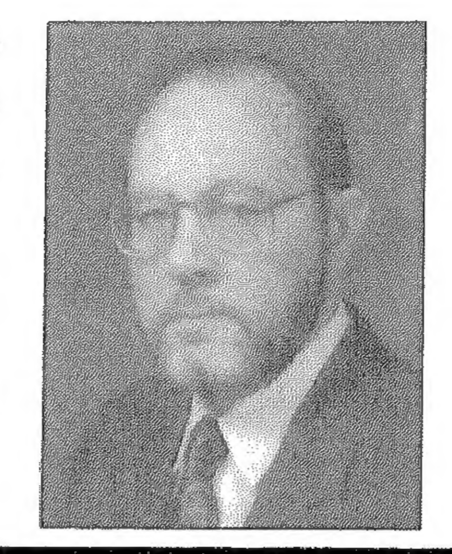
الشيخ علي الطنطاوي كما عرفته

إنه علي الطنطاوي شيخ الأدباء في الشام، وأديب العلماء وجاحظ القرن العشرين.

كانت أول معرفتي به في مسجد الجامعة السورية التي سميت بعد ذلك بجامعة دمشق بعد أن كثرت الجامعات في سورية. ومع أن أول حديث سمعته منه قد مضى عليه نحو من نصف قرن، فإني ما زلت أتمثله، وأتمثل فيه شخصية الطنطاوي التي لم تتغير في خاطري: شخصية الأديب المطبوع، الذي يجمع بين بلاغة الكلام وخفة الروح، وشخصية الداعية الذي يطرق موضوعه بصراحة واضحة، وجرأة نادرة مما جر عليه غضب المسؤولين في كثير من المواقف، ولكنه أكسبه محبة وشعبية ومصداقية لدى معظم الناس، خاصتهم وعامتهم ومثقفيهم وأمييهم، لا نستثني من ذلك إلا أدعياء التحرر الزائف ودعاة التغريب.



أيام لاتنسى



بقلم: د. عبدالقدوس ابو صالح

وزادت معرفتي بالشيخ الطنطاوي في مدينة الرياض عندما قدم إليها سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م أستاذاً في الكليات والمعاهد العلمية التي صارت بعد ذلك جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وقد أفرد الشيخ خمس حلقات من مذكراته عن العام الدراسي الذي أمضاه في الرياض، ولكنه مع حديثه عن شعوره بالغربة وضيقه بالوحدة، لم يذكر تلك السهرة نصف الشهرية التي كنا نعدّها من أسعد الساعات وأجمل الأوقات، وكان ممن يحضر تلك السهرة عدد من الزملاء والأصدقاء الذين ذكرهم الشيخ، ومنهم الأستاذ عمر عودة الخطيب ود. مصطفى الخن، ود. محمد الصباغ، ود. محمد علي الهاشمي، والأستاذ تيسير العيتي والأستاذ مصباح السعدي، وكان الدكتور عبد الرحمن الباشا رحمه الله يحضرها في بعض الأحيان.

وكانت مجالسة الشيخ في تلك السهرة لا تمل، فهو قطب السهرة، وهو ينتقل في حديثه على طريقة الجاحظ من موضوع إلى خبر إلى شعر، ويتخلل ذلك نوادره التي منها ما يحفظه، ومنها ما يكون مما حدث معه في حياته المديدة، سواء في سلك القضاء، أم في سلك التعليم، أم في مخالطته للناس خارج إطار الوظيفة التي تحدث في ذكرياته عن كثير من نوادره الواقعية في أثنائها.

ومع أن سهرتنا مع الشيخ كانت في منزل صديق عَزَب فإنها كانت تتخذ أحياناً شكلاً يسمى بالدور، وهنا أذكر من طرائف الشيخ التي كانت بديهته تدفعه إليها، فتولد في لحظة سريعة أن دور السهرة كان في منزلي، وكان أن جلسنا على السطح، وقد صفا الجو، وطابت نسمات الصبا في ليالي الرياض، ولما فرغ الضيوف مما يقدّم عادة في مثل تلك السهرة ناديت الخادمة التي كانت تعمل في منزلي، وكانت تسمى غزالة، ولما سمعني الشيخ أردد قولي: يا غزالة تعاليْ خذي السفرة، إذا به يقول: أي غزالة تلك التي تناديها، والله ما يحمل هذه السفرة إلا حمار، فكيف تحملها غزالة؟! وضحك الضيوف الكرام حين رأوني لا أمد يدي لحمل السفرة التي لا يحملها في رأي الشيخ إلا حمار.

وكان الشيخ على سجيته في تلك السهرة لا يتكلف ولا يتورع أن يكون مثل شبيهه الجاحظ فيورد من النوادر ما يخطر على باله دون تحرج، وكان معنا صديق يميل إلى الرصانة والشدة، فقال له: يا شيخ علي! إنه لا يليق أن تذكر من النوادر مالا يليق بمقامك!.. واستجاب الشيخ فوراً وقال له: أرجو أن تكون أميراً عليّ.. حتى إذا رأيتني أقول ما لا تراه لائقاً نبهتني فارعويت.. وقبل الزميل هذه الإمارة على الشيخ، فما مضت برهة من الوقت حتى خطرت على ذهن الطنطاوي إحدى تلك النوادر التي لا تعجب الزميل المتشدد، فقال الطنطاوي: بالإذن من الأمير سأقول هذه النادرة، ثم تكرر ذلك الاستئذان في تلك السهرة مرات ومرات، وعندئذ قال الزميل: اشهدوا أني استقلت من هذه الإمارة التي «تبهدلت» بها.

ومما لم يذكره شيخنا الطنطاوي في ذكرياته عن الرياض أنه لم يكن يصبر على مادة واحدة، وكان يجرب تدريس المادة أسبوعاً أو أسبوعين ثم يقول: «هذه المادة ما صلحت لي وما صلحت لها».. ولما أعيا الأمر عرض على عميد الكليتين - كلية الشريعة وكلية اللغة العربية - أن يلقي محاضرة أسبوعية عامة، يُدعى إليها الناس مساء، وكانت المحاضرات العامة نادرة أو قليلة في الرياض آنذاك، وقبلت إدارة الكليات والمعاهد اقتراح الشيخ، وتهافت الناس على محاضراته التي كانت فريدة في جمعها بين العلم والتوجيه، مع ما يملك الطنطاوي من سر الجاذبية في أحاديثه الخاصة والعامة، وفي مشهد الناس أو في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ولكن ما هي إلا أن جاء الأسبوع الأخير من شعبان، ونحن في منتصف العام الدراسي، وإذا بالشيخ الطنطاوي يفجأ الناس بعد أن انتهى من محاضرته قائلاً: إن هذه المحاضرة هي آخر محاضراته لأنه ولأن الناس سوف يستثقلون الحضور في ليالي رمضان».

وقد حاول عميد الكلية أن يعترض على الشيخ، ولكن الناس كانوا قد نهضوا، واختلط الحابل بالنابل، وهيهات أن يُسمع الاعتراض، وهيهات قبل ذلك أن يقبل به الشيخ الطنطاوي.

ولم يبق أمام إدارة الكليات إلا أن يقضي الشيخ الطنطاوي ما بقي من شهور الدراسة مستشاراً متفرغاً من التدريس والمحاضرات.

فيض الذكريات

وانتقل الشيخ من الرياض إلى جدة في مطلع العام الدراسي التالي، وصرنا لا نلقاه إلا في زيارات قليلة أثناء العمرة أو الحج، نزوره في بيته، أو نراه في زاويته المعتادة قرب الإذاعة في الحرم.. وكان مما يعوضنا عن قلة لقاءاتنا به أننا كنا نراه ونسمعه مع آلاف الناس في برنامجه الأسبوعي في التلفزيون السعودي، هذا البرنامج العجيب الذي استمر نحواً من ربع قرن، ولا يماثله في استمراره في العالم إلا برامج معدودة على أصابع اليد الواحدة، وكان تعلق الناس بهذا

البرنامج مع برنامجه الآخر «على مائدة الإفطار» أمراً تحار العقول في تفسيره، إذ تعلق الناس به من مختلف الطبقات وشتى الأعمار.

ولما أردت أن أكتب عن الشيخ الطنطاوي كما عرفته، بدأت بالرجوع إلى «ذكريات الطنطاوي» التي صدرت في ثمانية أجزاء كاملة وكان هدفي أن أطلع على ما كتبه عن العام الدراسي الذي نعمنا فيه بزمالته في الكليات والمعاهد العلمية. وكنت قد اطلعت على الذكريات اطلاع العجلان، ولم أتجاوز قراءة الجزء الأول منها، وها أنذا أراني أقلب في فهارس الكتاب، وأغرق في قراءة كثير من حلقاتها حتى شغلت بها نحواً من يومين أو أكثر، وقد نقلتني هذه الذكريات إلى بلدي الحبيب وإلى دمشق بخاصة، حيث يصف الأديب الكبير دمشق، دورها وأحياءها، وبساتينها وغوطتها وكتاتيبها ومدارسها وجامعتها الناشئة، كما صور أفراحها ومآسيها والأحداث والوقائع التي شهدها أو أسهم فيها.

نعم!.. لقد تحدث الطنطاوي عما مر بسورية في أيام الاتحاديين العنصريين، وفي زمن الفرنسيين المستعمرين، ثم تحدث عن الجلاء والاستقلال، وتحدث عن الوحدة والانفصال، وكان لفلسطين في غمار تناوله للحياة السياسية النصيب الأوفى.

وتحدث في الحياة الاجتماعية عن مجالس الخاصة وسهرات الناس، وعن الأعراس والمآتم، وعن قضية السفور والحجاب، وندب نفسه مدافعاً عن الفضيلة، وبخاصة في رسائل الإصلاح التي نشرها.

وتحدث عن الحياة الأدبية مبيناً رأيه في الأدب، في معرض رده على الأستاذ شفيق جبري الذي كان من دعاة الفن للفن، وكان من قول الطنطاوي «إن الأدب لا يجدي إن لم يكن أدب الحياة، ولا يكون أدب الحياة حتى يحكم صلته بها، ويداخلها، فيعرف مواطن الخير فيها فيدل عليها، وأماكن الشر فينفّر منها»(١).

وكان مما قاله عن الحياة الأدبية في سورية: «والحياة الأدبية في الشام أحوج ما تكون إلى المداواة والعلاج، إن كان في الشام حياة أدبية لها وجود، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها. وأنا أشك في وجود هذه الحياة، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها لأني لا أرى أي علاقة من علاقات الحياة في أدباء دمشق وأدبها، ولا أستطيع أن أنفيها لأن في دمشق أدباء كباراً معروفين، ولأن دمشق – كما يعرفها الناس جميعاً – عاصمة من عواصم البيان العربي.. وإنما أقول: إن أدباء دمشق في منزلة بين الموت الكامل، والحياة الصحية، هي كالسبات العميق، والنوم الطويل!.. وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها؟ وأين هي منتجاتهم الأدبية؟ وهل يكفي شاعراً أن يقول كل سنتين قصيدة واحدة، تضطره إليها المناسبات اضطراراً، ثم لا يكون في القصيدة أثر من نفسه، ولا تصف شيئاً من عواطفه؟

وهل يكفي الكاتب أن ينشر كل عام مقالة تطلب منه، أو مقدمة كتاب يُسأل كتابتها؟ بل هل يستطيع أن يملك لسانه الشاعر، فلا يقول شيئاً، وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر، من مصائب الأمة ونكباتها، بل من همومه هو ومتاعبه، وما يشاهده في حياته في بيته، وحياته في عمله(٢).

موقف من الأدب

وتحدث الطنطاوي عن غلبة المذهب الرومانسي على الشعراء الشباب في الشام، وهاجم ما فيها من السوداوية والتشاؤم واليأس والانزواء في الأبراج العاجية فقال: «ولكن الغالب على أدبهم المذهب «الرومانسي».. وقد حملت على هذا المذهب بسلسلة من المقالات عنوانها «الأدب القومي». إلى أن قلت: من الذي حجب عن عينيك أيها الشاعر ملذات الحياة ومفارحها، ولم يُرِك إلا آلامها وأحزانها؟ لماذا ترى سواد الليل ولا ترى بياض الضحى؟ لماذا تصف بكاء السماء بالمطر في الشتاء، وتدع ضحك الأرض بالزهر في الربيع؟ لماذا تصور حشود المآتم، وتهمل حفلات الولادة؟ الدنيا ليل ونهار، وشتاء وربيع، وموت وولادة، إنها كالقمر، له جانب مظلم وجانب مضيء، فمن ملأ قلبه ظلامُ اليأس لم ير إلا الجانب المظلم مع أنه خفي لا يرى..

لا تعش لنفسك وحدها، بل عش لها ولأمتك، فكر بعقلها، اشعر بشعورها، وأد ما يجب عليك



الرياض

لها، أما أن تقول: هذا حبي، وهذه عاطفتي، فاشتغلوا بها معي، فلا.. إن أدبك يكون إذن مخدراً للحس الوطني.

حسبنا بكاء ويأساً، ورثاء للماضي، وفزعاً مما يخبئ لنا المستقبل. كفى تبرماً بالحياة، وشكوى منها، ودعونا من أدب لامارتين وموسيّه»[٣].

وتحدث الشيخ الطنطاوي عن أدب الحداثة المنحرفة، وليس عن الحداثة بمعنى التجديد، إذ كان الطنطاوي من دعاة التجديد في الحياة الأدبية.

وها هو ذا يقول في معرض حديثه عن زيارته لوالد الشاعرة نازك الملائكة: «وقد نشرت أول العهد بها في الرسالة شعراً نفيساً، أثار إعجابنا وتقديرنا، لا هذا الشعر الذي سموه حراً، أو شعر الحداثة، فهل يبقى الحدث حدثاً أم يشب ويعقل.. وسموه حراً، ومن الحرية ما هو فوضى. فإن رأيت الجند يمشون صفاً واحداً مرتباً منظوماً نظم اللآلئ في العقد.. فخرج واحد منهم على الصف وعلى نظامه، فمشى على غير مشيتهم، وبسرعة غير سرعتهم. أليس هو ما يسمونه بشعر التفعيلة، شعر تفعيلاته صحيحة الوزن ولكن لا ارتباط بين أبياته ولا تناسق بينها.. وإن الشعر الحق هو الذي يثير الشجون، ويحرك العواطف، مع اتساقه في الآذان ومحافظته على الإيقاع.

إن علينا أن نقول الحق ولو على أنفسنا، والحق أن معاني الشعر الغربي «الفرنسي أو الإنجليزي» أوسع مدى وأكثر عمقاً، وأن ميزة شعرنا في النظم، في الموسيقى الشعرية، تلك هي الميزة التي يحاول هؤلاء أن يحرمونا منها»[٤].

وقال في معرض حديثه عن كتب المطالعة: «جنبوا كتب المطالعة هذا الأدب الذي تسمونه يوماً بأدب الحداثة، ويوماً بالشعر المنثور، ويوماً بالنثر المشعور، كما قال المازني رحمه الله مازحاً ساخراً لما سألوه عنه، ويوماً بقصيدة النثر، وكل ذلك من مظاهر العجز عن نظم الشعر البليغ، كالثعلب لما لم يصل إلى عنقود العنب، قال: إنه حامض، واختاروا لهم مما يقوي ملكتهم العربية، لأن العربية والإسلام لا يكادان يفترقان.

لقد حاقت بالعربية نكبات، واعترضت طريقها عقبات، ونزلت عليها من نوازل الدهر المعضلات،ولكن ما مر بها يوم هو أشد عليها، وأنكى أثراً فيها من هذا الأدب المزور الذي سميتموه بأدب الحداثة، إنه ليس انتقالاً من مذهب في الشعر إلى مذهب، ولا من أسلوب إلى أسلوب، ولكنه لون من ألوان الكيد للإسلام. بدأ به أعداؤه لما عجزوا عن مس القرآن، لأن الله الذي أنزله هو الذي تعهد بحفظه، فداروا علينا دورة، وجاؤونا من ورائنا.

وكذلك يفعل الشيطان، يأتي الناس من بين أيديهم وعن أيمانهم ومن وراء ظهورهم، فعمدوا إلى إضعاف الإسلام بإضعاف العربية»[٥].

مفهومه للأدب الإسلامي

ويتحدث الأستاذ الطنطاوي في ذكرياته عن مفهوم الأدب الإسلامي فيقول: «ولا يزال في الناس من يختلط عليه أمر تعريف الأدب الإسلامي، ويدخل فيه كتابات إسلامية ليست أدباً، وكتابات أدبية ليست موافقة للإسلام، والذي أفهمه أنا بذهني الكليل، وفهمي القليل أن الأدب الإسلامي هو ما كان أدباً مستكملاً شرائطه، جامعاً عناصره، وسواء أكان ذلك قصيدة، أم كان قصة، أم كان مسرحية، أم كان رواية. فالشرط فيها أن تكون بالميزان الأدبي راجحة لا مرجوحة، وأن يكون الأثر الذي تتركه في نفس قارئها إذا انتهى منها، مرغباً له في الإسلام، دافعاً له إلى الاقتراب منه، لا أن تكون بحثاً فقهياً، ولا تاريخياً، ولا شرح حديث، ولا تفسير آية، فهذا كله ليس أدباً، وإن كان شيئاً أغلى وأثمن، وأعلى من الأدب»[٦].

عاشق مكة

ومع أن معظم ذكريات الطنطاوي كانت عن الشام وعن دمشق خاصة فإنه تحدث عن ذكرياته في المملكة العربية السعودية التي أقام بها نحواً من ست وثلاثين سنة امتدت إلى آخر حياته، وقد عاصر فيها أربعة ملوك أحبهم وأحبوه، كما أحبه عامة الناس في المملكة وخاصتهم، وكان برنامجه الأسبوعي «نور وهداية» وبرنامجه الرمضاني «على مائدة الإفطار» مهوى الأفئدة.

وقد أشرت في مطلع هذا المقال إلى بعض ذكرياته في السنة الأولى التي قدم فيها إلى المملكة سنة



١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، وقد خصص معظم الجزء الثامن من ذكرياته للحديث عن ذكريات إقامته في المملكة، وكان من أجمل ما استهل به ذكرياته عن مكة قوله: «أريد أن أكتب عن المملكة، عن مكة، عن العاصمة الروحية لها ولبلاد المسلمين كلها، وأنا حين أهم بالكتابة عن بلد لا أصف طبيعة أرضه، ولا تحديد مساحته وحاصلاته، ولكن أحاول أن أصف مدى شعوري به، ومبلغ ما له في نفسي.

وهل أستطيع أن أصور المشاعر والعواطف التي ينطوي عليها قلبي لمكة أم القرى، وقبلة المسلمين، ومبعث النور،وأحب البلاد إليّ بعد بلدي، لا بل قبل بلدي، فهي بلدي الأول، وبلد كل مسلم، ما يسرني أن يسلم بلدي بأذاها، بل إني أدفع عنها الأذى ببلدي وداري وأهلي، لأنها إن سلمت فكل شيء سالم، وإن أصابها شيء لم يسلم لنا بعدها شيء، لأنها تكاد تكون لنا كل شيء.

أرأيتم المغناطيس كيف يجذب قطع الحديد من حوله، كذلك تجذب مكة الناس، ولست أدري لماذا يذهب أهلها، فيسيحون في البلدان، والبلدان كلها تكون كل سنة هنا؟!. تدور حول هذا البيت من الغرب إلى الشرق، كما تدور الأفلاك على قطبها. فكأن كل حاج كوكب، وهذا المطاف هو الفضاء الأرحب الذي تسبح فيه النجوم والكواكب»[٧].

ومع أن ذكريات الشيخ الطنطاوي عن المملكة تختلط أحياناً على طريقة الاستطراد بذكرياته السورية فإننا نجد في عناوين ذكرياته عن المملكة ما يلي: *كيف جئت إلى المملكة - الدراسات العليا في المملكة* - الفقيدان الوزير والمدير وهما معالي الشيخ حسن آل الشيخ وزير المعارف والشيخ عبد الرحمن بن صالح التونسي مدير مدارس الثغر -. تعليق على التلبية في الحج - في كلية التربية..

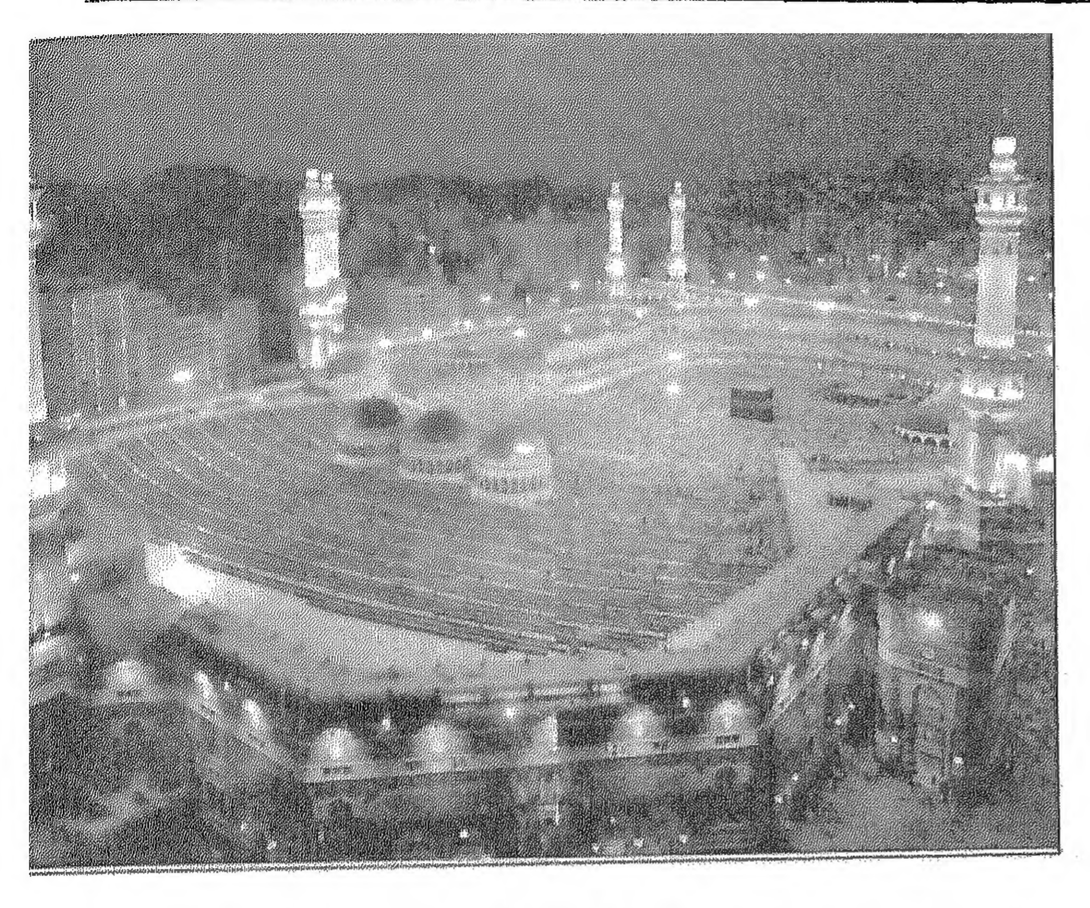
وهكذا عرفت الشيخ الطنطاوي عندما كنت طالباً في الجامعة السورية، وعرفته في مدينة الرياض، وعرفته كما عرفه الناس من خلال ما قدم في الإذاعة والتلفزيون على مدى عقود من السنين، ثم من خلال ذكرياته التي أزعم أني اطلعت عليها وقرأت كثيراً من حلقاتها في أثناء كتابتي لهذا المقال.

ويتراءى لي الطنطاوي كما يتراءى لكثير ممن عرفوه شيخ *الأدباء في الشام وأديب القضاة وجاحظ القرن العشرين.*

وقد عاش الطنطاوي حياة حافلة مديدة زادت على تسعين عاماً، ومارس مهناً متعددة - التجارة والتعليم وإمامة المسجد والصحافة والقضاء - ثم انتهى إلى التدريس الجامعي.

موقف شجاع

وكان الطنطاوي في شبابه مثالاً للرجل العصامي، وكان شديد الثقة في نفسه، وكان صريحاً لا يعرف المجاملة والمداراة، وكان سريع الغضب سريع الرضا، ملولاً لا يكاد يصبر على طعام واحد، ثم هدهدت الأيام من غَرْبه، وزادته حكمة ورصانة،



ولكن بعض ملامح شبابه ظلت كامنة كالجمر تحت الرماد، حتى أصبح مثل صديق ابن المقفع الذي قال فيه «وكان يُرى متضاعفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً».

ذلك أن خصلة الشجاعة والجرأة لم تفارق الطنطاوي في حياته كلها، وكانت هذه الشجاعة أجلى ما تكون أمام الحكام، حينما يرى جوراً في الحكم، أو انحرافاً عن جادة الدين والخلق، ومواقفه في ذلك مشهودة ومشهورة أمام أديب الشيشكلي الحاكم العسكري في سورية، وأمام الحسيني قائد الشرطة فيها وأمام السراج رئيس المخابرات في أيام الوحدة بين سورية ومصر، وأمام كمال الدين حسين عضو قيادة الثورة ووزير المعارف في أيام الوحدة، ولنستمع إلى قوله في مقابلته له مع وفد من العلماء: «نحن ما جئنا من أجل الرواتب، ولكن جئنا مدافعين عن الدين وعن الأخلاق، ومطالبين بالإصلاح.. هل تعلم سيادتكم أننا لسنا هنا أحراراً، كل واحد منا مراقب، يبعث إليه من يحصي عليه حركاته وسكناته، فكيف نعيش مطمئنين آمنين ألا تصيبنا جائحة؟! حتى أنت، إن معك اثنين يراقبانك، ويرفعان عنك تقريراً بكل ما تقول أو تفعل، وهذا التقرير لا يرفع إلى سيادة الرئيس، بل إلى رب الرئيس ورب العالمين، يعلن على رؤوس الأشهاد يوم المعاد، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا وزارة ولا رياسة، فأرجو ألا تهيئ جواباً يرضينا الآن، بل تعد الجواب لرب العالمين يوم الحساب»[٨].

مواقف طريفة

وكان أكره شيء إلى الطنطاوي النفاق والمراءاة بين الناس، وكان الشيخ يكره الغرور والادعاء، وله في ذلك مواقف طريفة، نذكر منها قوله: «ولقد وقعت لي في هذه الكشوف - كشوف القضاء - حوادث طريفة فيها تسلية للقارئ، منها أننا ذهبنا يوماً إلى كشف على مسكن، في طرف دمشق، وكان معي في السيارة كاتب

المحكمة والزوجة وزوجها، فلما وصلنا جاء عسكري قريب للزوجة، فأراد أن يتدخل فمنعته، وكان للعسكري أيام الفرنسيين بعض الرهبة في قلوب الناس، فلما ابتعدنا راجعين قال الزوج: أنا سكتُّ عنه إكراماً لك، أي لي أنا، ولولاك «لمصعت» رقبته، فقلت للسائق: قف، فوقف، وقلت للزوج: أنا لم أر في عمري رجلاً «يمصع» رقبة آخر، وأحب أن أرى هذا المشهد، ولا يضرني أن أنتظر، فسأدعوه لك حتى تصنع به ما تريد، وفتحت نافذة السيارة ومددت رأسي فناديت العسكري.

وهنالك تبخرت حماسة هذا الرجل، وضاعت جرأته، وهربت شجاعته، وجعل يقول: أرجوك، أرجوك يا سيدي.. أقبل يدك.. سامحني، لا توقعني معه في ورطة، وأنا ساكت لا أقول شيئاً، حتى وصل العسكري، وصار لون وجه الرجل بلون قشرة الليمون، فقلت للعسكري: يبدو عليك أنك رجل خير، ومن يعمل خيراً يكافئه الله.. فاذهب وحاول أن تصلح بينهما، أو الحقنا إلى المحكمة، لعلك توفق بإقناع قريبتك وزوجها لإزالة الخلاف بينهما، ولحقنا وتم الصلح بينهما. أما الرجل فما صدق أنه خلص من هذه الورطة، وأحسب أنه لم يعد إلى هذه العنترية الفارغة. والعوام عندنا في الشام يقولون: إن من يهدد لا يفعل، والذي يفعل حقيقة لا يهدد»(٩).

درس في التواضع

وكان الطنطاوي على ما كان له من شأن، وما بلغ من مكانة شديد التواضع، وإن كان شديد الصلف أمام أهل الغرور والتكبر، وقد بلغ من تواضعه أنه كان يذكر أخطاءه في بعض المواقف في أثناء ذكرياته، كما كان تواضعه يدفعه إلى الاعتراف بالخطأ أمام طلابه، لا يعد ذلك منقصة في شخصه، ولا نيلاً من كرامته، ومن ذلك قوله: «وقد وقع لي أول قدومي مكة المكرمة أن جاء ذكر حكم فقهي في مسألة من المسائل في مذهب الإمام أحمد، فذكرت ما أعرفه، فقال طالب من الطلاب: إن الحكم في المذهب على غير هذا، فقلت له: درست الفقه في المدرسة المتوسطة، ثم في الثانوية وأنت لم تتعلم بعد حكم هذه المسألة، وأطلت لساني عليه، وكان مهذباً فسكت، فلما رحت إلى الدار، رجعت إلى كتب الفقه، فإذا الذي قاله الطالب هو الصواب، أفتدرون ماذا صنعت؟!.. جئت من الغد فقلت للطلاب، سمعتم بالأمس ما قلته لأخيكم، وقد تبين لي أن الحقَّ معه، وأنني أنا المخطئ، لذلك أعتذر إليه أمامكم، أعتذر إليه مرتين: مرة لأني خطَّأته وهو المصيب، ومرة لأنني خالفت أخلاق العلماء، فأطلت لساني عليه، وظلمته بما أسأت به إليه.

وقد كان درساً عملياً أفاد الطلاب أكثر مما تفيدهم الدروس النظرية التي ألقيها عليهم»(١٠).

قوة في الحق

وكان الشيخ الطنطاوي على ميله للفكاهة، وعلى ما يتمتع به من خفة الروح في مقدمة العلماء التزاماً بالإسلام، وتخلقاً بآدابه، وكان في حقيقته شديد التقوى لله، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا سطوة غاشم، وكانت التقوى لله تجعله أحياناً كالأسد في جرأته وإقدامه، وتجعله أحياناً أخرى من أرق الناس قلباً ومن أكثرهم خشية لله، وتواضعاً له، وكان عندما يخطب في الناس ينقل إليهم ما يشعر به في قلبه، بل في كيانه كله فيكون من ذلك مشاركة وجدانية وتأثير عميق في الجماهير التي تستمع إليه.

قصة الاستسقاء

ولننظر شاهداً عما قلناه هنا في قصة الاستسقاء التي حدثت في دمشق سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م وسوف نقتطف شذرات مما جاء في حديثه عن هذه القصة، ومما قاله في خطبته يوم الاستسقاء.

قال الشيخ الطنطاوي: «مر الشتاء كله، ولم تنزل الأمطار، بل لقد تجرّأ واحد من الحكام يومئذ فقال في خطبة له ألقاها: «إننا سنتخذ من «التكنولوجيا» وسائل جديدة تغنينا عن استجداء السحاب وانتظار المطر!.. وكانت كلمة فاجرة من عبد ضعيف مُدَّعٍ لا يستطيع إذا حبس الله الغيث أن ينزله، ولا إذا غيَّض الله العيون أن يفيضها،ولا يملك لنفسه، فضلاً عن أن يملك لغيره نفعاً ولا ضراً».



ودعا العلماء أهل دمشق إلى صلاة الاستسقاء في سفح جبل قاسيون. وقال الشيخ يصف ذلك بقوله: «غص السفح كله بالناس كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، وصلينا صلاة الاستسقاء، ثم قمت بعدها، فخطبت خطبة لم أتعمد فيها بلاغة اللفظ، ولم أنظر فيها إلى عمق التأثير، ولم أطلب إعجاب الناس، بل لقد حاولت بمقدار ما استطعت أن أنساهم، وأن أوجه قلبي كله لله، ثم تكلم السيد مكي الكتاني رحمه الله، فكان كلامه أعظم من كلامي، لأنه كان من أرباب القلوب، وإن لم يكن من كبار العلماء.. فبلغ كلامه من نفوس الناس ما لم يبلغ كلامي، وسيطرت على الجميع عاطفة إيمانية عجيبة، ليست من صنعي ولا من صنعه، ولم تكن لخطبته ولا لخطبتي، ولكنها نفحة من نفحات الله، فلم تكن تسمع إلا دعاء مختلطاً بنشيج، وبكاء يخالطه دعاء..».

«وكانت ساعة ما وجدت في حياتي مثلها إلا مرات معدودات في التسع والسبعين سنة التي عشتها، كانت القلوب كمدخرات «بطاريات» فارغة، فشحنها هذا الموقف بالطاقة شحناً كاملاً، لقد أحسسنا المذلة أمام الله، فجعلنا نحس العزة بالله، لم نعد نرجو في تلك الساعة غيره، ولا نخاف غيره، ولا نتوجه إلا إليه، ولا نطلب إلا منه».

«ورجعنا بنفوس غير التي جئنا بها، ومرت الجمعة، ومرّ السبت والأحد والإثنين والسماء على حالها، زرقاء ما فيها مزنة سحاب، والمستهزئون يتكلمون، والشامتون لا يسكتون، فلما كان يوم الأربعاء بعد خمسة أيام من صلاة الاستسقاء قال الكريم: خذوا.. وكان غيث عام استمر إلى يوم الجمعة»[11].

دمشق

دعوة بظهر الغيب

ولعل خير ما نختم به مقالنا عن الشيخ الطنطاوي أن نورد قبساً من مناجاته لنفسه ومناجاته لربه، فهو يقول في واقعية مؤثرة ومكاشفة صادقة: «إني من ستين سنة، أعلم وأكتب وأخطب وأحدث!.. اللهم لا أدعي أن ذلك كله، كان خالصاً لوجهك، وليته كان، ولكني بشر أطلب ما يطلبه البشر من المال الحلال ويسرني المديح، وتستهويني متع الدنيا، فهل يضيع ذلك جهدي كله؟ هل أخرج فارغ اليدين لم أنل شيئاً من الثواب؟ إني لأمتحن نفسي أسائلها كل يوم، هل كانت الدنيا وحدها همي؟ لو عرض عليّ أضعاف ما آخذه الآن على مقالاتي وكتبي وأحاديثي، على أن أجعلها كلها كتباً ومقالات وأحاديث في الدعوة إلى الكفر.. هل كنت أرضى؟ فليست إذن كلها للدنيا، كما أنها ليست مبرأة من مطالب الدنيا.

قلت لكم: إني أفكر في الموت، وأعرف أني على عتباته، إنه يمكن أن أعيش عشرين سنة أخرى كما عاش بعض مشايخي، وكما يعيش اليوم ناس من معارفي، ولكن هل ينجيني ذلك من الموت؟ فما الذي أعددته للقاء ربي، اللهم إني ما أعددت إلا توحيداً خالصاً خالياً من الشرك، وإني ما عبدت غيرك، ولا وجهت شيئاً مما يعد عبادة إلى سواك، وإني أرجو مغفرتك، وأخشى عواقب ذنبي.. فاللهم ارحمني واغفر لي»[12].

ويقول في مناجاة أخرى لله يختمها بطلب الدعاء من القراء: «يا رب أيقظ قلوبنا، لتتوب فتغفر لنا، فإني امرؤ قسا قلبه، حتى لتمر به المواعظ فلا يتعظ، ويمر هو بالعبر فلا يعتبر، وقد صرت على أبواب القبر، قد جاوزت الثمانين، فيا ربي متى يستيقظ ضميري، وينتبه إيماني، فأعود إليك ولا مفر من العودة إليك؟».

«فيا أحبائي القراء، أسألكم الدعاء، فما لي عمل أُقبل به على الله إلا رجائي بكرمه، ثم بدعائكم لي - إن كنتم تحبونني - بظهر الغيب»[13].

اللهم ارحم شيخنا وأديبنا الطنطاوي كِفاءَ ما قدم للإسلام ولأمة الإسلام. ■

الهوامش:

١- ذكريات الشيخ علي الطنطاوي ٢/٢٠٦.
٢- السابق ٤/٣٠٣.
٣- السابق ٢/٢٨٩.
٤- السابق ٣/٣١٥.
٥- السابق ٨/٣٣٥.
٦- السابق ٨/١١٥.
٧- السابق ٨/٨١.
٨- السابق ٨/٣٩٧.
٩- السابق ٦/٣٨٤.
١٠- السابق ٨/٢٤٠.
١١- السابق ٦/٣٥.
١٢- السابق ٧/٢٩٣.
١٣- السابق ٨/٨٦.





مات وبقيت كلماته

بقلم: عبد العزيز بن صالح اللاحم
السعودية

كان الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله سراجاً لطالبي الأدب الإسلامي الرفيع. فكل كلمة سطرتها بنانه تجد فيها الإيمان الصادق والحكمة البليغة.. لا تجد في كلامه -رحمه الله - ملحاً أجاجاً، بل هو ألذ من الشهد، وأصفى من الماء الزلال وأعذب، سائغ طعمه لذة للقارئين. كيف لا، وقد امتلأ قلبه وقلمه بمعين صاف لا تجد فيه عوجاً ولا أمتاً.؟!

قرأت لأدباء كثيرين من المتقدمين والمتأخرين فلم أر أبلغ عبارة منه ومن ابن المقفع قبله. إن وعظ أبكاك، وإن مرح أضحكك،وإن خطب شجعك.

كان ينادي رحمه الله بملء فمه حتى بح حلقه: إلى الإسلام كما نزل على محمد.. إلى الفضيلة والطهر والعفاف.. إلى الأقصى بالحديد والنار لا بالخطب والأشعار.. إلى ينابيع الأمة الصافية.. إلى الصراط المستقيم.. إلى كل خير وبر.

إليك أخي القارىء شيئاً من كلماته التي ترى فيها الإيمان المحمدي والإشراق البياني والشجاعة في قول الحق:

* إننا لم نغلب في فلسطين إنما غلبت فينا خلائق الشقة بالأعداء والإصغاء لهم والاسترشاد برأيهم.. ما غلبنا اليهود بل الإنجليز والأمريكان، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة بل بالدس والكيد واستغلال رجال هم خائنون لنا. «هتاف المجد ٥٩».
* نحن في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد «هتاف المجد ٩١».
* إن قضية فلسطين لا تحل في أروقة هيئة الأمم ولا تحل بالخطب والأشعار، ولكن بالحديد والنار. «هتاف المجد ص ٩٢».
* لن تدوم للصهيونية دولة في فلسطين ما دام المسلمون في الأرض والله في السماء .«هتاف المجد ١٣٣».
* ليس على ظهر الأرض مجرم أشد لؤماً وأخس نفساً وأولى بالمهانة وأبعد عن الإنسانية وأحق بلعنة الله والناس من ولد يسيء إلى أمه أو يغضب أباه . «مقالات في كلمات ٤٠».
* إن الأمة التي تشتري أكثر مما تبيع، وتستورد أكثر مما تصدر، ولا يكون لها برنامج اقتصادي ثابت يكون مصيرها الإفلاس. «مقالات في كلمات ص ٥١».
* احذفوا من تاريخ العرب كل شيء إسلامي ،ثم انظروا ماذا يبقى للعرب؟ «مقالات في كلمات ص ١٨١».
* لماذا نقيم القيامة على من يسرق عشرة قروش ونبعث وراءه الشرطة ونترك سارق الأعراض والعقائد؟! «صور وخواطر ص ١٧».
* ما الذي يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن؟! «في سبيل الإصلاح ص ١٣٥».
* رب ثوب في نظرك قديم وعتيق بال لو أعطيته لغيرك لرآه ثوب العيد. «مع الناس ص ٨».
* نحن لا ينقصنا العلم بل ينقصنا الشروع في العمل. «مع الناس ص ٤٧».
* أليس التسويف والتأجيل مرضنا جميعاً؟ بل على التحقيق رأس أمراضنا الاجتماعية. «مع الناس ص ٤٧».
* إن الذي لا يقفز إلى الفريسة تفلت منه، ومن لا يغتنم الفرصة في وقتها لا يجدها، ومن لا يضرب الحديد حامياً لا يستطيع أن يضربه إذا برد، والذي يؤجل ما يجب عليه لا يقدر أن يؤديه كاملاً. «مع الناس ص ٥٠».
* لا يصح أن يبنى الزواج على الحب وحده إلا إن صح أن تبنى العمارة الضخمة على أساس من الملح في مجرى الماء. إنما يبنى على التوافق في التفكير والسلوك والوضع الاجتماعي والحالة المادية، وبعد هذا كله تأتي العاطفة. «مع الناس ص ٥٤».
* هل يمكن أن تكون الحياة كلها أحبكِ وأحبكَ كما يتوهم الفتيان الصغار؟ ولو أن قيساً تزوج ليلى واقتصر على حديث الحب لوقع الخلاف بينهما من أول الشهر الثاني، ولسمع الجيران خصامهما في الشهر الثالث، ولأقيمت دعوى التفريق بينهما في المحكمة الشرعية قبل نهاية السنة. «مع الناس ص ١٨٦».
* من الناس من يكون خيره للغرباء وشره للأهل! «مع الناس ص ١٨٨».
* المرض نعمة وليس بنقمة، وأنه لازم للإنسان لا يدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض. «من حديث النفس ص ١٦٦».
* هذا شيء من عطاء ذلك الهزبر الثر، الأديب المجاهد، صاحب القلم الطاهر، أمير البيان، وعميد الأدب العربي، الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله وأعلى درجته. ■

علي الطنطاوي في صحافة مصر

حاولت أن أتحدث عن علي الطنطاوي في فصل واحد، فوجدت ذكرياته في أجزائها الثمانية المستفيضة تغمرني بفيض من المعلومات لا يستقل به فصل، بل لا يكفيه كتاب برأسه، ففكرت أن أختار شريحة واحدة يدور حولها الحديث، هذه الشريحة هي آثار الطنطاوي في مصر، وقد تعمدت ذلك لأنه أصدر كتاباً خاصاً بذكرياته عن بغداد، وكتاباً بذكرياته عن دمشق، وكتاباً خاصاً بأندونيسيا، ولم يفرد كتاباً خاصاً بمصر، وأذكر أني كتبت إلى الأستاذ نادر حتاحت، صاحب دار المنارة التي تنشر مؤلفات الكاتب الكبير أرجو منه أن يجمع ما يخص مصر من آثار الكاتب الكبير في مجلد خاص، وزدت فوضعت له فهرساً يجمع هذه الآثار محدداً أماكنها، ولكن ظروف النشر لم تهيئ لهذا العمل الجاد أن يظهر إلى حيز الوجود، وها أنذا أقوم ببعض ما يذكر بهذه الآثار.

لقد تحدث الكاتب الكبير عن رحلته إلى مصر بدعوة من خاله الكاتب الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٩٢٨م، فوصف القاهرة في ذلك الحين وصفاً يحسن أن يكون مرجعاً لمن يتحدث عن هذه الحقبة، وقال: إنه أقام فترتين متواليتين بها، ولكنه استفاد فوائد جمة في مصر فقد عرف أصدقاء خاله من كبار الكتاب والمفكرين، وانتقل أسلوبه من طور إلى طور، إذ انتهى عهد التعبير الحماسي المحشو بالمبالغات، إلى عهد الرصانة الدقيقة، وقد فتحت له مجلة الزهراء صفحاتها، وهي من أكبر المجلات الأدبية في عصرها، فكتب بعض المقالات الخاصة بتعريف الكتب الصادرة، وبعض التراجم العلمية لعلماء مرموقين، وكان يوقع ذلك بإمضاء (محمد علي الطنطاوي)، ثم أتيح له أن يلتحق بدار العلوم طالباً، وشهد دروس العلامة الشيخ أحمد الاسكندري بالدار، وقال: إنه اقتفى أثره فيما بعد حين صار مدرساً للأدب. ولكن أعظم حادث أدبي أثر في حياة الأستاذ هو ظهور مجلة الرسالة لأنها أشرقت على العالم العربي إشراقاً ساطع البريق، وضمت عظماء الفكر الأدبي في مصر، وكانت مجلة السياسة الأسبوعية قد أدت دورها ومالت للغروب، فظهرت الرسالة لتأخذ مكانها، ولكن بمخالفتها في اتجاهها التغريبي، ونهجها الفرعوني، مخالفة ظهرت دلائلها في مقدمات الزيات الافتتاحية، وفي مقالات الصفوة من الكتاب وعلى رأسهم الزيات والرافعي وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تحول الدكتور



بقلم: د. محمد رجب البيومي
مصر



محمد حسين هيكل عن اتجاه السياسة الأسبوعية إلى اتجاه الرسالة بعد ظهورها، وذكر أسباب هذا التحول في مقدمة كتابه الرائع عن منزل الوحي.

نظر الأديب الشاب علي الطنطاوي إلى مشرب مجلة الرسالة الناهضة فوجده يتفق مع هواه الوجداني، وروحه الإسلامية، وشاء لنفسه أن يكون عضواً في أسرة الرسالة، لأن مواهبة الأصيلة ترشحه لذلك عن جدارة، فقد درس التيارات الثقافية في العصر الحديث شرقاً وغرباً، كما قتل كتب التراث بحثاً واستيعاباً في كل فروعها المختلفة تشريعاً وأدباً وتاريخاً، وكتب التراث كلمة لا يقف على مدلولها إلا من قرأ المكتبة العربية قدر طاقته، وقد قرأ الطنطاوي كثيراً من أسفار هذه المكتبة، وتحدث عن روائعها في مقالات تشهد له بالسبق والتبريز، وهو في مقتبل الشباب، وأذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، تحدث عنه في هذه الحقبة في مقال جيد جعله تعريفاً لكتاب «أبو بكر الصديق» فأجاد الوصف الدقيق حين قال عن الأستاذ علي الطنطاوي[1]:

«الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي كما يحب أن يدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة، وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون في سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم وعقلية تنكر الجديد، وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قراء الرسالة فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ، ينقلها عن فكر خصيب، واطلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة».

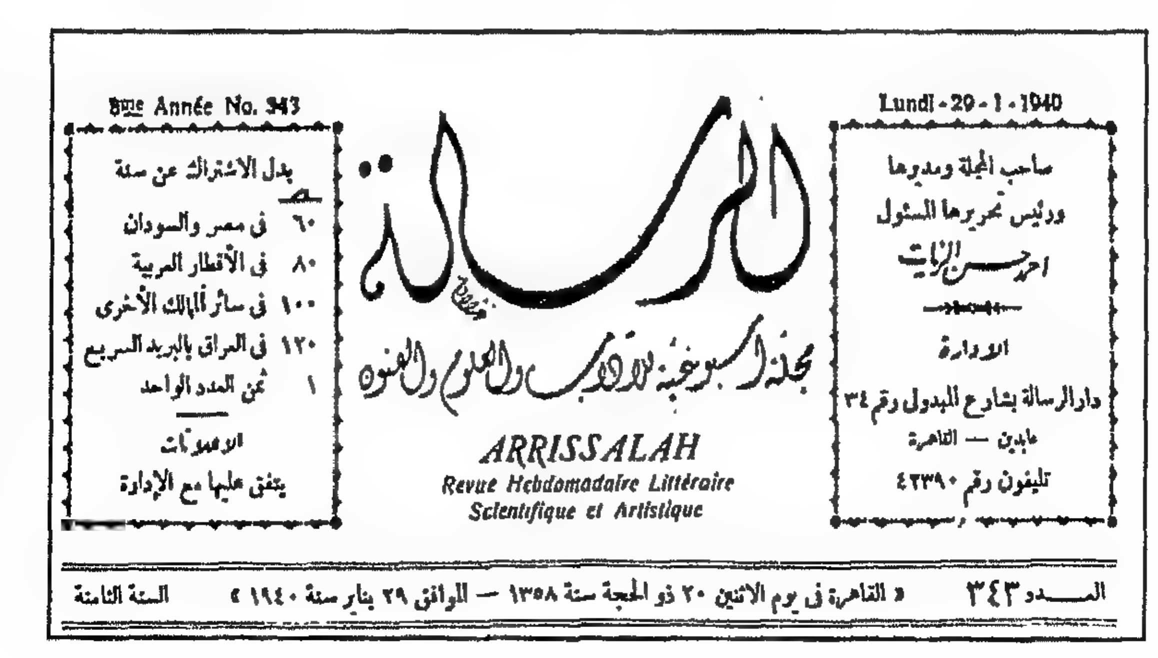
«وهذه السطور من جوامع الكلم حقاً، لأنها تضع فهرس كتاب يتحدث عن الطنطاوي إذ تجعل فصول الكتاب واضحة لمن يريد أن يكتب الكتاب، إذ أبرزت عناوين هذه الفصول في قوة وإبداع».

أقول بعد هذا الاستطراد: إن الأستاذ الطنطاوي عرف مشرب الرسالة من قراءة ما ظهر من أعدادها ولكنه أراد أن يوجهها وجهة إصلاحية، حيث تعنى بالهدف الأصيل للكاتب العربي الملتزم، فبدأ مقالاته في الرسالة بسؤال أدبي وجهه إلى رئيس التحرير يهتف به قائلاً[2]: أخبرني يا سيدي هل تنشر الآثار التي تنشرها، لأنها وافقت خطة معروفة، اختطتها لنفسها الرسالة في الأدب، أم أنت تنشر كل جيد يبعث إليك، لا تبالي منه إلا بشرف القول، وحسن الأداء، والبلاغة في التعبير. إن مذاهب الأدب كثيرة، ولكن القراء بين اثنين منها، مذهب الأدب للفن، ومذهب الأدب للحياة، أفنعمل وغايتنا الجمال الفني وحده؟ وسواء لدينا أكان هذا الجمال في مقطوعة ماجنة، أم قصة مفسدة، أم مقالة ملحدة؟ أم نعمل وغايتنا تسخير الأدب للقضية الكبرى، واتخاذه أداة لتحقيقها، ووسيلة من وسائل الإصلاح الاجتماعي والسياسي والأخلاقي؟».

معارك الطنطاوي في مجلة الرسالة:

١ – مع الزيات وأحمد أمين

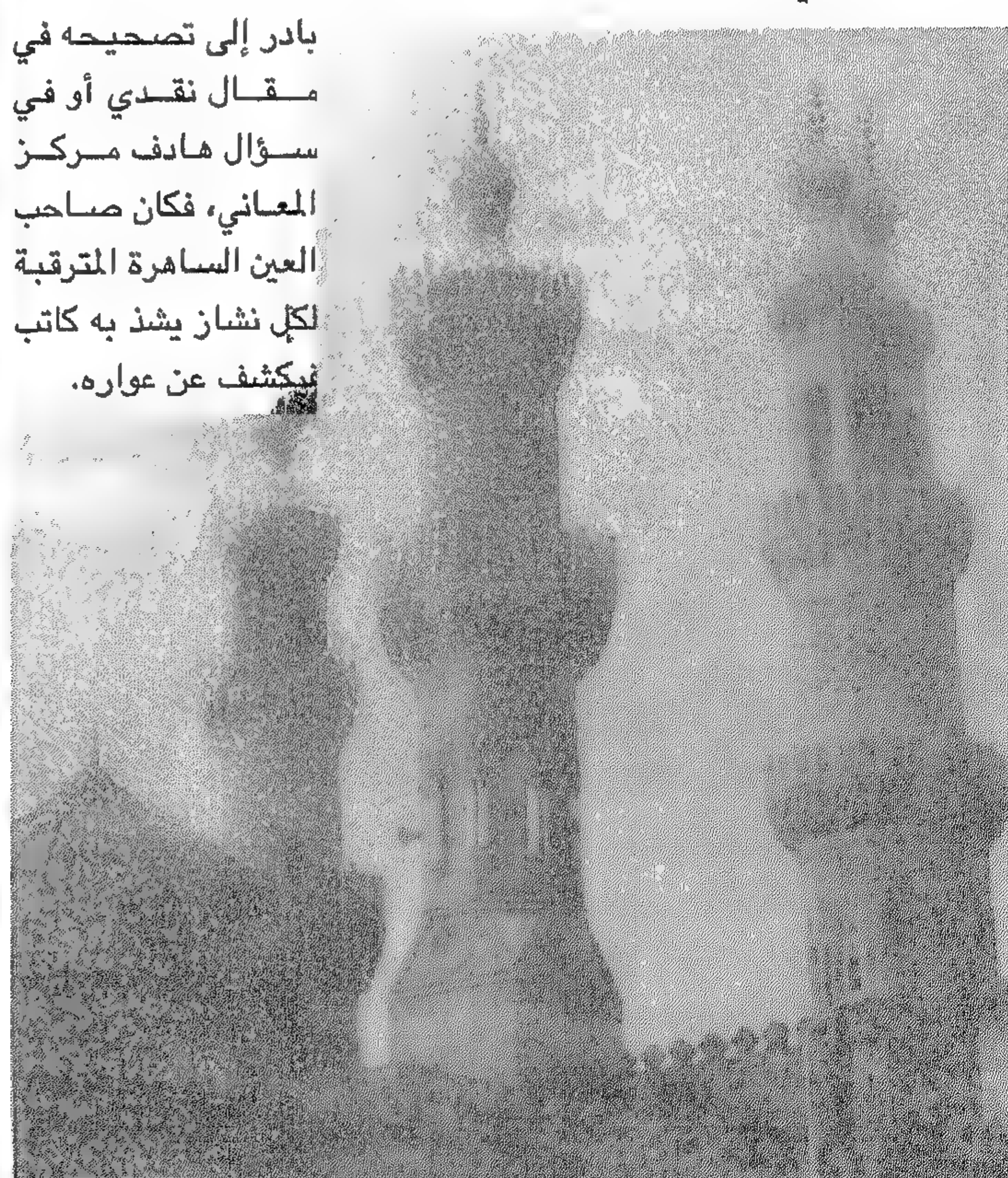
والسؤال بذاته توجيه أكثر منه استفادة، لأن الطنطاوي ضن بالرسالة أن تنشر قصص الخلعاء من منحرفي الغرب مترجمة، وقصائد المرورين من متسكعي الشباب ماجنة غير ملتزمة، فربأ بالرسالة أن تكون كغيرها من مجلات الإغراء الخادع للشباب، وهو يعرف مكانة الزيات وحواريته، ولكنه أراد أن يأخذ عهداً وثيقاً لا تحلل منه ولا انفصام، وقد سارع الأستاذ الزيات بالإجابة الموجزة كعهده دائماً في جوامع كلمه فقال في حاشية المقال: [3] أما خطة الرسالة وغايتها، فقد رسمناها في العدد الأول، وما نشر فيها وما سينشر يسير مع هذه الخطة الملازمة، وأن الأدب هو التعبير الجميل عن العواطف والأفكار، وهذا التعبير يختلف باختلاف البيئة والتربية والطبيعة»، ثم ذكر الزيات أن الأستاذ أحمد أمين سيجيب مفصلاً القول في العدد القادم. والحق أن الأستاذ أحمد أمين قد كفى وشفى وأمتع، ولم يتئد اتئاد الزيات بل عجل يقول: «لك الحق كل الحق يا أخي أن تصرخ ونصرخ معك في وجه زعماء الأدب العربي، طالبين أن يلتفتوا إلى الأدب القومي، فالعالم العربي كله يجيش صوره بآلام وآمال، والأدب العربي يجب أن يعبر عن هذه الآلام والآمال، لك الحق أن تطلب من الرسالة.. أن تدعو الكتاب والشعراء إلى وجوه النقص كي يكملوها حتى إذا احتاج الشباب إلى الأناشيد وجدها، ولك أن تطلب من كُتاب الروايات أن يبحثوا



عن نواحي الضعف في الحياة الاجتماعية فيجلوها ويعالجوها.. ولكن ليس لك الحق في أن تطلب أن يكون الأدب كله للحياة لأن القطعة متى استوفت عناصرها الأدبية كانت أدباً، ولكن يجب أن يكون للمصلحين سلطة فوق سلطة الأدباء، فإذا رأى المصلحون أن ضرباً من الأدب يحل الأخلاق، ويفك عرى المجتمع حاربوه بكل قوة أو إذا رأوا أن ضرباً من الأدب في الأمة ضعيف يجب أن يقوى طالبوا بالإكثار منه بشتى الوسائل».

بهذه المقالة الرنانة التي نبهت الأستاذين الزيات وأحمد أمين إلى سرعة الرد العاجل دخل الأستاذ الطنطاوي مجلة الرسالة دخول الفاتح المنتصر، إذ هيأ الأذهان إلى ما سيقوله على صفحات المجلة، متسقا مع خطته التي دونها في سؤاله، ولكن الأستاذ الطنطاوي كان يرمز إلى معنى أكبر من المعنى الذي أشار إليه، هذا المعنى هو أن يجعل الرسالة مجلة إسلامية قبل كل شيء، وهو معنى يرحب به الزيات، لأنه في صميم تفكيره عالم دين تخرج أول ما تخرج في الأزهر الشريف، وإن كان يعلم أن البحوث لابد أن تتنوع في مجلة يقرؤها كل إنسان مهما كان اتجاهه، لذلك صمم الأستاذ الطنطاوي كما بدا من آثاره الكثيرة على صفحات الرسالة أن يكون للإسلام المجال الأول من هذه الآثار، وهو ما رحب به الزيات كل الترحيب.

لقد تتبع الأستاذ الطنطاوي مقالات الرسالة لأكثر كتابها في الشرق والغرب، فإذا وجد انحرافاً أو ما يشبه الانحراف بادر إلى تصحيحه في مقال نقدي أو في سؤال هادف مركز المعاني، فكان صاحب العين الساهرة المترقبة لكل نشاز يشذ به كاتب فيكشف عن عواره.



٢- مع كرم ملحم :

أذكر أن الكاتب اللبناني الفاضل الأستاذ كرم ملحم كرم، كتب مقالاً يتحدث فيه عن آثار هوجو ولامرتين و فولتير وروسو، فقال فيما قال: «والدين نفسه يقوم على الروايات، فما هو كتاب التوراة، وما هو الإنجيل، وما هو القران؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب؟». وقد قرأها الطنطاوي فذكر [٤] أنها كلمة ندت من قلمه صغيرة، ولكن فيها طبيعة كطبيعة الديناميت لا يمس شيئاً إلا جعله يباباً، فإذا كان الكاتب يعني دين التوراة، والإنجيل فلا ننازعه، ولا يكون لنا أن ننازعه فصاحب الدار أدرى بما فيها، وإذا كان يعني القرآن كأنه إحدى هذه الروايات فهذا ما أسأله عنه؟ وقد كتب توقيعه مشيراً إلى أنه «عضو جمعية الهداية الإسلامية بدمشق»، وهو توقيع يكتبه الطنطاوي لأول مرة ليدل على معنى يجب أن يفهمه المنقود. والحقيقة أن الأستاذ الطنطاوي قد احتاط لدينه أمام القارئ المتعجل، أما القارئ الدقيق فيعلم أن روايات القرآن شيء، وروايات مشاهير الغرب شيء آخر. وقد سارع الأستاذ كرم ملحم كرم بالرد على سؤال الأستاذ الطنطاوي فذكر[٥] أنه يقصد الروايات الصحيحة ثابتة الحقائق، وهكذا روايات الكتب المقدسة وقال ما نصه: «أما أن نكون رمينا إلى الحط من منزلة الكتب المقدسة فذلك ما لا نفكر فيه، ولا يحق لنا أن نفكر فيه، فنحن نحترم هذه الكتب، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها، وتؤمن كل الإيمان بآياتها وهي تطبع العقول على الخير، وتثقف النفوس، وتقودها إلى الطريق السوي، ولولا الدين لعم الإنسانية البلاء، وتفاقمت الشرور، وتعاظمت الويلات، وانغمس الناس في الرذيلة، وتاهوا كالأنعام..»

٣ - معركة الفقه الروماني:

هذا التيقظ الحذر قد كان ديدن الأستاذ الطنطاوي في جدل كثير ثار على صفحات الرسالة، وانتصر فيه الأستاذ للوجهة التي يرتضيها، فقد دارت معركة حول الفقه الروماني وصلته بالفقه الإسلامي، تحدث فيها الأساتذة عبد القادر المغربي، وصالح بن علي السنغافوري، ومحمد محسن البرازي، وأمين الخولي وعلي الطنطاوي، وأدلى كل كاتب بوجهة نظره، وكان من رأي الطنطاوي أنه لا صلة بعيدة أو قريبة للفقه الإسلامي بالفقه الروماني على النحو الذي ينحو إليه من قال بوجود هذه الصلة، واندفع الأستاذ محمد محسن البرازي إلى لوم [٦] من ينفون هذه الصلة، ويصفهم بقلة المعرفة، وقال عن الطنطاوي: إنه لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب في معهد الحقوق بدمشق، ولم يتأت له النظر في تاريخ الحقوق، ولم يقيض له بعد أن يعرف ما ظهر في العالم حول هذه البحوث، وختم حديثه بقوله: «أولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، وكره للثقافة الغربية

ولأوربا، لأن الحقيقة فوق الهوى» وقد قرأ الأستاذ الطنطاوي مقال الأستاذ البرازي، ورد عليه بمقال قال في خاتمته:[٧] «ونحن نكرر وصية الأستاذ الشاب لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، ونزيد (أو تعصب عليهما) وكره لأوربا والثقافة الغربية، ونزيد (أو قوة في عشقهما) فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق..

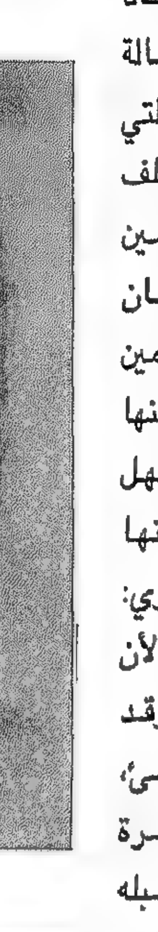
٤ – مع زكي مبارك:

وكان الدكتور زكي مبارك ذا صيال واقتحام في مجلة الرسالة، بحيث صار في حقبة من الحقب فارس النقد الصاخب على صفحاتها، وقد اشتط في نقد الأستاذ أحمد أمين اشتطاطاً جاوز النقد إلى غيره مما ينكره المنصفون، وكان لا يمنع قلمه من الاستطراد إلى أمور تحتاج إلى تدقيق وفحص، والأستاذ الطنطاوي لا يلتفت إلى نقده فيما جاء عن الأدب، لأن القول فيه يطول دون جدوى، ولكنه أخذ بمخنقه حين وجه إليه هذا السؤال[٨]: إنك يا دكتور تقول: كل ما تقرؤونه في الكتب التاريخية والدينية من وصف العرب في الجاهلية بالحمق والغفلة والطيش والخبال، كل أولئك الصفات الذميمة وضعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة، وكان من حق رجال الدين أن يضعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاؤون لأنهم كانوا يرونها زيغاً في زيغ».

وهذا كلام خطير رد عليه الطنطاوي في نقاط يمكن تلخيصها، في أن التاريخ علم يتحدث عن أخبار الماضين، فإذا قال التاريخ ذلك راو عن راو، وكتابٌ عن كتابٍ فكيف نحكم عليه بالوضع دون دليل، وردُّ الدكتور للكتب الدينية، وهي دواوين الحديث، ومجموعات التفسير، وتصنيفات الأئمة، وقد أصبحت حجة للمسلمين فيها يأخذون منه شريعتهم، يحتاج إلى دليل علمي لم يأت به الدكتور، ولا يستطيع، فكيف يقول ذلك دون برهان؟! وقد فات الأستاذ الطنطاوي أن يذكر أن القرآن الكريم نفسه قد وصف الجاهلية بالسفه وطيش الأحلام فكيف يأتي الوضع من رجال التفسير والحديث وأئمة المسلمين؟! ثم سأل الأستاذ الطنطاوي بعد ذلك: ما الدليل على أن الرواة اختلقوا الأخبار لتحقير الوثنية، أو أنهم منعوا رواية أنبائها؟ وهل في الإسلام طبقة تعرف برجال الدين؟! إن علماء الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين هم مؤلفو الكتب الإسلامية، فأي أولئك قد قاموا بالوضع؟ وما معنى قول الدكتور: إن ما جاء في الكتب التاريخية والدينية يدل على أن الوضع بها لتحقير الوثنية؟ والمعروف الثابت أن الوثنية هدمت أصنامها، وانتهت قبل وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فلم يكون الوضع بعد انتهائها الأبدي؟ والدكتور زكي الذي كان يتصدى لكل معارض، قد هرب من الإجابة هروباً مضحكاً إذ [٩] زعم أن الأسئلة التي ساقها الأستاذ الطنطاوي، قد تعرض القراء لفتنة شديدة إن استباح الإجابة بلا توفق ولا رعاية للمأثور من الأفكار الدينية. وهو تهرب مضحك لأن الدكتور مولع بمخالفة الرأي العام، بل يعد ذلك مدعاة تحرر، فلمَ لمْ يصدع بالمنطق المحبذ لرأيه إن كان يملك الدليل؟.

٥– معركة القصص الفني في القرآن:

ومن أظهر مواقف الأستاذ الطنطاوي النقدية موقفه من رسالة «القصص الفني في القرآن» التي أعدها الباحث محمد أحمد خلف الله بإشراف الأستاذ أمين الخولي، فقد رفض الفاحصان الكبيران الأستاذان أحمد أمين وأحمد الشايب الرسالة، وقال عنها أحمد أمين: إنها ذات جهل صريح. وقال أحمد الشايب: إنها ذات كفر صريح. وقال الطنطاوي: إنها ذات جهل وكفر معاً، لأن الكفر لا يأتي إلا من الجهل، وقد ترك الطنطاوي الطالب الناشئ، لأنه مدفوع إلى تلمس الشهرة الزائفة كما اندفع أناس من قبله طعنوا في كتاب الله، فكان لهم بذلك ذكر طائر بين الناس، وأعجب العجب في بلاد الإسلام أن المخطئ في غيرها يخزى من فعله، ويسارع إلى تصحيح الخطأ، أما المخطئ في بلادنا – المخطئ في أمور دينه – فيكون خطؤه مصدر مباهاة وزهو، وكأنه بإلحاده جاء بالنصر المبين. لقد ترك الطنطاوي الطالب المتسرع، واتجه إلى مناقشة الأستاذ المشرف، لأنه أعلن أنه متضامن مع صاحب الرسالة وأنه على حق، وأنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر. فقال الأستاذ الطنطاوي ما قال في نقد الأستاذ المشرف، وإخاله كان عاطفياً في رده الأول [١٠] لأنه لم يذكر كلام الطالب لينقضه بل حط بثقله على الأستاذ المشرف ليتهكم به، وقد كان الأستاذ الطنطاوي حينئذ مشرفاً على تحرير مجلة الرسالة أثناء إقامته في مصر، في بعثة قضائية، لأن الأستاذ الزيات كان خارج القاهرة،


د. محمد حسين هيكل

د. أحمد حسن الزيات

في دور النقاهة من مرض ألم به، ففتح الأستاذ الطنطاوي مجال النقاش العلمي على صفحات الرسالة، وقام الأستاذ عبد الفتاح بدوي الأستاذ بكلية اللغة العربية بكتابة ثلاث مقالات ذات نقد هادف، ولكنها لم تبرأ مما وقع فيه الأستاذ الطنطاوي حين لجأ معاً إلى تحقير الطالب وتسفيهه، وهذا مما ينقص مقام النقد، لأن القارئ الواعي يتطلب الحقائق مجردة عن التسفيه والازدراء، وقد قال الله عز وجل في مناقشة أهل الكتاب ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ ثم أعاد الأستاذ الطنطاوي الكرة مناقشاً الطالب وتاركاً أستاذه، فكتب مقالاً تحت عنوان [11] (إلى خلف الله العامري) تحدث فيه عن معنى القصة أدباً وعلماً، وعن موقف القرآن من أخبار الماضين، وعن التمحك في أقوال الأصوليين دون فهم لما عنوه وبحثوه، وعن التمحك بالأستاذ الإمام حيث فهم من كلامه ما لا يفهمه ذو الذهن البصير، وكانت معركة على صفحات الرسالة، أدارها رئيس التحرير المؤقت الأستاذ علي الطنطاوي، وقد آتت هذه المعركة جدواها الصحيحة النافعة لأن الباحث المتعجل حين طبع الرسالة في كتاب مستقل حذف كثيراً مما كان موضع الاعتراض، وعمل على ظهورها في وضع أقل اعتسافاً! وأقول أقل اعتسافاً لأنها حملت كثيراً من الأخطاء التي قام بتصحيحها نفر من الفضلاء على صفحات الرسالة وغيرها، فلم يعبأ بهذا التصحيح، وقد كان فيما نشره الأساتذة أحمد أمين وأحمد الشايب وعبدالفتاح بدوي ومحمد الخضر حسين ومحمود شلتوت من تصحيح واضح لأخطاء الباحث ما يمنعه من معاودة الخطأ المنقود، لو كان قد استمع إلى منطق العقل، ولكنه آثر العناد.



أحمد أمين

تأثره بالرافعي ودفاعه عنه:

كان الأستاذ مصطفى صادق الرافعي حامل راية الإسلام في مجلة الرسالة. كانت مقالته الإسلامية تصلصل في قلوب القراء صلصلة مدوية فلا ينقطع أثرها إلا حين تتلوها مقالة أخرى على نمطها البياني الرائع، وتحليقها الإيماني الملهم، وكأن الله قدر للرافعي المجاهد ألا يطول عهده بالرسالة، فجعل له خليفة يسير على نهجه، ويترسم خطاه، لا أقول إنه يسير على نهجه البياني، فقد كان الرافعي في أسلوبه أمة وحده لم يبزه سابق، ولم يلحقه لاحق، ولكن نهجه الروحي في الاعتصام بمبادئ الإسلام، والهيام بالتاريخ الممتد لأبطاله الكرام، والوقوف على أسراره الحكيمة تشريعاً وتأصيلاً واستنباطاً، هذا النهج قد احتذاه نفر من كتاب الرسالة منهم عبد المنعم خلاف ومحمود محمد شاكر ومحمد سعيد العريان، ولكن الذي فاقهم جميعاً علي الطنطاوي، إذ كانت مبادئ الرافعي الروحية، وتحليقه السماوي في أسمى معارج الفكر، وصياله المتحمس على المناوئين لاتجاهه، كان ذلك كله مذهب علي الطنطاوي، وقد اعترف الأستاذ أنه تأثر بأسلوب مصطفى لطفي المنفلوطي ثم مترجمات الأستاذ الزيات الروائية، فكان لهما أبلغ الأثر في توجيهه، وكأنه نظر إلى سهولة أسلوبه، ووضوح بيانه فلم يشأ أن يقول إنه تأثر بالرافعي صاحب الغوص البعيد على المعاني، والصور البيانية ذات الخيال المجنح الذي يطربك من أفق إلى أفق، فيعز عليك أن تلاحقه في مراقيه الصاعدة، ولكني أرى أثر الرافعي واضحاً في اتجاه الطنطاوي، وإلا فكل قصصه التاريخية التي أبدع فيها غاية الإبداع كانت نواتها من وحي الرافعي. لم يغرب الطنطاوي إغراب الرافعي، ولم يغص مغاصه، ولكنه وجهه إلى الاقتباس من نبع التاريخ الإسلامي الفياض بما ضرب من مثال، وما اختار من أحداث، فقصص اليمامتين وفلسفة مهر، وأمراء للبيع، والأسد، وزوجة إمام، وقبح جميل، وجميع ما ظهر في وحي القلم نقلاً عن الرسالة كلها كانت ذات صدى بعيد التجاوب في نفس الأستاذ علي الطنطاوي.

وأذكر أنه كتب خطاباً للرافعي على صفحات الرسالة بعد أن قرأ قصة زواج فملكت عليه مشاعره، وغلبه إحساسه الدافق، فكتب يقول للرافعي من مقال ممتاز[12]:

«.. أقسم لقد سمعت هذه القصة، وحفظتها، وحدثت بها، وانحدرت بين أذني ولساني ورأسي عشرين مرة، ثم لكأني لم أسمع بها إلا الآن، وكأني كنت فيها في ليل مظلم، فطلعت علي مقالتك شمساً ساطعة، عرفت معها كيف تكون حصيات الليل لآلئ النهار، فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد، وما بالك بمن لا يعرف في الدنيا أدباً؟! لقد عابك بعضهم بالغموض، ورموك بالإبهام، فلما ظهر أن في الغرب شاعراً فحلاً مذهبه الغموض يتخذه ويدعو له، أصبح الغموض فناً من فنون الأدب، وعندي أن مئة قصة من مثل هذه القصة تنشئ الأدب إنشاء جديداً، وتخرج من الشيخ الهرِم الفاني الذي ينتظر الموت شاباً قوياً مهيباً».

هذا الإعجاب البليغ البالغ قد دفع الطنطاوي إلى محاكاة الرافعي في بعض ما كتب، ولا أدري أين قرأت له، أنه احتذى الرافعي حين كتب قصة (عالم)(*) وقد جعل إهداءها إلى روح الأستاذ الرافعي، وهي تدور حول ترفع عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي أمام إبراهيم باشا الفاتح المتكبر، فهذه المقابلة

اليسيرة بين الباشا والعالم جعلت الطنطاوي يكتب فصلاً بديعاً نحا فيه نحو أستاذه، وجاءه فيض من الخواطر الروحانية كبعض ما كان يتدفق على لسان الرافعي من شاهق السماوات! وكأنني بالطنطاوي وقد أحس أن قراء الرافعي نمط خاص من الناس، وأن بيانه لا يبلغ مكان التأثير في نفوس العامة، فآثر أن يكون «منفلوطياً» في قصصه الأخرى، والذين في قلوبهم مرض يرون في أسلوب المنفلوطي آية سذاجة تبلغ السطحية، وهم كاذبون عن عمد، لأن البيان المشرق لم يعرف له رائداً في هذا العصر مثل صاحب النظرات والعبرات، أجل، لقد آثر الطنطاوي أن يذهب في غير اتجاه الرافعي حين كتب قصصه التاريخية الرائعة ولكنه استلهم الفكرة في الاتجاه من صاحب وحي القلم، وكنت آخذ على الطنطاوي أنه يكتب القصة في خمس عشرة صفحة ممتازة حقاً بتصويرها وتعبيرها ومغزاها، ثم يقول في الهامش (أصل هذه القصة سطران في كتاب كذا) فلم هذا التعليق؟ إنه يصدم القارئ بعد أن يعيش في جو القصة الرهيب، والناقد الأدبي يعرف سلفاً أن القصة مستوحاة من سطر أو سطرين حينئذ، فلماذا نصدم القارئ العادي بهذا التعليق؟

أما مظهر حب الطنطاوي للرافعي فقد ظهر في اشتراكه في الحومة المشتعلة التي أوقدها الأستاذ سيد قطب على أدب الرافعي، وقد كان الكاتب الشهيد - رحمه الله - في مقتبل شبابه حينئذ وفي أسلوبه اندفاع سريع المهاجمة والتطرف فيها، وقد قسا على الرافعي في مقال جرده فيه لا من الشعرية، فأمرها سهل، ولكن من الإنسانية، وعد قول الرافعي.

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

نمطاً من الوعظ المنبري، وأنا أحب سيد قطب حباً لا مثيل له، ولكني لا أعذره في هذا الشطط الجامح الذي يجعل الرافعي بعيداً عن الإنسانية، وما عرفت الإنسانية في أبدع مجاليها، كما عرفت في رسائل الأحزان وأوراق الورد والمساكين ووحي القلم، وهنا تجرد الطنطاوي للدفاع عن أستاذه في عدة مقالات نارية أخذت مكانها جوار مقالات أنصار الرافعي من أمثال محمود محمد شاكر ومحمد أحمد الغمراوي وإسماعيل مظهر ومحمد سعيد العريان! وأذكر أن الأستاذ الطنطاوي وجه للأستاذ الزيات خطاباً معاتباً يسأله لماذا شغل القراء بمقالات سيد قطب؟ وباطلها صريح، فكان جواب الزيات قوله[13] «الرسالة تجيب صديقها الأستاذ الطنطاوي بأن من مبادئها أن تكون صورة صادقة لأدب العصر، فلا تسجل مذهباً دون مذهب، ولا تتوخى أسلوباً دون أسلوب، ومعارك النقد ظاهرة مألوفة في عصور الأدب، عفت الرسالة عنها حيناً، ثم رأت من الخير أن تسجل هذه المعركة، لأن أدبي الرافعي والعقاد يمثلان وجهتي الثقافة في آفاق العروبة، فالقول فيهما إذا حسن، يعين المتأدب على الوجهة التي يوليها، وينعش الأدب من الخمود الذي هو فيه، ومن حسن القول أن يتكلم الناظر في الأدب بلسان الأدب، وأن يعتقد أن أدب الرجل شيء غير شخصه، فلا ينبغي أن يدخل الناقد في حسابه الحياة والموت، ولا الصداقة والعداوة، أما رأي الرسالة في الكاتبين العظيمين فقد سجلته في افتتاحياتها، فهي لا تتحمل من تبعات النشر غير ذلك الذي رأت».

تنوع مقالاته:

هذا مثل يشير إلى نقد الطنطاوي الثائر، أما الطنطاوي الهادئ الرزين في نقاشه فقد تجلى هدوؤه الحليم في مقالات كثيرة، توخت اللباب دون سواه، ومن أظهرها مناقشته للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف فيما كتبه في مؤلفه الذائع (أومن بالإنسان) حيث ذهب كلا الصديقين المتناظرين مذهب المخالفة، والحق أن القضية من الصعوبة بحيث لا يظهر فيها حكم حاسم، لأن الإنسان من ناحية يعلو حتى يحلق في الأوج، ومن ناحية أخرى يسفل حتى ينام في الحضيض، والحكم إذن على المجموع العام من السمات الشخصية للإنسان، لا على النادر القليل.


الرافعي

ولا يمكن أن نحصر الفيض الهتون الذي تدفق من يراع الأستاذ الطنطاوي على صفحات الرسالة والثقافة في مدى عشرين عاماً، ولكن الطابع الأدبي كان يحاور الطابع الإسلامي في اختيار موضوعاته، فحديثه عن وادي العقيق والأبيوردي، ووظيفة النقد يجاور حديثه عن مشكلات الشباب المسلم، وقضية الزواج في المجتمع الراهن، وداء الشباب المعاصر.

كاتب مسرحي:

ومن الملاحظ أن الطنطاوي أول من كتب مسرحية إسلامية مقتبسة من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يكتب توفيق الحكيم مسرحية محمد، فكأنه وضع الخط الذي يجب أن يتبع في كتابة مسرحية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حيث التزم بكل وقائع السيرة في الفصل المسرحي الذي دبجه تحت عنوان «أبو جهل» التزم بكل وقائع السيرة دون جموح إلى الخيال، وهذا ما التزمه الأستاذ توفيق الحكيم ونص عليه في مقدمة كتابه، وهو التزام عسير لا يسير، لأن تنميق الحوادث الواقعية في أسلوب حواري مطرد، دون أن يتسع المجال لخيال يملأ الفجوات أو يرسم

الملامح مما يشق على غير الأديب الملتزم، ولا أدري لماذا لم يواصل الأستاذ تأليف فصول مسرحية مماثلة، لعله نظر فوجد توفيق الحكيم قد استلهم أحداث السيرة بما كان في نفسه فانتقل إلى القصة وغادر المسرحية لغير عود.


ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

الفتح

مبادئ الفتح

الفتح لأهل القبلة جميعاً

العالم الإسلامي وطن واحد

صاحب الفتح ومحرره

محب الدين الخطيب

في دار المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة

الاشتراك السنوي

٣٠ قرشاً في مصر

٥٠ قرشاً في الخارج

الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة

صحيفة إسلامية أسبوعية . سنة الفتح ٥٠ عدداً

عدد ٥٠٥ (العام الحادي عشر) شارع اللبودية (الجماميز) بالقاهرة * تليفون ٥٥٣٦٤ ٢٠ ربيع الثاني ١٣٥٥

كتاب معاصر عن حقائق الإسلام:

أما الصوت الذي جلجل في الأسماع حقاً فهو صوت الأستاذ الطنطاوي حين دعا إلى تأليف كتاب معاصر يشرح حقائق الإسلام، دعا إلى ذلك في أواخر الثلاثينيات حين كانت المكتبة الإسلامية محتاجة إلى كتاب معاصر يقرؤه الشاب المنغمس في روايات الجنس، فيتطلع إلى أفق أرغد وأسعد، كانت المكتبة الإسلامية خاوية لا تجد فيها الكتاب المعاصر ذا الأسلوب المبين المقنع، وأذكر أن شاباً من طلاب الجامعة اتجه إلى فضيلة وكيل الأزهر إذ ذاك يسأله عن كتاب يقف به على حقائق الدين، فأشار عليه بقراءة شرح الإمام النووي لصحيح مسلم، ولم يستطع الطالب أن يجد إربته في شرح الإمام النووي، لأنه كتب وبوب لزمن غير هذا الزمن، ولن يقرأه غير من تربوا على كتب التراث من طلبة الأزهر وأشباههم، هذه الحاجة الماسة إلى تأليف كتاب عن الدين الإسلامي دعت الأستاذ الطنطاوي إلى تكرار الحديث عن هذه الضرورة الملزمة، تحدث باقتضاب في مقالات متناثرة، دون أن يجد الصدى المتجاوب، ثم رأى أن يطرق الباب بعنف خاص، فكتب أولاً توجيهاً رائعاً تحت عنوان (سؤال إلى المفكرين من علماء المسلمين) قال فيه ما فحواه: إننا نتفق على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأنه يجعل من المتمسكين به قوة بشرية ممتازة في العلم والمال والحضارة، فكيف يتفق هذا مع وجود أحكام في الفقه لا تصلح لهذا الزمان؟! فالأمم المتقدمة اليوم لا تستطيع الاستغناء عن المصارف والبنوك، والربا؟ ما هو النوع المحرم الذي حرمه الله وينطبق عليه الإثم؟ فأين هي البحوث التي تحدد الربا، وتبين ما يتصل به من المعاملات وما ينفصل عنه؟ إن الفقهاء يغرقون في بحوث العبادات وحدها، ويغفلون عما يشغل البال من هذه البحوث ذات الأهمية القصوى في الحياة [١٤] ثم قال في الختام: هذا سؤال أوجهه إلى المفكرين لا إلى المحافظين من علماء المسلمين، وقد سارع للإجابة عالم الشام الكبير الأستاذ محمد بهجة البيطار فكتب بحثاً ضافياً تحت عنوان (المعاملات في الإسلام)[١٥] أجاب فيه عن الأمثلة التي وجهها الأستاذ الطنطاوي، وقد بدأه بتأييد دعوته إلى النظر في أحكام التشريع التي يتطلبها العصر الراهن، وبسط القول في مسائل الشركات الاقتصادية المعاصرة، ومعاملات البنوك في المصارف المتنوعة في شتى البلاد الإسلامية ثم اتكأ على تفسير المنار لآيات الربا وعمل المصارف فنقل أقوال السيد محمد رشيد رضا الخاصة بهذا الصدد، وتحدث عن المجلة الشرعية التي كانت تصدر في دار الخلافة خاصة بالمسائل المستحدثة وغيرها، ثم وقفت عن السير بعد اتجاه تركيا إلى العلمانية! والأستاذ بهجت البيطار مشكور على إسراعه بالإجابة، وقد كان ذلك منذ خمسة وخمسين عاماً! وفي هذا الأمد اتضحت هذه المسائل على وجهها المريح، وأُلفت المجامع العلمية للبحوث الفقهية في مصر والسعودية وغيرهما، فانجلت الحقائق أحسن جلاء، ورأينا اليوم ثمرات هذه الدعوة التي سبق إليها الطنطاوي دانية القطوف.

كتاب في الدين الإسلامي:

هذا عن أحكام البيوع والمعاملات، أما خصائص الدين الإسلامي، وإيضاح تعاليمه السديدة في شؤون الدنيا والآخرة، وضرورة تأليف كتاب معاصر يلم بذلك كله، فقد جلجلت دعوة الأستاذ الطنطاوي إليه في مقال نشره تحت عنوان «كتاب في الدين الإسلامي»[١٦] قال فيه: إنه درس للطلاب في شتى مدارس الدول العربية، فحدثهم عن الإسلام ومحاسنه وتعاليمه، فكان الطلاب يسألونه عن كتاب يشرح هذه المحاسن والتعاليم ليجدوا فيه خلاصة وافية بأمور دينهم كما يجدون خلاصات دقيقة لمسائل الهندسة والطبيعة، فلا يستطيع الأستاذ أن يدلهم على هذا الكتاب، لأن كتب التراث لا تقدم الزاد الميسر لطالب اليوم، وقد صمم الأستاذ أن يبدأ بكتابة فصل من هذا الكتاب على صفحات الرسالة داعياً فضلاء الكتاب إلى متابعة الحديث بعد أن وضع لهم فهرساً يشمل ما يجب أن يحتويه الكتاب، ولولا خوف الإطالة لنقلت هذا الفهرس الممتاز حقاً، ثم أتبع القول العمل فنشر عقب هذا النداء الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان (مقدمة لبحث الإيمان) تحدث فيه[١٧] عن معنى الإيمان اللغوي، وعن أنواع الإيمان، وعن الإيمان في الدين الإسلامي، والفرق بين الإيمان والإسلام، وضرورة الإيمان للإنسان وأثره في سعادة الحياة، وعن الإيمان الكامل، وعدم جدوى الصالحات بلا إيمان، وأسلوب هذا الفصل واضح بيّن يقرؤه الطالب

والأستاذ معاً فيستفيدان، وكعادة الأستاذ الطنطاوي طلب من شيخه وصديقه الأستاذ محمد بهجة البيطار أن يكتب الفصل الثاني من الكتاب، وينشره بالرسالة فأسرع الصديق للإجابة، ونشر فصلاً تحت عنوان [18] (كتاب في الدين الإسلامي) تحدث فيه عما يراد بعلم التوحيد مبيناً ما يلحظه على كتب العقائد المتداولة، ما كتب منها على طريقة السلف، وما كتب على طريقة الخلف، ثم أشار إلى أنواع التوحيد الثلاثة بإفاضة وإشباع، وختم الفصل بحديث عن التوسل، راجياً من العلماء أن يبذلوا جهودهم في تقريب كتب السابقين إلى الأذهان إذ يتحدثون عن مضمونها بلغة العصر» وإذن فقد كتب من الكتاب فصلان، وبقي أن يستجيب العلماء!

وقد كان لدعوة الأستاذ الطنطاوي صدى واسع بين شباب الأزهر من الطلاب، لا بين شيوخه من الأساتذة فأجمع الشباب على تأييد الأستاذ في اتجاهه، وعجبوا كيف يغفل علماء الأزهر عن واجب هم أحق الناس بالقيام به، وأذكر أن صديقي الشاعر الأستاذ عبد العليم عيسى، وكان طالباً بكلية اللغة العربية كتب كلمة [19] حارة تحت عنوان «أين علماء الأزهر» قال فيها: «إن نفسي انطلقت لهذه الفكرة – فكرة الأستاذ الطنطاوي – وانتظرت ما سيكون من علمائنا، ولكن ماذا كان؟ كان أن ذهبت دعوة الأستاذ لديهم هباء، فلا حس ولا حركة ولا حياة.

إن أساتذتي في الأزهر لا يهمهم في الحياة إلا صفو أنفسهم وفخفختها، أين الدجوي والجبالي واللبان وأبو العيون والأورن والجزيري وأبو دقيقة وأمين وغيرهم من هؤلاء» وتعليقاً على قول الصديق عبد العليم عيسى أذكر أن نفراً من هؤلاء الأفاضل كتبوا كثيراً في المجلات عن هذه المسائل، ولكن لم تتح لهم وسائل النشر كي يجمعوا ما كتبوه في كتب مستقلة، وقد انجلت هذه الغاشية، فظهرت كتب كثيرة لأزهريين وغير أزهريين تتحدث في هذا الشأن الخطير، ومن أبرزها كتاب الأستاذ علي الطنطاوي نفسه الذي كتبه تحت عنوان «تعريف عام بدين الإسلام» وهو كتاب ممتاز في بابه ولا ينقصه غير فصل عن الأخلاق في الإسلام.

من الرسالة إلى الثقافة:

لقد كانت مقالات الأستاذ الطنطاوي بالرسالة ذات صدى بعيد عند القراء وبخاصة في الدوائر الدينية، فازداد انتشار الرسالة، وعرف الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة منزلة الأستاذ عند القراء، فحاول أن يحثه – راجياً – على الكتابة في الثقافة، وجاءت رسالة الدكتور أحمد أمين إلى الطنطاوي، وكان قد ترك التدريس إلى القضاء، وعكف على عمله الجديد حتى يعرف أبعاده عن خبرة شخصية، فقلّت كتاباته في الرسالة، ورآها الأستاذ أحمد أمين فرصة اقتنصها فأرسل إليه الأستاذ الطنطاوي مقاله الأول للثقافة تحت عنوان «كتاب[20] مفتوح إلى الأستاذ أحمد أمين، تحدث فيه عن جانب من حياته في دمشق والقاهرة، وألمّ بما يعانيه من ضيق، إذ قال في صراحة: إن مصر إذا أردت الحق لا تحب إلا أبناءها ولا تبسم إلا لهم، فواحد الأديب المصري مئة، ومئة غيره لا تساوي عندها واحداً، لأن الكتاب المصري يجد التقريظ والذيوع، والكتاب الآخر يجد الإهمال من نقاد مصر، وكان الأستاذ أحمد أمين صادقاً حين قال في تعقيبه على خطاب الأستاذ: أرسلت الثقافة إلى الأستاذ الأديب الدمشقي صاحب الإمضاء (ع) ترجوه الخروج عن صمته، والعودة إلى تلحينه، وقد عرفت منه كاتباً قديراً، وأديباً متقناً، فبعث بهذا الكتاب، وأباح لنا نشره، ولعل هذا يكون باعثاً للأستاذ أن ينفس عن نفسه، ويمتع القراء بآثاره، والأستاذ يعتب على الصحف والمجلات المصرية والثقافة أنها تشيد بالتافه من نتاج مصر، ولا تشير إلى الجيد من نتاج الأقطار العربية الأخرى كالشام والعراق، وقد سمعنا هذه الشكوى مراراً، وقد يكون فيها شيء من الحق، ولكن أكبر الظن أنه إهمال غير مقصود، ولعل كتاب الشام والعراق يحملون أيضاً كثيراً من التبعية، فالكتب الشامية والعراقية تظهر بين أظهرهم،وهم أعلم الناس بها، فلو كتبوا عنها ونقدوها نقداً قيماً، وعرفوا بها تعريفاً صحيحاً لما تأخرت المجلات المصرية عن نشر مقالاتهم، والثقافة على الأقل تلتزم بهذا وتتعهد به، وتعتقد أنها تسد بذلك نقصاً واضحاً فيها!».

ولعل من الطريف أن أذكر أن الثقافة فتحت باباً للتعريف بكتب الشام، وقد كتبه الأستاذ (فواز) وهو اسم مستعار للأستاذ صلاح الدين المنجد، كما شارك في التعريف بكتب الشام كاتب آخر، فنشرت له الثقافة ما كتب، أما وجه الطرافة فهو أن الأستاذ الطنطاوي نفسه قد كتب في مجلة الرسالة يحتج على تشجيع الأغرار الذين يتحدثون عن كتب الشام بما لا يجيدون! وكانت نظرة خاصة به، لأن التعريف لا يستلزم الإحاطة والغوص، فهو إن تقدم وإن تأخر تعريف، ثم توالت مقالات الأستاذ الطنطاوي في الثقافة فأسعدت القراء.

وبعد،

أتراني بلغت ما أريد من الحديث عن دور الأستاذ الطنطاوي في صحافة مصر؟ إذا بلغت ذلك فقد ارتحت، وإلا فقد فعلت ما أطيق، رحمه الله رحمة واسعة وأسبغ عليه ثوب الرضوان. ■

الهوامش:

(١) الرسالة العدد ١٠١
(٢) الرسالة العدد ٢٢
(٣) الرسالة العدد ٢٣
(٤) الرسالة العدد ٦٣
(٥) الرسالة العدد ٦٧
(٦) الرسالة العدد ١٠٨
(٧) الرسالة العدد ١١٠
(٨) الرسالة العدد ٣٢٣
(٩) الرسالة العدد ٣٢٥
(١٠) الرسالة العدد ٧٤٢
(١١) الرسالة العدد ٧٤٤
(١٢) الرسالة العدد ٦٩
(١٣) الرسالة العدد ٢٦٠
(١٤) الرسالة العدد ٣١٦
(١٥) الرسالة العدد ٣٢٣
(١٦) الرسالة العدد ٣١٤
(١٧) الرسالة العدد ٣١٨
(١٨) الرسالة العدد ٣١٩
(١٩) الرسالة العدد ٣٢٠
(٢٠) مجلة الثقافة العدد ٢٣٠
(*) انظر الهامش (١) ص٧ من كتاب قصص من التاريخ وقصة عالم في صفحة ٢٠٢ من الكتاب نفسه.

عدد خاص

خواطر من أستاذنا الطنطاوي

بقلم: د. محمد بن لطفي الصباغ
سورية

عرفت الأستاذ العظيم علي الطنطاوي من خلال سماعي أحاديثه في إذاعة دمشق، وخطبه في مساجد دمشق أيام الجمعة وفي المناسبات الدينية والاجتماعية، وكنت محباً لطريقته في الإلقاء.

عرفته من مقالاته البليغة الجميلة التي كان ينشرها في جريدة الأيام وغيرها من الجرائد، ومن مقالاته الرائعة التي كان ينشرها في مجلة «الرسالة» المصرية. وبلغ من إعجابي بها أنني كنت أحفظها عن ظهر قلب، وكنت أنتظر يوم الإثنين حيث كانت تصل المجلة إلى دمشق فأقرأ حينها أول ما أقرأ، مقالة الطنطاوي، وكنت آنذاك طالبا في المرحلة المتوسطة، وكذلك فقد كنت أنتظر موعد حديثه الإذاعي الذي كان بعد صلاة الجمعة، وكان هذا شأن كثير من الناس. لقد كان حديثه ومقالاته من السحر الحلال ومن السهل الممتنع.

وأذكر أننا عندما أردنا أن نقيم خطبة الجمعة في مسجد الجامعة السورية، وكنت أحد أعضاء لجنة المسجد، طلبنا من الأستاذ الطنطاوي إن يلقي خطبة الجمعة لأول مرة فيه فوافق، وكانت الجامعة خارج المدينة. فلما علم الناس أن الخطيب الشيخ علي الطنطاوي سارعوا إلى الحضور فامتلأ المسجد بالمصلين، وكنا ندعوه إلى الخطبة في المسجد أحياناً كثيرة، وكان -رحمه الله- يستجيب.

إن الأستاذ الطنطاوي أمة وحده، خصه الله تعالى بمواهب فذة جعلت منه العالم المؤثر الذي له قبول عند جمهور الناس، والخطيب المفوه، والأديب اللامع، والكاتب الموهوب، والإعلامي المتميز، والمؤلف القدير، والأستاذ الناجح، والقاضي النزيه، والمجاهد الصادق.

كان - رحمه الله - أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يتصدى لأعداء الله من الملحدين فيبين باطلهم، وكان يقول كلمة الحق بأسلوب مقبول، يمزج الجد بالفكاهة، ويأتي بالنكتة الأدبية المهذبة، فيفحم مخالفيه، ويستولي على أذهان مستمعيه.

وكانت الموهبة الفذة تساعده في إبلاغ الحق ونقله إلى الناس.

وليس من السهل أن تتحدث إلى الناس بأسلوب بليغ في قمة البلاغة، ويكون حديثك مع ذلك مفهوماً يفهمه الناس جميعاً ويقبلون عليه.

ومن أجل ذلك كان يحرص على استعمال العامي الفصيح، فكان يؤثر الكلمات التي يستعملها الناس في كلامهم وهي من الفصيح، يؤثرها على غيرها رغبة منه في إفهام الناس الدعوة وإبلاغهم إياها.

عاش أستاذنا ثلاثاً وتسعين سنة هجرية، فقد كان دائما يؤرخ ولادته بالتقويم الهجري، وكان عطاؤه في هذه السنين غزيرا وافرا على أكثر من صعيد.

وكان بحق شاهد قرن كامل، فلقد أدرك التطور الهائل الذي مرت به أمتنا بعين بصيرة، وفكر مستنير نقّاد.. إن التطور الذي حصل في القرن الرابع عشر الهجري يفوق التطور الذي تعرضت له أمتنا خلال القرون الماضية.

درس الأستاذ الطنطاوي العلوم الشرعية واللغوية على كبار علماء بلده دمشق، وكان لجده في الدراسة، وذكائه النادر أثر في حصوله على الملكة الفقهية، وكان لمعرفته أحوال الناس والأوضاع الجديدة التي قامت في حياة الناس أثر كبير في عرضه مسائل الفقه بأسلوب سهل ميسر، ولم يكن متعصباً لمذهبه الحنفي كما كان شأن معظم العلماء من أساتذته وأقرانه، بل كان يأخذ بما يراه أقرب إلى الدليل.

وكان أحياناً يتوقف في المسألة، ويقول: أنا في هذه المسألة متوقف، ولا شك في أن توقفه هذا كان من الورع ومن صميم سجايا العالم.



والاستاذ الطنطاوي موسوعي المعرفة فهو فقيه، وأديب، وقاض، وعالم، ومؤلف وحقوقي، وناقد، وكاتب، وصحفي، وخطيب، ومحدث ناجح في الإذاعة والتلفاز، ومرب وداعية إلى الله.

كانت أسرة الطنطاوي أسرة علم وفضل ودين، منذ جاء جده من طنطا إلى الشام وكان من طلبة العلم، وكذلك كان أبوه الشيخ مصطفى عالماً وله شعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

وأمه من آل الخطيب وهي أسرة دمشقية عريقة، أسرة علم ودين، يرجع نسبها إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويشارك فرد من هذه الأسرة في خطبة الجمعة في مسجد بني أمية إلى الآن. وخاله الكاتب الإسلامي الكبير والعالم والصحافي والسياسي الأستاذ محب الدين الخطيب.

تزوج أستاذنا من آل الخطيب، ورزق خمس بنات زوجهن جميعاً، وله منهن عدد كبير من الحفدة، وكان يقول لي. أنا من الصنف الأول بشأن الأولاد، لأن الله تبارك وتعالى جعل الناس أربعة أصناف وكان يتلو الآيتين: ﴿ لله مُلْكُ السَّمَوات والأَرْض يخلقُ ما يشاءُ يهبُ لمَن يشاءُ إناثًا ويهَبُ لمَن يَشاءُ الذّكُور* أوْ يُزوّجُهُمْ ذُكْرَانا وإناثًا وَيجْعلُ مَن يشاءُ عقيما إنَّهُ عليمٌ قَديرٌ﴾ الشورى. ٤٩ –٥٠.

عمل في التدريس في بلاد الشام والعراق والرياض ومكة، وعمل في القضاء حتى بلغ أعلى درجاته.

ورحل في البلاد الإسلامية كلها تقريباً، داعياً إلى الله ومذكراً بقضية فلسطين، واستمر في الدعوة إلى الله أكثر من سبعين عاماً من عمره المديد. يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم، وكان مجاهراً بالحق في كل حين وفي كل وسط يكون فيه، حضر مرة احتفالاً دعوياً أقامه شباب طيبون في مسجد من مساجد دمشق، وكان من المتكلمين شاب قال كلاماً غير صحيح في مسألة فقهية، فلم يمهله حتى ينهي كلمته بل قاطعه بأعلى صوته قائلاً: من أين جئت بهذا الكلام؟ هذا كلام باطل، فاستغفر الله! ولا تقل إلا ما تعلم صحته يقيناً.

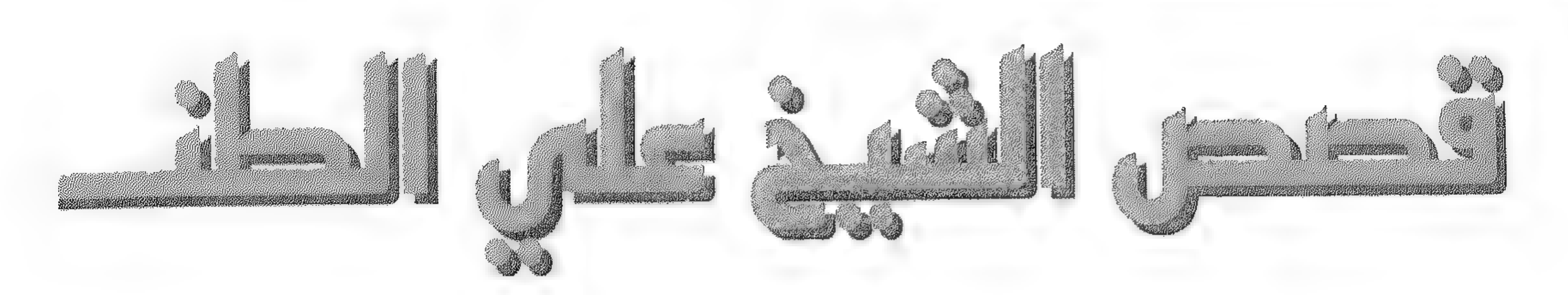
وله تاريخ حافل في مقاومة الفرنسيين بلسانه وقلمه منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية، وكان زعيماً للطلبة تلتف حوله القلوب وتصغي له الأسماع، وكذلك كان شأنه في انتقاد الظلمة في كل عهد، وبيان الحق لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وكان يصبر على ما يلقى بسبب ذلك من أذى أو مضايقة.

وكذلك فقد كان له تاريخ حافل في التحذير من انحرافات الفرق، والمذاهب الهدامة، ومن فتاوى الجهلة من أدعياء العلم.

وكان – تغمده الله بالرحمة – أبيَّ النفس، حريصا على كرامته أن تمس، لا يتهاون في الرد على من يحاول النيل منه إن كان من المنحرفين، مهما كان وزن المعتدي العلمي والاجتماعي، وكان الله تبارك وتعالى يؤيده وينصره بالحق. أما مع إخوانه وتلامذته فقد كان يتسع صدره لسماع الرأي المخالف منهم ويتحمل هفواتهم. وكان يعترف بخطأ الرأي الذي يقوله إذا تبين له صواب رأي مخالفه وكان يعلن ذلك.

وقد صحبت أستاذنا سنين طويلة في دمشق، فقد كنت أحضر درسه الأسبوعي في أصول الفقه، وكان يحضره ناس كبار من أمثال الدكتور أحمد حمدي الخياط والشيخ ناصر الدين الألباني والأستاذ عبد الرحمن الباني والدكتور محمد هيثم الخياط وآخرون. وكنت أزوره في بيته وفي المحكمة حيناً بعد حين، ثم صحبته في الرياض عندما جاء إليها مدرساً في كلية اللغة العربية، فكنت ألقاه كل يوم في الكلية، ثم نسهر معاً، وقد جعلني أميره وهذا من قبيل المداعبة، فكان يقول مازحاً: يا سيدي أنت أميري. أطيعك فيما لا أعصك فيه، فقلت له: يا سيدي كل الناس يطيع بعضهم بعضاً هذه الطاعة!

رحم الله أستاذنا الطنطاوي رحمة واسعة وجزاه عن جهاده الدائب خير الجزاء والحمد لله رب العالمين. ■



قصص الشيخ علي الطنطاوي

تعددت اهتمامات الشيخ علي الطنطاوي الفكرية، فهو المعلم الذي يهتم بتلاميذه تربية وتعليماً وتثقيفاً، وهو الفقيه الذي يعنى بتيسير أمور الدين الإسلامي، وجعله حاكماً للدين والدنيا، خاصة وقد عمل بالقضاء، وهو المؤرخ الذي لم تنقطع صلته بالتاريخ أكثر من نصف قرن، يعكف عليه قارئاً ثم كاشفاً ومحللاً ومستبصراً، وهوالمصلح الاجتماعي الذي يرصد الواقع بمتغيراته بغية الإرشاد والتوجيه والإصلاح، وهو الأديب الذي يتذوق الشعر والنثر، ويعالج بعض فنونهما، نتيجة معايشة حميمة لتراثنا الأدبي، وقراءات متعددة في أدبنا الحديث، خاصة وقد كان معاصراً لكثير من رواده مثل د. زكي مبارك ود.محمد حسين هيكل، ود. أحمد أمين، وأمين الخولي والعقاد والمازني، ومصطفى صادق الرافعي الذي تأثر الشيخ الطنطاوي بتوجهاته الفكرية والبيانية، وأحمد حسن الزيات، وخاله محب الدين الخطيب الذي دعاه إلى جواره في القاهرة، حيث اتسعت أمامه مجالات البحث والقراءة والكتابة، كما شارك بعضهم في الكتابة في مجلات عديدة في دمشق والقاهرة، خاصة الرسالة والزهرة وفتى العرب والفتح والزهراء، بالإضافة إلى كتابته في الصحف والمجلات العربية الأخرى، وأحاديثه ومطارحاته في الإذاعة المسموعة والمرئية.



بقلم: د. سعد أبو الرضا

القصة لديه وسيلة لا غاية:

وقد استقر في ذهن الشيخ علي الطنطاوي الأديب المسلم أهمية القصة وسيلة للوعظ والإرشاد والتوجيه والمسامرة، تأسياً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وشكل أسلوب القصة كثيراً من جوانب مساهماته الفكرية، في الكتب والصحف والمجلات والإذاعة المسموعة والمرئية، والمنتديات واللقاءات المختلفة، وهو لم يكن يعنيه أن يسمى إنتاجه في هذا المجال قصة أومقالة قصصية، فقد شغلته أهدافه الدعوية، برغم أنه كان معنياً بمعالجة الواقع الكائن أو ما يمكن وقوع مثله [1]، علماً بأن هذا يوافق ما قرره كبار النقاد منذ أرسطو إلى اليوم بشأن تناول الواقع ومعالجته فنياً.

ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين شهدت الساحة الأدبية العربية معالجاته لكتابة القصة حتى عُد من رواد كتاب القصة السورية القصيرة، لكنه لم يُقَيَّم التقييم المناسب، واعتبرت قصصه من ذلك النوع المسمى قصة الصورة [2]، اعتماداً على أنها تحاول تقديم شيء من الواقع بتفصيلاته، وقد تُقَدِّم مواقف من التاريخ أيضاً، وتعنى بتفصيلات هذه المواقف، وقد وضح ذلك في مجموعتيه «قصص من التاريخ» و«قصص من الحياة»[3]، من ثم يجب أن ينظر إلى نتاج الشيخ القصصي في سياقه التاريخي حتى يكون الحكم عليه أقرب إلى المعالجة الفنية منه إلى التأثرية، فالثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين الماضي، وهي التوقيت الزمني لكثير من قصصه، قد شهدت نتائج الحربين العالميتين وتأثيراتهما في العالم العربي والإسلامي؛ استبداد المستعمر بهما، وضياع الحقوق في الحرية والعدالة والديمقراطية، وافتقاد الشورى، وقبل كل ذلك افتقاد الخلافة الإسلامية التي كانت توحد العالم الإسلامي، ومن ثم فقد كانت الأمة بحاجة إلى الوحدة والزعيم المسلم القائد الذي يوحد ما تفرق، ويرأب صدع البناء الذي تهدم، ولن ينصلح حال الأمة إلا بما صلح به أولها، من هنا حملت كتابات الشيخ ومقالاته وليست قصصه فحسب الدعوة إلى عودة مبادئ الدين الإسلامي وقيمه حية نابضة،



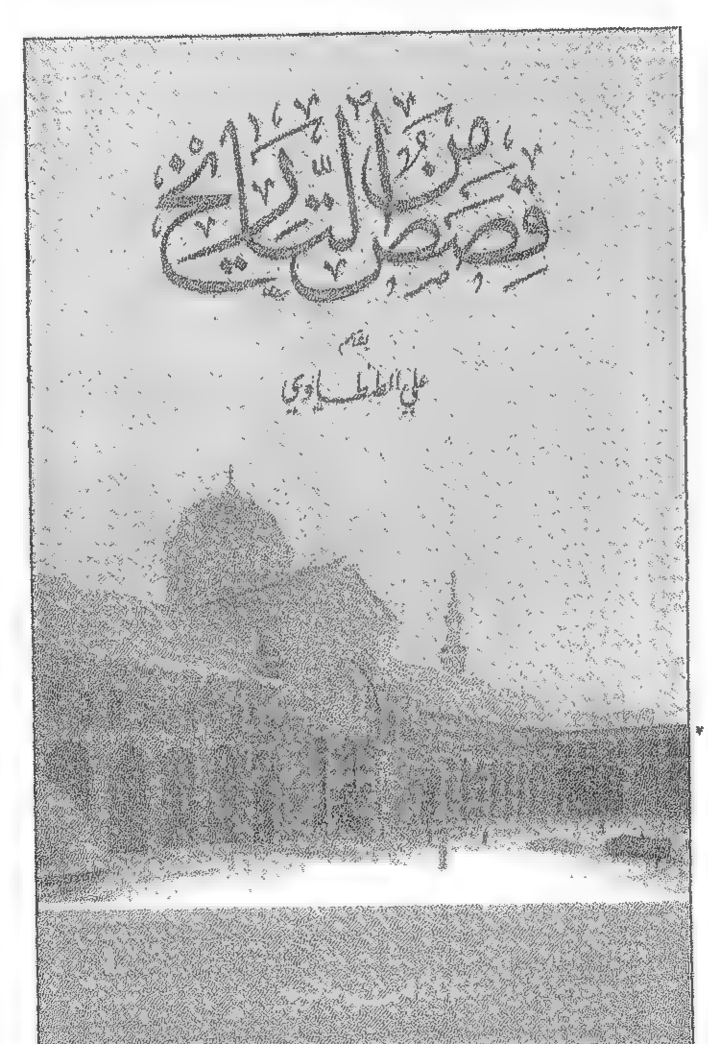
طاوي بين الدعوة والفن

سواء فيما يتعلق بتأسيس بناء الأمة أو اختيار قائدها، ووصولاً إلى ما تصبو إليه من رفعة وتقدم ومساواة ونهضة وديمقراطية، لتستعيد هذه الأمة مكانتها في الخيرية والشهادة على العصر.

ويمثل ما سبق والإرهاص به والولاء له كل هواجس الشيخ فيما يكتب، وفيما يقول: بحماسة وحمية لا يفتران أبداً زماناً أو مكاناً حتى قبضه الله إليه، من ثم لم يكن يعنيه أن يكتب قصة بقدر ما يعنيه أن ينشر دعوة، وقد كان الشيخ مؤهلاً فكراً وأدوات للرسالة التي أناطها بنفسه، وتعاونت الظروف والملابسات الفكرية والسياسية والاجتماعية على جعله في مكان الصدارة بين الرواد الذين نذروا أنفسهم لهذه الأهداف الإسلامية السامية، والغايات العليا، والأمة تستقبل العصر الحديث بمتغيراته خاصة في مطالع القرن العشرين، عندما استدعاه خاله محب الدين الخطيب إلى القاهرة، حيث اتساع المجالات الفكرية وتعدد منابرها الإعلامية. وقد أكد هو نفسه ذلك قولاً وفعلاً، وأخذ على نفسه عهداً به في حياته، يقول: «لدي أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً»(٤).

وهكذا أخذ الشيخ علي الطنطاوي يوظف القصة فيما يدعو إليه من تمسك بالشرع، وحض على الفضيلة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرص على الحرية والشورى والوحدة، كي يسود الود والمحبة والوئام العلاقات الإنسانية على مستوى الأسرة والمجتمع والأمة، بل الدنيا كلها.

وهذا التوجه قد يدفعه إلى الخروج عن موضوعية القصة، فينخرط في وصف ذاتي للقيمة الإسلامية، وأثرها الفاعل في تقدم حياة الفرد والأمة، وقد يزكّي ذلك حسه الخطابي الواضح، مما قد يهدد البناء الفني للقصة ذاتها في بعض الأحيان، لكنه في كثير من نتاجه القصصي في هذا المجال لا تفتقد القصة لديه روحها القصصية، بل قد تتجلى فيها الحبكة الفنية، كما قد تتسق أجزاء الحدث مشكلة لبنائها، والشيخ فيما يكتب يجعل القيمة الإسلامية والدعوة إليها هدفه الأساسي، من ثم يأتي البناء الفني ثانياً في اهتمامه، لذلك فقد تباين نتاجه القصصي كما سيتضح، بين قصص تتميز بالحبكة والتشويق ودقة الإيقاع، بينما بعضها الآخر قد تفتقد فيه بعض هذه العناصر الفنية.



تنوع نتاجه القصصي:

وقد تنوع نتاج الشيخ علي الطنطاوي القصصي، فبعضه للكبار، وبعضه الآخر للأطفال، مما يكشف عن مزيد اهتمام بالنفس البشرية في كل مراحل حياتها، وسعة تجارب الشيخ إنسانياً، وذلك بعد إسلامي يشكل توجهاته الدعوية.

أما نتاجه القصصي للكبار فقد تنوع أيضاً بين:

أولاً: مجموعات قصصية مثل: «قصص من التاريخ»«وقصص من الحياة».

ثانياً: كتيبات صغيرة يتضمن كل منها إحدى قصصه مثل: «الباب الذي لا يغلق في وجه سائل»، «وقصة كاملة.. لم يؤلفها بشر».

وثمة نوع ثالث: يتمثل في سِيَر الشخصيات التي عكف الشيخ على محاولة رسم صورة لكل شخصية منها خلال عرضه لبعض مواقف حياتها المختلفة، وهي أدخل في باب السيرة الغيرية، ولذلك فلن أتناولها في هذه الدراسة.

أولاً: مجموعته «قصص من التاريخ»:

فهي تتألف من ثلاث وعشرين قصة وإن حاول أن يجعل اثنتين منها في شكل حواري وهما «أبو جهل» و«على أبواب المدينة»(٥)، مما يجعلهما أقرب إلى المسرحية منهما إلى القصة، وهو يستمد الفكرة الجوهرية لكل قصة من التاريخ، لكنه يصوغها صياغة

مشرقة خاصة به، لا سيما وهو متمكن من اللغة العربية تمكناً جلياً، وقادر على تطويعها لمتطلبات فن القصة، بما يملك من مقدرة على إثراء التشويق الذي يستحوذ على اهتمام المتلقي، كما يمزج فيها بين التاريخ والخيال، بما يضيف أو يحذف، وقد هيأه كل ذلك للانطلاق في الوصف والسرد بصفة خاصة، وذلك من أهم ملامح كاتب القصة المتميز متى أدرك الوقت الملائم لكل تقنية من هذه التقنيات القصصية السابقة.

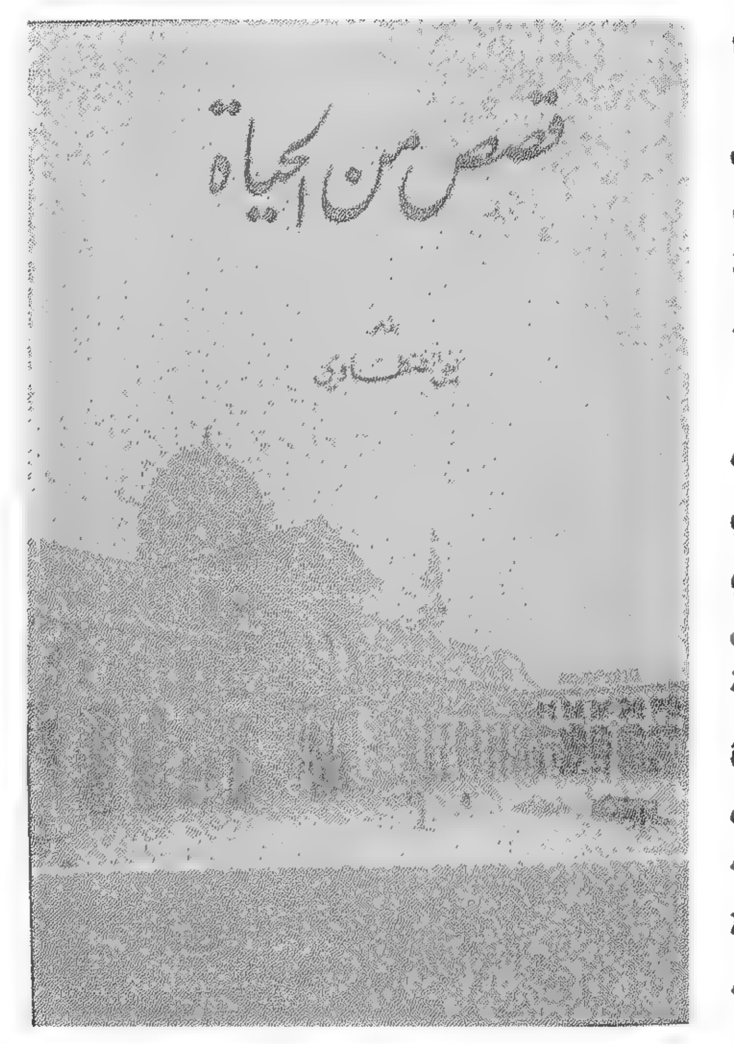
وهذه القصص تتوزعها فترات زمنية متعددة، منها ما هو من العصر الجاهلي مثل: «مع النابغة الذبياني» ومنها ما هو من صدر الإسلام مثل: «أبو جهل»، ومنها ما هو من العصر الأموي مثل: «ابن الحب»، و«سيدة من بني أمية» و«هجرة معلم» و«ليلة الوداع» و«يوم اللقاء»، و«قضية سمرقند» ومنها ما هو من العصر العباسي الأول مثل «وديعة الله»، ومنها ما هو بعد ذلك خاصة في زمن الحروب الصليبية مثل: «في بيت المقدس» و«هيلانه ولويس».

والشيخ الطنطاوي في أحيان كثيرة يشير إلى المصدر التاريخي الذي أخذ منه مادته، كما في «حكاية الهميان» التي أخذها من تاريخ الطبري، وقصة «قضية سمرقند» التي أخذها من فتوح البلدان للبلاذري، ومن سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، و«هيلانه ولويس» التي أخذ فكرتها من سيرة صلاح الدين للقاضي ابن شداد، و«ثلاثون ألف دينار» من وفيات الأعيان لابن خلكان.. وهكذا، مما يكشف عن سعة اطلاع الشيخ، وفي بعض الأحيان قد يثبت بعض العبارات المثبتة في الخبر الأصلي في مصدره، ويشير في الهامش إلى أنَّ هذه الجملة من التاريخ[6].

وهو في كل ما يكتب خلال هذه المجموعة يبغي الإعلاء من شأن القيمة الإسلامية، والكشف عن عظمة الشخصيات الإسلامية وهي تتمسك بهذه القيم، مما كان سبباً في نجاح هذه الشخصيات، وتحقيقها لما نيط بها من مهام تاريخية، وكأني به خلال ذلك يقدم القدوة المرجوة، والنموذج الإسلامي المبتغى قولاً وفعلاً في وقت تحتاج فيه الأمة إلى هذه القيم وتلك الشخصيات كي تتقدم وتزدهر، وتحقق ذاتها حتى يكون حاضرها امتداداً لماضيها، وتحقيقاً لمستقبل زاهر سعيد، وهكذا كانت القصة وسيلة لذلك، برغم ما نجده أحياناً من خروج على موضوعية القصة وحياديتها، وما يمكن أن يهدد حبكتها[7]، مثل قصة «مع النابغة الذبياني» التي هي أقرب إلى المقالة القصصية، حيث قلت الأحداث بدرجة جعلت وصف المشاعر يطغى على القصة بطريقة تقريرية، وليست قصصية، فلم تتحقق الحبكة الفنية. بينما نجد قصصاً أخرى في المجموعة نفسها قد وضحت فيها الحبكة مثل: «في بيت المقدس» و«حكاية الهميان» وغيرها.

ثانيا: مجموعته: «قصص من الحياة»:

فتتألف من ثمان وعشرين قصة كتبها ما بين عامي (١٩٣١ – ١٩٥٢م)، وهي من مقدمتها إلى خاتمتها يؤكد الشيخ فيها توجهه الدعوي الإسلامي الوعظي، مبيناً أنه لا يعنيه أن يكون ما يكتبه قصة أو مقالة، لأن المهم لديه أن يسترسل فيما ينبغي أن يقوله كاشفاً عن الحياة والأحياء، متوخياً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حاثاً على الإيمان بالله، وحقاً لديه من المقدرة اللغوية والبيانية ما يؤهله لذلك.



وهذه المجموعة تفترق عن «قصص من التاريخ» في أنها تتعامل مباشرة مع الحياة ومعطياتها، وإذا كان العنوان لكل قصة من هذه المجموعة موحياً بأن وراءه قصة، كما قد توحي بدايتها بعنصر الحكاية، ونجد خلالها اهتماماً بداخل الشخصية، لكن حماسة الشيخ لموضوعها، وما أوتي من بيان عذب، وتصوير مشوق قد يحيل القصة إلى خطبة أحياناً، تكشف عما في الدنيا من رذائل وفساد، في مقابل ما عند الله من خير وثواب، كما تخللتها عدة وسائل للتنبيه مما يعد لصيقاً بالخطبة أو الموعظة مثل: أيها الناس، يا ناس..إلخ، كما في قصصه: شيخ في مَرقص(١)، (٢)، وقصة «أب»، وإن كان سياق القصتين الأولين السابقتين قد يقتضي بناؤهما الفني شيئاً من الخطبة كجزء من تشكيل القصة ذاتها.

بينما نجد بعض القصص الأخرى قد تحققت فيها الحبكة والعقدة، وغير ذلك من عناصر بناء القصة مثل: «الخادمة»، و«الكأس الأولى» و«على ثلوج جرزين»، وإن لم تخل أحياناً من خروج على موضوعية القصة وتقنياتها.

ومن بين قصص هذه المجموعة ما يتحقق فيه مفهوم القصة القصيرة حقاً، وذلك عندما تشكل القصة لقطة من حياة الشخصية، وهي تواجه أزمة تنتهي بها القصة، فيكشف الكاتب بذلك عن أغوار النفس الإنسانية وهي تواجه متغيرات الحياة بضعفها وعجزها،

وبذلك يستثير الكاتب تعاطف المتلقي تجاه هذه النوعيات من البشر خاصة وهم من كبار السن، وفي أمس الحاجة لرعاية الآخرين بهم، وحدبهم عليهم، وذلك منزع إنساني في قصص الشيخ علي الطنطاوي في هذه المجموعة، يتصل باتجاهه الدعوي الإسلامي أوثق اتصال، مثل قصته «أستاذ» و«العجوزان».

وفي هذه المجموعة يتجلى أيضاً كثير من ملامح الواقعية المتمثلة في دقة التفاصيل، وتحديد المكان الذي كثيراً ما يكون دمشق أو إحدى المدن السورية. كما يتجلى الصراع بين الخير والشر، وهو صراع بين إرادات بشرية تحرس الخيِّرين فيها عناية الله، لتمسكهم بقيم الإسلام ومبادئه، لذلك تتباين نهايات هذه القصص بين انتصار للخير مطلقاً، أو إيحاء بانتصاره على الشر، وقد تنتهي بعض القصص بنهاية مأساوية، لكن العبرة والعظة جلية فيها، مثل: «الموسيقي العاشق» و«الكأس الأولى» و«على ثلوج جزرين». ولذلك فإن بعض من لم يدركوا الأهداف الدعوية لقصص الشيخ علي الطنطاوي، ولم يضعوها في سياقها التاريخي بالنسبة للأمة ولفكر الرجل نفسه قد يظلمونه، باتهامهم هذه القصص بالضعف، بل وينسبون إليه جعله المرأة مركزاً للخطيئة ومصدراً للمتعة، مما أفقدها الوضع الإنساني الصحيح في قصصه[8].

وهي دعوى جائرة لأنها تتجاهل الأهداف الدعوية التي أناطها الرجل بما يكتبه، استجابة للمرحلة التي كان عالمنا العربي والإسلامي يمر بها في النصف الأول من القرن العشرين التي سبق أن أشرت إليها، كما أن هناك نماذج من قصصه كان للمرأة فيها دور فاعل فيمن حولها، وفيما حولها، يتسم بالصلابة وقوة الشخصية وليست مصدراً للخطيئة أو المتعة مثل: «هيلانة ولويس»، و«سيدة من بني أمية»، و«هند والمغيرة» من مجموعته «قصص من التاريخ»، و«على ثلوج جزرين» من مجموعته «قصص من الحياة» وغيرها.

ثالثاً: القصص المفردة صغيرة الحجم:

وثمة لون آخر من القصص، وهي القصص التي يفردها الشيخ في كتيب صغير خاص بها، يشتمل على قصة واحدة، ويبدو أن الشيخ علي الطنطاوي قد لجأ إلى ذلك في السنوات الأخيرة من حياته، مثل قصة «الباب الذي لا يغلق في وجه سائل» وقد نشرت سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، و«قصة كاملة.. لم يؤلفها بشر» التي نشرت سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، وربما لا تختلفان كثيراً عن قصص مجموعته «قصص من الحياة»، من حيث الموضوع، وتجلي الهدف الدعوي الوعظي، والبناء، وتعامله المباشر مع قضايا الواقع المعيش، ومن ثم فهي تمثل مزيداً من التجارب الإنسانية التي يعرضها الشيخ بأسلوبه القصصي، وهو بإفراد كل منها في كتيب صغير الحجم قليل الثمن ييسر اتصال المتلقين بها، وإقبال الراغبين فيها.

وأولى هاتين القصتين تتألف من تسع وعشرين صفحة من القطع الصغير، يعالج فيها الكاتب مجموعة من الأحداث والمواقف التي تدور حول اللجوء إلى الله تعالى في الشدة، سواء كانت مرضاً أو أي أزمة أخرى، عندما يعجز الطبيب والمريض، وذوو الحاجات عن تحقيق الشفاء أو النجاة وكشف الغمة، من ثم يكون دعاء الضعيف المضطر إلى الله تعالى، والتضرع إليه سبحانه واستجابته تعالى لوعده،﴿ ادعوني أستجب لكم﴾[9] محققة الشفاء والرجاء وقضاء الحاجات.

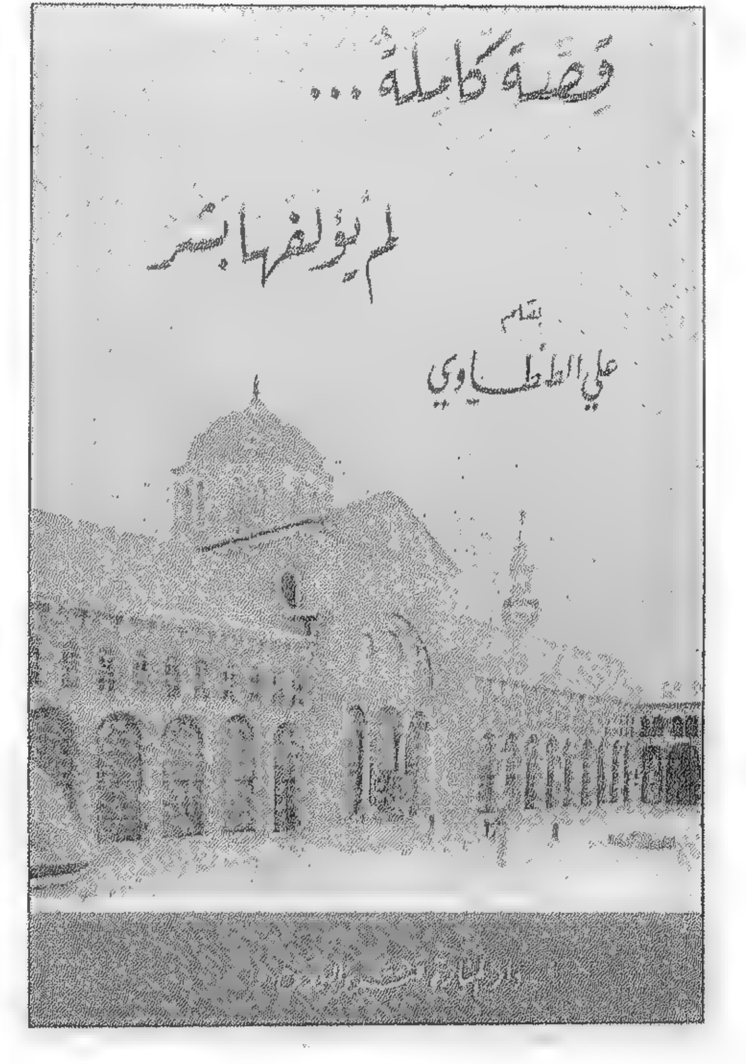
وذلك كقصة الأمريكي ابن الثالثة عشرة الذي أصيبت ركبته في اللعب، ورفض هو وأخوه بتر ساقه حتى لا يسري المرض في جسده كله،... ثم شفاه الله، هذا الصبي هو أيزنهاور قائد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد[10].

وكحالة قريش وهي تعبد الأصنام، لكنها في ساحة الجد تلجأ إلى الله، وكذلك أي إنسان يضل في الصحراء، ويوشك العطش أن يقضي عليه، حتى إبليس شر الخلق، فقد طلب من الله تعالى أن يمهله إلى يوم يبعثون، فأمهله..

ثم يربط الكاتب بين هذه الحوادث وأخرى قد وقعت له، أو لمن حوله، على أساس أنها حكايات أو قصص يبتغي من ورائها الوعظ، وتوجيه المخاطبين إلى إخلاص الدعاء لله، بعد القيام بالأسباب، وذلك مسلك دعا إليه القرآن الكريم، وهكذا يتجلى المسلك الدعوي خلال هذا اللون من القصص التي ربما لا نجد فيها من عناصر بناء القصة إلا عنصر الحكاية المشوقة، واللغة التصويرية السلسة العذبة، وهي دائماً تستمد كثيراً من مفرداتها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويدعم كل ذلك حس خطابي يجعل المتلقي يقظاً منتبهاً لما يقرأ أو يسمع، مرده إلى العبارات الخطابية وشيء من الذاتية في مثل هذه القصص.

ويلاحظ أنّ القصة السابقة قد توزعتها الأحداث والمواقف، ومن ثم فقد افتقدت الحبكة والتماسك الفني لا المنطقي، لأن هناك رابطاً منطقياً بين أحداثها ومواقفها يتمثل في صدق اللجوء إلى الله، وضعف الإنسان.

لكن القصة الثانية وهي: «قصة كاملة.. لم يؤلفها بشر» قد تحقق فيها كثير من عناصر بناء القصة كالحبكة والعقدة والحل ووحدة الحدث وتصوير الشخصية، وغير ذلك من العناصر الفنية، وإن لم تتحقق فيها الموضوعية أحياناً لتدخل شخصية الكاتب نفسه في بنائها، ويقصد الشيخ علي الطنطاوي بقوله: «لم يؤلفها بشر» أنها قد وقعت في الحياة في أثناء رحلته من دمشق إلى بيروت بالسيارة، حيث شاهد سيارة أخرى يقودها شاب بسرعة، وقد أخذ يسابق بسيارته كل السيارات الأخرى، ومن معه يصفقون ويضحكون، حتى إذا كانت في منعطف وبجوارها سيارة صهريج ضخمة تنقل البنزين، تريد أن تدور، لكن السيارة الصغيرة لم تمهلها وحاولت سبقها فزاحمتها، مما جعل الصهريج يميل عليها، فسقطت في سهل البقاع متدحرجة، مما أدى إلى وفاة من فيها إلا أطفالاً ثلاثة، وبنتاً في التاسعة أصابتهم جروح وهم أحياء، وكذلك فتاة مغمى عليها ملقاة بجوار السيارة.



وقد وقف الشيخ علي الطنطاوي نفسه مع المحقق الذي كان يعاين الحادث لأنه كان وقتها من رجال القضاء، وعندما رجع إلى دمشق تابع بقية الأوراق الخاصة بهذا الحادث وتلك الأسرة، وهنا نجد نوعاً من «الرجوع للماضي» والاعتماد على «التقابل»، عندما يوضح الكاتب أن هذه الأسرة تتكون من رجل وزوجته وأخته العانس، وابنه الوحيد الذي زوجه بفتاة صغيرة من أسرة كريمة ثرية عريقة، لكنهم أساؤوا إليها ببخلهم وشحهم، وبرغم أن والدها هو الذي جهزها من ماله الخاص أحسن تجهيز، فقد تبدلت حياة هذه الفتاة التي كانت مخدومة في بيتها، فأصبحت خادمة في بيت زوجها، كما كانت تشبع في بيت أبيها من أطايب الطعام والفاكهة، فأصبحت تجوع في بيت زوجها الذي لا يملك من الأمر شيئاً، فالمتحكم هي أمه البخيلة الشحيحة، وعمته العانس التي تنتقم من كل زوجين سعيدين.

وقد انتهت حياة الفتاة بطلاقها، وقد أنجبت بنتاً عاشت لها الأم في بيت والدها، بعد أن تركت بيت الزوجية الذي أفسده أهل زوجها وخربوا أثاثه، والأدهى من كل ذلك أنهم قد خدعوها وجعلوها توقع على ورقة تفيد أنها قد تسلمت مؤخر صداقها الكبير دون أن تدري، مع أن أباها قد ضمَّن هذا المؤخر ما أنفقه في جهازها دون أن يأخذ من هذه الأسرة شيئاً.

وفي المحكمة سقطت كل حقوقها بعد هذا الخداع والكذب دون دليل، بل إنّ ابن هذه الأسرة المخادعة قد انتزع البنت من أمها بأمر المحكمة أيضاً، من ثم فقد كان هذا الانتقام الرباني بعد أن سلم والد الفتاة أمره إلى الله، ولم يرفع دعوى بيانات كاذبة كما أراد محاميه في هذه القضية، وهكذا نجد القصة الثانية أكثر إحكاماً وترابطاً وفنية من سابقتها، برغم تجلي الهدف الدعوي الوعظي في القصتين كلتيهما.

وثمة ملمح في فكر الشيخ وهو مقدرته على التصرف في مادته وتقديمها في أكثر من شكل قصصي، يتضح ذلك إذا قرأنا قصته «حكاية الهميان»[11] في مجموعته «قصص من التاريخ» للكبار، وقصة «التاجر الخراساني»[12] التي قدمها للأطفال (من سن ١٠ – ١٢ سنة)، حيث يتضح مقدرة الشيخ على التشكيل القصصي الجيد مع وضوح الهدف الدعوي المتميز للكبار وللصغار أيضا، والأهم من كل ذلك أيضاً تحديد المرحلة السنية التي تلائمها هذه القصة، وهو مسلك قلما نجده فيمن يكتبون للأطفال. رحم الله الشيخ علي الطنطاوي المعلم والفقيه والمؤرخ والقصصي والخطيب والداعية. ■

الهوامش:

(١) انظر علي الطنطاوي «قصص من الحياة» ط ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ص ٢٢٢.

(٢) انظر نعيم حسن يافي «التطور الفني لشكل القصة السورية القصيرة» مقال بمجلة الآداب، بيروت، العدد الخامس أيار (مايو) سنة ١٩٦٥م .السنة ١٣، ص ٤٤، ص ٤٦.

(٣) انظر علي الطنطاوي «قصص من التاريخ» دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط ٦، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، وكذلك انظر «قصص من الحياة» دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة ط ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٤) الشيخ علي الطنطاوي من حديث النفس ص ٧.

(٥) انظر قصص من التاريخ ص ٢٢٧، ص ٢٥١.

(٦) انظر السابق نفسه على سبيل المثال ص ١٢٧، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٢، ١٧١.. إلخ.

(٧) انظر السابق نفسه على سبيل المثال ص ٣٤، ٣٥، ٦٤، ٦٥، ٢١٢، ٢٤٦.. وغيرها.

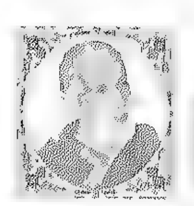
(٨) انظر مجلة الآداب، العدد الخامس، أيار (مايو) سنة ١٩٦٥م، السنة ١٣، مقال التطور الفني لشكل القصة السورية القصيرة (مرجع سابق).

(٩) سورة غافر – اية ٦٠.

(١٠) انظر قصة (الباب الذي لا يغلق في جه سائل) ص٥–١٥.

(١١) انظر قصص «من التاريخ» ص ٢٤٠.

(١٢) انظر علي الطنطاوي: «حكايات من التاريخ » للناشئين، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.



الطنطاوي يعظ بعد موته



بقلم: محمد ياسر القضماني
الكويت

تعجبته من قولي أليس كذلك؟!

أما أنا فما تعجبت قط، وكيف لا يقدر مثل الأديب البارع الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - أن يعظ بعد موته!

وقد وقفت على كلمات نشرت له قبل أربعين سنة كأنه يقولها الآن بعد أن تسامع الناس نبأ وفاته، وكثر التأسف عليه. وهذه هي كلماته:

«والثواب هو وحده الذي يبقى على حين يفنى الإعجاب، وتذهب الأموال، ويعود إلى التراب كل ما خرج من التراب.

ولدعوة واحدة لي بعد موتي من قارئ حاضر القلب مع الله، أجدى علي من مئة مقالة في رثائي، ومئة حفلة في تأبيني، لأن هذه الدعوة لي أنا، والمقالات والحفلات لكتابها وخطبائها، وليس للميت فيها شيء.

وأستغفر الله وأتوب إليه»

هل تصدق أن هذا الكلام يقوله الشيخ الأديب لنا في ٢١ من جمادى الآخرة ١٣٧٩هـ/ ٢٢ من كانون الأول ١٩٥٩م من دمشق يختم به مقدمة كتابه «من حديث النفس»؟!

إنه كلام الكبار حقاً، لا تبلى جدته مع الزمان، زاخر فوار بالعظات والمعارف لا يغيض!.

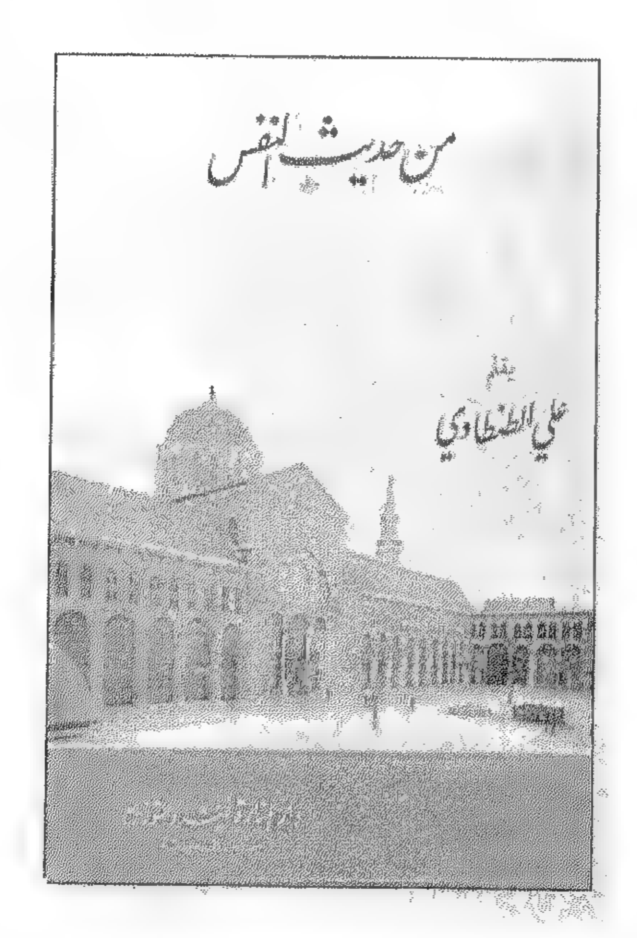
إنها عظة لنا نحن الذين دبَّجنا الأشعار في رثائه، وطوَّلنا المقالات في ذكر مآثره وأدبه، وأقمنا دعوات لتأبينه والإشادة ببيانه وأسلوبه الفذِّ المتفرد.

حقاً إن ما ذكر إن خلا من الدعاء للشيخ ماذا يجني منه، وهل من طائل تحته؟!

إن ما قيل من شعر ونثر كان فيه إظهار بيان الشعراء والكتاب، ولربما كانت حظوظ، فقيل: فلان مقالته في الشيخ بليغة، وأسلوبه أخّاذ، والشاعر الفلاني كان أجود وأحسن من ألقى من الشعراء.

صدقت يا أيها الشيخ البليغ الملهم! دعوة واحدة لك بعد موتك من قلب حاضر أجدى عليك من المقالات والحفلات والخطب!

وماذا يبتغي كل مسلم كاتباً كان أو شاعراً، أو غير ذلك، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، سيداً أو مسوداً، ماذا يبتغي كل واحد منا إلا رحمة الله ورضوانه.



نحن من تراب وسنعود إلى التراب وسنبقى في برزخ حتى يقوم الناس لرب العالمين، فنفضي إلى الله بما قدمنا إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ووالله ما نجعل سواداً في بياض إلا سيحاسبنا الله عليه، فيا أيها الكتاب ويا أيها الشعراء، اجعلوا نصب أعينكم رفعة دينكم، وإعزاز شريعتكم من وراء أدبكم بشتى صوره.

وأختم بكلمات موجزة من كلامه الرائق يعطينا فيها الأمل لنتأملها نحن الأدباء.

قال - رحمه الله -:

«الباطل إلى اضمحلال وإن كانت له جولة، والحق إلى ظفر وإن كانت له كبوة. وقد طالما بغى باغون وظلم ظالمون، ولكن لم يدم باغ ولا خلد ظالم «كتاب/ في سبيل الإصلاح».

حقاً هذا هو الأمل وهذا هو الرجاء ولكن لابد من العمل، فقد طال منا التسويف، وبدر منا العجز والتواكل.■

إشراقة النبوغ في حياة العلامة



بقلم: د. عدنان النحوي
السعودية

نشأ الشيخ علي الطنطاوي على سلامة الفطرة وحسن الإيمان، في بيئة توافرت فيها عوامل شتى لحماية الفطرة آنذاك:

والدان صالحان رعياه حتى اشتد عوده، فوالده الشيخ مصطفى الطنطاوي، رئيس ديوان محكمة التمييز، كان من وجوه الفقهاء وعيون المربين، ووالدته من آل الخطيب، من بيت عرف بالعلم والتقى، وخاله الأستاذ محب الدين الخطيب، الذي حنا عليه ورعاه، وفتح له سبل التعرف على شخصيات بارزة أثرت فيه، والمجتمع المسلم المتمسك بآداب الإسلام بالرغم من انتشار الجهل، وأجواء العلماء والصالحين الذين عرفهم منذ طفولته، أصحاب والده، وإخوان عائلته، ومع مسيرة حياته كلها في صباه وكهولته وشيخوخته عوامل كثيرة يسرها الله له، حفظت عليه سلامة فطرته، وغذته بالإيمان والزاد الطيب الذي ظل ينمو مع نموه. فاستقام له الدرب بهداية من الله، ترعاه في الشدة بعد وفاة والديه - رحمهما الله -، وفي النعمة والرخاء مع مقبل الأيام وفي السعي الدائب منذ باكورة شبابه في طلب الرزق، وطلب العلم الطاهر النقي.



...ة الشيخ علي الطنطاوي

مصادر علمه

وكان يؤم مجالس العلماء الأدباء وندواتهم، يساجل بعضهم. ومن أبرز هذه المجالس مجلس العالم الأديب محمد كرد علي، وسليم الجندي، ومحمد المبارك، ومصطفى برمدا، وآخرين. وكان يواظب على حضور محاضرات المجمع العلمي بدمشق، واستمر هذا النهج في جميع البلدان التي زارها، وتعرف على علمائها ورجال الفكر والأدب فيها. وما أكثر البلدان التي طوف بها، والزاد الطيب الذي حمله منها[1].

ومصدر آخر لزاده وعلمه وتجاربه، ذلك المصدر رحلاته الواسعة المتعددة، حتى كأنه طوف في الأرض، يجني من كل أرض أطيب ثمارها، وأحلى أزاهرها، وأغنى جواهرها. جال في سوريا وهو ينتقل من قرية إلى قرية معلماً في أول شبابه، يمر من خلالها بتجارب تصقل سجاياه، وتبرز قدراته الذاتية، وتجلو نهجه الذي استقر عليه في حياته كلها.

في معترك الحياة

لقد خاض في حياته ميادين متعددة مختلفة من العمل:[2] عمل محاسباً في أول دربه مع بعض التجار وقاسى من ذلك، مما كان يرى، فنفر وترك. وعمل مدرساً بدروس خاصة أعلن عنها. وامتحن في بعض التجارب فكان لها إيمانا وعقلاً ونهجاً، ومضى وهو المؤمن الذي رعى مهمته التي خلق للوفاء بها، بين ابتلاء الشدة وابتلاء النعمة، وعمل مدرساً يتنقل بين بعض قرى سورية ويصبر ويجاهد ويصدق في كل عمل عمله صغيره وكبيره، وعلّم في المدارس الأهلية في الصيف، ونمت مهمة التدريس معه حتى علّم في المدارس الثانوية في أكثر من بلد عربي، وكذلك في المعاهد الشرعية في مواطن مختلفة، وكذلك في الجامعات، وعلّم فتياناً ورجالاً وشيوخاً.

في القضاء

وعمل في القضاء، قاضياً في أصغر محكمة إلى أن أصبح مستشاراً في محكمة النقض في سورية. ولقد أبرز القضاء ناحية من مواهبه، وجلا قدرة من قدراته، فاشتهرت مواقفه وأحكامه وفتاواه عن علم حق وإيمان ثابت، لا ينحاز عن الحق مهما كلفه الأمر، ثابت كالطود، تنهار من حوله عوامل الفتنة وإغراءات الباطل وزخارف الضلال. فشق طريقه بقوة إلى مراتب القضاء العليا عن جدارة وحق. وله في ميادين القضاء مواقف مشهورة، ونوادر مأثورة.

في الصحافة

وعمل في ميدان آخر واسع كاتساع الفضاء.. تعرف أوله ولا تعرف آخره.. عمل في ميدان الصحافة، فانطلقت مواهبه فيها كالسيل الجارف، يتجدد معه العطاء، ويستقيم له فيها النهج، لا يغير ولا يبدل، ولعل أول تجاربه الصحفية مع خاله محب الدين الخطيب في جريدة «الفتح» الأسبوعية، التي كانت أول جريدة إسلامية، تختلط فيها العروبة بالإسلام في كلمات كتابها مثل شكيب أرسلان وغيره، ومجلة الزهراء، مجلة الأدب الإسلامي، المجلة التي عاشت خمس سنوات فحسب. وأصدر مجلة البعث ليبين محاسن الإسلام. وكتب في المقتبس مع خاله وفي صحف دمشق التي أخذت تظهر.



الطنطاوي ومحب الدين الخطيب وآخرون

خطيب وأديب

وكان من النواحي التي برز فيها وبرزت فيه، قوة الخطابة. لقد برزت فيه منذ أول شبابه، وكانت أول خطبة له سنة ١٩٢١م على درج مدرسة طارق بن زياد، وخطبة نارية سنة ١٩٢٩م وهو يقود المظاهرة المدوية في دمشق ضد الاحتلال. وامتدت خطبه سواء أكان يعدها سابقاً، أو يعد لها رؤوس أقلام، أو يرتجلها ارتجالا. وخطبه تؤلف زادا أدبيا وفكرياً لا يقل أهمية عن مقالاته ودراساته وأبحاثه(٣).

لقد كان أديباً مطبوعاً في كل ما يكتب أو يخطب أو يحدث، وقد فتح الله له منافذ عدة يطلق منها صوته، وساحات ممتدة ينشد فيها بيانه فبذل جهده إن شاء الله ليوفي بالأمانة التي خلق لها، والعبادة والخلافة والعمارة فحيثما طوف في الأرض كان الإسلام قضيته.

أصدقاؤه

وكان له أصدقاء مصطفون، شاء الله أن يتلازموا فترات طويلة. فكان الشاعر الموهوب أنور العطار، ومصطفى الزرقاء وجميل سلطان وسعيدالأفغاني، وزكي المحاسني، ومربي الجيل السابق الشيخ طاهر الجزائري، وأبو الحسن الندوي، ومعروف الأرناؤوط، وامتدت معارفه في كل قطر، مما يصعب حصرهم في هذه الكلمة ولكنهم أدباء بارزون وسياسيون معروفون وعلماء لا يجهلون(٤).

كان شديد العداء لأعداء الله، صريح الكراهة قوي الكلمة، يقرعهم قرعاً، ويشد عليهم حتى يتركهم صرعى. ولا يترك وسيلة لتآلف القلوب على الحق وكان لا يتردد - رحمه الله - أن يعترف بخطئه إذا بان له الحق وانجلى الأمر. كان قد كتب كلمة في إحدى صحف دمشق انتقد فيها بعض الأمور على ضوء ما بلغه. فلما زرناه استقبلنا وأحسن الاستقبال والاستماع. حتى إذا أوضحنا الرأي ووجهة النظر، سارع فاعتذر، وكتب في الصحيفة نفسها وفي المكان نفسه ما بان له من الحق وما ظهر.

كان - رحمه الله - وقافاً على الحق، يبحث عن الحجة والبينة، لا يعصف به الهوى ولا ينحرف. وكذلك قصته مع المفتش المصري في العراق، هاجمه وأغلظ في النقد، حتى إذا تبين له أين الخطأ وأين الصواب، عاد إلى الحق وكان له مواقف مماثلة.

استقلاليته

وهو يصف نفسه فيقول: «وما ركب الله في طبعي أنني طري باللطف، أبيٌّ على العنف فمن جاءني من باب اللين والمسايرة والرفق غلبني، ومن جاءني عن طريق التحدي والمكاسرة، نازلته فكسرني أو كسرته»!

ويقول: «ذلك لأن طبعي يأبى عليّ العمل الجماعي، إلا أن أدعى إلى خطبة أخطبها، أو محاضرة ألقيها، أو رأي أبديه ثم أمضي إلى سبيلي. وما انتسبت في حياتي إلى حزب ولا جمعية ولا هيئة»..!

ويقول: «وأنا مهما حاولت أن أروض نفسي على طاعة المفتشين والرؤساء لا أستطيع، وأجدني مدفوعاً دفعاً لا يقاوم إلى المنازلة وإلى مجابهة من يأمرني وينهاني مستعلياً بما أكره إلا اثنين: من كنت أرى أنه له الفضل علي بعلم أو سن أو تجربة..، ومن يجيء باللطف والأدب واللين..»(٥)!

وكان لا يحب النزول في المنازل ضيافة ويؤثر عليها الفندق ويصر على ذلك. ولكن إذا وجد غرفة أو أكثر مستقلتين، فإنه يؤثر ذلك على الفندق فهو يصف نفسه في ذلك ويقول: «لا أحب النزول في الفنادق»(٦).

أسلوب متفرد

يقول عن نفسه: «إنني اتبعت في الكتابة أسلوباً يكاد يكون جديداً، عرف بي، وعرفت به. وما كان في أساتذتي الذين قرأت عليهم، ولا في الأدباء الذين قرأت لهم، وأفدت منهم من له مثله حتى أقلده فيه وأتبع أثره، وإن كان فيهم من هو أبلغ مني، وأعلى درجة في سلم البيان..» فمن أين جئت بهذا الأسلوب؟! أعترف بأنه ليس عندي جواب حاسم على هذا السؤال.. فمن أين أتيت بهذا الأسلوب الذي أكتب به؟! لم آت به ثمرة بلا شجرة، فما تكون الثمار إلا من الأشجار، ولا أوجدت شيئاً من غير شيء..! وما مثالنا إلا كتاجر فتح دكانه على طريق القوافل، يوم كانت التجارة على طريق المقايضة، ولم تكن وجدت نقود. يمر به المسافرون دائماً، وكلما مر به أحد أخذ منه سلعة وأعطاه سلعة أخرى، ولبث على ذلك أكثر من خمسين سنة. فاجتمعت عنده مئات من الأشياء من كل صنف وكل لون. فهل ترونه يعرف كل شيء منها ممن أخذه ومتى أخذه، وما الذي أعطاه بدلاً منه! هذا مثالي ومثال من كانت حاله كحالي.. ما قرأت كتاباً ولا جالست عالماً ولا أديباً، ولا سمعت خبراً، ولا رأيت سروراً ولا كدراً، ولا نزلت بلداً، ولا قابلت أحداً، إلا ترك في نفسي أثراً. فهل أقدر أن أحصي كم قرأت من الصحف، وكم لقيت من الناس، وكم رأيت من المسرات والأحزان، وكم قصدت من الأقاليم والبلدان؟!».

اخترت هذه القطعة من كتاباته، لأنها تعرف ببعض خصائص أسلوبه، ولأنها تمثل نموذجاً كذلك.

ولكن النماذج الأدبية من كتاباته كثيرة، فأنى مددت يدك وأخذت من قطوفها، نلت ثمراً لذيذاً، أو زهراً فواحاً، كأنك تأخذ من بستان غني، أو روض ندي!



ساحة المرجة – دمشق

خصائص أسلوبه

ومن أهم خصائص أسلوبه الاستطراد، سواء أكان ذلك في الكتابة أو الحديث. ويقر هو بذلك، ويعتذر للسامع أو القارىء. ثم يعود إلى الاستطراد، فما له منه فكاك.

وأسلوبه ممتع شائق بسهولته ولينه من ناحية، وقوة تركيبه وتجانس مقاطعه، وحلاوة ألفاظه. إنك حين تقرأ له تشعر أنه يحدثك أنت، وأنك معه جالس، وإليه مصغ.

وكلما خطرت الفكاهة له جعلها من أسلوبه. فاستمع إليه يحدثك عن الرياضيات: «.. ولكنني وجدت في الرياضيات مصيبة تهون معها المصائب، هي الجذر التكعيبي. ولقد مرضت بعد ذلك حتى أشرفت على الموت، وغرقت في بحر بيروت وأنا لا أحسن السباحة حتى عاينت الهلاك، وذقت السجن مدة يسيرة في حاشرة لا أستطيع من ضيقها أن أضطجع فيها، وضللت مرة ليلة بطولها.. ولكني لم أجد أشد ولا أصعب من الجذر التكعيبي..! وليس أصعب منه إلا حل رموز اللوحات التي وضعتها أمانة العاصمة في شوارع مكة لتدل الناس على الطرق فلم أقدر أنا ولا وجدت من قدر على حلها، حتى أخي شيخ أساتذة الرياضيات! شرق «أ»، «ب» شمال، ق.ل.م جنوب غرب! ما معنى هذا؟ ولمن وضعت اللوحات؟! ما دام لا يفهمها الناس»(٧).

وأسلوبه الساخر، أسلوب متميز يجمع بين الفكاهة والسخرية يقول: «فاستقبلني مرحباً وقال إنه كان يسمع بي ويقرأ مقالاتي ويتابع أخباري. وكان عليَّ أن أصدقه أو أن أظهر أني مصدقه. ووجدت الموظفين يجلسون حوله كأن على رؤوسهم الطير، فلا يتحركون خشية أن تطير. أما أنا فلم يكن على رأسي إلا طربوشي. ووجدتهم يعظمون فيه الكرسي، لا ينظرون إليه، وإنما أنا أرى الرجل وأكلمه، وأعطيه قدر ما يعطيني..»(٨)!

والشيخ علي الطنطاوي يحلق في أسلوبه في الوصف، حتى يبلغ شأناً يعز على الكثيرين بلوغه: فقد وصف دمشق، ووصف غوطة دمشق، ووصف نهر بردى، وامتد الوصف في كثير من كتاباته، وبخاصة في رحلاته، والمناظر التي يراها، والآثار التاريخية التي يصل إليها.

ولنأخذ نموذجاً مختصراً من فيض يموج، يصف دمشق فيقول:

«.. والبساتين التي يضل فيها النظر سكران من الفتون، وهذه المنارات وهذي القباب، والمسجد الذي تكسَّرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدت عنه العصور وهو شامخ، يروي لأبناء الأرض تاريخ الأرض، منذ أن كان معبداً وثنياً إلى أن صار كنيسة نصرانية، إلى أن غدا جامعاً إسلاميا.

وهذا الجبل الذي يفتر أبداً عن مثل ابتسامة الأمل في وجوه المطالب..! لن تلقوا بعدها مدينة مثلها: ثيابها زهر، ونسيمها عطر، وحديثها شعر، وجمالها سحر..! إنها أقدم مدن الأرض العامرات، ماتت أخواتها من دهور وبقيت سالمة»(٩).

لا تنفد النماذج لو أردنا زيادة الاقتباس، ولكننا نهدف إلى الإشارة إلى أسلوبه، والتلميح إلى بيانه.

نقده الأدبي

ولا تقف الظاهرة الأدبية في كتابته فقط، وأسلوبه وصوره وسائر خصائصها، ولكنه ناقد فنان بنقده، محلل للنص الأدبي مبدع في تحليله، كأنه نهج خاص به كذلك، ينطلق من ذوق عال، وحس مرهف، واطلاع واسع، وذكاء حاد، كتب رسالة في التحليل الأدبي سنة ١٩٣٤م، ظل راضياً عنها أبداً، معجباً به.ا كانت الرسالة في أقل من عشرين صفحة تكلم فيها عن الحقيقة ومكانها في الأدب، وعرف الأدب، وفرق بينه وبين النقد، ثم تحدث عن شخصية الأديب والعوامل التي كونتها(١٠).

ومن خلال تدريسه للأدب كان يشرح القصيدة ويحللها تحليلاً جميلاً.

وكان يكتب هذا التحليل. فله دراسة لقصيدة أبي تمام التي يصف بها حريق عمورية. وعلق على وصف الطبيعة وجعل شعراءها ثلاث مراتب: أدناها يرى الطبيعة متحفاً، وأوسطها يراها مرآة تتجلى فيها حالات نفسه، وأعلاها أن يفيض الشاعر الحياة على الطبيعة، فتحس كما يحس الأحياء، وتفرح وتتألم، وتفكر وتعتبر، ويضرب مثلاً على ذلك بقصيدة البحتري في وصف بركة المتوكل، وفيها يقول[11]:

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها

في الحسن طوراً وأطواراً تحاكيها

وكذلك قصيدة «الجبل» لابن خفاجة الأندلسي:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ

يطاول أعنان السماء بغارب

وحين كان يدرس قصيدة جرير في رثاء زوجته عرض لكل من رثى زوجته من الشعراء في دراسة ممتعة، وتحليل واف، ونقد صائب. وكذلك مع سائر الموضوعات التي يطرقها في دراسته أو تدريسه فيحلل قصيدة بشار في وصف الجيش تحليلاً ممتعاً:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى

وبالشوك والخطي حمر ثعالبه

وكذلك يختار الروائع لأبي تمام والمتنبي والبحتري، ويجول فيها جولات الأديب الناقد، والحس المرهف. ويعيش مع قصيدة البحتري في وصف العرض العسكري يوم العيد، كأن القصيدة فلْمٌ يعرض الصورة والصوت، وكأننا ما نزال نسمع الصوت بعد أكثر من ألف سنة[12].

إن اختيار هذه الروائع ليدل على الذوق العالي، والاطلاع الواسع، والموهبة المتفتحة. أديب وناقد، وعالم متمكن غني الزاد.

ولقد كان يكتب في مجلة الرسالة مقالات في السياسة، والحماسة، والأدب، والنقد والقصص التاريخي. وكان يكتب في غير الرسالة أيضاً. عدد مقالاته لا يكاد هو يحصيها، وما فقد منها أكثر مما بقي.

مؤلفاته

ولم يقف عطاؤه عند هذا كله فحسب. ولكنه امتد إلى المؤلفات، فله ما يزيد عن أربعين كتاباً. فإذا بدأت قراءة واحد من هذه الكتب، لا تكاد ترغب أن تتركه، حتى لو هاجمك النعاس: قصص من التاريخ، رجال من التاريخ، قصص من الحياة، في التحليل الأدبي، سلسلة أعلام التاريخ، وغير ذلك، ففي كل ما يكتب هو مؤرخ وأديب وناقد في وقت واحد.. وحسبك «ذكرياته» في أجزائها الثمانية، علم وأدب وتاريخ وأحداث وفقه، مواهب جامعة، ورجل جامع.



الشيخ علي الطنطاوي مع بعض طلاب المدرسة الغربية في بغداد

ولقد كتب المقدمة لعدد غير قليل من الكتاب والمفكرين، ربما يزيدون عن خمسة وعشرين كاتبا. ولقد كتب مقدمة لأبي الحسن الندوي -رحمه الله-، كان يعتز بها الشيخ العالم الندوي، ولمحمود الصواف، ومقدمة ديوان أنور العطار، وغير ذلك.

شهادات

ولقد كتب عنه كثيرون ولعل كلمة الزيات في مجلة الرسالة تلقي الضوء على مكانة شيخنا الطنطاوي: «الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي كما يحب أن يدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهية.

وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب..».

وكتب العقاد عن مقالة له: «ومن أصغى إلى هذا الخطيب المطبوع وهو يتكلم علم أن أداة البيان قد تمت له لفظاً وحساً، كما تمت له بداهة ومعنى، فصوته من تلك الأصوات الغنية – كما يقولون في اللغات الأوربية– لا تحس فيها جهداً، ولا حاجة إلى جهد، لأنه يملك عليك جوانب السمع».

إنه أديب مطبوع، جعل من الأدب منزلة عالية في حياة الأمة، وأوضح سبيله، وخاض غماره. فاسمعه يقول[١٣]:

«الأديب في الأمة لسانها الناطق بمحاسنها، الذائد عن حماها، وقائدها إلى مواطن فخرها وذرى مجدها. فهل عندنا الأديب الذي عرف آلام الأمة وآمالها، وبحث فيما يسرها ويسوؤها، ثم جرد قلمه لتصوير آلامها والسعي لإبلاغها آمالها».

وأفاض في وصف الأديب الذي تحتاجه الأمة، حتى قال: «كنا نأمل أن ينشأ فينا مثل هذا الأديب.. حتى فاجأنا صوت خرج من حلق وطني بإيعاز أجنبي، يقول لأدبائنا: دعوا الوطن وشأنه، لا تسخروا أدبكم له، ولا تتعبوا أنفسكم من أجله، بل الهوا والعبوا، فما الأدب إلا ألهية..»!

حكم ومواعظ

وله أقوال جميلة ومواعظ بالغة، نأخذ منها قطوفاً يقول في إحدى مقالاته[١٤]: «كم ضاع صوت حق في صخب العامة»! ونقول نحن اليوم: لقد طلع علينا ضجيج فوق ضجيج، وصخب فوق صخب، ضاع معه صوت الحق وصخب العامة.

وقال في كلمة له عن فلسطين: «ردنا الله إلى ديننا ليردها إلينا»[١٥].



مستشار في محكمة النقض ١٩٥٧

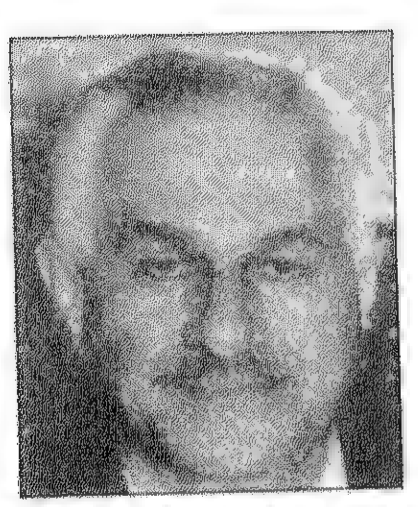
ويقول عن الحاجة إلى التفكير في قضايانا لا مجرد ترديد القديم: «كان هناك مشايخ عاكفون على كتبهم في حلقاتهم، يكررون غالباً قراءة ما قرؤوه على مشايخهم، فما كانوا يزيدون عليها، يزنون ما جد في عصرهم بميزانها، ولو كانت هذه القضايا على أيام مؤلفي هذه الكتب لبينوا حكم الله فيها، أيام كان العلماء يذكرون أن الإسلام لكل زمان ومكان. وهذه الكرات «أي الرؤوس» التي ركبها الله بين أكتافهم جعل فيها دماغاً أداة تفكير، لم يجعلها صندوقاً لشريط تسجيل»[١٦].

رحمك الله أيها العالم الشيخ، الأديب الناقد، الفقيه البصير! لا أظن أني أوفيتك حقك! ولكنها كلمة موجزة، أختمها بالدعاء والإلحاح فيه، ليغفر الله لك، ويكرم نزلك عنده، في درجة عالية من الجنة. ■

الهوامش:

١- ذكريات علي الطنطاوي، ص٢٥.
٢- السابق، ج٢، ص٧٧، ٨٤، ٥٦، ٦١، ١٠٦، ١٥٣، ١٩٨، ٢٣٤، ٢٤٦.
٣- السابق، (ج١، ص١٥٩)، (ج٢، ٨، ٥٦، ٦٢، ٦٨، ١٥٥، ١٥٩، ٢٣٤، ٢٣٥.
٤- السابق، ج٢، ص٩، ٢٦-٢٩.
٥ – السابق ج٤، ص٣٢-٣٤.
٦ – السابق، (ج٢، ص٥٥)، (ج٤، ص٤٣).
٧ – السابق، ج٢، ص٢٨٨.
٨- السابق، ج٢، ص٢١٧.
٩- السابق، ج٣، ص٤١-٤٢، ٤٦-٤٧.
١٠- السابق ج٣، ص٣٨.
١١- السابق، ج٢، ص٣٠٩-٣١٤.
١٢- السابق، ج٤، ص٦-١٢.
١٣- السابق، ج٢، ص٢٠٤-٢٠٧.
١٤- السابق، ج٢، ص٦٥.
١٥- السابق، ج٢، ص١١٧.
١٦- السابق، ج٢، ص٣٥.

شخصية المكان في ذكريات الشيخ علي الطنطاوي



بقلم: د. جابر قميحة
مصر

في ثمانية أجزاء نشر الشيخ علي الطنطاوي ذكرياته، وجاءت هذه الذكريات في ٢٤٤ حلقة، شغلت قرابة ٢٦٠٠ صفحة، وقد بدأ نشرها في صحيفة «المسلمون» سنة ١٩٨١م، وكتب الحلقة الأخيرة يوم ذكرى مولده، أي في ٢٣ من جمادى الأولى، وهو موافق للأول من يناير سنة ١٩٨٩م. ثم لقي الله بعد ذلك بعشر سنين ونصف سنة (في ١٨ من يونيو ١٩٩٩م)(١).

وذكريات الطنطاوي موسوعة مترامية للأماكن المختلفة، أماكن في الشرق والغرب، ومختلف القارات، اتسعت للمدن والقرى، والجوامع والمساجد، والجامعات، والمدارس، والدور والمنازل، والوديان، والأنهار، والبحار، والبحيرات، والجبال، والبرك، والبراكين، والشعاب، والصحاري، والجسور، والخانات، والفنادق، والحمامات، والأحياء، والشوارع، والمقاهي، والمقابر، والمقامات، والمكتبات، والحدائق، والمتنزهات.

وإذا استعرنا مصطلحا من «فن التمثيل» قلنا: إن المكان في «ذكريات» الطنطاوي هو صاحب «الدور الأول» أو «الدور المحوري» أو شخصية «البطل»، فلا تكاد صفحة تخلو من ذكر مكان - أو أماكن.

نموذجان:

ومن نماذج التصوير الموجز للمكان ما كتبه الطنطاوي عن «منارة نور الدين» في الموصل، وهي منارة مائلة كبرج بيزا..

«.. قالوا: إن هذه هي الحرباء، منارة مسجد نور الدين، نور الدين الذي رد الله علينا به، وبصلاح الدين أرض فلسطين. أفما سمعت بها؟ إن لها ثمانمئة سنة وهي مائلة، أما سمعت ببرج بيزا المائل في إيطاليا؟ قلت بلى. وعندنا في أول حي الميدان في دمشق منارة مائلة، وقد كان في جدة إلى عهد قريب واحدة تشبهها في مسجد الباشا، أعرفها. ولكن من يضمن أنها قد ظلت راكعة طول هذا الزمان - لا تسجد فوقنا الآن؟»(٢).

والنموذج السابق من النماذج «المتوقفة» للمكان الذي يهدف الكاتب إلى مجرد التعريف به، دون العودة إليه في ذكرياته.

يقول «جلبرت» في كتابه «فكرة الإقليم» The Idea of the rejion إن الجغرافيا هي فن التعرف على شخصيات الأقاليم، ووصفها، وتفسيرها»، ويضيف أن «شخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو، وأن تتطور، وأن تتدهور، ووصفها لا يقل صعوبة»(٣).

فالمكان المتطور - أو النامي - هو المكان الذي لا يكتفي الكاتب بعرض «لوحة» مسطحة له، بل هو المكان الذي يصاحبه الكاتب في تطوره معتمداً - في كثير من الأحيان على الاسترجاع Flash Back. وفي هذا النموذج نرى الطنطاوي يتخيل «فلماً» يمر به، فيتحدث - عن بغداد - بلسان الرواية «.. نحن الآن في مطلع الفيلم قبل نحو ١٤٥٠ سنة، وبغداد قرية صغيرة

عندها سوق للغنم والجمال، ومن حولها السواد فيه النخيل»[٤].

ويتحدث عن خشونة أهل هذه المنطقة وفظاظتهم، فقد «كانوا يحتربون، ويتقاتلون، إذا لم يجدوا من يحاربون ويقتلون..»[٥].

في طورثان تنقلب الحال من الكفر إلى الإيمان، ومن التقاتل إلى التوحد تحت راية جديدة هي راية القرآن.

ثم تندثر القرية ليحل محلها سنة ١٤٩هـ «بغداد أبي جعفر المنصور، التي تكلف بناؤها ١٨ مليون دينار من الذهب، إنه الرجل الفولاذي الصلب الذي بنى دولة عاشت راياتها وشاراتها، واستمر ذكرها على المنابر أكثر من ثمانمئة سنة[٦].

ويصف الكاتب بغداد، ومبانيها، وشوارعها، وقبتها الشهيرة، وتدخل بغداد طوراً جديداً في عهد المهدي بعد عشر سنين من بنائها «.. فشبت كما يشب الجنّي في القصة، واستطاعت أن تقفز من فوق دجلة إلى الضفة الأخرى.. لقد أقام المهدي الرصافة، فصارت بغداد بلدين: الكرخ «من هنا»، من جهة الشام.. والرصافة من هناك»[٧].

وتكاملت بغداد، واتصل الشاطئان، وامتدت الدور، وتناثرت القصور، وسكرت بغداد بخمرة المجد والجاه والعلم والفن، والغناء والسرور، وجاء العصر الذهبي، عصر هارون الرشيد..»[٨].

ثم «أصابتها عين الحسود.. وحلّت بها النكبة، إنها الحرب الداخلية بين الأخوين: الأمين والمأمون»[٩].

ثم يكثر المعتصم من الغلمان الأتراك الذين أصبحوا سادة الدولة، فجرّوا عليها المصائب ثمانية قرون[١٠].

ويعرض الكاتب بعض المشاهد الحديثة في بغداد من فنادق وشوارع[١١]، وعن تأثير بغداد في الشعر والشعراء يستعيد الكاتب قصة الشاعر علي بن الجهم، وكيف رق شعره، وارتقى بسكناه بغداد [١٢].

وغير ما ذكرنا، جاء حديثه عن بغداد في عشرات من الصفحات على نحو أوسع وأوفى، وذلك في أكثر من ١٥٠ موضعاً موزعة على أجزاء الذكريات الثمانية.

وبعد ذلك نذكر القارئ بحقيقة واقعية لا تحتمل الشك أو الإنكار، وهي أن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة مفاعلة، - تأثراً، وتأثيراً- وهو ما عبر عنه جمال حمدان بدقة علمية في قوله: .. للإنسان في البيئة جانبان جغرافيان: الإنسان كظاهرة جغرافية في حد ذاته، أي كعنصر جغرافي، والإنسان كعامل جغرافي، فالإنسان كساكن الإقليم الأول والأخطر، ليس فقط أبرز وأوقع وأكثف وأهم «شيء» فيه، كما هو أجله، وأرفعه. ولكنه أيضاً أفعل، وأقوى عامل في تشكيله، وتغييره وتثميره، كما هو في التعبير عنه[١٣].

فالمكان إذن لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي، وإنما يتغلغل عميقاً في الكائن الإنساني، حافرا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءاً صميمياً منها. وذلك لأن المكان هو الفسحة، أو الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم، من خلاله نتكلم، وعبره نرى العالم، ونحكم على الآخر[١٤].

المكان بين التجريد والتحميل:

قليلاً ما يصف الطنطاوي المكان وصفاً مجرداً على طريقة المدرسين من الجغرافيين، كوصفه الدقيق المفصل لمدينة «سر من رأى «سامراء»[١٥]، وكذلك ما جاء على سبيل الإشارة والإيجاز الشديد. ويكون ذلك غالباً في الأماكن التي يمر بها مروراً سريعاً، أو تلك التي لا تشد النظر، ولا تشغل منه حيزاً نفسياً.

ولكن المكان الذي نراه في ذكرياته «مكان محمَّل» ، كأنه ليس مقصوداً بالوصف لذاته، بل كآلية من آليات الكشف عن جُوّانية الكاتب، وطرح مشاعره النفسية، وعرض ما ارتبط بالمكان من وقائع تاريخية مما يقرب معالجته هذه مما يسمى «الجغرافيا التاريخية»[١٦].

ومن خلال المكان يعبر الطنطاوي عن رؤيته الخاصة للمجتمع والسياسة، والتعليم، واللغة، ويسجل الدروس المستفادة من المعروض المكاني، وما ارتبط به.

ولعل من أهم العوامل التي جعلت الكاتب يوسع من الدائرة المعنوية للمكان عاملين:

الأول: ثقافته الموسوعية الممتدة بلا حدود في مجالات التاريخ، والفقه، والأدب، والسياسة، واللغة، والتعليم، والمعارف والمعلومات العامة في العلوم الإنسانية، وبعض العلوم التجريبية، فهو - كما يقول عن نفسه «مدمن قراءة يمضي يومه كله - إلا ساعات العمل - في المطالعة، ومحادثة الكتب» [١٧] فهذا النبع الدافق، بل هذا السيل الآتي، يفرض نفسه عليه فرضا، ووراء ذلك ذكاء فطري، وحافظة قوية جداً، تحفظ ما يسمع، وما يقرأ، حتى في حالة نسيان النص يجد في نفسه القدرة على أن يرويه بمعناه[١٨].

العامل الثاني: غرامهُ بالاستطراد: وهو يسرف في أخذ نفسه، بهذه السمة إلى حد الإغراق، وفي تصوير جميل يعترف بذلك، ويشير إلى تأثره بالجاحظ فيقول: «.. عفوكم أيها القراء، لقد كنت كالماشي بين الحقول، فأغراهُ منظر بستان، فمشى إليه، وأوغل فيه حتى بَعُدَ عن طريقه، وكاد ينسى إلى أين يسير، وهذه هي علة من نشأ على كتب الأدب العربي، ومن أدمن قراءة شيخنا الجاحظ الذي سن لنا سنة الاستطراد التي تصرف عن المراد» [١٩].

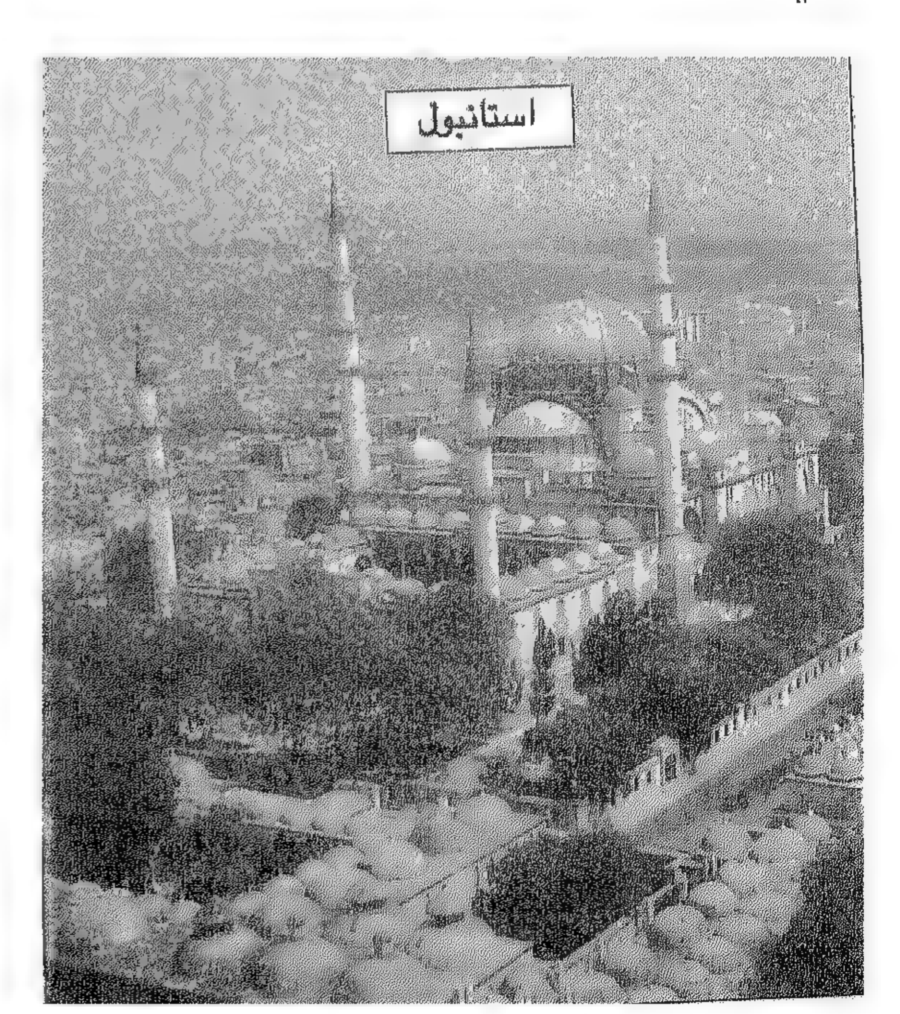
وبروحه الخفيفة يعتذر للقراء عن هذا الذنب.. «أنا يا سادتي القراء قد تلقيت حكمكم عليّ بأني أخرج دائماً عن الموضوع، وأنني أستطرد، وأنا أعترف بالذنب، وقبلت الحكم[٢٠].

فهو يتعامل مع المكان «بعقل مفتوح» يسمح – وهو يتحدث عنه – بمرور كل ما يتعلق به دون قيد، وأحياناً بدون ضابط. وصدق ذلك على كل المواد التي يعالجها، من شخصيات، ووقائع، ورحلات، وسياحات. وهذا الاستطراد يقرب الطنطاوي الكاتب من الطنطاوي المتحدث، حتى إن الفروق بينهما تنصل، وتكاد تختفي، فإذا هما شخصية واحدة منهجاً وأسلوباً، ومعتقداً، ووجداناً. ولسنا في مقام التقويم المفصل لهذه السمة، فهذا يحتاج إلى مبحث خاص مستقل. بيد أننا نقول –في إيجاز شديد – إنّ استطراد الطنطاوي – في مجال المكان بخاصة – يعطي صورة متكاملة «لشخصية المكان» بكل أبعادها: المادية والتاريخية، وما يثيره في النفس من مشاعر، وما يولده من عظات وعبر. ولكنه – وإن حقق التنويع والتلوين– يشتت الفكر أحياناً، ويقطع خط المتابعة، ويباعد ما بين المتلقي، والموضوع الأصلي، ويلقي به في متاهة وضياع [٢١].

وفيما يأتي نستعرض «المحمولات» التي نهض بها «المكان» في «ذكريات» الطنطاوي:

المكان والتاريخ:

كتب جمال حمدان: من الواضح – إلى حد البديهي – أنّ دراسة الشخصية الإقليمية لا تقتصر على الحاضر، وإنما هي تترامى بعيداً عبر الماضي، وخلال التاريخ، لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم، وعلى التعبير الحر عن الشخصية الإقليمية – فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحياناً صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها[٢٢].



والمادة التاريخية – عند الطنطاوي – هي أكثر المواد ارتباطاً بالمكان حتى فيما جاء غير مبسوط إلا في صفحة أو صفحتين، ففي حديثه عن القسطنطينية يورد قصة استشهاد أبي أيوب الأنصاري –رضي الله عنه – ودفنه تحت أسوار القسطنطينية «فما زال قبره ينادي المسلمين، حتى كتب الله ففتحها على يد محمد الفاتح، وصارت القسطنطينية» –إسلام بول– أي مدينة الإسلام، سماها بذلك السلطان الفاتح، كما سمّوا الآن إسلام آباد في باكستان، وبول، وآباد كلاهما بمعنى المدينة[٢٣]

وفي حديثه عن «معان» و«مؤتة» يستحضر الطنطاوي بطولة جيش الآلاف الثلاثة في مواجهة جيش الروم، المكون من مئتي ألف، واستشهاد أمراء الجيش الثلاثة، زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وكيف انسحب خالد بن الوليد بالجيش المسلم، فأنقذه من مذبحة محققة، «.. وإذا كان الحلفاء يفتخرون بالانسحاب من «دنكرك» أيام الحرب العالمية الثانية، فإن انسحاب خالد أعظم بكثير.. ولعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – أحد القواد الشهداء مقطوعة قالها في مؤتة. ومؤتة معروفة الآن، وهي إلى جنوبي الكرك، وإلى جنبها مدافن الشهداء في مكان يسمى المزار»[٢٤].

ولا عجب أن يكون للمادة التاريخية هذه المكانة في مقام حديث الطنطاوي عن «المكان»، فكان أكثر ما يحب قراءته كتب الأدب، وفي المقام الثاني بعدها كتب التاريخ، ولقد قرأ من شبابه كتب التاريخ الطوال، كتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.. وقرأ تاريخ الخلفاء للسيوطي عشرين مرة [٢٥].

المكان والقيم الإيمانية:

يبدو المكان في كثير من صفحات الذكريات كنقطة ارتكاز للانطلاق إلى التذكير بقيم إيمانية، وخلقية، ونفسية وتربوية، كما نرى في النص التالي:

«تجوز الصحراء فلا ترى إلا أرضاً جرداء، لا ظل ولا ماء، ولا نبتة خضراء، فإذا نزل المطر اهتزت وربت، وكسيت ثوبا أخضر من العشب والزهر، وصارت مرعى للسوائم، ومتعة للنظر، فمن أين ترونه قد جاء هذا النبات؟ من بذور صغار قد لا تأخذها من دقتها الأبصار، قد ركب الله لبعضها ما يشبه الأجنحة القصار، تحملها الرياح فتلقيها بين حبات الرمال، فلا ترى إلا تلالا من الرمل تتلظى تحت وهج الشمس.

فإذا أنزل الله الأمطار، وجمع الله لها الظروف التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات، وكان منه الزهر البارع، والثمر اليانع، أو كان منه الشوك الجارح، والسم الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه، لا سيما إنْ سمعته في الصغر، إنه بذرة خير، أو بذرة شر إذا جاءها «الظرف المناسب» وضعتك على طريق الجنة، أو على سبيل النار» [٢٦].

وينطلق أحياناً من المكان الخاص إلى التذكير بقيمة إيمانية، وترسيخها عن طريق التشبيه، كما نرى في قوله:

«أما دارنا فقد ارتفعت من حارة الديمجية إلى جادة عريضة في الصالحية من بيت صغير، ظهره للشمس في بلد شتاؤها ستة أشهر.. إلى دار واسعة تحييها الشمس ساعة بزوغها من وراء الأفق الشرقي البعيد، وتودعها قبل أن تنزل من خلف الجبل، فلا نحضر وداعها كما حضرنا استقبالها. وهذا من النعم لأن الاستقبال لذة، والوداع ألم.

وهذه هي الدنيا: علو وانخفاض، وقوة وضعف، نهار مضيء، بعده ليل مظلم، وشتاء باك بالمطر، بعده ربيع ضاحك بالزهر، لا يدوم على حال إلا الكبير المتعال..»(٢٧).

وفي حديثه عن نهر بردى يمتزج الوصف الجغرافي بالاستقراء التاريخي، والتعبير - بوجدان متوهج عن قدرة الله، وعظمته في خلق هذا النهر« .. وبردى؟ إنه سطر خطتْهُ يد الله على صفحة هذا الكون، ليقرأ فيه أولو البصائر فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل، واختص به العرب، فجمع فيه تاريخهم كله ببلاغة علوية معجزة. والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن، هو الذي جعلها في الأكوان، والله الذي أعجز أئمة البلاغة، وأئمة البيان، بسور من آيات وكلمات وحروف، هو الذي أعجز أرباب الفكر، وأصحاب العقول، بسور من بحار وأنهار وكهوف. وما «بردى» إلا سورة من قرآن الكون، أجراه في الأرض الذي أنزل القرآن من السماء، وما إعجاز بردى في أنه يجري، فكل الأنهار تجري، ولكن في أنه ينطق، وأن في كل شبر فيه تاريخ حقبة من العصور، وقصة أمة من الأمم»(٢٨).

المكان.. والنقد الاجتماعي:

ويتخذ الطنطاوي من المكان منطلقاً للنقد السياسي، والنقد الاجتماعي. وهو دائماً نقد هادف بناء، لا مكان فيه للهوى، أو المصلحة الشخصية: فبعد أن يتحدث عن دمشق وجمالها، وطيب هوائها، حتى كان أهل المملكة العربية السعودية، وأهل العراق يصيفون في دمشق نفسها، وما كان أهل دمشق يعرفون الانتقال في الصيف إلى الجبال، ويتساءل: فما الذي غيرها؟ من ألهب هواءها، وسد مسارب النسيم الناعش إليها؟ ويجيب بصراحة تامة: نحن، نحن الذين قطعوا أشجارها، الناس يزرعون، ونحن نقلع، وهم يحوّلون الصحاري بساتين، ونحن نمسخ البساتين صحراء.. حتى الغوطة الشرقية، الغوطة الكبرى، ما سلمت منا، ولا نجت من أذى أيدينا، في طرف الغوطة منطقة تدعى «درب الجوز» أعرفها أنا، فيها من أشجار الجوز ما لا يحيط بجذع الشجرة منه رجلان إذا مدا أيديهما، لست أدري من هو العبقري الذي اختارها لمنطقة المصانع، ولا متى كان ذلك، فقامت مكان الأشجار الضخمة التي تثمر الجوز، مداخن تنفث الدخان؟!! (٢٩).

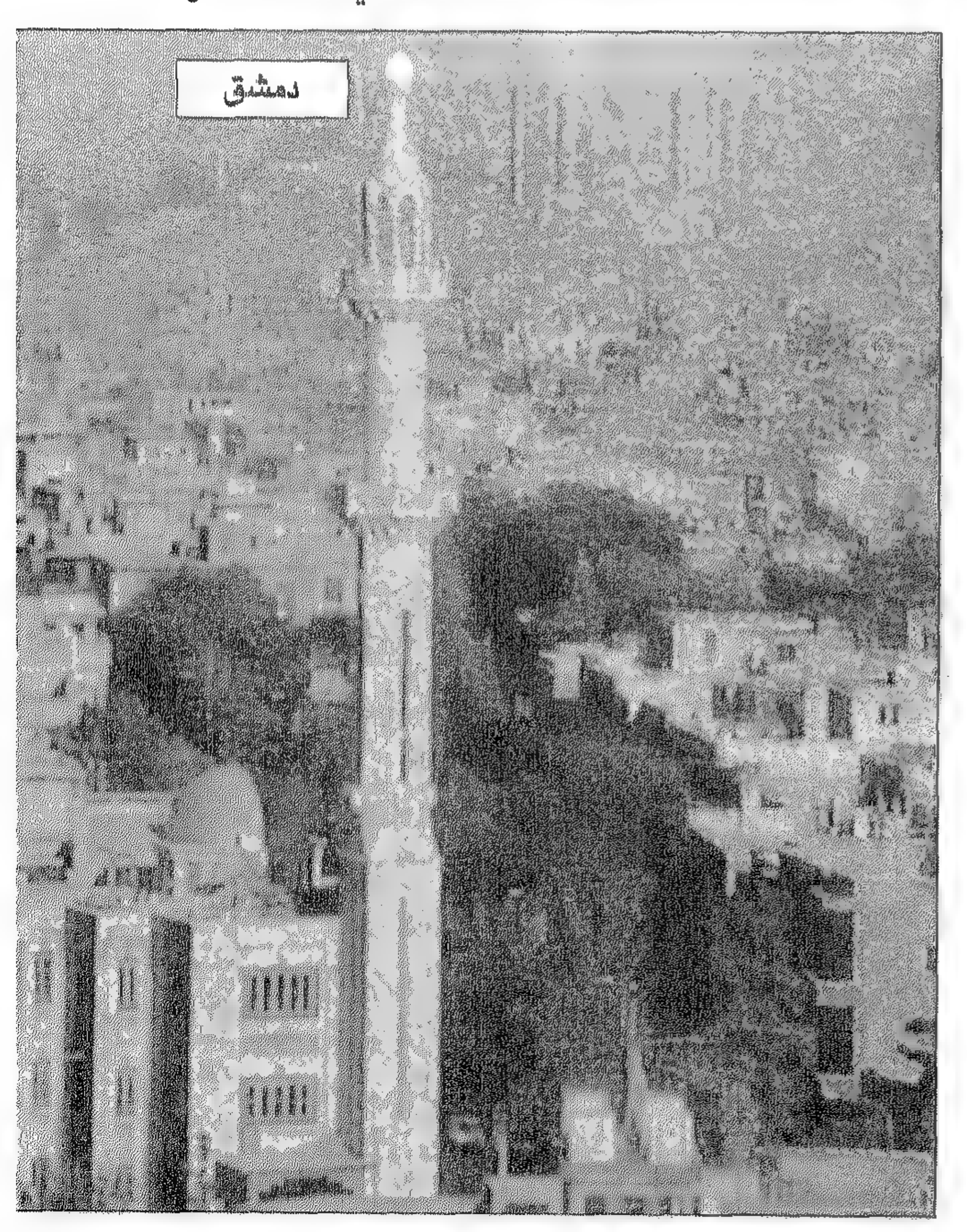
وبعد حديثه في بضع صفحات عن مكتب «مدرسة» عنبر التي تلقّى فيها تعليمه الأول يخلص إلى الحكم بأن المدارس «كانت كالبئر ضيقة الفوهة، ولكنها عميقة القرار، فصارت كالبركة الضحلة، واسعة الرقعة، ولكنها قليلة العمق»(٣٠).

وقد يأتي النقد الاجتماعي تعريضاً لا تصريحاً، فبعد أن يصف «جبل قاسيون» والأحياء التي نشأت على سطحه، والمساجد التي يبنيها الشعب من خالص ماله يذكر أنها «مساجد ليست للمظهر، ولا للزينة، ولكن لتمتلئ بالمصلين والدارسين، وجلّهم من الشباب»(٣١).

فهو في العبارة السابقة يعرض بهؤلاء الذين يبغون المساجد - لا لوجه الله، ولا حرصاً على أن يؤمها الناس للعبادة، ولكن للمظهر ، والشهرة، والصيت.

المنهج.. والملامح الفنية:

وفي نطاق المكان - بصفة خاصة - نرى الطنطاوي - في تشكيل صورته الكلية - يأخذ نفسه «بالمنهج التركيبي» الذي يعتمد على ذكر تفصيلات الموضوع وشرائحه، ومن تضامها وتلاحمها تتكون الصورة الكلية للمكان. وكان الاستطراد وراء بعثرة الكاتب لشرائح الصورة وأوصالها على صفحات متباعدة، قد تكون موزعة على بضعة من أجزاء الذكريات الثمانية، وبذلك يتحمل «المتلقي» عبء تجميع



جـزئيـات الصـورة وخطوطهـا لبناء مـعـمـارها من هذه المتناثرات.

وما أرى الطنطاوي هنا إلا كمن يقدم «حبات عقد» من اللؤلؤ متناثرة على منضدة، أو أكثر، ويترك للقارئ عملية تجميعها، وخرطها في سلك واحد، حتى يتشكل هذا العقد، ويكون صالحاً للاستعمال. فهو أراد، أو لم يرد - يشرك المتلقي معه في عملية «ضم المتناثر»، وتجميع المتفرق في وحدة واحدة، حتى تخرج الصورة في شكلها الفني الأخير.

ونادراً ما تكون صورة المكان «صورة جغرافية خالصة»، ولكنها - في الأغلب الأعم «جغرافية تاريخية قيمة» تبرز الأبعاد الحسية في دقة وتفصيل، وابتداء من الدور والبيوت، وانتهاء بالقرى والمدن، والبلدان والأقطار، ومروراً بالجبال والوديان والأنهار، والشوارع والحدائق.

والمكان المطروح جغرافياً - بما فيه من تفصيلات - يبرز - لا كخارطة مرسومة - ولكن كلوحة نابضة بالحركة، وهي في ذلك تذكرنا بقول البحتري وهو يصف لوحة رآها في إيوان كسرى، تمثل القتال بين الروم والفرس، ويختمها بقوله:

تصف العين أنهم جد أحيا
ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقرّاهم يداي بلَمْسِ[٣٢]

وهذا الحكم يصدق على الصورة التي قدمها الطنطاوي لدار أسرته في حالين:
الحال الأولى: حالها وقد أخنى عليها الدهر وأغفلها أهلها فأصبحت «الدار مخربة الجدران، والقوس مهدّمة الأركان، والأرض قد تحطم بلاطها، وتكسرت حجارتها، وفي وسطها بركة ما فيها ماء، وليس عليها رواء، وحول الصحن غرف مهترئة الأبواب، مخلعة النوافذ..»[٣٣].

أما الحال الثانية، فبعد أنْ جددت، وتولتها يد العناية.. «فالأرض تفرش بالحجر المنقوش، والمرمر الصافي، والجدران تكتسي الرخام ذا الألوان، والنقوش الروائع الحسان، وتتجدد البركة، ويعود إليها رواؤها، ويجري فيها ماؤها، أما القاعة فيكون فيها مثل ما في «قاعات» الدور الكبار في الشام: فسقية، وهي طبق من الرخام المجزع، والحجر المزّي «نسبة إلى المزّة في دمشق» منحوت بيد صناع مقرنص الجوانب، ينصب فيه الماء من نوافير صغار، ترسم خطوطها متعاطفاً بعضها على بعض، يكون منها مثل القبة الصغيرة، إذا تكسرت عليها أشعة النور، بدت كأن فيها ألفي حجر من الماس، ثم ينصب الماء من الجوانب إلى طبق مثله أكبر منه، وكذلك ينتقل الماء من طبق إلى طبق بأبرع صناعة، وأجمل فن»[٣٤].

شعرية الأسلوب:

أسلوب الطنطاوي - تصويراً وتعبيراً - يتسم بالشاعرية، وخصوصاً في وصف الطبيعة، والأماكن المفتوحة، فهو يأسرنا بالخيال الابتكاري البارع، والكلمة الموحية النابضة، فممّا قاله عن حديثه عن مزارع الأرز في جاوة بأندونيسيا «.. ورأيت الزهر من خلال الأرز كالشقائق الحمر خلال خضرة القمح في بلادنا، فلما دنا بنا من ذلك القطار، رأينا ما حسبناه زهراً ليس بالزهر، وما ظنناه من النبات، ليس من النبات، إنما هو البنات الحاصدات بأزرهن الملونة «أي الفوط» التي تحكي الزهر بنقشها ولونها، وعلى رؤوسهن قبعات الخوص الكبار كأنها المظلات المنقوشة..



.. وما مزارع الأرز إلا قطع من الأرض جردت من أشجارها، وسلبت من الغابة، فهي تحاول أن تتوارى مستحيية كأنها الفتاة العذراء جردتها من ثيابها، وتركت المصون من جسدها نهب العيون، تحتمي بالغابة فيحميها دوحها، ويحف بها من كل جانب..»[٣٥].

وهذه الابتكارية التصويرية تعتمد غالباً في طروحها على سمة «التشخيص»، ويعني بث الحياة والمشاعر الإنسانية أي البشرية على غير العاقل من حيوان، ونبات، وجماد.

والتشخيص يرتبط بتوهج عاطفة الكاتب، وارتفاع حرارة شعوره، فهذا التوهج يبعده عن الوصف الحسي المجرد، أو المباشرة، ويشده إلى «تشخيص » المشاهد، فمن حديثه عن جبل قاسيون «.. الجبل الذي يلوح لي جاثماً على حافة الأفق هو قاسيون، وهذه المنازل المائلات صفوفاً كالأولاد المدللين، في حضن الأب الحاني، هي أحياء السفح: الأكراد، والصالحية، والمهاجرين. وهذه العمد البيض السامقة، التي تشبه أصبع المتشهد، يشير بكلمة الحق نحو السماء، هي مآذن المساجد..»[٣٦].

وإذا كان التشخيص قد جاء على سبيل «التشبيه» فإنه في مواضع أخرى - وعلى نحو أكثر - قد جاء ببث الحياة



والنبض مباشرة في الموصوف، فكأنه كائن بشري – لا على سبيل القياس والتشبيه – ولكن على «سبَيل الواقع»، فهو يقول عن بردى « .. بردى الذي يصل «المرجة»، بعدما انشق عنه أبناؤه الستة: يزيد، وتورا، وباناس، والقنوات، والقناة والديراني..»(٣٧).

«.. بردى الذي دفنوه حيا، وجعلوا قبره شارعاً تطؤه الأقدام..»(٣٨).

ويلحق بالتشخيص ظاهرة أخرى هي «التجسيم» أو «التجسيد»، وتعني إبراز المعنوي في صورة حسية، غير بشرية، وإلا كنا أمام تجسيم وتشخيص معاً، أي «صورة حسية مشخصة» ومثال التجسيم ما نراه من حديثه عن الشام، بعدما قسمها «جورو» إلى أربع دول «.. انهار البناء الضخم الذي أقمناه من أمانينا وآمالنا، وهوت الدولة العربية التي نفخنا فيها من أرواحنا، وسقينا شجرتها من دمائنا، وهبطنا من ذروة الأمل الكبير، إلى حضيض الواقع المرير..»(٣٩).

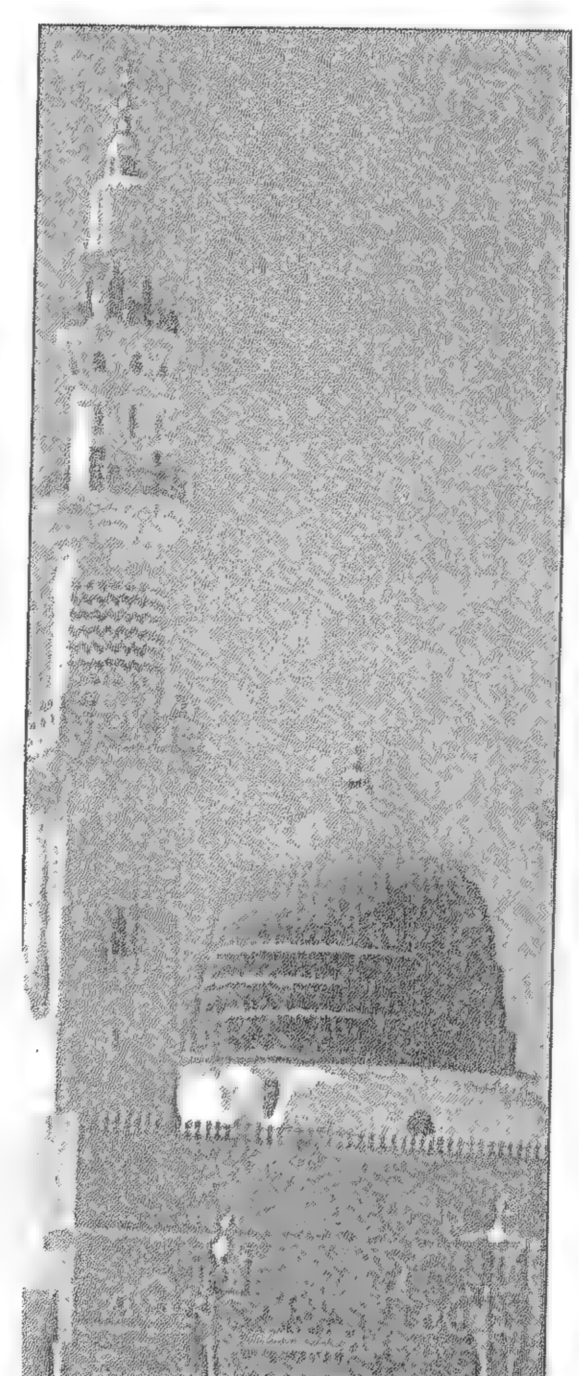
ومن التصوير التجسيمي البديع ما نقرؤه في سياق حديثه عن غزوة الخندق، «.. لقد صد الأحزابَ الخندقُ الذي حفره المسلمون في الأرض ليحول بينهم، وبين الوصول إلى المدينة، ليحمي موطن الإسلام من أعداء الإسلام، والخندق الذي حفروه قبله في نفوسهم ليحول بينها وبين الشبهات والشهوات، والمذاهب الباطلة والعقائديات، ويحميها من كيد الشياطين، شياطين الجن، وشياطين الإنس..» (٤٠).

ومن التجسيم كذلك تحويل الحسي إلى حسي آخر أقوى منه حضوراً، وأشد منه تأثيراً. ففي سياق حديثه عن البيت الذي سكن واستقر به في البصرة، ولم يكن له فيه من الأثاث إلا سرير من الحديد، وكرسيان من الخشب، ومنضدة رخيصة، يأكل عليها، ويكتب عليها. وكان الذي يُطَيِّر النوم من عينيه، ويسكنه الأرق راد «أي راديو» رهيب الصوت في مقهى مجاور«.. وكنت أرى الأصوات، وأنا مغمض العينين، وأحس بها، نعمْ والله! فصوت رفيع ثاقب مثل سنان الرمح، وصوت حاد مثل شفرة السيف، وصوت ضخم مثل صخرة الجبل، وصوت أجش مثل عربة دواليبها من الحديد تمشي على أرض مبلطة بالحجارة، أراها بالعين فلا أنام حتى أشعر كأن أعصابي قد تمزقت، وتقطعت، وأقوم لصلاة الفجر كالذي مشى عليه فيل فحطم عظامه، ثم أصبح فأغدو إلى المدرسة» (٤١).

المزج النفسي

وتزداد عاطفة الكاتب توهجاً تجاه أماكن معينة كتلك التي انبثقت منها قيم عقدية، وروحية، أو كانت ذات بصمات غائرة وجهت مسيرة الكاتب الخاصة أو العامة، فيتحقق التلاحم، أو المزج النفسي بين الشاهد والمشهود، بين النفس والمكان.

وعلى سبيل التمثيل نرى الكاتب يتحدث عن المدينة المنورة، ويربط بين الماضي والحاضر، ويتحدث عن الخندق، وهزيمة الأحزاب، ويستحضر صبر المسلمين في حفر الخندق، وكيف نصرهم الله على أعدائهم. ويمتزج الكاتب بالمكان، وذلك بالضمير الجمعي: ضمن «النحن»: .. من هنا طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع، ولكن أين ثنيات الوداع؟.. لقد خلد اسمها هذا النشيد الذي بقي في الأذهان، على طول الزمان.. لقد غردت به ولائد المدينة، تستقبل به الطفولةُ المبرأةُ رسولَ الله المبرأ من العيوب..



يا ولائد المدينة ما طلع البدر عليكن وحدكن، بل عليكن وعلينا، على الدنيا كلها، يزيح ظلام الباطل الطويل الثقيل عن صدرها..(٤٢).

إنه مثال «للمزج النفسي الجمعي»، وكأنه يتحدث بلسان المسلمين والجنس البشري، ولكن الحلول النفسي الآحادي له كذلك حضوره في النصوص التي عالج فيها المكان.

أسلوب المناجاة:

وفي التعامل مع المكان نرى الكاتب عندما تتوهج عاطفته – زيادة على خياله الابتكاري، وتوظيفه التشخيص والتجسيد – يكثر من أسلوب المناجاة، أي توجيه الخطاب إلى المشهد، وانصرافه الكلي إليه بتنميق أسلوبي آسر، وإيحاء قوي مؤثر، مع إطالة حبل الحديث، والتكرار المعنوي، وذلك للتلذذ بالذكر، أو للتخفيف من لاعج نفسي أليم، ونقدم فيما يلي سطوراً اقتطفناها من بعض النصوص:

– «.. أهاج ذلك عاطفتك يالبنان؟ أحرَّك قلبك كل ذلك أيها الجبل التياه..؟ وأنت أيها البحر الرقيق السيال هل أنت أرهف شعوراً، وأرق عاطفة؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء، وأنت تلتهم الأحياء..» (٤٤).



– «.. وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق، والعدد والآفات، فسلوا الفرنسيين: هل أرحناهم يوماً واحداً من يوم ميسلون إلى يوم الجلاء؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها في خمس مواقع؟.. سلوا الغوطة عن معارك «الزور» وعما صنع حسن الخراط.. سلوا النبك وجبالها، وحماة وسهولها، وجنرالات الفرنسيين عن بطولة مجاهدينا، إن لم أعدهم اليوم، فما يجهلهم أحد» [٤٥].

والطنطاوي – في النصوص السابقة، وغيرها كثير – يعتمد على «الالتفات» وهو – كما عرفه ابن المعتز – انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة [٤٦] أي التحول بالخطاب من المخاطبين إلى الغائبين، أو من الغائبين إلى المخاطبين.

وسر بلاغة الالتفات أن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، إنما يستعمل للتفنن في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه.

وإطالة الإنصات إلى أسلوب واحد يصحبها الملل والانصراف عن المتكلم، والمغايرة في الأسلوب تجديد لنشاط السامع، وكذلك المغايرة في المعاني.. وقد يكون من أسبابه تعظيم شأن المخاطب بالتوجه إليه، أوالانصراف عنه [٤٧].

ومن تنويعات الكاتب كذلك المراوحة بين الأساليب الخبرية، والأساليب الإنشائية، وكذلك بين الجمل القصيرة والجمل الطويلة، وإن كان يؤثر الجمل القصيرة في «مناجياته» أي خطابه الموجّه إلى المخاطب، لأنها أعمر بالموسيقا والجرس المتقارب، فهي –غالباً – أسرع في الجذب والتأثير.

وأسلوب الكاتب – على سموه وجلاله – يتسم بالوضوح والسهولة، فقد تبرأ من الغريب والمهجور، كما يكثر – إلى حد الإفراط – من الشواهد التراثية، وخصوصاً الشعر.

وفي حدود المكان بخاصة، حينما يتفاعل الطنطاوي معه إلى درجة المزج أو الحلول بعاطفة متوهجة تسري في أعطاف الماضي والحاضر، وخصوصاً إذا عالج المكان بأسلوب «المناجاة» نراه يتحول من «الرؤية» إلى «الرؤيا»، وهي – كما يقول أحد النقاد – طاقة إضاءة وتغلغل، وتجاوز، والتقاط وتجسيد، تضيء المعتم، تتغلغل عبر ما هو مادي، وتتجاوزه، وتلتقط أنفاسه الداخلية وتجسدها [٤٨].

بين الطنطاوي والأميري:

وأسلوب الطنطاوي – بالسمات التي ذكرناها آنفاً – يقترب– إلى حد كبير من أسلوب عمر بهاءالدين الأميري في المطالع النثرية التي صدر بها كثيراً من قصائده [٤٩].

وطبيعة بحثنا هذا لا تسمح بموازنة شاملة بين الأسلوبين، لذلك نكتفي بمثال نثري واحد للأميري، وسيرى القارئ قوة التشابه بين الأسلوبين، والنص التالي صدر به الأميري قصيدة نظمها في المدينة المنورة:


عمر بهاء الدين الأميري

واقتربت المدينة، وأخذنا نتجه نحو مطارها، كانت أخاديد الرمال تتراءى للخاطر اللهفان سطوراً من تاريخ مجيد، وتتلامع من بعيد أطياف القبة الخضراء. كنت موزعاً بين الأرض والسماء، وكلما تدرجت الطائرة إلى الهبوط كنت أشعر بتصاعد الشوق إلى الرحاب الغرّ، حتى إذا بلغنا الثرى الطاهر تسارعت خفقات القلب، واستعجلت السيارة تطوي بي الدرب[٥٠]

بين الطنطاوي وأبي الحسن الندوي:

كتب أبو الحسن الندوي سيرته الذاتية في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان «في مسيرة الحياة» وصفه الشيخ علي الطنطاوي بأنه «ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب، فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء، ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس، وأوضاعهم في الهند [٥١].

فهو يلتقي مع ذكريات الطنطاوي في صفة «الموسوعية» وهو مثله عرض لمئات من الأماكن، من مدن وأقطار، وقرى، وأنهار، وشوارع، ومدارس، ومساجد، وصحارٍ، وآثار.

وينطلق الرجلان من منطلق دعوي عقدي، بعاطفة دينية قوية جياشة، وكل منهما عاش لخدمة الإسلام والعلم والأمة الإسلامية، وحاول أن يؤدي رسالته هذه في حماسة وإخلاص.

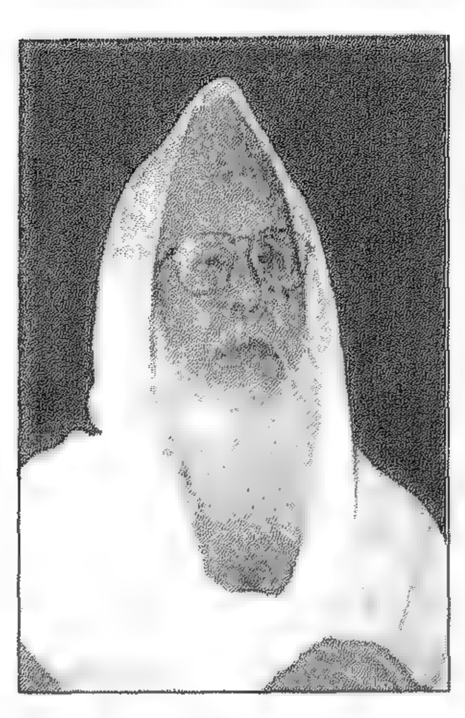
«وقد صور الشيخ أبو الحسن البيئة التي عاش فيها، ابتداء من البيئة الأسرية، وبيئة المجتمع العام، وكثيراً من الملامح والأبعاد الاجتماعية والدينية والعلمية والسياسية في البلاد التي زارها، وكان له حضوره الفاعل الذي يحس به من يقرأ مسيرة حياته، وكأنه نقطة مضيئة، تسبح في كل أفق يعرض للحديث عنه في سيرته» [٥٢].

وسيرة الندوي أكثر انتظاماً، والتزاماً بالتاريخ، وبعداً عن الاستطراد. كما كان أسلوبه – في أغلبه – أسلوباً مباشراً في معالجة موضوعاته، وهو أسلوب جاد ليس فيه خفة دم الطنطاوي وسخرياته المرة، وإن لم يخل من النقد الذاتي، والصراحة والنقد الاجتماعي، والنقد السياسي. والذي يهمنا هنا هو مكان «المكان» في السيرتين، والموقف النقدي لكل منهما من الأماكن التي عرض لها.

وفي إيجاز شديد نقرر أن الندوي عرض بعض الأمكنة مرتبطة بوقائعها، وطوابعها التاريخية والقيمية، وما تثيره في النفس من أشجان وآلام، أوآمال وطموحات، كما نرى في المثال التالي وهو يتحدث عن الأندلس: «.. لقد كان أهم أجزاء هذا السفر، وأحبه إليّ هو زيارة الأندلس «أسبانيا اليوم»، ولا أذكر بلداً عاش فيه المسلمون، ثم محيت منه آثارهم، واندرست ديارها، وشعرت في زيارته بذلك الأنس، والقرب، والود، والجاذبية الفتّانة، حتى كأن أجواءها تعانقني، وتضمني إلى جوانحها، وتحكي كل ذرة من ذراتها رسالة الحب والأنس، كما شعرت في زيارتي للأندلس، لقد وجدت في الصلوات هناك، ووجدت في ذكر الله من الرقة والتأثير ما لم أجده إلا في أماكن معدودة» (٥٣).

ولكن أسلوب الطنطاوي أقرب إلى الشاعرية والجمال والشفافية، وقوة الإيحاء، والتوهج العاطفي، فهو أديب بفطرته، والطوابع الجمالية على أسلوبه ووجهته أغلب، أما الندوي فعنصر الفكر يأتي عنده في المقام الأول، وبالمعيار الكمي نرى «أماكن» الطنطاوي تفوق «أماكن» الندوي عدداً، كما كانت وقفات الطنطاوي أمام أماكنه أطول، وأكثر تأنياً، لأنه – في الغالب – يعالجها معالجة الأديب الفنان، لا معالجة العالم الرحالة.

وبعد هذه المسيرة أعتقد أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن «ذكريات الطنطاوي» تعد كسباً كبيراً وإضافة قيمة جداً للفكر والأدب واللغة والأخلاق، كما أنها ألقت الأضواء كثيفة على دروب نفسه العقلية والروحية والنفسية، وكشفت عن طبيعة العلائق التي تربطه بوطنه، والعالمين العربي والإسلامي، ورؤيته الخاصة للحياة والناس، ومنهجه في استخلاص الدروس والعبر من أحداث مسيرته العُمْرية المباركة المبرورة.

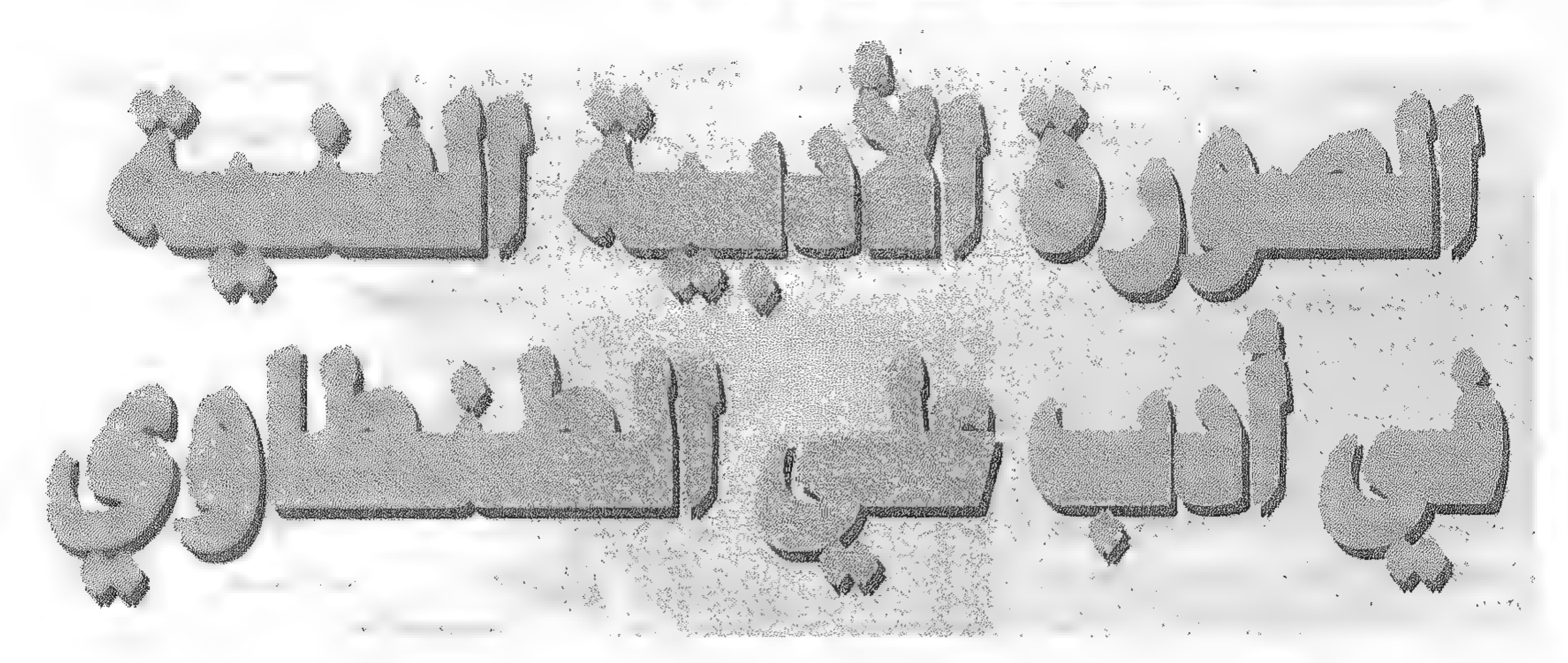

أبوالحسن الندوي

وهذه الذكريات القيمة أراها تفتح صدرها لبحوث ودراسات رأسية أقترح موضوعاتها على الباحثين، وخصوصاً الشباب، ومنها: الشخصية الإنسانية في ذكريات الطنطاوي – العروبة والإسلام في الذكريات – الجانب الأخلاقي والتربوي في الذكريات – الصورة الفنية فيها – ظاهرة الاستطراد فيها – روح الفكاهة والسخرية في الذكريات .. إلخ.

رحم الله الشيخ الجليل، ونفعنا بما خلف، وما خلف كثير جليل عظيم، والحمد لله رب العالمين.■

الهوامش:

١– انظر مقدمة «ذكريات» ١/٥–٧ وانظر لمجاهد مأمون ديرانية: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء ١٢٦ – ١٢٨.
٢– ذكريات ٥/١٦٩.
٣– عن كتاب جمال حمدان: شخصية مصر ١/١٦.
٤– ذكريات ٣/٢٤٦.
٥– السابق ن.ص.
٦– انظر السابق٣/٢٤٧.
٧– السابق ٣/٢٤٨.
٨– السابق ن.ص.
٩– السابق ٣/٢٤٩.
١٠– السابق ن.ص.
١١– انظر السابق ٣/٢٨٨ ، ٣/٢٩٩.
١٢– انظر السابق ٧/٣٢٤ – ٣٢٥.
١٣– شخصية مصر ٣٢ – ٣٣.
١٤– خالد حسين: شعرية المكان ٦٠
١٥– ذكريات ٤/٢٥ – ٢٩.
١٦– عن كتاب جمال حمدان – شخصية مصر ص ٥٥
١٧– مجاهد مأمون ديرانية في كتاب: علي الطنطاوي أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء: ٨٢.
١٨– انظر في تعريف الاستطراد معجم البلاغة العربية – بدوي طبانة ٣٧١.
١٩– ذكريات ٢/٧ .
٢٠– ذكريات ٣/٤٦ وانظر ١/١٩٦.
٢١– انظر مثالاً لهذا النوع من الاستطراد في «ذكريات ١/١٣١ – ١٣٢.
٢٢– شخصية مصر ١٣.
٢٣– ذكريات ٦/١٢٢ .
٢٤– ذكريات ٧/٣٢٠ .
٢٥– مجاهد مأمون: مرجع سابق ٨٣.
٢٦– ذكريات ١/٧٤.
٢٧– ذكريات ١/٨٩.
٢٨– ذكريات ٢/٢٤٢.
٢٩– ذكريات ١/١٣.
٣٠– ذكريات ١/١١٤.
٣١– ذكريات ١/١١٨.
٣٢– ديوان البحتري ١/ ١٦٣.
٣٣– ذكريات ١/ ٢٠.
٣٤– ذكريات ١/٢١ – وانظر كذلك وصفه المفصل الدقيق لمكتب (مدرسة) عنبر، حيث تلقى تعليمه الثانوي (ذكريات ١/١٠٩).
٣٥– ذكريات ٦/١٥٢.
٣٦– ذكريات ١/١٨ وانظر كذلك حديثه عن وادي بحيرات في ذكريات ٣/٤٧. وقد شخص دمشق كثيراً – انظر مثلاً ٨/٢٦١.
٣٧– ذكريات ١/٥٥.
٣٨– ذكريات ١/٥٨ – وانظر كذلك ١/٢٥٤.
٣٩– ذكريات ١/٨٦.
٤٠– ذكريات ٣/١٦٥.
٤١– ذكريات ٤/٤٤.
٤٢– ذكريات ٣/١٦٥.
٤٣– ذكريات ٨/١٦١.
٤٤– ذكريات ٣/٢١٠.
٤٥– ذكريات ٨/٢٦٣.
٤٦– بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية ٦١٤، وقد أورد المؤلف تعريفات أخرى من صفحة ٦١٥ إلى صفحة ٦١٨.
٤٧– السابق ٦١٨.
٤٨– ساسين عساف: الصورة الشعرية ٤٩.
٤٩– انظر: جابر قميحة: شرائح النثر في شعر عمر بهاء الدين الأميري وخصوصاً الصفحات من ١١ إلى ٢٨.
٥٠– الأميري: نجاوى محمدية ٢٤، وانظر كذلك تصديره لقصيدة «وساد من صخر» في ديوانه: قلب ورب ٨٠، وتصديره لقصيدة «غربة روح» في ديوانه «ألوان طيف» ٢٨٣.
٥١– من تقديم الشيخ علي الطنطاوي: في مسيرة الحياة للندوي ١/٩.
٥٢– جابر قميحة في مسيرة الحياة: الأبعاد والمنهج ٨٨ «دراسة عن سيرة أبي الحسن في مجلة الأدب الإسلامي: العددان ٢٦، ٢٧، ١٤٢١هـ(ص ٧٦ – ٩٥).
٥٣ – أبو الحسن الندوي: في مسيرة الحياة ١/٢٩١.



تلعب الصورة الأدبية دوراً كبيراً في صياغة العمل الأدبي، سواء أكان شعراً أم نثراً، ذلك أن العمل الأدبي يأخذ تأثيره الفعال فيما يقدمه من فكر وعاطفة وحسن تصوير وبيان.

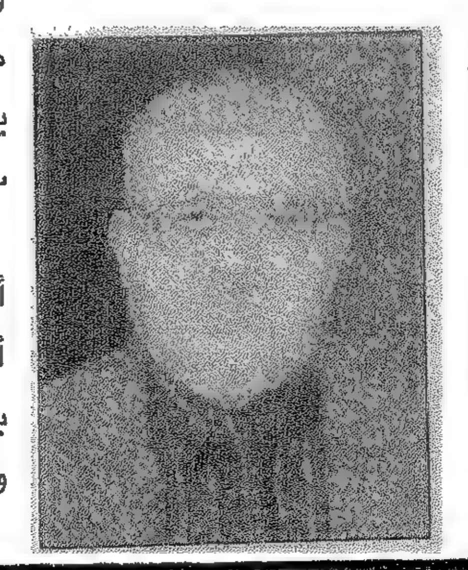
وهذا الذي يفرق بينه وبين الكلام العادي.

وفي هذا الميدان تتفاوت القدرات فيرتفع أديب ويسمو، ويتبلد أديب آخر فيسقط.

وتؤدي الصورة الأدبية بشكل بارز مهمتها في توضيح المعنى وإبرازه وتقريبه إلى أذهان القراء أو السامعين، كما تؤدي مهمة أخرى لا تقل أهمية عن الأول وهي إعطاء الكلام صورة جمالية مؤثرة تحرك المشاعر، وتثير الأحاسيس، وتدفع إلى الإعجاب، وتسعد النفس وتبهجها، أو تجرها إلى الحزن والأسى.

اعتماده على الصورة الأدبية:

والمتتبع لأدب الأستاذ الطنطاوي يرى أن هذا الأدب في معظمه قد بني على الصورة الأدبية واعتمد عليها في التأثير على القارئ أو السامع بشكل يبدو أحياناً متجاوزاً حد المتوقع والمعقول إلى نوع من الجمال والحس والشفافية والتأثير.. ونحن في دراستنا للصورة الأدبية عنده نريد أن نعرض لهذه الصورة بشكل موضوعي نقدي فنعطيها حقها دونما مبالغة أو نقص مقرين منذ البداية أن بحث الصورة الأدبية عند الطنطاوي لا توفيه مقالة ولا مقالات، بل هو بحث جدير بالعناية والاهتمام، وإني لأنصح إخوتنا من طلاب الدراسات العليا أن يجعلوا الصورة الأدبية عند الطنطاوي موضوعاً لدرجة الدكتوراه، فالميدان رحب والساحة واسعة.


بقلم: محمد سعيد المولوي
سوريا

أولع الطنطاوي بالقراءة والمطالعة حتى استغرقت أوقاته كلها. ولقد حدثنا عن ذلك فقال: «لقد قرأت قبل مكتب عنبر» وفي سنواتي الأولى فيه كتباً لا أكون مبالغاً ولا مدعياً مغروراً إن قلت إن في الأساتذة اليوم من لم يقرأها. ذلك أني كنت أمضي وقتي كله - إلا ساعات المدرسة في الدار.

لم أتخذ لي يوماً رفيقا من لداتي ولا صديقا من أقراني ولم أكن - بحكم تربيتي ووضع أسرتي - أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي كان يلهو بمثله أمثالي فلم يكن أمامي عمل أنفق فيه فضل وقتي وأشغل به نفسي إلا المطالعة»[1].

وليس يخاف على أي بصير في الأدب أن هذه المطالعة الواسعة العظيمة قد كونت للشيخ



ثقافة واسعة نجدها في ظاهرة الأدب الموسوعي التي يتسم بها أدب الطنطاوي، فليس من طرف من أطراف المعرفة إلا وللشيخ فيه كتابة وتأليف إلا ما ندر مما لم يكن يجد فيه نفعاً للإسلام والمسلمين.

الطنطاوي بين الأدب العربي القديم والجديد :

منذ البداية انحاز الطنطاوي إلى مدرسة الأدب العربي القديم فكانت صلته به استمراراً لصلته به في دمشق. وكان يرى في كتابات شكيب أرسلان ومصطفى صادق الرافعي ومن سار على نهجهم مثالاً للفن الأدبي في مضمونه وأسلوبه، لكنه سرعان ما ائتلف مع الجديد ومدارسه في الأسلوب والصورة، وظل محافظاً على المضمون والمعنى بما ينسجم مع عقيدته ودينه وما ورثته أمته من تراث.

لقد بدأت أولى علامات التأثر عند الطنطاوي بالأدب العربي بما قرأه في دمشق في النظرات للمنفلوطي، وما قرأه في آلام فرتر لغوته. والحقيقة أن كل من قرأ آلام فرتر يعلم أن ذلك الكتاب من أروع الكتب الإبداعية المؤثرة في النفس، وفي رأيي أن هذا الكتاب هو الذي ربط الطنطاوي بكتاب أوراق الورد للرافعي، فكل من الكتابين آلام فرتر وأوراق الورد يثير العواطف ويحرك النفس ويرتبط بالخيال ويسخر البيان للتأثير.

ولا يمكننا أن نهمل تأثير المقالات التي كتبها الرافعي تحت عنوان من وحي القلم. ذلك الكتاب الرائع الذي خاطب كلاً من العقل والعاطفة، فقد كان لهذه المقالات تأثيرها في كل من كان يعتز بالثقافة الإسلامية، والطنطاوي واحد من هؤلاء.

كانت الصورة الأدبية الفنية من أعظم الوسائل في تأدية الرافعي لبيانه. وكثيراً ما كانت الصورة عند الرافعي تلتقي بالمدرسة الإبداعية وتشتبه بها، ولست أشك أن الطنطاوي كان من أكثر الناس تأثراً بذلك.

لقد حدد الطنطاوي مهمة الصورة بتصوير مشاهد الحياة ومشاعر النفس، وهل الحياة كلها إلا ما كان خارج النفس من مشاهد الحياة ومظاهر الكون وما كان داخل النفس من مشاعرها وعواطفها؟!! لقد أحاط بغاية الدنيا والوجود، وأراد أن يصور الإنسان في داخله وضمن محيطه، وأي شيء يريد الأدب أكثر من ذلك؟! ونقدم فيما يلي دراسة عن حقيقة الصورة الأدبية وخصائصها الفنية عند الشيخ علي الطنطاوي.

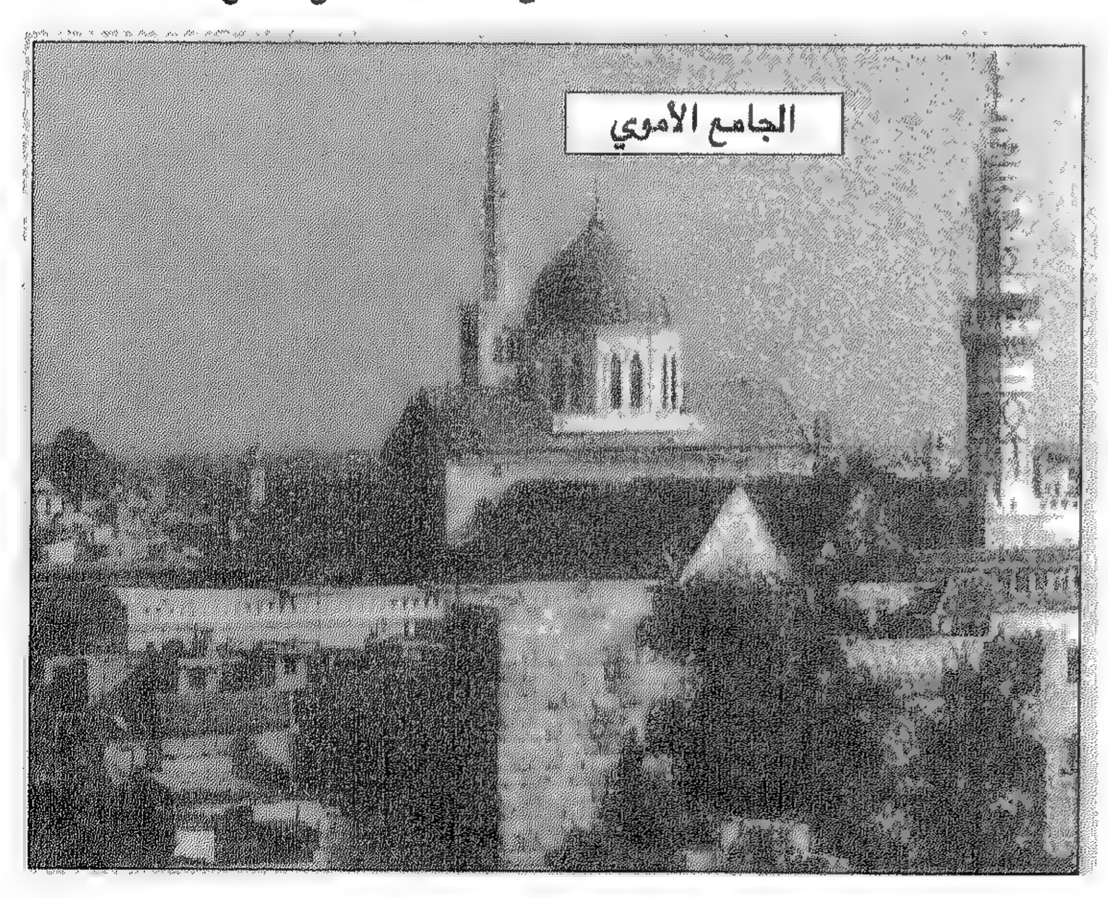
تصنعه في بدايات أعماله :

لست أشك أن الطنطاوي كان يتصنع في بداية أعماله الأدبية، وكان يقصد من ذلك إظهار القدرة الأدبية، وأن يثبت نفسه ووجوده بين الكتاب، ولا سيما في تلك المرحلة التي عاشها في مصر، وكان عليه أن يقف إلى جانب كبار الكتاب والأدباء، وأن يكون من كتاب الرسالة والزهراء وغيرها من المجلات والصحف. ونحن حين نرجع إلى مقالته «وقفة على الغار» التي نشرتها مجلة الزهراء ١٣٤٧هـ ج ٥/٤١١ نرى التصنع في صياغة الصورة الأدبية، ونحس أن الكاتب قد فكر طويلاً وهو يلملم أطراف الصورة ويؤلف بينها.. «حتى إذا غاصت الشمس في لجها ونشر الكون ثوبه الأسود ليلقيه عليه حداداً عليها قذف الله الروح في هذا التمثال فصحوت ونظرت إلى القرية، وكأني أنظر إليها من نافذة قصر لا من مدخل واد، فرأيت رؤوس الأشجار وذرى البنى وهي لا تزال متوجة بإكليل من العسجد مصنوع من أسلاك النور، فنهضت لأدخلها قبل أن يسدل الظلام حجابه عليها، فيسد طريقي إليها، وهممت بوداع هذه البقعة التي استحال ما فيها من سكون، وما لأمواهها من خرير، من جميل هادئ إلى مفزع رهيب منذ استحالت حلته الزاهية حلة من الظلام»[٢].

ونحن نحس هذا التصنع في هذه المبالغات التي حشرها في الصورة الأدبية التي عرضها. فالكون يحزن إن غابت الشمس فيلقي ثوبه الأسود حداداً عليها.. والظلال التي خلفتها أشعة الشمس حين الغياب على رؤوس الأشجار والبنى تيجان من ذهب عقدت من أسلاك النور.. والمبالغة تبلغ حدها في تحول السكون وخرير المياه الجميل الهادىء إلى حلة من الظلام مفزعة رهيبة.

سمات الصورة الأدبية :

لقد أدرك الطنطاوي أن الصورة الأدبية الجميلة والناجحة تلك التي تكون بنت الواقع والخيال.. تأخذ من الواقع حقيقتها ومن الخيال تجاوزاتها وتربط بين الواقع والتجاوز فترفع الواقع



إلى مستوى أعلى، وتعطيه من الروعة ما يحس الإنسان به في حلة جديدة ساحرة. والطنطاوي فيما كتب يتخيل الكون إنساناً ينشر ثوبه الأسود، ويجد حزناً على الشمس فيجمع بين التخيل والتشخيص.. أما رؤوس الأشجار والأبنية فقد عقد لها من أشعة الشمس تيجاناً فجمع بين عناصر الواقع الثلاثة: أشعة الشمس ورؤوس الأشجار والتيجان، وربط بينها فأخرج منها صورة أدبية متخيلة ترتفع عن مستوى الواقع إلى مستوى التعبير الفني.

وقد زين الطنطاوي صوره بمجموعة من الألوان تضفي الرونق والبهاء. فالليل ذو ثوب أسود، ورؤوس الأشجار تلونت بلون الذهب الأصفر، وعقدت لها تيجان النور الأبيض. والظلام له حجاب مفزع، كما زين صوره بالحركة فهي تضج بمجموعة أعمال متتابعة متلاحقة تعطي الحياة للجمادات وتبعث فيها الإحساس والمشاعر.

وقد تضافرت الجزئيات إلى جانب الكليات في جعل الصورة الأدبية هنا لوحة كاملة متكاملة. فالشمس تغيب، والكون يعمه الظلام. ولكن الطنطاوي يجعل هبوط الظلام صورة حافلة بالجزئيات فالكون هو الذي ينشر ثوبه، وهو ثوب أسود، ويلقيه على نفسه، ويجمع إلى الصفحة المادية صفحة أخرى معنوية، وهي الحداد على غياب الشمس.

ومع كل ما أسلفنا من مميزات حشرها الطنطاوي في رسم الصورة وعرض الأفكار والمشاعر، فإن حقيقة بارزة تظل تطل برأسها وهي أن التقليد والتأنق جماع الصورة ومركز التعبير الفني فيها والسمة الغالبة عليها.

الطنطاوي والجاحظ:

ولنقف أمام مثال آخر يؤيد ما ذهبنا إليه، فقد قرر الطنطاوي أن يكتب دراسة أدبية عن حياة الجاحظ وأدبه، وكان عليه أن يجمع المعلومات المتناثرة في الكتب وأن يؤلف بينها ويجمع أجزاءها ثم يرتبها ويقدم لها ويعلق عليها ويربط بينها وينسج منها بحثاً متكاملاً يسيطر عليه الأسلوب الموضوعي العلمي الذي يقدم المعرفة في ثوب شبه جاف بعيد عن الخيال.

لكن الشيخ الطنطاوي آنذاك كان قد تولى الإشراف على مجلة الزهراء، وقد سجن صاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب لقضية صحفية.. وكان الشيخ محب الدين كاتباً مجيداً رصيناً، واستطاع بما يملك من خصائص شخصية وأدبية في أن يجعل كلاً من مجلتي الفتح والزهراء اللتين كان يصدرهما من المجلات ذات الأهمية في الحياة الفكرية في العالم الإسلامي.. وكان على «الطنطاوي» أن يكون خير خلف لخير سلف، وأن يعطي المجلة حقها من الرعاية حتى لا تنتقص المجلة، ولا ينتقص هو، فإذا هو يبذل الجهد في هذا المجال، وكان من هذا الجهد أن يجمل مقالاته بحسن البيان وروعة التصوير والتخييل، وهذا لا يكون إلا بإعمال الذهن واستعراض عناصر الصورة وربط بعضها ببعض، والتأليف بين أجزائها حتى تجيء صورة جميلة مؤثرة ومعبرة، فكتب يقول:



شكيب أرسلان — الشيخ مصطفى الزرقا

«وبعد، فهاك كلمة عن الجاحظ، لا أقول: إني تقصيت فيها كل ما كتب عنه، بل كل ما نالته يدي من مخطوط أو مطبوع ذكر فيه، وقد ظننت التقصي سهلا، فبدأته به بعد أن عزمت عليه، فكنت كمن يرى الجبل الشامخ يناطح السحاب فيراه قريباً لأنه دون السماء فيرقاه لا ينظر إلا بين قدميه حيث يتصبب عرقه حتى إذا بلغ منه الجهد، وظنه بلغ الذروة نظر أمامه ونظر وراءه، فرأى الجبل قائما كما هو، ورأى الأرض قد هبطت أضعاف ما كان يرى الجبل مرتفعاً فخارت قواه، ووهنت عزيمته، فأصبح معلقاً بين السماء والأرض يعجزه الإتمام ويحزنه الرجوع»[٣].

قدرته على التصوير:

ولا يفوته أن يجعل الصورة قلقة غير متوازنة فيجعل صاحب الصورة معلقاً بين السماء والأرض. كل ذلك في استقصاء للجزئيات المكونة للصورة بغية الوضوح والشمول.

إن قدرة الشيخ الطنطاوي على طرح الصورة الفنية المرسلة أصبحت شيئاً لازماً في أدبه سواء أكان خطابة أم كتابة، وسواء أكان مقالة قد هيأها لإحدى الجرائد أو المجلات، أم كان مقالة كتبها بشكل عفوي كما هي الحال في كثير من مقالات ذكريات.. ومع ذلك فان الصورة الأدبية الفنية كانت تأتي للشيخ وكأنها كانت بانتظاره، أو كان بانتظارها. وسنورد هنا إحدى



صوره العفوية حيث يقول: «ونسيت أنه أشبه الناس بأخي ورفيقي الشيخ مصطفى الزرقاء على بعد ما بينهما في السن.. يشبهه في إتقان كل عمل يعمله وسعة صدره وطول باله، فأردت أن أتشبه به فكان مثلي مثل القرد والنجار في كتاب «كليلة ودمنة»[٤].

إنها صورة لا تختلف عما هو في الحياة، لكن الشيخ جمَّلها بكلمة: سعة صدره، بدلاً من حلمه، وطول باله بدلاً من صبره، ثم ترك للذهن أن يرحل في أرجاء الذاكرة يستحضر قصة النجار الذي اتخذ قرداً رباه، وذهب النجار في بعض شأنه فأراد القرد أن يقلد صاحبه فأمسك المنشار واعتلى الشجرة فراح ذيله بين شقي لوح الخشب، وحين سحب الإسفين الفارق بين الشقين عاد الخشب إلى الالتصاق وعلق ذيل القرد مع شديد الألم للقرد!!.. إنها صورة موحية يشارك القارىء فيها بسعة اطلاعه الكاتب في استحضار المعنى والعبرة، والصورة الموحية عادة لا تتأتى إلا لكبار الأدباء.

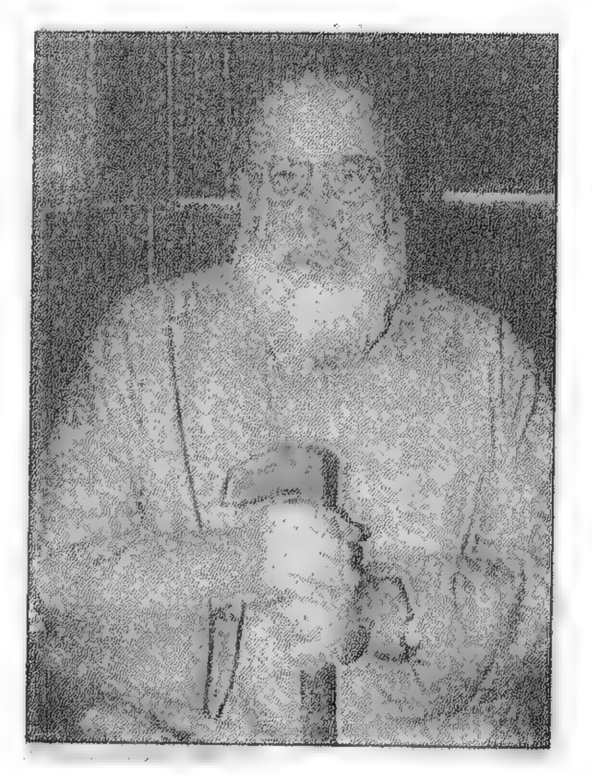
وليكن لنا مثال آخر يزيد في الإيضاح والبيان ويحس القارىء الذي يملك مسكة من الذوق الأدبي أن الصورة المعروضة على جمالها صورة حية مرسلة غير متكلفة ولا متصنعة جاءت بنت الحياة، وقامت على العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة، فكما تكون البنت عالة على أمها حين الولادة وفي مرحلة الطفولة الأولى، ثم تكبر فتستقل وتتفرد، فكذلك فيما يعرضه الشيخ في حديثه عن كلية التربية وكلية الشريعة فيقول: «وكان عملي في كلية التربية وهي بنت كلية الشريعة. وكلية الشريعة في مكة أم الكليات كلها، وأول معهد عال أقيم للناس في هذا البلد، وكانت بنتها «كلية التربية» قد بلغت في تلك السنة السن التي تستغني فيها عن الحضانة، فخرجت تستقل بنفسها، وتسكن وحدها، فانتقلت نقلة واحدة من أقصى المدينة من الزاهر حيث كانت كلية الشريعة إلى الحوض حيث لم يكن إلاّ بناء صغير أقيم ليكون مدرسة ابتدائية، فاستولت عليه وجعلته داراً لها»[٥].

فانظر كيف جاءت الصورة منتزعة من الحياة وبصورة عفوية مرسلة مستغلة العلاقات الأسرية ومطروحة بشكل عادي من غير تكلف أو تصنع على علاقة كلية التربية بكلية الشريعة، فأكسبتها جمالاً ورونقاً. ولست أريد أن أسترسل في هذه النقطة فإنما هي منارات وصُوى تثير الانتباه كصوى الطريق ومناراته، ولكنها لا تحوي الطريق كله.

منهجه في الصورة الفنية:

ولنا بعد أن نسأل: أي المناهج سلك الشيخ الطنطاوي في صوره الفنية: أهو المنهج الفني، أم المنهج النفسي، أم المنهج الرمزي؟!

وللجواب على هذا السؤال أرجح أن الشيخ لم يكن يلتزم منهجاً معيناً في رسم صوره، وما كان مهتما بقواعد المذاهب وشروطها، ولم يتخذ على نفسه موثقاً أن يربط نفسه بأحدها.. كيف وهو الإنسان الحر الذي يفخر بحريته، ويعتز بنفسه، ويتشوف بقدرته. فلم يكن من الوارد عنده أن يجعل نفسه مغلولاً بقواعد المذاهب أو قواعد النقاد أو تحليلاتهم. فقد كان همه الوحيد أن يعرض ما يريد، وأن يصل إلى نفس السامع أو القارىء، وأن يترك فيهما الأثر الذي يريد، لذا أرى أن الدارس لصبور الشيخ يرى أنه قد جمع فيها بين المذاهب والمناهج وخلط بينها، لا رغبة في الخلط، ولا إغاظة لأصحاب هذه المناهج، فهي لم تكن تهمه بذاتها، وإنما كان يهمه تسخير الكلمة لغايته، وهو ما أشرنا إليه من الوصول إلى نفس المتلقي. وهذه الغاية هي التي جعلت صور الطنطاوي الأدبية تضرب حيناً على أوتار القلب، وتعزف على شغاف الفؤاد، وحيناً تخاطب العقل، ومرة تثير الأحاسيس، وأخرى تحمل القارىء فتجعله في ركب الكاتب ينطلق معه وينفعل بانفعالاته.



وكما ذكرت سابقاً فإن قدرة الشيخ على استحضار الصورة وتكوينها وإعطائها حقا من الجمالية والإبداع مع إثارتها للمشاعر قد جعلت المنهج الفني يتدانى ويقرب من المنهج النفسي حيث يختلطان فيأتي المزيج عجيبا، وهو قطعة من الشيخ وفؤاده وتعبيره. ليس هو المنهج النفسي، وليس هو المنهج الفني.

أما المنهج الرمزي فما كان يعنى الشيخ بفلسفته وتبريراته وتحليلاته، وإنما كانت بعض الصور الرمزية ترد عفواً في تيار كتابته. فالطنطاوي غير قانع بمنهج الرمزيين ولا بفلسفتهم، ويرى فيها خروجاً عن قواعد العقل وحقيقة التعبير، لأن الخيال عنده مجموعة تصورات تآلفت فيما بينها من أمور معروفة مشاهدة وأجزاء قديمة يجمع بينها الأديب ويؤلف بين قطعها ويصوغها صياغة جديدة لا يصح أن تخرج عن أصولها إلا بمقدار ما يخدم المعنى ويوضح القصد». ومن هنا لم يكن للطنطاوي رغبة في الرمز والمذهب الرمزي، بل قد ذهب به الأمر إلى مهاجمة الرمزيين الذين كتبوا في الأدب العربي فجاءت كتاباتهم غثة تافهة أقرب إلى الهذر منها إلى الأدب فيقول:

«وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة ثبت أن الخيال محدود لأن الإنسان لا يستطيع أن يتخيل شيئاً جديدا لم يدخل في دائرة الحس، ولأنه لا عمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة. فالذي نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم وإنما جمع في ذهنه أجمل أنف رآه، وأجمل عين، ثم ألف منها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها، ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال»[٦].

بين الصورة الفنية والإحساس النفسي :

لقد كانت الصورة الفنية عند الشيخ الطنطاوي من أوضح الصور الفنية وأكثرها لصوقاً بالذهن وتأثيراً في النفس واستثارة للمشاعر، ولاسيما تلك التي تتحدث عن الإسلام وعظمته وتاريخه[٧] وما ترك من المآثر والمفاخر. فنحن نكاد نبصر ونشم ونتذوق ونتلمس عناصر تلك الصور، ولا سيما حينما نراها قد ائتلفت في لوحة عامة شاملة رائعة اختلط فيها الشعور بالعاطفة وبالفكر، وتداخل الماضي بالحاضر وصولاً إلى المستقبل، واتصل «الأنا» بالآخرين، والأمة بالإنسانية حتى تحار، أيريد الكاتب أن ينقل إلينا الإحساس بالأشياء كما يحس بها هو، أم يريدنا أن نعرفها كما عرفها هو؟ وإن كنا نميل إلى أن الإحساس والمعرفة كانا ممتزجين عنده إلى حد يعسر الفصل بينهما.

لقد استطاع الطنطاوي أن يقدم لنا إحساساته النفسية في كلمات تطرق أبواب السمع والبصر واللمس والشم، وتفتح مغاليق المعرفة وتطرق الفكر فتأتي الصورة الفنية عنده ذهنية تعبر عن أحاسيس ذاتية وعامة وفردية وجماعية وشخصية وغيرية. ولنقرأ ما كتبه حين دخل الحمام بعد سفر طويل بالسيارة إلى الحجاز فنرى أنه يبدأ بتصوير عواطفه الذاتية في تفاعله مع البيئة المحيطة به جامعاً بين المادة والانفعال ناقلاً القارئ إلى مشاركته شعوره وإحساسه، وذلك في تتابع من الوصف واستخدام الألفاظ وتلوينها، ثم ينتقل ليصور إحساس الآخرين بما صوره فجعل أصحابه يجن جنونهم عجباً ودهشة: «فدخلت فإذا أنا في حمام ما ظننت أني ألقى مثله في دمشق، له ظاهر وباطن، وفيه الماء البارد والحار والرشاش «الدوش»، والمناشف معلقة والصابون مهيأ فدهشت وفرحت فرحاً ما أفرح مثله لو أعطيت مائة دينار، مع أني لم أرها قط ولم تحتوها يدي إلى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمة»، «وأقبلت أصب على جسمي من الماء الحار فأحس له بعد هذا التعب بما تحس الأرض اليابسة هطل عليها المطر. حتى إذا انتهيت عدت إلى أصحابي بوجه متورد وثياب نظيفة فجن جنونهم عجباً ودهشة»[٨].

ونعرض صورة أخرى يجمع لنا فيها الطنطاوي المنهج النفسي بالمنهج الفني، ويصور خلجات النفس وعواطفها في إطار من الواقع بسيط لكنه جميل ومعبر، وبكلمات موحية حيث تشكل كل جملة صورة بذاتها، ولكنها في مجموعها تكون لوحة واحدة رائعة ومؤثرة.. «حتى إذا نزلت السيارة جلسوا على الأرض وقد طحن الجهد أجسامهم وملأ اليأس نفوسهم وانقطع أملهم من كل شيء إلا من الله، وضل من يدعون إلا إياه، فأقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار، وذاقوا من حلاوة الإيمان وبرد اليقين ما اطمأنت به نفوسهم وارتاحت له ضمائرهم»[٩].

تباين الصور الفنية والأدبية عند الطنطاوي :

ومن الملاحظ أن الصور الفنية الأدبية عند الطنطاوي متباينة مفترقة مختلفة. وندر أن تطابق صورة أخرى. والسر في ذلك تابع لقدرته على الصياغة وابتكار الصور، ونابع من سعة اطلاعه وعميق ثقافته كما أسلفنا سابقاً. وأكثر صور الشيخ مأخوذة من الواقع يصف فيها الشيخ ما أمامه، ثم يصب عليه من قدراته وبلاغته، وإذا كثير من صوره يسمو مع تخيلاته، فتنقلب الصورة من واقعية إلى تخيلية تركيبية، وتنطلق الصورة آنذاك في طريق الصورة الفنية التي لا يقدر عليها إلا الأدباء المتمرسون، لأن الصور التخيلية تحتاج إلى قدرات خاصة إبداعية، فالكاتب يسمو عن الواقع، ويرتفع مستعيناً بسعة مخيلته وجمع العناصر المتباعدة والتأليف بينها حتى تكتمل له الصورة الساحرة. ونظن أن إيراد بعض ما كتب الشيخ يقدم لنا برهاناً أكيداً على صحة ما ذكرنا من خصائص الصورة عنده، ولنقرأ معاً ما كتبه في وصف وادي العقيق في الحجاز: «وجلست أحدق في ماء العقيق وأحن إلى أيامه الغر وماضيه الفخم، وأفكر في حاضره الممض وواديه القاحل فأطيل التحديق، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي، وأنسى مكاني، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز وتختلط فيها الأنوار، وتمتزج فيها الأضواء كأنما هي سبيكة ذهب أو قطعة ياقوت ألقي عليها نور وهاج، ثم أراها قد استقرت وسكنت فإذا العقيق غير العقيق، وإذا هو غارق في العطر والنور، وإذا من حوله العشرات من القصور تضيء كأنها الثريا في السماء فتنعكس أنوارها في الماء فتتوارى النجوم استحياء، وتغض العين خجلاً، ثم تستتر ببراقع الغمام وتبكي، فيضحك العقيق لبكاء السماء، وتضحك الأرض لضحك العقيق»[١٠].

لقد ذكرنا فيما سبق أن الطنطاوي كان ينطلق من الواقع ليرسم صوره التخيلية، ولكننا نخشى أن يظن القارئ أن صور الشيخ كلها تخيلية.. فإن الصور الواقعية هي الأصل في التكوين الفني عند الشيخ، وكثيرا ما اكتفى الشيخ بالواقع وربط صوره بها حيث انتزع منه عناصر الصورة وأجزاءها وجمع بينها بشكل موفق جميل، وبالطبع فإن الصورة هنا لا تأخذ قيمتها من عناصرها فقط وإنما من تلاؤم هذه العناصر وتوافقها وتكوينها تكويناً فنياً لا ينظر فيه إلى الجزء بمقدار ما ينظر فيه إلى تآلف الأجزاء ونرى مثالاً



على ذلك في وصفه للجلاء عن سورية والاحتفالات بهذه المناسبة: «اسمعوا فهذه هي المدافع ترعد وتدوي وتزلزل الجو رجة واهتزازاً، انظروا فهذه هي الطائرات تحوم وتحمحم وتعلو وتنحط وتجيء وتذهب، ولكن لا تفزعوا فإنها لن تؤذيكم، إنها ليست مدافع الفرنسيين التي تدمر، ولا هي طائراتهم التي تصب الحمم، لقد ذهب الفرنسيون ولن يعودوا»[11].

تتابع الصور الفنية :

وهناك ظاهرة جديرة بالاهتمام تظهر في الصور الفنية عند الطنطاوي وهي أن بعض الصور عنده تأتي صغيرة متتابعة متلاحقة، كل جملة تشكل صورة قائمة بذاتها، ولكنك لو نظرت إليها في نهاية المقطع فسترى أنها في مجموعها تكون صورة واحدة كلية، وهذا التتابع بين الصور والتآليف بينها يشد القارئ إليه. فبينما هو ينعم بإدراك الصورة الأولى تفد عليه الصورة الثانية، فترتبطان في نفسه، فإذا جاءت الصورة الثالثة والرابعة.. إلخ واكتمل عقد هذه الصور في لوحة أدبية جميلة، يقف القارئ أمام هذا التآليف والتركيب مدركاً للمعنى معجباً بحسن الصياغة، متلذذاً بجمال التصوير.

التجسيم والتشخيص :

وإلى جانب ما تحدثنا عنه من خصائص الصورة الفنية الأدبية نضيف أن الطنطاوي قد عمد إلى التجسيم حيناً وإلى التشخيص حيناً آخر. فهو يلبس الأمور المعنوية لباساً حسياً، ويسبغ عليها صفة الجمادات، والمرء أسرع إدراكا للأشياء المادية التي تخضع لإحدى الحواس الخمس، وهو في التشخيص أبرع وأقدر، لأن في التشخيص حياة وحركات ونبضاً، فحين يلبس الأمور المعنوية أو الجمادات صفات البشر فإنه يجعلها أشخاصا تضج بالحيوية والنشاط والحركة فلا يشك القارئ أنه أمام كائن حي يعرض عليه من الأعمال والأفعال ما يؤثر في نفسه، ويحرك مشاعره. ولدينا قطعة من وصف مدينة دمشق تعطي مصداق ما ذهبنا إليه: «وذهبت دمشق تبتغي أن تنثر على موكبه من أزهار الغوطة جنة الدنيا، فلم تجد في الغوطة زهرة واحدة، لقد صيرتها الحرب قاعاً صفصفاً فنثرت على موكبه أزهار القلوب: دموع الفرح وهتاف المحبة وتصفيق الإعجاب» «كانت دمشق يوم الجمعة صابرة تتجرع حزنها في صمت رهيب وسكون هائل فلم تحرك ساكنا، وما دمشق بالتي تعرف أنة المكلوم واستغاثة العاجز، ولكنها تعرف الصبر على ما لا يصبر عليه الدهر»[12].

فهاتان صورتان الأولى منهما مالت إلى التجسيم فجعلت الدموع والهتاف والتصفيق جمادات مادية، بينما مالت الثانية إلى تشخيص الجمادات وإعطائها صفة البشر وتحميلها الأحاسيس والمشاعر والعواصف، فدمشق إنسان يتجرع الحزن ولا يحرك ساكنا وتعرف الصبر.. إلخ..

والمتتبع لحقيقة الصور الفنية عند الطنطاوي يرى أنها أصبحت سليقة تستجيب له عندما يطلبها، فلم يعد بحاجة إلى تصنعها، وهو هضم العناصر الفنية التي يجب أن تبرز في الصورة حتى تكون عملاً أدبياً جيداً، وهو لا ريب قد أدرك قيمة الحركة في الصورة والابتعاد عن الجمود، فالصورة المتحركة أكثر تأثيراً في النفس وأبلغ في الوصول إلى القلوب، ألا ترى أن النظر إلى صورة «فوتوغرافية» .. مطبوعة على ورقة لا يمكن أن يكون لها نفس التأثير فيما لو عرضت هذه الصورة متحركة، وفي الحقيقة فإنه ليس هناك من يقول إن الصورة الجامدة يمكن أن تنافس الصورة المتحركة،



وقد أدرك هذا الأمر أدباؤنا القدامى من شعراء وكتاب فحاولوا أن يجمعوا في نتاجهم أكبر قدر من الحركة، ولا ننسى أن النقاد قد فضلوا امرأ القيس على غيره في بيته يصف فرسه:

مكـر مفـر مقبل مدبـر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل

كما أنهم أبدوا إعجابهم فيما كتبه الجاحظ في وصف قاضي البصرة.

الصورة الحركية:

ونحن نرى هذا الحرص على الحركة، والذي أصبح جزءاً أصيلاً من التصوير الفني عند الطنطاوي في أكثر ما كتب. فحين تقرأ ما كتبه عن موكب الطواف حول الكعبة نرى تلك الحركة العجيبة في الصورة الفنية التي تجعلنا نحس أو نظن أنفسنا مع الطائفين متخطين عتبات الزمان والمكان: «إنكم لتعجبون إن رأيتم موكباً يمشي ساعات لا يقف ولا ينقطع، أو أبصرتم جيشاً يلبث أياماً وهو يمر لا يتريث ولا ينفد! فاعجبوا أو اعجبوا أشد العجب من موكب بدأ يمشي من خمسة آلاف سنة من يوم بنى إبراهيم هذه البنية، ولا يزال يمشي إلى اليوم يطوف بهذه الغرفة القائمة في واد غير ذي زرع من بطن مكة المبنية بالحجارة السود الخالية من الصقل والتهذيب والزخارف والنقوش».

وبقدر إدراك الطنطاوي قيمة الحركة في الصورة نجد إدراكه لقيمة الألوان فيها، فقد كان يعطي الصورة ما تحتاجه من الألوان بما يناسب الفكرة والموقف مما يضفي على الصورة رونقاً وزهواً فتصبح الصورة أكثر تأثيرا، والأمر لا يحتاج إلى كبير تفسير فإن صورتين تقعان تحت أيدينا لموضوع واحد إحداهما ملونة والأخرى ليست ملونة، فإن الصورة الملونة أجمل وأحلى وأشد روعة.

والتلوين عند الطنطاوي كثير ويتلاءم مع الموضوع، ولاسيما حينما يكتب الشيخ من قلبه، أعني عندما يكتب عن شيء يحبه ويؤثر في نفسه كحبه لدمشق المدينة التي عشقها، أو حبه للمسجد الحرام أو المسجد النبوي، وهل هناك مسلم لا يهفو قلبه إلى تلك الديار ولا تشوق نفسه أن يعيش في ربوعها يغسل أدران المادية، ويتمتع بسمو الروح والعاطفة. ولنقرأ له ما كتبه عن دمشق لنرى ذلك التلوين الرائع في الصورة حيث يقول: «والأشجار على ضفاف الأنهار كلها، والشلالات تنحدر من الأعلى إلى الأدنى تتكسر على الصخور وتنحط تخالطها أشعة الشمس فيكون لها بريق ولمعان كلمعان الألماس، وأين منها لمعان الألماس؟! وعن شمائلنا الفضاء الرحب تملؤه الغوطة كبحر ما له آخر أمواجه خضر»[13] «هنالك تحت هذه السقوف التي تظهر خاشعة في ضباب الصباح ووهج الظهيرة وظلمة الليل»[14].

أرأيت هذا الحشد من الألوان الذي يأتي إيحاء فيكون أشد تأثيراً وجمالاً؟! فاللمعان يوحي بشدة البياض، وأشعة الشمس توحي بالبياض المزهر، والغوطة خضراء.. وضباب الصباح يوحي بالبياض، ووهج الظهيرة بالحمرة، وظلمة الليل بالسواد.

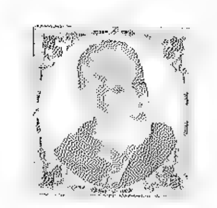
اندماجه في الصورة الفنية:

على أن أكثر ما يثير الانتباه في عرض الصورة الفنية عند الطنطاوي أنه يشرك نفسه في الصورة ويجعلها جزءاً منها، وهو بذلك يختصر مسافات التأثير فلا ينتظر أن تبلغ الصورة غايتها، بل يطرح عواطفه ومشاعره وأفكاره ضمنها، فيقدم الغاية وردة بين الورود، ولكنها تتميز عما سواها في أنها متفتحة طيبة الأريج، فحين يدخل الطنطاوي عواطفه يستثير عواطفنا، فنحس إحساسه، ونشعر شعوره فلا ننتهي من قراءة الصورة حتى تكون قد بلغت غايتها التي صاغها المؤلف من أجلها: «وازداد الرعد قوة وهزيما، وعق البرق وتكلح، وأغدقت السماء وجادت، وعصفت الريح وأعجت، وجنت الدنيا جنونها، فنظرت ماء السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر، فقلت: أطبقي يا سماء، وتشققي يا أرض، وتصدعي يا جبال، إن من ملكوا العالم لا يجدون القبور»[15] «ويمضي الرجال إلى المساجد ولست أنسى قط روعة هذا النشيد الخالد لما سمعته أول مرة تهدر به أشداق عشرة آلاف رجل في الأموي، عشرة آلاف جندي من جنود الإسلام يهتفون بالنشيد الذي لم تحمل أمواج الأثير من يوم خلق الله الكون نشيداً أروع روعة ولا أعظم في النفس أثراً، النشيد الذي حمله جنود الإسلام إلى كل أرض في الأرض، وزلزلوا به كل حصن، وظفروا به في كل معركة: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله»[16].

وبعد فإن الحديث عن الصورة الفنية الأدبية عند الطنطاوي ذو شجون، ولا يزال ميدانه فسيحاً وفي القلم مداد، وفي النفس رغبة، وأزاهيره يمكن أن تتفتح ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم لكن الرغبة في أن نرى رماحاً من غيرنا تتخطى سهامنا وتصيب هدف تفتق الجمال في صور الطنطاوي تجعلنا نكف عن الكتابة ونترقب، فلعل الحديث يزهر من جديد. ■

الهوامش:

(١) ذكريات ج١/٦٦.
(٢) مجلة الزهراء ج٥/٤١١.
(٣) مجلة الزهراء مجلده ج٦/٣٨٩.
(٤) الذكريات ج ٨/٢٠٣.
(٥) الذكريات ج ٨/٢٣٦.
(٦) فكر ومباحث ص ٧٨.
(٧) راجع ما كتبه في: نفحات من الحرم – من التاريخ الإسلامي – دمشق – الذكريات.
(٨) من نفحات الحرم ص ٦٥.
(٩) من نفحات الحرم ص ٧٥.
(١٠) من نفحات الحرم ص ١٠٩.
(١١) دمشق ص ١٢٩.
(١٢) دمشق ص ٦١.
(١٣) دمشق ص ٤٤.
(١٤) دمشق ٤٦.
(١٥) من نفحات الحرم ص ١٣٠.
(١٦) من نفحات الحرم ص ١٤٠.



من سمات السيرة عند الشيخ الطنطاوي في كتابه:

رجال من التاريخ



بقلم: د. عبد الله بن صالح المسعود
السعودية

وأنا أقلب صفحات هذا الكتاب «رجال من التاريخ» تذكرت كلمات أستاذنا د. عبد الرحمن رأفت الباشا -رحمه الله- عندما كان يغرينا بقراءة ما يكتبه أديب العربية الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- ويقول: إياكم أن تنظروا إليه من خلال ما تشاهدون في برنامجه الذي يعرض عليكم إنما الحكم عليه من خلال ما يكتب فهو أديب من الطراز الأول، شاهدنا الشيخ علي الطنطاوي وقرأناه وازددنا قناعة بمواهبه وقدراته فهو صاحب الأسلوب اللطيف الممتع الذي يتسلل إلى قلوب مشاهديه وقرائه.

وحديثي في هذه المقالة عن كتاب: «رجال من التاريخ» الذي يتبادر إلى الأذهان أنه كتاب سير أو أنه سرد لحكايات رجال يختارهم من التاريخ، إلا أن قارئه يؤمن أنه شيء مختلف عن كل كتب السير، إنه كتاب متعة وكتاب ثقافة، وكتاب تاريخ، وكتاب تعليم للإنشاء وصوغ الأساليب الأدبية الراقية. إن هؤلاء الذين اختارهم إنما أراد أن يسجل لهم مواقف البطولة، وأن يخلد الأفعال المجيدة، ولم يعن بالرجولة معناها اللفظي لأنه سجل مواقف بطولية لنساء ضربن بسهم وافر في ميدان البطولة والمجد.



العنوانات :

- سيد رجال التاريخ «عن هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم».
- معلمة الرجال «عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها».
- سيدة جليلة من سيدات المجتمع الإسلامي الأول «أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها.
- أعظم قواد التاريخ القديم «خالد بن الوليد رضي الله عنه».
- قاهر كسرى «سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه»
- مأساة عالم «عروة بن الزبير في قصة قطع رجله»
- العالم العامل «الحسن البصري» رحمه الله.
- الخليفة الكامل «عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ورحمه»
- فاتح المشرق «قتيبة بن مسلم الباهلي رحمه الله».
- من ورثة الأنبياء «سعيد بن المسيب رحمه الله».
- الإمام الأعظم «أبو حنيفة رحمه الله».
- أكبر ملوك الأرض «هارون الرشيد رحمه الله.
- جمع الدين والدنيا «الليث بن سعد رحمه الله».
- ناصر السنة «أحمد بن حنبل رحمه الله».

إلى غير ذلك بأكثر من خمسين علماً خشيت الإطالة لو قمت بسردها لكن هؤلاء الأعلام مختلفو النزعات، يختار مرة من أول القرن ومرة من آخره يقول «لقد وعدتكم أن أضرب في هذه الأحاديث بكل سهم، وأسلك كل واد، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم، وأن أجيئكم مرة مع شاعر أو موسيقي، كما أجيئكم مرات مع الأئمة والقواد[1]». لكن المهم أن نشير إلى أنه يختار - غالباً - صفحة مشرقة من صفحات هذا العلم الذي يريد الحديث عنه فيجعله مدخلاً ثم يتناول جوانب معينة يختارها بعناية، ويصوغها صياغة جديدة بأسلوب مشوق ممتع يقول: «كنت إذا أردت الحديث عن رجل، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه، وقيدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات، ثم أعمد إلى خبر منها فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيل الكاتب في القصة الأدبية، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ، وجمال الأدب، فأوفق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق»[2].

لكن الذي لا مراء فيه أنه عميق النظرة إلى هذه الشخصيات، يغوص إلى دقائق وتفصيلات قد يغفلها المؤرخ أولا يوليها العناية اللازمة، لذلك يقول في موضع آخر «وأنا مولع بتحليل النفوس، نفوس الأحياء من الأصدقاء، والأموات من رجال التاريخ، وكشف خفاياها، ورد مظاهرها المعقدة الى عناصرها الأولى [3]».

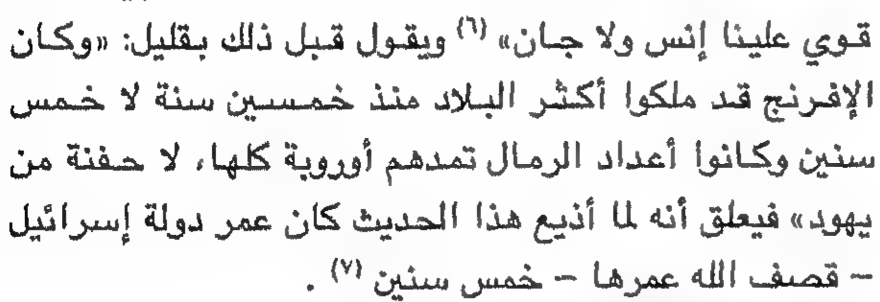
روح المعاصرة في كتابته :

«رجال من التاريخ» كتاب يوهمك أنه يتحدث عن العصور القديمة، ولكنه حاضر كأبرز ما يكون الحضور في معالجة القضايا المعاصرة، ونجده وهو يكتب عن رجال التاريخ يحسن التخاطب مع القارئ المعاصر، ويستلهم الأحداث السابقة لأخذ عظة أو درس للأحداث الجارية بلمحة تنفذ إلى الأعماق، أو بعبارة تربط الذكريات برباط وثيق إلي الحاضر. يقول عن الإمام أحمد رحمه الله عندما كان يعذب: «وانقطعت تكة لباسه «سراويلاته» فكاد يسقط وينكشف وراه الناس يحرك شفتيه، فيقف اللباس مكانه وسألوه بعدُ فقال: قلت يا رب إن كنت تعلم أني على الحق فلا تهتك لي ستراً»[4].


د. عبدالرحمن الباشا

يعلق على ذلك فيقول: «خاف أن تكشف عورته وهو على هذه الحال واستسهل ما هو فيه على كشفها، فماذا يقول من يكشفها في الملعب للرياضة، وعلى الشط للسباحة، والمرأة التي تكشفها للرجل الأجنبي باسم الفحص الطبي بلا ضرورة ظاهرة ولا حاجة قاهرة»[5].

ومرة يتحدث عن نور الدين محمود فيقول: «تلفت حوله، فإذا الإفرنج في كل مكان، في كل ناحية لهم ملك وسلطان، وإذا هو يرى العدوان من أقرب الناس إليه: أمير دمشق، وهذه علتنا أبداً يا أيها السامعون، علتنا الانقسام والاختلاف ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا، ما قوي علينا إنس ولا جان» [6] ويقول قبل ذلك بقليل: «وكان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة لا خمس سنين وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوروبة كلها، لا حفنة من يهود» فيعلق أنه لما أذيع هذا الحديث كان عمر دولة إسرائيل - قصف الله عمرها - خمس سنين [7].



خفة الظل :

لم تفارق الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله الروح المرحة وخفة الظل طول حياته، سواء أكان متحدثاً أم كاتباً. يقول عن داره التي ولد فيها وسكن، وعين إماماً في الحارة وهو ما زال صغيراً: «وهي دار صغيرة في حارة الديمجية، ولدت أنا فيها، ونشأت فيها، ولما مات أبي سنة ١٣٤٣هـ عينت مكانه إماماً في مسجدها الصغير، ويدعى جامع رستم، وقالوا لابد للإمام من عمامة، كأن العمامة من شروط الإمامة، فأدرتها على رأسي، فقالوا: لابد من لحية، قلت: العمامة اشتريت قماشها، وأحكمت لفها، فمن أين آتي باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة»؟

وما أورده في قصة شيخه الكافي الذي قال عنه: «وكان حضور دعواته مما أرغب فيه لأنني أستفيد منها في بطني وفي ذهني، وكان الكافي ينكر على أرباب الطرق الصوفية، حتى إنه كان في تونس في يوم يجتمع فيه الصوفية، بمناسبة لهم، ينشدون الأناشيد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بألحان أهل الغناء المطوطة، التي تحرف الكلم عن مواضعه، وتقطعه وتصله، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه ومعهم عصي الخيزران، ففرق جمعهم، وأفسد نظام سيرهم فأخذته الشرطة إلى والي البلد، فلما دخل عليه قال له: بمثل النغمة التي كانوا ينشدون بها: السلام علي، على عليكم، عليكم، كم، كم، ما اح، ما اح، ما أحلى عيونك، وما أبهى جبينك يا سيد الملاح، لاح!!

فغضب الوالي فقال: ما هذا هل أنت مجنون؟ أهكذا يخاطب الولاة؟ قال: هل الوالي أعظم من رسول الله؟

قال الوالي: معاذ الله، وأين أنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إذا غضبت لأني سلمت عليك بهذا النغم، وتغزلت فيك هذا الغزل، فكيف تدعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم؟ قال الوالي: الحق معك» [8].

رجوعه عن بعض آرائه:

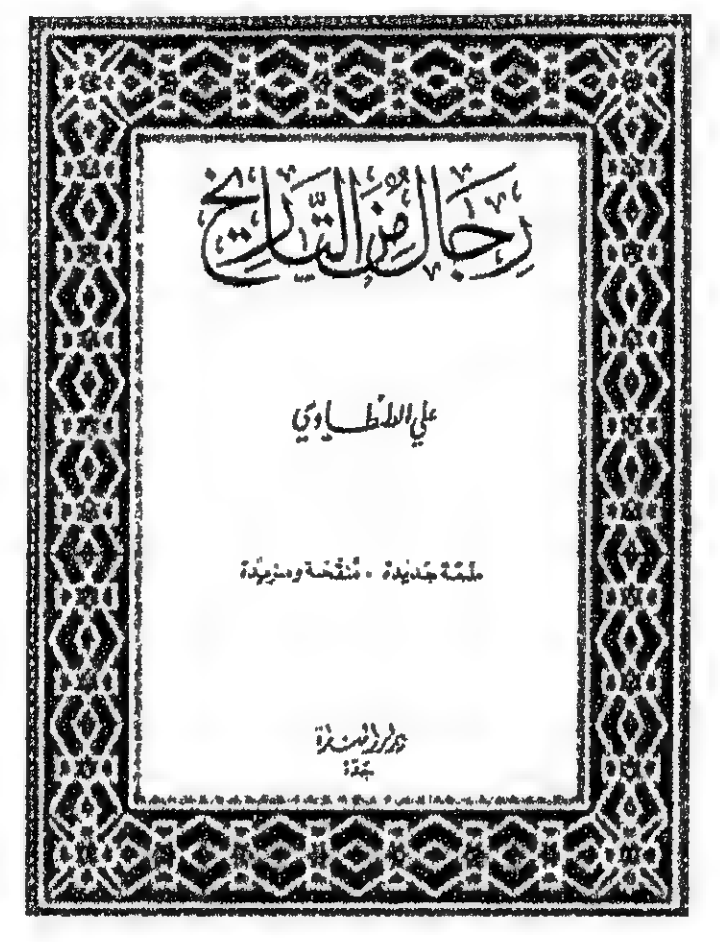
كثيراً ما جنحت به الأساليب الأدبية، أو سار خلف رواء فني فبالغ مبالغة ربما تكون غير مقبولة، أو اجتهد اجتهاداً لم يوفق فيه إلا أنه يرجع كثيراً عن ذلك، ويعرف خطأه، ويأسف على ما سلف منه، نسأل الله أن يعفو عنه، يقول مرة: «أنتقل بكم في هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية، إلى أعلى ذروة في سلسلة أمجاد العرب، إلى الدور الذهبي، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً» [9] وهو يريد الحديث عن عهد هارون الرشيد إلا أنه عندما أعاد النظر في الكتاب مرة أخرى لم يعجبه هذا الأسلوب، فكتب في الهامش «كذلك قالوا، وما جاء ذلك إلا من أكاذيب قصة ألف ليلة، والحق أن أزهر عهود التاريخ عهد أبي بكر وعمر..»

ولعله يقصد عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة رضوان الله عليهم.

ويتحدث مرة أخرى عن سيد شعراء الحب العذري الشريف الرضي فيقول: «وما أنكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم، ما أنكروا عليه أن جعل من الموسم الأكبر موسماً للقلوب الهائمة والأبصار الشاردة» [10] فيعلق «هذا كلام قلته أنا، وأنا أنكره اليوم، ولا أقر الشريف ولا ابن أبي ربيعة قبله، ولا أقر أحداً أن يجعل من موسم للعبادة موسماً للأدب، ومعرضاً للجمال وغفر الله لي ولهم» [11].

ويقول مرة عن بشار «لي فيه كتاب صغير، وهو من كتبي التي لم أعد أرضى عنها فلذلك لم أعد طبعها» [12].

وهو بشر يصيب ويخطئ، أعجب مرة مما كان لا ينبغي منه العجب، وهو كون المعتزلة يكرهون الناس بالقوة على قبول آرائهم، على ما فيها، وهم أهل أهواء، وإنزال للعقل منزلة فوق منزلته، كما يقول عنهم السلف، لا للباطل كسروا ولا للحق نصروا، وإشادته بأحمد بن أبي دؤاد، وعجب من المسألة التي صارت مدار الخلاف في محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فهو يرى أنها «مسألة لا تستحق هذه العناية، وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها، ولا يسألنا يوم القيامة عنها، وهي: هل القرآن مخلوق أم لا؟» [13] ولا نشك أنها في غاية الأهمية لأنها تتعلق بإثبات صفة من صفات الله تعالى، وصمود الإمام أحمد رحمه الله له ما يبرره.



وتراث الشيخ علي الطنطاوي بحاجة إلى دراسات من متخصصين يعرفون قدره وسبقه لمعالجة قضايا جديدة ملحة، يتبوأ في دراساتهم العميقة منزلته اللائقة به.

تلك لمحات سريعة عن هذا الكتاب، لم أحص فيها كل مزاياه وإيجابياته، ولم أحصر كل ما يلحظ عليه، أو ما يكون مجالاً لوجهات النظر المختلفة. ■

الهوامش:

(١) رجال من التاريخ ص٦.
(٢) السابق ص ١٢٠.
(٣) السابق ص ١٣٧.
(٤) السابق هامش ص ١٣٧.
(٥) السابق – ص١٨٣.
(٦) السابق – ص١٨٢.
(٧) السابق – ص ٤٢١ وما بعدها.
(٨) السابق ص١١٧.
(٩) السابق ص ١٧٤
(١٠) السابق هامش ص١٧٤.
(١١) السابق هامش ص ٣٥٦.
(١٢) السابق ص ١٣٤.

جدي علي الطنطاوي في بيته

بقلم: عابدة المؤيد العظم *

من قديم وصاحباتي يسألنني عن جدي - يرحمه الله - كيف هو مع أهل بيته؟ وعن سيرته الخاصة: ماذا يحب، وما يصنع، وكيف يقضي يومه؟ وإني إذ أسترجع اليوم - وبعد وفاته - كيف كان جدي خلال الأعوام التي مضت، وكيف كان يتصرف، أجد أنه قد يكون في الإجابة عن هذه الأسئلة بعض الفائدة. فإن كان أحد من الناس ما زال راغباً في أن يتعرف إلى جدي عن كثب، وأن يدخل إلى حياته الخاصة وإلى عالمه الصغير، فليقرأ ما يلي:



أنا لا أعرف جدي «ولا أستطيع أن أتخيله» إلا جالساً في إحدى الزوايا طوال النهار، ملازماً لغرفته، لا يكاد يغادرها إلا لضرورة بل إنه لا يخرج من داره كلها إلا لضرورة ملحة، والضرورة لا تشمل التسوق فهو لا يشتري شيئاً حتى لوازم البيت المهمة! بل إنه لا يستعمل من غرفته إلا مساحة صغيرة محصورة منزوية هي تلك الزاوية!

والمكان الذي يجلس فيه هو سريره الذي ينام عليه، وهو كرسيه الذي يقعد فوقه ليتناول طعامه وشرابه، وفي زاويته تلك كان يقرأ، ومن مكانه ذاك كان يحضر للإذاعة والرائي. أما مكتبه الذي يعمل عليه فهو خشبة صغيرة يتكىء عليها وفوقها يجري قلمه، ويكتب مقالاته. وقد يخط – وهو خطاط محترف – فلا تؤثر جلسته تلك على جودة خطه وإتقانه.

وتلتف حوله، وتحف به كتبه وأقلامه وأوراقه، وتتكدس حوله أكوام من الصحف والمجلات والمراجع، ويبدو خلفه ضوء ساطع ليسهل عليه القراءة. ومن الأنوار المهمة جدا بالنسبة إليه أن يكون زر التحكم في هذا الضوء في متناول يديه، وذلك حتى يبادر فوراً إلى كتابة أي خاطرة قد تمر في ذهنه ليلاً.

كما يحرص جدي أن تكون أمام ناظريه مباشرة «ساعة جدارية» كبيرة مضبوطة تسهل قراءة الوقت فيها، وأن تكون قريباً منه «ساعة منبه» لتوقظه للصلاة، ويضع بجانبه نظارة القراءة، ومنشفة وعلبة مناديل، والمسجل وعلبة أشرطة. ولقد كان يحمل معه زاويته تلك أينما ذهب، أقصد أننا كنا نصنع له زاوية مماثلة لها كلما حل بديارنا، ونزودها بالمواد اللازمة حتى تبدو كأنها زاويته الأصلية.

---

* حفيدة الشيخ علي الطنطاوي.

وكان يجلس في الزاوية المزيفة الجلسة نفسها بالهيئة ذاتها بالملابس عينها.

لقد كان ما يفعله جدي في غالب وقته هو القراءة ولا شيء غير القراءة والكتابة والمراجعة، أي القراءة ومشتقاتها، أو القراءة وأخواتها. ولكن تلك القراءة لم تكن لتؤثر على أهل بيته شيئاً فكان يستقبلنا بحفاوة إذا حضرنا إليه، ويترك ما في يديه ويتفرغ لملاقاتنا ومؤانستنا وهو جالس في مجلسه ذاك في غرفته تلك!

كان هذا جدي الذي عرفته والذي عشت معه أياماً رائعة لا تنسى. ولكن عندما انتقل إلى جدة عام ١٩٩١م، بدل عاداته وذوقه في الطعام والشراب والنوم، وغير هيئته في الجلوس، فترك جلسته تلك فأصبح يجلس على أريكة عادية وصار ينام في غرفة النوم ليلاً، ويجلس معنا في غرفة المعيشة نهاراً.. وبدأ جدي يتغير ببطء وبالتدريج:



– فقلّت ساعات قراءته ومطالعاته، وصار يكتفي بالنوع الذي يحبه أكثر من غيره من الكتب كالمذكرات الشخصية والذكريات «وقد كان – من قبل – يقرأ في كل شيء تقريباً»، ثم صار يكتفي بما يهدى إليه من الكتب ولا يطلب سواه، واقتصر أخيراً على مطالعة الصحف والمجلات التي كانت تصله بانتظام.

– ونال التغيير من سلوكه، فقد كان جدي – قديماً – سريع الغضب سريع الفيء، لكنه تبدل فصار قليل الغضب، سمحاً وأكثر تفهماً ورفقاً. وكان دائم الرضا على بناته وأحفاده يتجاوز عن التقصير ويتسامح.

– وطال التغيير نظرته لبعض الأمور، فمثلاً كان قديماً لا يشجع الإناث على نيل الشهادات العالية! ثم بدل رأيه نحو الأفضل فكان سعيداً بأن ابنتيه «بيان، ويمان» تتابعان الدراسة، وكان يشجعهما ويحثهما على المضي قدماً.

– وكان في الفترة الأخيرة متفرغاً تماماً لعائلته، لا يكاد يستيقظ من النوم حتى يبدأ بالاتصال بنا، ودعوتنا إلى زيارته، وكان يحتفل بنا إذا ذهبنا إليه، ويكرر ذلك طوال الزيارة: «أهلاً وسهلاً، لقد سررت جداً بحضوركم»، وكان يقول لي إذا زرته: «هيا تكلمي، وحدثيني»، وكنت في البداية أحتار بماذا أكلمه!؟ ثم صرت بعد هذا أستعد لزيارته كما كان يستعد هو لبرنامجه الإذاعي! فأجمع بعض الأسئلة الفقهية والدينية والاجتماعية التي تمر معي أثناء مطالعاتي في الكتب وأحملها إليه ليجيبني عنها. وكنت أسأله عن ذكرياته، أو أسأله رأيه في الحوادث والوقائع.. فيجيبني باختصار أو يعتذر لألم في رأسه، أو يؤجلني لأجل غير مسمى، ولكني ورغم ذلك كنت أسر جداً بزيارته.

ولعله كان يسر هو أيضاً إذ كان يشكرني على محاولتي إيناسه والتسرية عنه.

وكان خلال الزيارات – كما عهدناه – محيطاً بما يجري، حاضر النكتة متفتح الذهن، وقد يستشهد ببيت شعر أو يروي قصة، أو يستذكر واقعة «وإن قل ذلك عن معدله الأصلي».

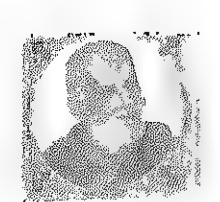
– وكان قديماً عائشاً وحده، لا يخالط الناس ولا يكاد يرى أحداً إلا أهل بيته وبعض المقربين إليه، فأضحى يحب الاجتماع بالناس فصرنا لا نتركه إلا قليلاً، في النهار نزوره نحن بناته وحفيداته، وفي الليل يزوره الرجال الطيبون مع أحفاده وأصهاره ويحملون معهم إليه الأسئلة والأخبار، ويمتعونه بأحاديثهم.

كان هذا بعض ما تغير في جدي، وكان آخره معدته! إذ كان يفتخر دائماً بأن معدته تهضم الحديد، وبأنه ما شكا منها يوماً، فما أودى به إلا معدته تلك إذ كان نزيف المعدة هو السبب المباشر لوفاته يرحمه الله.

أعجبني في جدي

وإذا كان جدي قد تغير في بعض المظاهر فإن جوهره لم يتغير إلا قليلاً، حيث لبث محافظاً على تميزه في أكثر الأمور، وإني ـ عندما أتذكر شيئاً من ذلك ـ أحمد الله أن حباني بجد رائع متميز هو «علي الطنطاوي» جد قد قسم حياته بتوازن بين نفسه وعائلته وعمله، واستطاع أن يكون

جدي علي الطنطاوي في بيته



مدرساً وقاضياً وفقيهاً وأديباً ومصلحاً.. وأن يكون أبا وأخا ثم جدا.. وقد نجح في أدواره كلها.. وكان نعم الداعية ونعم الأب والجد.. وإني ليسعدني أن أذكر أشياء كانت من أكثر ما أعجبني في جدي «علي الطنطاوي» عل أحداً يستفيد منها بشيء فيدعو لي وله:

• كان جدي يولي الصلاة جل اهتمامه، فيسبغ الوضوء، ويدلك الأعضاء، ويبلغ الأعقاب خوفاً من النار.

وما استعجل قط أثناء أداء صلاته، إنما كان يقوم بحقها، فيطمئن في قيامه وركوعه وسجوده مهما كانت الظروف والأحوال، وقد استمر على ذلك حتى أواخر أيامه، فكان كلما صحا من نومه سأل عن الصلاة هل جاء وقتها؟ حتى إنه كان يهم بأن يصلي الفرض مرتين خوفاً من أن يكون قد فاته وقت من الأوقات وهو نائم!

• يعجبني في جدي حبه العميق لبناته، واهتمامه بآخرتهن وبرضى الله عنهن، فكان من أجل ذلك يدعو لهن ويترضى عليهن وإن صدر منهن ما لا يعجبه، إذ كان يقدر تنوع الأذواق والأمزجة، ويقدر اختلاف الصفات والمزايا، فكان يكتفي بالتوجيه والمعاتبة، ثم يعقبه بإظهار الرضى والمرحمة.

• ويعجبني فيه حرصه الشديد عليهن وعلى راحتهن وسعادتهن، وخصهن بالجانب الأكبر من رعايته، وحنوه عليهن، واهتمامه بمشكلاتهن، ومساعدته لهن، ومحاولته التسرية عنهن، والإيصاء بهن، ثم اهتمامه بنا نحن الأحفاد وحرصه على تربيتنا وتوجيهنا والإحسان إلينا ولعلي قد وضحت ذلك في كتابي «هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي» مما يغني عن إعادته هنا.

• كما أعجبني فيه أن اهتمامه بنا لم يصرفه عن تفقد أخواته وعائلاتهن، وكذلك إخوانه وأسرهم، بسؤاله عنهم وتحسسه أحوالهم، وتقديم ما يستطيع من مساعدة لهم.

• يعجبني في جدي حرصه على الاستفادة مما علمه الله في كل وقت، وفي أي مكان، فلا نراه إلا محدثاً بما قرأ وناشراً للعلم الذي تعلمه في كل مجلس يجلسه، فكان بتلك الصفة داعية لأهل بيته قبل غيرهم، ومعلماً لهم:

فمنه حفظت بعض القواعد الفقهية.

وهو الذي نبهني إلى فكرة الاحتكام إلى الشرع حتى في الأمور اليومية الصغيرة، فكان يحكم بيننا ـ نحن أهل بيته ـ بما علمه الله إياه من القرآن والسنة.

وإليكم مثالين: كان إذا اشتكى أحدنا الحر وأدار مكيف الهواء، ثم عارضه آخر لأن تيار الهواء البارد يسبب له ألماً في عظامه، حكم جدي للثاني عملاً بالقاعدة الشرعية التي تقرر أن «درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة».

وإذا وهب أحدنا شيئاً لأخيه ثم جاء يطلبه، قال له جدي: لا يجوز لك استرجاع ما وهبته، لأن القاعدة الفقهية تقول: «الساقط لا يعود».

• يعجبني في جدي عشقه للكتب وحرصه الدائم على القراءة والفهم، فكانت مكافأته الأولى أن صار أديباً، ثم كانت مكافأته الثانية أن أراد الله به خيراً ففقهه في الدين وعلمه التأويل، فجمع له الخير كله.

وقد كان بهذا قدوة لنا، فحبب إلينا العلم وزينه في قلوبنا، وجعله أسمى غاياتنا، فصرنا نحب القراءة ونميل إلى الاطلاع، وصار الكتاب صديقنا، وعالم النشر من أحب العوالم إلى قلوبنا، وقد أفادتنا سعة الاطلاع في دراستنا، وفي علاقاتنا مع ذوينا وسهلت علينا أمور حياتنا، كما أنا أفدنا صاحباتنا مما تعلمناه فكان لجدنا الأجر المضاعف، ولنا الفائدة والمتعة.

• وأعجبني في جدي أنه كان دائماً كبير العائلة «وما أجمل العائلة التي لها رئيس عالم عاقل تحتكم إليه وتستشيره!» فإذا احتاج أحدنا النصيحة فهو الناصح الأمين، وكان إذا عرضت عليه المسألة أو الأمر فكر ملياً ثم أعطى الجواب، وكان أحياناً يقضي الليل ساهراً مفكراً في المشكلة التي عرضت عليه حتى إذا طلع الصباح بادر إلى صاحب المسألة فأعطاه الحل السليم.

وكان هو المصرف إن احتاج أحدنا المال فيدفع فوراً ولا يحدد أجلاً، بل كان يبادر للنجدة من دون أن يطلب منه أحد ذلك.

وعلى الرغم من أنه مر بأزمات شديدة في حياته «مثل وفاة والده، واضطراره إلى العمل إلى جانب الدراسة، ومن مثل وفاة والدته التي كان يحبها جداً والتي ظل يبكيها كلما ذكرها.. حتى جاءه الابتلاء الأكبر وغيره» ظل جدي صامداً محتفظاً بآلامه لنفسه، فما أشرك معه أحداً في معاناته، ولا طلب العون من أحد منا إلا من الله، وظل مدة حياته يعطي دون أن يأخذ ما يتناسب مع عطائه، وبقي يسند عائلته دون أن يطلب من يستند هو عليه، ولعل هذا هو أروع ما تحلى به. ■







مؤلفات جدي ولكن بقلمي

بقلم : أروى المؤيد العظم*

قد يتردد الإنسان ويحتار القلم أحيانا في الكتابة عن شخصية علمية مرموقة ومعروفة بين الناس برسوخ القدم في ميدان العلم والثقافة والفن، وذلك لما قد يحدث من قصور في الحكم، أو خطأ في التقويم، أو تقصير في الإحاطة بالموضوع من جوانبه كلها، وبخاصة حين لا تكتمل الأدوات والوسائل الضرورية للقيام بهذا العمل، والتي من أهمها الاطلاع العميق والدقيق على مؤلفات تلك الشخصية وآثارها، ومعرفة بعض التفاصيل التي تمس حياتها الشخصية والثقافية.

أجد نفسي منساقة إلى الكتابة.. بغير ما إرادة..وكأنني تجرأت بعد غياب قلمك.. واليوم أتجرأ أكثر فأستعير منك أسماء كتبك لأستوحي من العنوان بعض ما كان.. من ذكرياتنا معك مما لا يعرفه كل إنسان ممن صحبوك أو قرؤوا كتبك.. آخذ حفنة صغيرة فقط تحت كل عنوان تطول في بعض الأحيان.. رغم حرصي على الاختصار.. وتكون كلمات قصيرات في غير مكان.. أكتبها بقلمي.. فتارة أفرح وتارة يغلبني حزني.. فإذا قصرت فأرجو منك أن تعذرني.. وأرجو من القراء أن لا يلوموا كتبك.. فأنت غير مسؤول عمّن كتبك ومن هنا من قصص الحياة أبدأ..

قصص من الحياة :

كان لنا في جدة بيت، في أي ساعة نطرق بابه نجد الحفاوة والترحيب.. وجه بشوش مضيء يستقبلنا.. يصحو من أجلنا.. أو حتى يرمي أعز ما لديه: كتاب.. يسامرنا.. يحدثنا ويطلب منا كلمات، يشاطرنا الأفراح.. يقاسمنا الأحزان لا يبخل علينا بجهد أو مال بل، لا يبخل علينا بأن يؤلم رأسه من أجلنا ومن أجل التفكير في حلول لمشاكلنا الكثيرة التي لا تنتهي.. أرهق جبينه.. مزق نفسه، لم يصده ولم يوقفه عرض أو مرض.. كان يلبي لنا أي مطلب أو غرض، وخلال الجلسة الواحدة دعوات

---

* حفيدة الشيخ علي الطنطاوي.

ودعوات بالسعادة وبالصلاح وبرضاء الله علينا.. كنا نحسبه سيظل هناك ونحن نأتيه عندما نشاء. لكن هيهات.. هيهات غرتنا الحياة.. وبينما هو يعد للرحيل ويتركنا للهم الثقيل كان يترفق بنا. لم يرد أن ينسل هكذا فجأة من بيننا بل أنذرنا وأنذرنا، ثم توعدنا وانتظرنا وهو يتألم حتى نتألم. أراد أن يتركنا ونحن نتحمل، لكن هل كنا نعد لهذا أو نتخيل..!!

نعم كان لنا بيت في حي من الأحياء قريب، بيت متواضع وليس قصراً من القصور، لكن في داخله وجه حبيب، كان بيته ملتقى العائلة..وكان منتدى تطرح فيه الأسئلة.. وهو يجيب.. وكان حضناً دافئاً في الوقت العصيب.. لا نحتاج هنالك موعداً ولا إذناً بالزيارة.. نأتي فندخل بكل حفاوة.. تلاحقنا كلمات الضيافة يجب أن تشربوا.. تأكلوا.. بعضنا يأكل.. بعضنا يشرب.. وبعضنا يكتب.. وبعضنا يقرأ، الجرائد كانت هناك، والكتب وبعض مجلات، وكلها متاحة للقراءة أو حتى للإعارة.. وكان هناك يشكرنا لمجيئنا، يرد على أسئلتنا، يلاطفنا بكلمات.. فرحت بزيارتك، أنت ذكية وابنتك الصغيرة جميلة ولطيفة، وعندما أشكره يعقب بكلمات.. لا تشكريني بل اشكري الله ثم نذهب.. يدعو لنا لا يطعننا من خلفنا بكلمات كما يحصل في أغلب مجالس الناس.

اختفى ذلك المنزل الآن، وانمحى ذلك البيت، إلى أين سأذهب الآن عندما يتملكني الضيق والشوق؟ إلى قبر هنالك بعيد يحف به الموت! إلى أين سأذهب الآن عندما يضيق بي الكون أويلتبس علي أمر؟ لا أجد ما يسد مكان ذلك البيت.. لا أحد يسد مكان ذلك الجد.. لن أتلقى دعوات بأن أسعد..

هكذا جاءالزلزال إلى جدة دمر بيتاً، جرف فرداً، في الظاهر لم يفعل أكثر.. لكن في الباطن كلنا تدمر.. كلنا صار يندم، يتحسر، هل قدم أم هل قصر..؟! كلنا صار يجلس خلف ركام الذكريات التي أصبح حزينها محزناً ومفرحها محزناً أكثر. وهكذا تتوافد الأحزان من كل مكان، ونلهث وراء الزمان، وما دام لن يعود إلى الخلف لعله يمضي سريعاً إلى الأمام، عله ينسينا بمضيه جرحاً عميقاً محفوراً في الأذهان، وعندما نظن بأن الوقت قد مضى وبأن بعض الحزن قد انقضى.. تدور الأيام ويعود الميعاد يقترب الآن، لنتذكر عندها تلك الليالي الطويلة والمشاهد الأليمة، ثم نطرق نفكر.. لا نصدق.. كيف مضى عام وكيف تحملنا الآلام.. كيف صمدنا! بل كيف مرت علينا الأيام.؟؟! وهكذا الذكرى تتجدد والنسيان معها يتبدد..

وعندها لا نملك إلا البكاء والتسليم للقضاء.. ولا ننسى وصية منه.. دعوات بالرحمة وبنيل الجنة.. ونعم الجزاء.

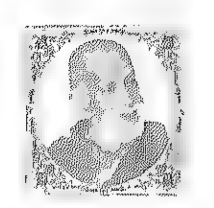
فصول إسلامية :

هذا فصل من مسرحية حدثت على مسرح الحياة.. كان جدي فيها بطلاً من الأبطال علمني من خلالها درساً عظيماً من خلال قطعة «شوكولاه..» وإليكم هذا الفصل المقتطع من المسرحية لما فيه من عبر وعظات وطريقة مثلى في النصح والإرشاد: في إحدى الاجتماعات العائلية وفي بيت كنا نتخذه لقضاء الصيفية.. كان يجتمع الأولاد، الصبيان والبنات، وكان جدي يتخذ لنا كل أسباب الترفيه المباح، ولكنه لا ينسى خلال ذلك توجيهنا من خلال ما يطرأ من أحوال.. وفي إحدى المرات أحضر ألواحاً من الشوكولاه الكبيرة وكان يأتي بها من لبنان ثم قطعها وجاء يوزعها علينا بنفسه، وأول من بدأ به أنا فاسترعى انتباهي اختلاف الأحجام وبشكل كبير، فقطع كبيرة، وأخرى متوسطة وغيرها صغيرة جداً، وهو من عادته العدل، فلماذا لم يعدل الآن؟ وأنا أحب الشوكولاه، وإذا تركت القطعة الكبيرة سيأخذها فلان وأنا لا أريده أن يأخذها.. ثم يقضي الوقت وهو يعيرنا بأنه قد استأثر بها.. كما أنني أحبها وأريدها وما دام هو قطعها بهذا الشكل فإن عليه الوزر.. وعندما لمحته ينظر إلى جهة أخرى يبحث عمن يذهب إليه بعدي اغتنمت الفرصة وأخذت أكبر قطعة.. لكن لم تكن لتفوته تلك الفعلة، فقد فعلها قصداً.. فمضى وهو ينظر إلي نظرة ذات مغزى، وهو يقول لي: لقد استأثرت لنفسك بأكبر قطعة.. وقد كانت هذه الكلمات تكفيني لكي لا أقضم منها أي قضمة.. بل لقد استحييت وخجلت من تلك الفعلة.. بل لقد عافت نفسي تلك الأكلة.. وجريت إلى الشرفة أتوارى عن الناس وعن جدي بالذات، وأنا أتساءل ماذا سيقول عني الآن.. أنانية أفضل الذات، ولكنني لم أكن كذلك، فلماذا فعلت ذلك أمامه؟.. ليتني أخذت أصغر قطعة لكنت أكلتها بلذة.. وجرت دموعي بكثرة.. ثم فجأة فتح الباب ودخل جدي قائلاً: كنت أعلم بأنني سأجدك هنا، وكنت أعلم بأنك لن تأكلي القطعة، فأنا أعرفك تمام المعرفة أنت حساسة وخجولة، وكانت تكفيك نظرة لتفهمي، وربما لو كان أحد غيرك لأكل القطعة تاركاً الكلمات جانباً فلذة القطعة الكبيرة أحسن، وقد يقول في نفسه سوف ينسى جدي هذا الموقف بعد دقائق أو حتى أيام وما الضير في ذلك، أما أنت فكما عرفتك مرهفة الإحساس تفهمين المراد من نظرة، وكنت أشيح بوجهي عنه في استحياء، لكنه اقترب قائلاً كلميني، فلقد علمتك والجميع بأن نكون صريحين..

– نعم يا جدي أنا مخطئة باختياري أكبر قطعة، ولكنك أخطأت أيضاً؟ ويجيب: كيف؟

– لقد أخطأت بتقطيعك للشوكولاه بهذه الطريقة. وكان عليك أن تقطعها بشكل متساو..

– نعم أنت محقة يا ابنتي..ولكنني أردت أن أعلمكم درساً عندما قطعتها بهذه الطريقة.. وأتساءل كيف؟ فيقول: انظري من النافذة هنا على اليمين، أترين هذا القصر الكبير؟.. أجيب باستغراب: نعم، أراه!! فيكمل: هل عندك مثله؟.. أجيب: لا! ثم



مؤلفات جدي ولكن بقلمي

يدور إلى الناحية الأخرى قائلاً: أترين تلك الدور الصغيرة المعمرة من الطين؟.. وباستغراب أسأل: ماذا تقصد يا جدي؟؟!

– أقصد بأن الله لا يعطينا في الحياة كل شيء بقسمة متساوية وهذا امتحان منه.. امتحان للغني هل ينفق على الفقراء، وهل يحمد الله؟؟ وامتحان للفقير هل يصبر على الفقر ويحمد الله؟؟.. هل الناس متساوون في الصحة؟؟ بعضهم أعمى، وبعضهم مشلول، وبعضهم لا يرزقون الأطفال و....و....و... لا يتساوون في الشكل، بعضهم جميل، وبعضهم قبيح.. وكثير كثير من هذه الأمور كالذكاء والامتحان بالبلاء وغيرها.. فالحياة ليس فيها قسمة متساوية وربما يمر الزمان وتتزوجين أنت وأخواتك فتعيش واحدة في قصر مثل هذا، وتعيش الأخرى في بيت صغير مع رجل فقير، ولكن علينا ألا ننسى الآخرين، وأنت صدقاً لم تكوني يوماً أنانية، وإلا لكنت الآن قد أكلت القطعة ونسيت القصة، وذهبت تلعبين، ولما كنت كلمتك تلك الكلمات، ولكن لأنني عرفت فيك الطيبة ويقول: كلا إنها نصيبك، ويجب أن تأكليها كلها وأنت تضحكين، ولا أريد أن يعرف أحد بهذه القصة!! وفي المساء عندما حضرت كؤوس العصير كانت يدي تمتد إلى أقلها.. عندما نظر إلي جدي وضحكنا معاً ضحكة هادئة.. وكان درساً لن أنساه فمن يومها وأنا آخذ من الأشياء أقلها..

مع الناس:

كنتَ فرداً متميزاً.. باسماً مرحباً.. تجعل من ضيفك سيداً.. فكلمة يا سيدي لا زالت تدق مسمعي لكل من حضر.. تجيب كل من سأل ولا يضيرك حين لا تعرف المسألة بأن تعتذر بكلمة.. نكاتك حاضرة وأذكر أنه في مرة كان النور ضعيفاً في الغرفة وكنت أنا طفلة أجلس في الخارج أستمع لحديثك المفيد مع ضيوفك.. فسألت أحدهم بأن يضيء النور، ولكنه أجابك بأن نورك كفاية وأصر على ذلك فما كان منك إلا أن أطفأت أنوار الغرفة تماماً ثم أعطيته ورقة ليقرأها.. مازحاً معه وأنت تقول له ألم تقل إن نوري كفاية..!

ومن دعاباتك اللطيفة أن دخلت المطبخ علي يوماً وقد أمرتني بأن أصنع القهوة.. فذكرت لي بأن عدد الفناجين ناقص وبأنه قد حضر رجل بعدما حددت لي العدد فقلت يا جدي انتظر أصنع لك فنجاناً آخر.. لكنك تسألني ما لون القهوة؟ وأنا باستغراب أجيبك: أسود.. وأنت تبادر إلى إحضار زجاجة الخل الأسود وأنا أدهش من ذلك ثم أضحك وعندما تسكبها وتذهب بها ألحق بك وأنا أصرخ على رسلك سأصنع لك! ولكنك تحتفظ بهدوئك وتدخل على ضيوفك.. وأنا أجلس في الخارج أنتظر صرخة أو ولولة تنفجر لكن لم يحصل أي شيء أتدرون لماذا؟ لقد كان الضيف مهذباً في حضرة جدي إلى الدرجة التي أرجع فيها الفنجان من غير أن يتكلم أو يتذمر وهو ينظر إلى غيره كيف يشربون! لكن جدي لم يسكت طبعاً، بل لامه وقال له: يا أخي اعترض أو حتى امتعض..!

تعريف عام بدين الإسلام:

أخذت إرثي منك، نعم! كان أعظم ما ورثته لي الإسلام، لكنني لم آخذه تقليداً.. بل عشته معك، بدأت به وليداً مناسباً لسني ثم كبر معي وصار عتيداً.. لم يكن تلقيناً.. بل كان يقيناً.. غرس في قلبي حتى أصبح هادياً لي ومرشداً..

وفي تعليم الصلاة لك معي قصة.. لا أزال أذكرها.. كنت تصلي بنا إماماً عندما تجتمع العائلة وتخص الصغار بالنظر والعناية وجبر التقصير، وكانت أول ملاحظة لك علينا بأننا عندما صلينا استعجلنا، وفي الحقيقة لم تكن الصلاة مفروضة علينا لكنك بمعرفتك وذكائك كنت تعلم بأن الأمور تتكون بالعادة.. فكنت تجلس تراقبنا فنطيل الوقوف فتنبهنا إلى كل الأركان وبأنها تحتاج إلى التمهل أيضاً، وبأننا يجب ألا نسبق الإمام.. وصرت تنبهني المرة تلو المرة، وأنا أسرع من أجل اللحاق باللعب.. إلا أنني مع الوقت ولأنني [illegible] أحبك ولا أرضى بأن أغضبك وأنت توجهني وتقول لي الصلاة من أجل ربك لا من أجلي.. وأنا أحببتك بعد ذلك لأنك علمتني الدين الصحيح وفي سن صغيرة..، فتعودت بعد ذلك على التمهل في الصلاة بل لقد أصبح من العسير علي بأن أسرع في صلاتي حتى ولو كانت لدي أهم الأشياء.. ولا زلت أستغرب عندما أجد أمامي أحداً ينقر الصلاة.

الذكريات:

الجزء الأول:

في دمشق عشنا في بيتك فترة، كنت وأختاي نحسبك أبانا.. حتى في مرة عندما قرع الجرس، وقيل لنا جاء أبوكم، هرولنا إلى



ساحة الدار، وعندما وجدنا شخصاً آخر.. رفضنا الفكرة وجرينا نحو الغرفة.. هكذا اختلطت علينا الأمور. ولكنني بقيت على معرفتي الأولى بك.. أبي أعتبرك.. وأحمد الله على أنني كنت من الطبقة الأولى من الأحفاد.. فقد منّ الله علينا بأن عايشنا جدنا وهو في كامل قواه.. بل لقد كان عتيداً وقوياً إلى درجة أنه كان يحمل الأثقال..وأنا لا أزال أذكرها هنالك في مكتبته حبيبته والأثيرة في نفسه.. والتي كان يسمي ما بداخلها النفائس..كنا ندخل نجرب حمل تلك الأثقال فلا نقوى، فنحمل منها القطعتين الصغيرتين.. نرفعها إلى أعلى ونضحك، ثم نعيد كل شيء كما كان.. فهنالك يجب ألا يتحرك غرض من مكانه وإلا اختل ميزانه.

الجزء الثاني:

كبرت قليلاً ووعيت.. أذكرك تماماً في ذلك البيت العتيد الذي نحن إليه جميعاً.. في أعلى الجبل والمنظر المطل.. لم أكن أعرف قيمتك كعالم إذ لو عرفت لاستغربت من تصرفاتك معنا، فأنت تارة تذهب لمؤتمرات في الشرق والغرب، وتارة تجلس مع أطفال صغار لم يصلوا سن الرشد لتلعب معهم ألعاباً لا تليق بمكانة الجد.. فعندما تذهب جدتي في زيارة كنا نطير من الفرح، حيث إن جدي سيبتكر لنا طريقة للعب.. وكان لذلك مقدمة بأن لا نخرب أي شيء تحرص جدتي عليه وبأن نرفع الأغراض إلى مكانها وننظف ما طالها، وكانت الحماسة تأخذنا لدرجة أننا كنا مستعدين لتنظيف البيت فابتكارات جدي مثيرة ومسلية وبخاصة أنه كان يلعب معنا وحتى يعلمنا كيف نلعب، ويستفيد خلال المواقف التي نمر بها في إرشادنا إلى أمور ديننا وكيفية تعاملنا مع بعضنا أو مع الناس، وحسب اللعب فيعلمنا الخطأ والصواب..ولا يكتفي بذلك بل كان يطبخ لنا أكلات، ولكن على طريقته.. فهو يضع في الطبخة كل ما يجد في حوزته من خضار وغيرها ويزيد ويزيد في المرقة فهي التي يحبها.. أو قد يصنع الحلوى ويتفنن بها بل لعله يحب صنعها ثم يظل يتذوقها ويزيد السكر حتى لا تعود تؤكل.. من كثرة السكر.. لا أزال أذكر منظره وهو ينحني بجانب الموقد وقد وضع صينية كبيرة وفي داخلها كميات من السكر غير قليلة..ثم لا يكتفي بذلك بل يضيف القطر «الشيرة» ويدعونا لنتذوق ونخبره رأينا بصراحة، فنقول بأنها شديدة الحلاوة.. فيوبخنا مازحاً وقد يضع عليها ملحاً ثم يقنعنا بأنه قد خفف الحلاوة..

وكان مما يعمله لنا مجموعة من الخيام عبارة عن ملاءات وشراشف يثبتها على حبال الغسيل في حديقة المنزل على أنها بيوت ونحن نتزاور بها فمن دار إلى دار.. ومنا من يسيء، ومنا من يحسن الجوار..

الجزء الثالث:

أصبح أكثر قرباً منا فلقد كبرنا.. فصادقنا وكان قريباً إلينا بشكل كبير، ليس له مثيل.. يحاورنا ويسألنا ونسأله عن أي أمر عسير.. فأنا أستطيع أن أسأله في أي مسألة وبغير إحراج.. بل كان يطلب منا أن ننتقده أو حتى نخطئه إن جانب الصواب.. ولكن طبعاً بكل احترام.

وكان متواضعاً إلى درجة أنه يعترف بخطئه إن وجده أو يقنعني بوجهة نظره.. بل كان يعطي الهدايا لمن يقلده ويتقن دوره.. والمثير والعجيب في شخصيته أنه باستطاعته الاعتذار حتى ولو لطفل من الأطفال إذا أحس بأنه أخطأ معه، أوأنه تسرع حكمه قبل سماع الأقوال.. وغالباً ما يكون الأمر بسيطاً لا يستحق ممن هو في قدره الاعتذار إلا أنه يصر على أن يطيب نفس من أحزنه من غير اعتبار للأقدار أو الأعمار، ويقول من أخطأ فعليه الاعتذار. وهكذا كان محبوباً لتواضعه وكان ينبوعاً من الحنان لا ينضب يجري ويفيض على كل إنسان.. لكن ماذا لو انتهكت حرمات الله؟! فإن صوته ليهز الأركان أو يوقع الجدران.. اليوم أمدحه وقد كان يفر من المديح.. كيف لا؟ وهو الذي علمنا بأن ننتقده، وكان يضحك عندما نقلده حتى تفر الدموع من عينيه.. فكيف اليوم أمتدحه بما ليس فيه..!

الجزء الرابع:

عندما رحلت عنا إلى مكة.. وكانت بيننا رسائل أجدها الآن بين أوراقك المحفوظة وكنت أكتب لك بالعامية وترد علي بكلمات لطيفات. وكلما وجدت زائراً آتياً إلينا في دمشق تبعث لنا من الهدايا كميات.. حقيبتي الصغيرة وشمسيتي الملونة لا زالت تقبع هنالك في أحد الأدراج بل لا زلت أحتفظ بالعود الصغير الذي أعطيتني إياه وهو عود كبريت لونته لي بألوان وزخارف، وقلت لي: هل تستطيعين الاحتفاظ به عشر سنوات، ثم تعطيني إياه..؟! ومرت سنوات عشر كنت أظنها طويلة، ولكنها مرت كالهواء ومر بعدها مثلها، ونسيت أنت القصة رغم أنني ذكرتك بها.. وما زال العود ينتظر هناك.. دون أن أريك إياه.. وعندما سأحضره فلن ألقاك!!

الجزء الخامس:

أعرج إلى دمشق التي أحببتها طوال عمرك وجعلتنا نحبها من بعدك، لا وبَلْ من أجلك، فآخذ حفنة ذكريات.. أقتطعها من تلك الزيارات التي كنت تقوم بها إلينا في موسم الإجازات، هنالك في شوارع دمشق العتيقة كنا نخرج جماعات جماعات، اخترعت لنا طريقة لننطلق ونمرح ساعات وساعات نمشي، وكل شخص يختار طريقاً عند التقاطعات..مرتبين جميعاً حسب الأعمار.. تجرنا أقدامنا إلى أماكن عجيبة لم نكن نرتادها قبلاً.. شوارع لم نكن لنجتازها قطعاً لولا سوء الاختيار من بعض الصغار أو حتى الكبار.. فنحن عشوائياً نختار.. وأذكر أننا في مرة وصلنا واحة عجيبة بها ماء وأشجار وضفادع من كل الأشكال.. وكنا بعد ذلك نتعب حتى نجد طريق الدار، وكان الحظ أحياناً يرجعنا فوراً، وكأننا نلف في دوران.. فتقول أنت ما دمنا قد عدنا فهو القدر..وتنقضي الرحلة بأسرع مما



مؤلفات جدي ولكن بقلمي

نتصور..وأحياناً أخرى نتيه ساعات نبحث في الطرقات عمن يدلنا على حينا.. لنصل ونحن في غاية التعب والإعياء.. كل هذا وأنت صابر علينا، تحدثنا وتنصت إلينا وكأننا كبار.. تمازحنا وتضحك على نكاتنا الطفولية بكل حب واقتدار..

أو نذهب في رحلات بعيدة إلى حارات دمشق القديمة..ولا زلت أذكر عندما جمعتنا بتنظيم عجيب، ثم كنت قائدنا إلى بيت أبيك القديم ،ثم إلى قبر أمك وأبيك في مقبرة الدحداح، وكأنك رجل قد جاء من عصر بعيد، فكل شيء في ناظره جديد.. فلم تعد الدار هي الدار، وقد غادر كل من تعرفه من الرجال، وهكذا رأيت الحزن في وجهك، وكأنك تعاني الغربة وحدك.. فكم تقلبت عليك دول وآثار.

الجزء السادس:

لم تعد تقوى على السفر وكان دوماً يسبب لك الهم والكدر..فأصبحنا نأتيك في مكة وكانت من أجمل الأيام فبيتك قريب من المسجد الحرام.. فكنا نصلي هناك كل الأوقات ثم نراك.. وكان مجلسك ينبوعاً ننهل منه العلم نهلاً.. صافياً سهلاً.. فكلامك لا يخلو من موعظة.. غير أنها مغلفة بطبقة حلوة لا تعرف الجفاء.. تجذبنا إليها بغير عناء.. أما إذا أعيتنا مسألة فكنت تعيدنا إلى الكتاب.. مع أنك تعرف الجواب..وكنت قلت: أستغرب من ذلك غير أنني فيما بعد أدركت الأسباب.. وكنت أدخل إلى المكتبة فأصاب بالإحباط، طبقات مكدسة فأبحث هنا وهناك.. ثم أعود إليك خالية الوفاض.. فلا توبخني، وإنما تقول ليس العلم بحفظ المسألة بل بالمعرفة وكيف نلاقيها في أي كتاب، وهكذا سبرنا أغوار المراجع القديمة.. وعرفنا كل كتاب ذي قيمة.. حتى طلبت مني يوماً فتح «لسان العرب» وأنا ما زلت صغيرة لا أقوى على حمله.. ثم رددتني وبكل لطف إلى «القاموس المحيط» وعرفت بعد ذلك بأن المحيط قد يكون أخف وزناً من لسان سليط..!

الجزء السابع:

هذه الفترة في مكة أيضاً، ولكن اختلف المنزل، ولم يعد بجانب الحرم.. رنين هاتفك الذي لا ينقطع.. إجابات الأسئلة كانت في أذهاننا تنطبع.. كان مجلسك حتى مع أهلك مجلس علم، الكل به ينتفع.. واحد فقط يتكلم والباقي يستمع.. حتى إنني كنت أذهل عندما لا تحضر كيف يأتي إلى المجلس عشرة والعشرة يتكلمون؟ وكيف كنت تقضي على الفوضى بحزم حنون..؟ كنت أكبر وحبك في قلبي يكبر.. أنت علمتني الحنان كيف يكون.. لا تنسى أحداً من أهلك حتى كنا نتخاصم من هو الأثير لديك..وتأخذنا بك الظنون.. وعرفنا بعد مرور الوقت بأن قلبك يتسع لملء الكون..



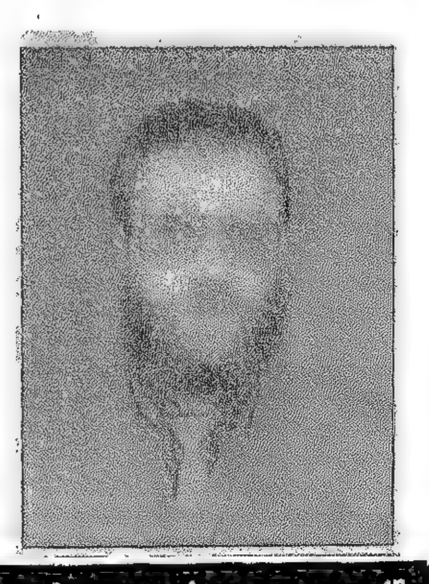
الجزء الثامن:

في جدة بين الجميع عشت تلك الفترة فتعودنا عليك.. كنت تأتينا أولاً، ثم بعد أن أثقلك العمر أصبحنا نأتيك، وكنت مع سنك تراعينا أفضل مما نراعيك.. وبقيت مجالس العلم ومنتديات الأصدقاء، وبقيت تلك المحاورات..ثم فجأة تسرب إليك الثقل والمرض فأقعدك.. لكنه لم يلمس عقلك فقد بقي ناصعاً كما كان، بل بالحكمة ازدان، وبقيت ذاكرتك مع كثرة قولك نسيت، بل فاقت مع النسيان ذاكرة كل عائلتك.. واليوم أتمنى أن أنسى ما كان بعد ذلك.. ولكن هل مثلك ينسى على مر الأزمان.. دارك في جدة لم نعد نقربها.. هي حديثة العهد بك فكيف نلمحها.. ومكة التي فارقتها منذ سنوات.. صبرت فترة ثم أرادت أن تحظى بك في نهاية المطاف.. حين نزل القدر.. وانتشرت الهموم لدينا على مد البصر.. هناك في مكة حلا لك المقام واستقر..

أنت الذي طال عمره وحسن عمله.. إن شاء الله- وأنت الذي سنظل نذكره.. بكل خير.. سيبقى الحب فينا وسيبقى الحنين.. وسيظل في داخلنا حزن دفين.. فالفراغ الذي تركته ليس بالشيء اليسير..ولا ندري متى سنعاود السير.. وكم سيمر من وقت قبل أن نهدأ، وهل سترسو أحزاننا على مرفأ..؟! ■



علي الطنطاوي كما يمثله لي الخيال من خلال كتاباته



بقلم: د. محمد أحمد هيشور
الجزائر

منذ الصغر تأثرت كغيري من القراء بعدد من الكتاب والمؤلفين فارتسمت في ذهني صور لهم. وقد مد الله في أعمار الكثير منهم وكتب لي اللقاء ببعضهم. فمنهم من ازدادت صورته إشراقاً في ذهني، ومنهم من انطمست بمجرد أن رأيت صاحبها، أو ازدادت معرفتي به، وبلغت مستوى من الوعي والنضج، فلم تعد كلماته تسحرني. ولعل كل واحد من المثقفين في ذهنه صور عن كاتب أو مؤلف أو صورة عن كتاب.

ومن هنا كان اللقاء خلال الكتاب في ميدان الفكر والأدب هو أفضل اللقاءات ذلك لأن الإنسان تنتابه لحظات وظروف تتفاوت فيها أنانيته وأوضاعه النفسية والروحية، ولعل أفضلها حين وجوده في عالم الكتابة والتأليف تحيطه المبادئ الإنسانية وتكتنفه الشآبيب الإيمانية. وقد شاء الله لي أن أقابل فضيلة الأستاذ علي الطنطاوي في مواقع من كتاباته التي كانت كالتالي:



من وحي كتاباته :

لقد أعدّ علي الطنطاوي كتاباته خلال ما يزيد عن خمسين سنة[1]، له فيها ما يزيد عن أربعين كتاباً ما بين كتاب كبير ورسالة صغيرة إلى جانب المحاضرات والندوات والمؤتمرات في الجامعات والمساجد والنوادي وأحاديث الإذاعة والتلفزيون، هذا إلى جوار عطاءات أخرى استمرت بعد هذا التاريخ. لاشك أنها تميزت بالنضج والتجربة حتى إني قابلته ينوي إصدار مذكرات في سيرته الذاتية تحت عنوان «ذكريات نصف القرن» هذه المذكرات التي غالباً ما يفكر فيها الكتاب والعلماء والأبطال في أخريات حياتهم حينما تتوافر مادتها لديهم، ويحسون بدنو العمر وقرب الأجل. فهذه الكتابات قد تيسر لي الاطلاع عليها وبعضها الآخر لم أطلع عليه إطلاقاً. وإنما تخيلته من خلال ما قرأت فقط مع العلم أن العلامة علي الطنطاوي تطرق لموضوعات كثيرة في كتاباته مس فيها جوانب عديدة من الأدب والفكر، وأخرى من التاريخ والاجتماع والتربية والتعليم استحضر من خلالها خريطة العالم الإسلامي الجغرافية والتاريخية. وإن بدا أن الحنين إلى الشام تاريخه وحاضره سكن كيانه وتحكم في خياله وتفكيره، فجاءت كتاباته تعبيراً عن هذه الحقيقة، وإن عنونها من هنا وهناك إلا أن الشام هو المحور الذي يحس القارئ أن كتاباته دارت حوله في كل ما كتب فعلى سبيل المثال:

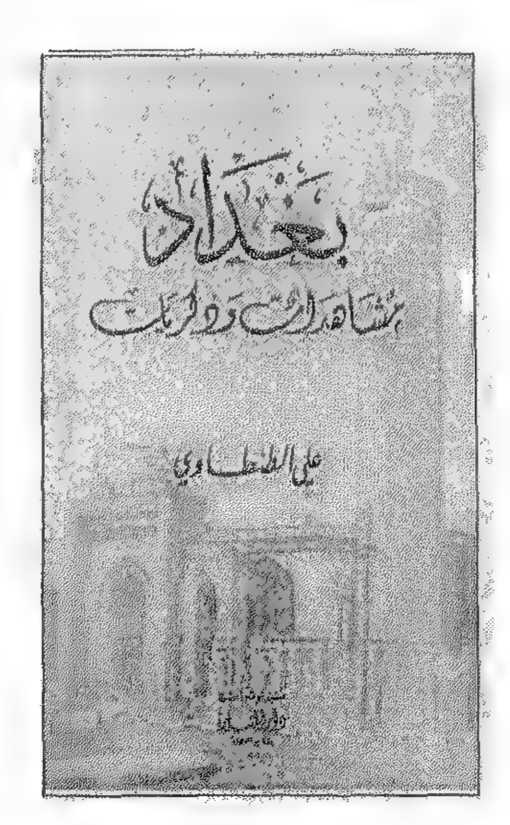
- من الناحية الجغرافية:

نجد كتابه «بلاد العرب» والكتاب وإن لم يتهيأ لي الاطلاع عليه فإنه يبدو عبارة عن خواطر وذكريات وأشجان عاشها الكاتب من خلال التاريخ والواقع، يضاف إلى هذا في «إندونيسيا» الكتاب الذي أتخيله هو الآخر كتب بوحي من ذكريات تاريخية ومشاهدات سفر أثرت في الكاتب روحياً ونفسياً لما شاهده من أهل البلد وحفاوتهم بعلماء الإسلام من العرب خاصة. وإلى جوار الكتابين نجد كتباً أخرى منها كتاب «دمشق» و«بغداد» وهما امتداد بطريقة أو بأخرى لكتاب في «بلاد العرب» لعل الكاتب بادل الحديث فيهما بين مجد الحضارة الإسلامية في عاصمة الأمويين دمشق وعاصمة العباسيين بغداد، ثم أصدر من خلالهما كتاباً آخر تحت عنوان «هتاف المجد». وفي أحضان خريطة بلاد العرب أصدر كتباً أخرى لعلها تتضمن خواطر إيمانية أكثر مما تحتويه من حقائق تاريخية جافة مثل «من نفحات الحرم» و«الجامع الأموي».

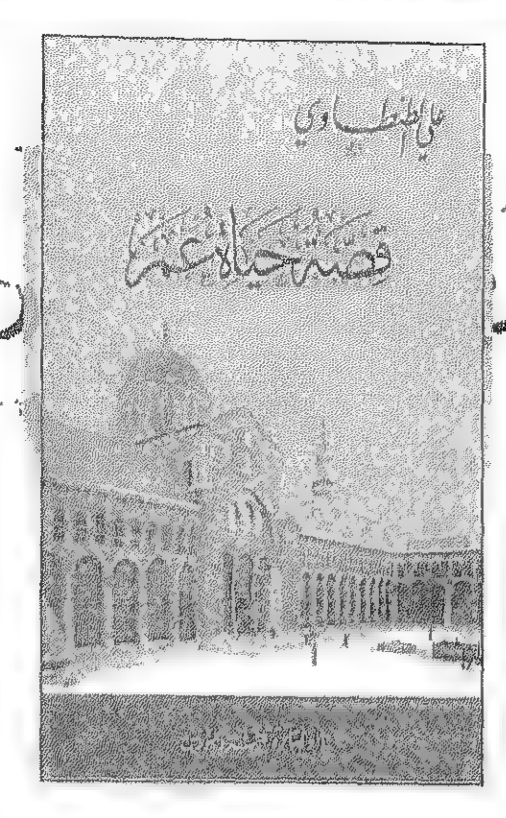
- من الناحية التاريخية:

يبدو أن الكاتب كان جوالاً في رحاب التاريخ الإسلامي يستشف عبيره، ويستخلص عبره ودروسه، ينتهج فيه نهج المربي الذي يركز على ما يفيد به الحاضر، ويتطلع من خلاله نحو المستقبل. ولعله من أجل هذه الغاية أصدر كتاباته الأخرى التي منها «من التاريخ الإسلامي» و«قصص من التاريخ» و«رجال من التاريخ» ويستنتج من هذه الكتب أن صاحبها وضع أمامه إطار التاريخ الإسلامي العام. واختار منه قصصاً ورجالاً بلّغ من خلال الحديث عن أولئك الرجال وقصصهم أو قصص آخرين من غيرهم رسالته الدينية التربوية التعليمية الحضارية التي هي المقصد الأساس من كتاباته كما يمثله لي الخيال.

ولعل بعد ضيق الدائرة المعرفية «الجغرافية المكانية» و«التاريخية الزمانية» وإصدار كتاب تاريخي آخر ضمن الدائرة الإسلامية وهو «من التاريخ الإسلامي» وينتبه إلى أن «من» للتبعيض في كثير من الأحيان حاضرة في كتاباته. هذا مما يدل على دقة القصد والتواضع أمام غزارة المادة التاريخية والتزام أدبيات البحث العلمي التاريخي التي لا تنتهج أسلوب الفصل والقطع وادعاءها الإلمام والإحاطة المعرفية بالموضوع وتقصي حقائقه وأخباره. ثم راح الكاتب يستل من محيط دائرة التاريخ الإسلامي موضوعات أخرى مثل: «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و «رسائل سيف الإسلام» فهذه الكتب وإن لم ترتب في تاريخ الصدور بهذا الترتيب. فإنه يتهيأ لي أنها كانت مرتبة في ذهنية الكاتب وفي مخيلته وفق الأبجدية التاريخية، فيغلب الظن أن الكاتب لا يتطرق إلى الحديث عن عمر بن الخطاب مثلاً إلا بعد الحديث عن أبي بكر - رضي الله عنهما - ثم يثلث بسيف الإسلام خالد بن الوليد - رضي الله عنه - الذي أتخيل أن الكاتب حصل على وثائق تاريخية قد تكون مجموعة رسائله من الشام إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة المنورة - رضي الله عنهما. أو تخيل هذه الرسائل لما كانت تتضمنه من صدق ووفاء واحترام



للقيادة الإسلامية يومئذ، وراح يتبناها في أسلوبه الأدبي ليبلغ من خلالها حقائق للآخرين ممن يريد. وقد يكون قصده في هذا المجال التربية السياسية وهي الطاعة التي عرف بها خالد بن الوليد أمام عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وخاصة عندما عزله عن قيادة جيوش الفتح الإسلامي لبلاد الشام.



- **من الناحية الروحية التربوية:**

فبالرغم من أن كتابات علي الطنطاوي التاريخية كانت كما يتهيأ لي تهدف أساساً إلى قصد دعوي تربوي بالمعنى العام للتربية والإعداد إلا أنه تطرق إلى موضوعات إسلامية تربوية تعليمية مباشرة من خلال كثير من كتاباته منها «في سبيل الإصلاح» و«رسائل الإصلاح» وكان يقصد إصلاح ما نطلق عليه نحن اليوم المنظومة التربوية التعليمية. هذا إلى جانب كتابات تربوية تعليمية أخرى مباشرة مثل «كتاب المحفوظات» و«قصص من الحياة» وأساس القص والحكي في مجالس الناس وأسمارهم وكتاباتهم التربوية ونقل أخبار الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد ليتأثروا بها ويتربوا عليها ثم يقتدوا بالصالحين من أسلافهم الأخيار.

- **من الناحية الدعوية:**

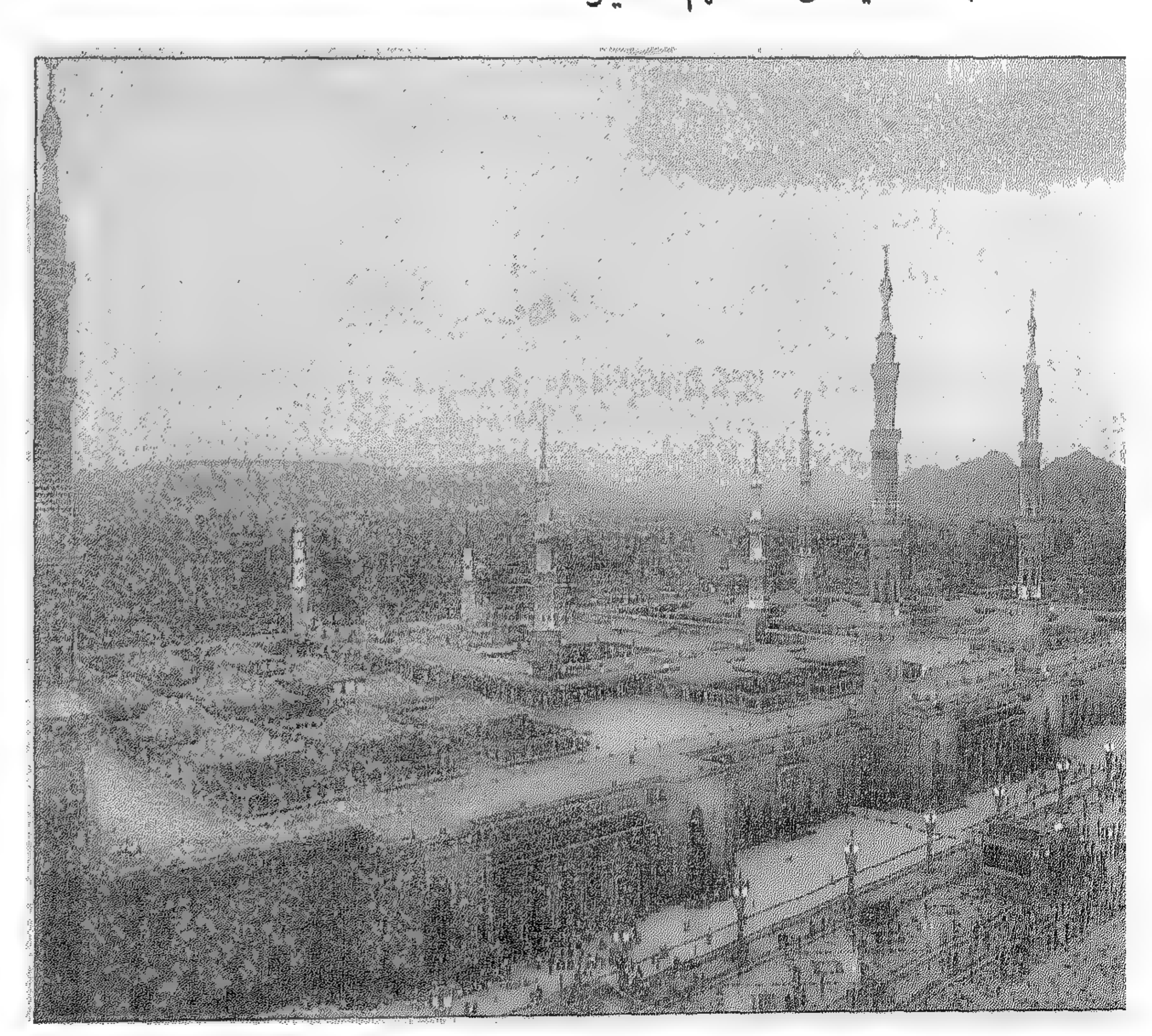
أصدر كتابه المعروف (تعريف عام بدين الإسلام) حاول أن يبسط فيه مبادئ الإسلام وحقائقه، ويقدمها للآخرين من أبنائه وغيرهم في أسلوب ما يعرف بالمختصر المفيد الذي أسس من خلاله بدايات أولية في مناهج الدعوة إلى الله والإصلاح التربوي، استخلصها من دراسته لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرون الخيرية للأمة الإسلامية، ويبدو أن الرغبة في الدعوة إلى الإسلام كانت هاجساً يسكن كيان علي الطنطاوي ويتحكم في وعيه ويؤطر اهتماماته نحو الإسلام.

- **من الناحية الأدبية:**

في حدود اطلاعي أصدر «في التحليل الأدبي»، «صور - وخواطر» و«قصص من الحياة» و«سلسلة حكايات من التاريخ» وغيرها مثل «كتاب المحفوظات» هذا إلى جوار أسلوبه الأدبي الذي صب فيه كثيراً من معارفه المختلفة التاريخية والجغرافية والدعوية والفكرية. وبذا يعرف لعلي الطنطاوي في الأدب وجهان:

الكتابة المباشرة :

وهي الكتابة الصريحة في الأدب وأعلامه وأجناسه، والذي يغلب عليه أنه يكتب في النثر أكثر من أن يبدع في الشعر مثلما نجد في كتابه «بشار بن برد» وتقديمه لبعض كتابات أبي الحسن الندوي الأدبية منها «مختارات من أدب العرب» و«الطريق إلى المدينة» و«في مسيرة الحياة» هذه الكتابات التي ظهر من خلالها أديبان من ألمع أدباء الإسلامية في العصر الحديث: هما أبو الحسن الندوي صاحب المؤلفات وعلي الطنطاوي صاحب التقديمات الذي يبدو أن محتويات المؤلفات استنفرت وجدانه، وأجاشت عواطفه ومشاعره فأبدع بالعاطفة وتكلم بلسان حال القلب بما لم يكن ليتكلم به، لولا ما وفرته له أجواء تلك الكتابات من ظروف الإبداع وتحليلاته الأدبية ومختارات في المحفوظات وخواطر وصور تعبيراته





علي الطنطاوي كما يمثله لي الخيال من خلال كتاباته

وأسلوبه. والأصل في القص والحكي والخاطرة أنها أساليب أدبية حيث يوظف فيها عنصر التشويق والصياغة الجميلة والتعبير العاطفي، وهي كلها مكونات العمل الأدبي التي تجلت عند علي الطنطاوي كثيراً في تقديماته لأبي الحسن الندوي وغيره.

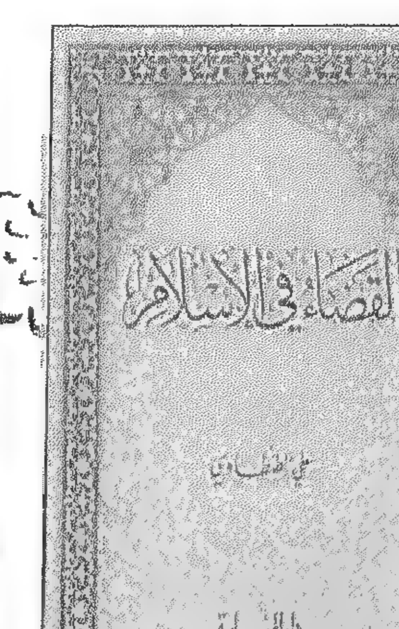
الكتابة الأدبية غير المباشرة:

وهي ما يتخلل كتاباته ويسكن أثناء كيانها من لطائف وخواطر وتوظيف مفردات أدبية إلى جانب ما يحس به القارئ المتذوق لأساليب اللغة العربية وفنون القول فيها.

وهذه ظاهرة بارزة في كتابات علي الطنطاوي إلى ما يضاف إلى هذا من شواهد القول من الشعر وعيون الأدب الذي يقابله القارئ.. في كل حين في كتاباته، وهو ما يستحق متابعة يتعرف من خلالها القارئ على أساليب علي الطنطاوي وإيقاعات تعبيراته وطرق اختيار مفرداته اللغوية التي ينتقيها من القاموس اللغوي الذي أهمله غيره وسكت عنه وكأنه لا وجود له، وهي المفردات الإيمانية التي تذكر بحقائق الآخرة مثلما نجد في العبارة التالية التي يقرن فيها بين المادة والروح فيقول «هل يمكن للإنسان أن يعيش بالمادة وحدها وينبذ كل ما وراءها حتى نفسه التي بين جنبيه وحبه الذي يجيش به صدره، وشعوره بالطبيعة وجمالها والطيور وتغريدها والمقبرة ووحشتها»[٢]، والذي يسترعي الانتباه في هذا النص هو كيف استطرد الكاتب هذا الاستطراد الأدبي الذي يدل على تمكنه من الموهبة والملكة الأدبية فبعد أن كان يتحدث في موضوع بعيد عن الأدب تحول إلى الحديث في الوعظ حين ذكر وحشة القبر. والأمر الثاني هو كيف قرن بين مفردات كانت تعبر عن متاع الدنيا ثم أوقف قارئه بمفردة أو عبارة وعظية وكأنه خاف عليه الهيام بزينة الحياة الدنيا فأرشده إلى موعظة بالغة تتجلى في وحشة القبر.

مربياً:

إلى «ابني وابنتي»: وهو كتاب يدلي فيه برأيه مما يسمى بمشكلة المرأة، وقد اعتمدته مرجعاً، استعنت به في كثير من أحاديثي ومحاضراتي عن المرأة، وأعرته لهن فكان أن ضاع مني بينهن. فهذا الكتاب يستشف منه أن مؤلفه أصبح كبيراً صاحب تدبير فهو يخاطب الآخرين بلفظ ابني وابنتي ويتنازل لهم عن الجزئيات من أجل الكليات بهدوء من غير تشنج، وكأنه يريد أن يدخل في ساحة الموضوع من باب العاطفة حتى لا يستفز العقل المخضّر ولا يوقظ الضمير المستبد ضده، بل يخاطب الإنسان مباشرة من خلال الفطرة وهي الجبلة الأولى فيه. وهذا أسلوب يعتمده كثير من أصحاب التجارب حيث لكل مقام مقال.



فقيهاً قاضياً:

من خلال كتابه «الأسرة بين الشرع والقانون»: فقيهاً وقاضياً ينتصر للمظلوم، ويريد قهر الظالم وكأنه محام يرغب في دحض الشبهة وحجة الخصم، ويتلمس أفضل الأساليب للوصول إلى الحقيقة، ويختار أفضل الكلمات للتعبير عن رأيه ليكتسب قضية الحق، إن الإسلام تشريع وجدت البشرية فيه كل الخير على مستوى المرأة وقضاياها كالتعددية والطلاق والميراث وغيرها من المسائل الأخرى التي طرحها في إطار المقارنة والمقابلة بين الإسلام وغيره، والأشياء بأضدادها تعرف، وكأنه كان يدرك هذه الحقيقة التي يمكن لعلماء الإسلام ومفكريه تقزيم طروحات الآخرين من خلالها أمام الطرح الإسلامي العلمي الفكري الواعي.

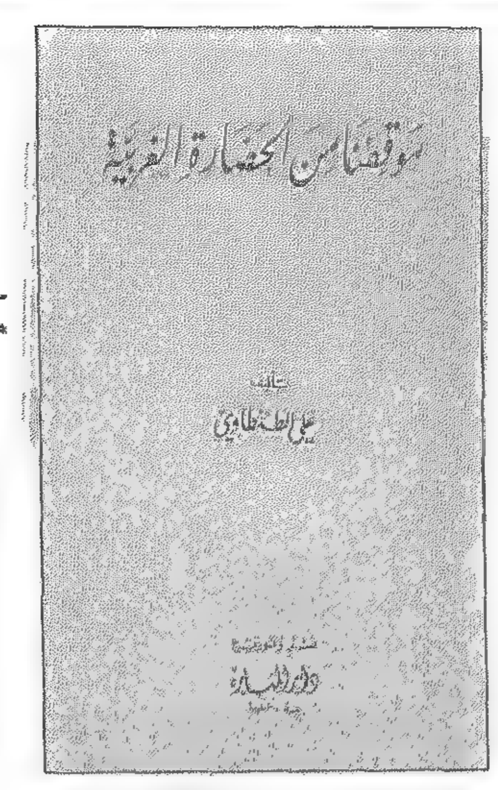
مفكراً:

ينصح الشباب المسلم المغترب من خلال رسالة بعث بها له تحت عنوان إلى: أخي المغترب، وكأنه يودع أخاه في حنان ولطف، وكأنه خشي عليه الضياع لو ترك في ديار الغرب بين شهوة جامحة وفكرة خاطئة، فكان يريد أن يعقم ذاته «ويسترها» ضد أفكار الآخرين وشهواتهم، فكانت رسالته له تفصح عن تجربة وخبرة بديار الغرب ودوائر الكيد والمكر فيها. ولعل من أبرز ما جاء فيها «يا أخي إنك تمشي إلى بلد مسحور، الذاهب إليه لا يؤوب إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب، يتبدل دماغه الذي في رأسه، وقلبه الذي في صدره، ولسانه الذي في فيه.. إي والله يا أخي! هذا حال أكثر من رأينا وعرفنا إلا من عصم ربك، يذهب أبناؤنا وإخواننا وأحباؤنا ويعودون عداة لنا دعاة لعدونا، جنداً لاستعمارنا لا أعني لاستعمار البلاد فهو هين لين، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا، وإنما أعني استعمار الرؤوس بالفكر الزائف، والقلوب بالفن الداعر،

والألسنة باللغة الأخرى.. ثم احذر من المرأة الغربية حتى يقال هي والله الحية، ملمس ناعم، وجلد لامع، ونقش بارع، ولكن في أنيابها السم، إياك والسم.. فإذا عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفتها فراقب الله وحكّم العقل.. لا تنظر إلى ظاهرها البراق، انظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث المنتن، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب.. إن في باريس كل شيء.. ولكن فيها العلم فإن أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً.. غير أنك واجد في ثنايا هذه الكتب التي كتبها القوم المستشرقون عن العربية والإسلام في غضون هذه المحاضرات التي يلقونها عدواناً كثيراً على الحق وتبديلاً للواقع فانتبه له.. فعقلك في رأسك، وإيمانك في صدرك لا تأخذ ما يقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة..، واعلم أنك ابن أمة لو حذف اسمها من التاريخ لأضحى تاريخ القرون الطويلة صفحة لا شيء فيها.. ولا تقل ماذا يصنع طالب مثلي ضعيف في أمة قوية..، واعلم أن الطلاب الفرنجة في الأندلس المسلمة كانوا أضعف ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يصنعوا هذه القوة التي تعجب بها أنت ويذوب فيها غيرك. وإن الأيام دول وإن في الشرق أدمغة، وفي الشرق سواعد، وفي الشرق مال، ولكن ينقصه العلم، فاحمله إليه أنت وأصحابك، واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها، ولكن مهمتكم أمة تحيونها.. يا أخي إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معايشهم وتجارتهم وصناعتهم ومدارسهم، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدون الحسنة ليتعلمها والسيئة ليتجنبها.. وإياك والحماقة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة يهرفون بما لا يعرفون ويقولون ما لا يعلمون[٣].

أديباً منظراً ومبدعاً:

ومع كل هذه المواهب والقدرات يبدو أن الأستاذ علي الطنطاوي كان أديباً أكثر منه فقيهاً ومعلماً وقاضياً، وهذه هي الميادين التي نبغ فيها وأدى فيه أدواراً حيث كان فقه التقاطاً من أمهات المسائل، وعمل عقله وفكره فيها ثم خرج على الناس بفقه لم يكن فيه مقلداً. أما في ميدان التعليم فقد



نقده واقترح مناهج جديدة وإن لم يأخذ بها غيره ممن اعتاد التقليد فيما أثبتته التجربة إضافة إلى ما أثار من مشاكل في ميدان القضاء وانتصاره للشريعة على القانون الوضعي[٤]. ولكن يبدو أن سلوك الشخص منهج المعارضة كثيراً ما يحول دون وصول آرائه وأفكاره إلى أولي الأمر إن كان يمكن لها الوصول إلى عقول وقلوب الجماهير العربية والإسلامية التي اعتادت أن تعارض كل من لا يعارض السلطة، ولا تؤيد كل من يوافق السلطة، وإن لم يوافقها. ولعل هذا ما جعل مفكرين يطورون أساليب المعارضة ويطرحون ما أصبح يعرف بالمعارضة من الداخل أو سياسة معارضة أخذ وطلب، أو القول للمسيء أسأت، وحين يصيب أصبت، فهذا منهج له وعليه، ولكن يبدو أن أوضاع المرحلة الراهنة التي نجتازها لمشروع حضاري عام تزكي هذا الطرح في المعارضة الذي يعتبر الحركة في النظام وليست منه. وأن الوصول إلى إقناع قادة العمل الإسلامي الحضاري الشمولي بهذا الطرح يكلف الآخرين داخل دائرتها بتوثيق الصلة بين فصائلها وأهل الاختصاص فيها من كل ميدان. ولذا فإننا ندعو إلى التزاوج بين الفكر والأدب بإضافة الاختصاص الآخر فيخاطب العقل والقلب في ذات الإنسان من خلال ما يتقنه من اختصاص آخر، فتحدث المساهمة العامة فلا يبخس جانب عند آخر في الإنسان. وهذا ما كان عليه سلفنا ونماذج من المحدثين والمعاصرين كالأستاذ علي الطنطاوي موضوع هذا المقال.

الذي أحسبه كان على مستوى من هذه التربية مثلما نلمس في خطاباته كالتقديم الذي استهل به كتاب «الطريق إلى المدينة» لأبي الحسن الندوي الذي انتقى له الألفاظ واصطفى له الأساليب وهو ما يفصح عن ذوق أدبي يتلذذ بالكلمات الجميلات ويختارها من بين غيرها إضافة إلى رُواء الأدب الذي يسري في كيان النص حتى يكاد يتقطر منه ندى، مع أن هناك ألفاظاً تكاد تكون ميتة معتادة، ولكنها تسترد حياتها، ثم فعاليتها في الآخرين، ومن مجاوراتها ورفيقاتها في النص. ولولا خشية الإثقال على القارئ للمسنا معاً شيئاً من هذا من خلال النص الأدبي الذي يكاد يكون الوحيد من بين الذي بين يدي، والذي أثر فيَّ أكثر من غيره، وهو مقدمة كتاب «الطريق إلى المدينة» هذا الكتاب الذي أحسب أنه يستمد سراً من صدق عاطفة صاحبه، وربما من



موضوعاته التي تناولها. ولعل هو العامل الأساس الذي حالف المؤلف النجاح من خلاله، والذي يقرأ مقدمة صاحبيه أبي الحسن الندوي ومقدمة علي الطنطاوي أظن أنه لن يحس إلا بما أحسست به وربما زيادة، وأستأذن القارئ ليرافقني ولو قليلاً إلى أجزاء من حقول الكتاب ليقرأ معي هذه العبارات التي كتبها الأستاذ علي الطنطاوي حينما أحس أن الكتاب «الطريق إلى المدينة» هو تعبير من أبي الحسن الندوي عن شوقه لرؤية قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والسلام عليه وزيارة مسجده صلى الله عليه وسلم، وعشقه لمدينته المنورة فقال له «يا أخي الأستاذ أبا الحسن.. إني لا أزال أذكر من وراء ثلث قرن كيف صبت كلمة «أحد» في أعصابنا القوة صبا وكنا في السيارة، وأحسسنا أن السيارة وهي جماد قد نشطت فازدادت قوة وسرعة وإقداماً ولما درنا من حول «أحد» وبدت لنا القبة الخضراء عجز اللسان يومئذ عن وصف ما أحسسناه كما يعجز القلم اليوم، فتكلمنا بلسان العاشقين بخفقان القلب وتهاطل الدموع، وما لنا لا تخفق قلوبنا وتهطل دموعنا وقد بلغنا دار الحبيب، الدار التي كنا نعيش على تصورها ونتغذى بذكرها، نقرأ السيرة فنحس إذا يمر بنا ذكر هذه الأماكن أنها مراح أرواحنا، وأنها مواطن أفئدتنا وإن كانت البلاد التي ولدنا فيها مواطن أجسادنا، ومتى كان موطن الجسد أحب إلى المرء من موطن الفؤاد».

أما غير هذه من العبارات التي تثير المشاعر وتحرك العواطف نحو حب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم رضوان الله كقوله «كيف لا يذوب القلب المسلم شوقاً إلى البلد الذي وطئ أرضه محمد صلى الله عليه وسلم حبيب كل مسلم، واستنشق هواءه، وشرب ماءه يمشي من حيث مشى الحبيب، ويصلي حيث صلى، يدخل من حيث دخل يوم هاجر من مكة ويخرج من حيث خرج يوم ذهب إلى أحد يشهد المعركة، ويقف على أحداث الشهداء، ثم يعود إلى الروضة التي حلت في هذه الأرض، وهي قطعة من جنة الخلد، ثم يقف على الغرفة التي احتوت جسده حياً ،ثم أغلقت عليه ميتاً ،فلا تفتح إلى يوم القيامة، فيقول السلام عليك يا سيدي يا رسول الله»[٥]، فهذا قبس من عبارات عاشق متيم بحب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى جوار اقتباس من عبارات أخرى يشق اختيار إحداها دون الأخرى، فأردنا نقل نموذج قليل نادر من لغة فقيد العروبة والإسلام الشيخ علي الطنطاوي عليه الرحمة في دار الخالدين، فلعل الآخرين من الأدباء والنقاد وقرائهم يعرفون النموذج الأدبي المنشود من أدباء الإسلام والمعبر عن أشواق المسلمين وعواطفهم.

وأخيراً قابلته مؤمناً :

ولكن هذه المرة من خلال كتابات الآخرين عنه حيث نعته بعض وسائل الإعلام، فذكر عارفوه بعض مآثره وصفاته أسأل الله أن تكون له من باب ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [٦] فالآثار شهادات لأصحابها وصدقات جارية ينتفعون بها بعد موتهم.

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٧]. ■



الهوامش:

١- انظر علي الطنطاوي تعريف عام بدين الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، سنة ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١م ص ٥.

٢- المصدر السابق، ص ٧.

٣- انظر مجلة الغرباء، العدد الثالث، سنة ١٤٠٤هـ الموافق لـ ١٩٨٤م، ص ١٦ - ١٧.

٤- انظر مجلة المجتمع، العدد ٣١٣ ،سنة ١٤١٩هـ الموافق لـ ١٩٩٨م، ص ٥٨.

٥- انظر، الطريق إلى المدينة، أبو الحسن الندوي، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ص ١٠

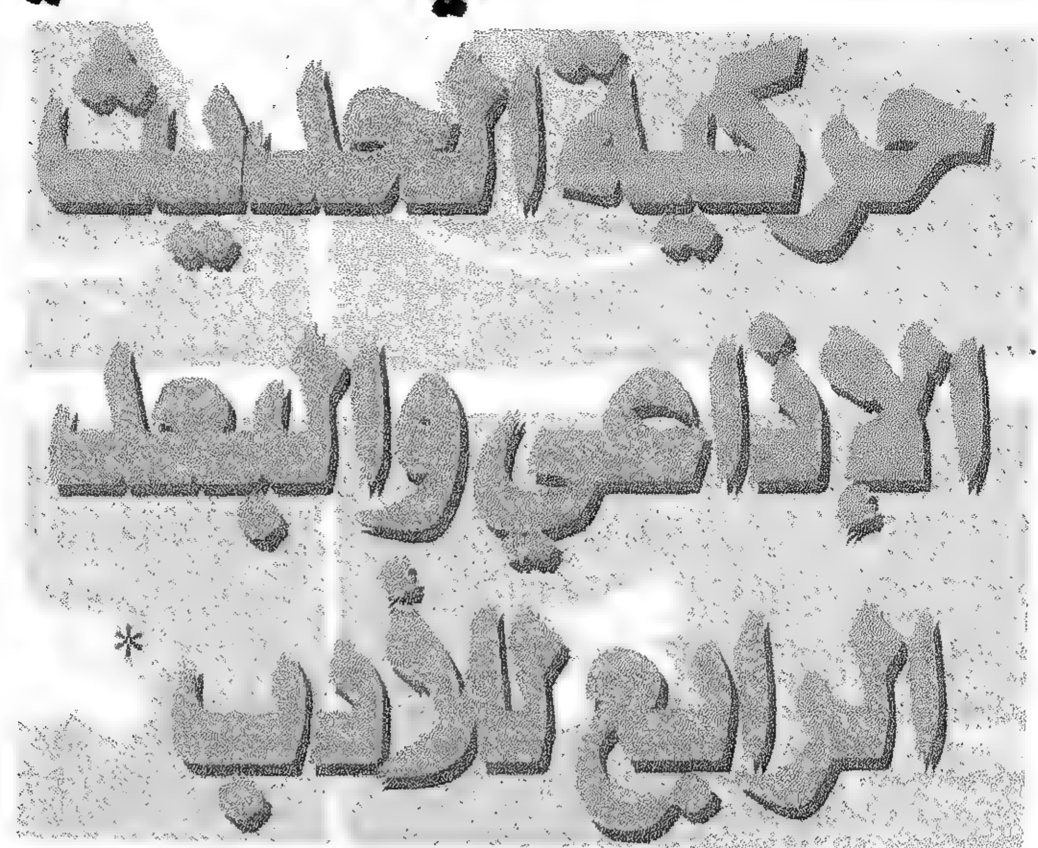
٦- سورة يس الآية ١٢.

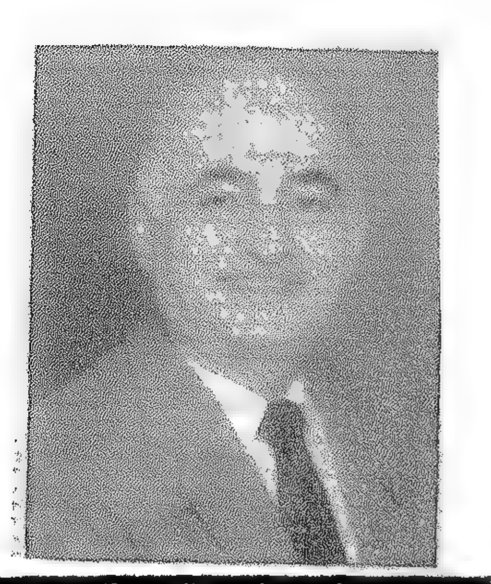
٧- سورة الفجر الآيات ٢٧ - ٣٠.



من ثمرات المطابع:

علي الطنطاوي





بقلم: د. أحمد بسام ساعي
إنكلترا

اعتاد النقاد أن يوزعوا عناصر الأدب بين أجنحة كبيرة ثلاثة: التفكير والتعبير والتصوير، وقد ترجح قيمة أحد هذه الأجنحة على الجناحين الآخرين في فن قولي دون آخر، كرجحان التصوير في الشعر، والتعبير في الخطبة والمقامة، والتفكير في الرسالة والقصة والمقالة، ولكن جانباً آخر هاماً من جوانب الإبداع الأدبي ما يزال النقاد يغفلون أهميته ولا يضعونه في الموضع اللائق به، ذلك هو جانب الإلقاء...

ورغم تألق عديد من المحدثين العرب في ثلث القرن الأخير، على مدى حدود الوطن العربي، يظل علي الطنطاوي المحدث العربي الأكبر الذي يستقطب من أعداد الجمهور ما لا يطمح إليه الآخرون، ويظل كذلك الأفضل بين من نستعين بطرائقهم التحديثية حين نضع القواعد الفنية للحديث الإذاعي.

ومن المهم أن نميز بداية بين أحاديث الطنطاوي الحقيقية وما يمكن أن نطلق عليه اسم «محاورات» أو «مطارحات» الطنطاوي، وهذه الأخيرة هي الشكل الذي انتهى إليه معظم أحاديثه الإذاعية، المسموعة أو المسموعة المرئية، التي تبث من المملكة العربية السعودية.

المحدث النموذجي:

وتبتعد هذه «المطارحات» عن الحديث الإذاعي في أحد أهم جوانبها الأساسية وهو وحدة الموضوع، إذ ينتقل فيها صاحبها من موضوع إلى آخر وهو يحاور المستمعين من خلال تساؤلاتهم المطروحة عليه، ولكن صورة الطنطاوي فيها تظل صورة المحدث النموذجي الذي يعرف موضعه بين الخطيب والمحاضر، فلا ينفعل انفعال الأول، ولا يلتزم موضوعية الثاني وأكاديميته الصارمة.

وإذا جمعنا بين نصوص الأحاديث الحقيقية التي بث علي الطنطاوي معظمها من إذاعة دمشق في أواخر الأربعينيات ثم في الخمسينيات وأوائل الستينيات، ومن إذاعة الرياض في الستينيات والسبعينيات، والصورة التحديثية الحوارية له كما يظهرها لنا الرائي الآن، وطابقنا بين صورتي المحدث: في النص المكتوب[1]، والشاشة الزجاجية، توصلنا بهذا إلى تحديد شبه نموذجي لقواعد فن الحديث الإذاعي المسموع المرئي، وإلى تمييز دقيق له عن فن الخطبة.

بين الحديث والخطبة:

* من كتاب (الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، تأليف د. أحمد بسام ساعي، دار المنارة، جدة، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. انظر الصفحات ١٣١-١٥١، وقد اختصرنا جزءاً من الموضوع وأضفنا العناوين داخله - التحرير.



حركية الحديث الإذاعي والبعد الرابع للأدب

والتمييز بين الفنين، الحديث والخطبة، لم يكن واضحا في بداية الأمر، حتى عند علي الطنطاوي نفسه، فهذا الفن «الإذاعي» كان ما يزال طفلا مع بداية الحركة الإذاعية في بلادنا، وبدهي أن يكون أوائل المحدثين الذين يغزون الإذاعة هم أعلام الخطابة في تلك الفترة، وكان أن وقف الطنطاوي أمام المذياع وفي تصوره أنه بديل للمنبر في المسجد أو المجمع الديني أو المحفل السياسي، فتتوحد الخطبة عنده والحديث في فن إذاعي واحد نجده مثبتا الآن في معظم كتبه المنشورة، وفي حديثه «خطبة الحرب»(٢) الذي أذاعه خلال حرب القناة عام ١٩٥٦م كما يظهر من فحوى الحديث – دليل واضح على هذا التصور المزدوج، فهو يبدؤه بهذه العبارة الصريحة الدلالة «إني أحاول أن ألقي اليوم خطبة، فلا تقولوا قد شبعنا من الخطب..» ومع ذلك فهو يعرف أن جمهوره ليس جمهور الخطبة المعتاد، إنه يخاطب جمهور المستمعين في كل مكان يصل إليه صوت الإذاعة، ولذلك نراه يتوجه بعد قليل إلى هؤلاء «المستمعين» قائلا: «يا أيها المستمعون وهم معرضون عني، يلهون في القهوات أو يتبخترون في الطرقات، إلى العالم في مكتبه، والعامل في معمله، والمرأة في بيتها، والطفل في مدرسته، إلى كل من يتفيأ الظلال من جنات الشام، ومن يضحي بشمس القفار في فلوات الحجاز، ومن يحيا على شط الفرات، وعلى جنبات الخليج، إلى الأسود المرابطين في نحور العدو في شوارع بور سعيد، وعلى حفافي القناة، وعلى شعفات الجبال في الجزائر، وعلى سيف القرى الأمامية في فلسطين، الذين يمسون على وهج النار، ويصبحون على دخان البارود...»(٣).

لقد عرّف علي الطنطاوي، في حديثه الإذاعي هذا، تعريفاً صادقاً وشاملاً بجمهور هذا الحديث، وصنفه إلى مراتب وألوان وحالات، في الوقت الذي كان يؤكد فيه أنه يلقي «خطبة الحرب»، وحقيقة كان جو «الخطبة» يخيم على «الحديث»: العبارات الجهورية الحادة، الألفاظ الخلابة ذات الظلال المثيرة، النبرة الغنائية الصاخبة، الرومانسية الحالمة، العطف الكثير والتقسيم والتكرار والتوازن بين الجمل.. ولكن الخطبة إذا لبست لبوس الحديث أخفقت بوصفها خطبة وأخفقت بوصفها حديثاً، وكانت أمراً بين الأمرين لا يحمل شخصية مميزة، ولو شئنا أن نقول إنها «خطبة إذاعية» كنا من السذاجة بحيث ننسى أن أهم شروط الحديث الإذاعي تلغي أهم شروط الخطبة، وأن العكس صحيح أيضاً، وإذن فالإذاعة تلغي الخطابية، والخطابية ترفض الإذاعية، لطبيعة الخطبة الخاصة المتميزة المتصلة مباشرة بالجمهور وبالواقع السريع الخاطف.

جاذبية الحديث المسموع المرئي :

ولكن الحديث المسموع المرئي عند الطنطاوي، حتى حين يتحول إلى «محاورة» أو «مطارحة»، ينسينا كل شروط الخطبة وكل شروط الحديث، فيشدنا إليه ونحن نرى إلى شخصه الوقور علَتْهُ ابتسامةٌ قل أن ترتبط بالوقار من غير أن تنال من مكانته، ومع ذلك فهي ترتفع بمكانة الوقار عند الطنطاوي، ونرى إلى لحيته البيضاء وتجاعيد الخطوب على وجهه – وكم شهدت حياته من خطوب لا تنبىء عنها ابتسامته – والنظارتين الطبيتين على عينيه، مما يعرف بسني عمره الطويلة – بارك الله فيها – ومع ذلك تفجؤنا ثقافة هذا الرجل «العجوز» التي وسعت الماضي والحاضر، والغربي والشرقي، والأدبي واللغوي، والسياسي والاجتماعي، والديني والدنيوي، وهي صورة قلما عرفناها بين مثقفينا من أبناء الأجيال النازلة أو الصاعدة.

اقتراب الحديث من الخطبة في الرائي :

وليس هذا كل ما يشدنا إلى علي الطنطاوي، إن الرائي يتيح لنا أن نرى الرجل على حقيقته أكثر، وهنا يقترب الحديث من الخطبة اقتراباً يكادان يتماسان معه، فالبساطة العجيبة التي يواجه بها الطنطاوي جمهوره تتناسب تناسباً عجيباً مع البساطة التي يطبع بها لغته وأفكاره ومعالجته الهيكلية الشاملة للموضوع، وإنها لبساطة قد تكون مدروسة عند بعضهم بعناية فائقة، فيوفق بها أو لا يوفق، وقد تكون موهبة عند آخرين، فيحسنون استعمالها أو لا يحسنون، ويتمكنون من تثقيفها أو يخفقون، ولا أشك في أن بساطة الطنطاوي موهبة أحسن استخدامها وتمكن من تثقيفها معاً، فلم تعد لهجته التحديثية القريبة إلى النفس، وحركات يديه



تلفزيون جدة .. يضبط الوقت قبل التسجيل

التوضيحية المعبرة، وتنقلات رأسه، بين ارتفاع وانخفاض، وتقدم وتأخر، أو تحريكه لنظارتيه بين الحين والآخر صعوداً وهبوطاً، فيرى إلينا من فوقهما حيناً، وإلى الأوراق بين يديه من خلالهما حيناً آخر، ثم الجو الواقعي الذي يحيط به نفسه وهو يتوجه أحياناً بالحديث إلى المصور أمامه، أو يفجؤنا بالتفاتة سريعة إلى ساعته خشية أن يدركه الوقت، أو يمد يده إلى آلة التسجيل التي وضعها بجانبه ليقلب شريطها، لم تعد كل هذه الأمور الجزئية الصغيرة مجتمعة مما يخطط له الطنطاوي قبل دخوله «المنفرد الإذاعي»[4] بل أصبحت جزءاً عضوياً من موهبته التحديثية على مر الزمن، يبعدنا به عن الجو الإذاعي الرسمي «المتألق» ليشعرنا وكأننا معه في جلسة منزلية خاصة ترفع فيها كل قواعد التكلف والتألق و«الرسميات». لقد استطاع أن يقيم توازناً رائعاً في استعماله لكل هذه «الجزئيات» التي تسم شخصيته التحديثية بالبساطة والواقعية الآسرتين[5].

تاريخ حافل بالوقائع الجريئة:

فكيف لو أضفنا إلى المظهر الشخصي لعلي الطنطاوي تاريخه العجيب الحافل بالوقائع الجريئة التي لا تصدر إلا عن مثله، والخطوب الجسام التي لا تقع إلا لمثله، والمغامرة المتشعبة الجوانب التي ندر أن خاضها أحد غيره، إن تاريخ الرجل، مضافاً إلى حاضره، وإلى شخصيته، وإلى خلقه المتفرد، وأسلوبه المميز، وفكره العميق، ومنهجه العقلي، وتجربته الإنسانية الفريدة، تتعاضد جميعا لتمنح أحاديثه عند المستمع أو المشاهد قوة تأثيرية نافذة عجيبة، رغم أنه أديب، يملك أخلاق الأدباء، وعواطفهم الإنسانية العادية المتقلبة، التي ترتفع بهم حيناً إلى السماء، وتهبط بهم حيناً إلى الأغوار، وهي صورة لكل فنان أو أديب، وقد وصف نفسه مرة في مقالة نشرت عام ١٩٣٦م، فظنها أحد الشعراء صورته فأودعها صدر ديوانه – كما يقول الطنطاوي –[6]، وهي في هذا الجزء الذي ننقله منها على الأقل، صورة للفنان الحقيقي، أي فنان: «كان معروفاً بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يبالي إذا اتجه له الرأي ما يقول فيه الناس، ولا يحفل إذا أزمع الأمر نهي ناه ولا نصيحة ناصح، وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به، بل كثيراً ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحاً – كأنما هو يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً.

يجمع في نفسه المتناقضات، فبينما هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة، يفزع من الوحدة، ويكره الهدوء، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة، يخطب في المجامع، ويناقش في الصحف، وبينما هو مطمئن إلى هذه الحياة، مقبل عليها، إذا به قد استولت على نفسه «فكرة صوفية» فغمرت الكآبة روحه، وفاض اليأس على قلبه، وأحس الحاجة إلى الفرار من الناس، والرغبة في العزلة المنقطعة، وأصبح يكره أن يرى أمس أصحابه به، وأدناهم إلى قلبه، ويحب الحياة الساكنة الهادئة ويجد الأنس في حديث قلبه ومناجاة ربه.

وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد، وأبعدهم عن تكلف الوقار واتباع «الرسميات»، فلا يكون في مجلس إلا حركه بحديثه وإشاراته ونكاته، وأفاض عليه روح المرح والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجيء قد تطغى على قلبه في أشد الساعات سروراً، وأكثر المجالس طرباً، فإذا هو حزين كئيب، قد ضاق بالناس وتبرم بمزاحهم وهزلهم، وغدا راغباً في الجد محباً للوقار، متلبساً بالصرامة والحزم، منصرفاً عما كان فيه منذ لحظة واحدة، لا يعرف الناس، ولا يعرف هو ماذا أصابه، فنقله من حال إلى حال»[7].

أثر الواقعية في فن التحديث:

ولكن هذا «الفنان» المتقلب العواطف والأهواء ما كان ليصل إلى ما وصل إليه من مكانة رفيعة في فن التحديث لو لم يكن ملتصقاً بواقعه أشد التصاق، إن أنامله الفنية لقادرة، وهي تكتب أو تتحدث على أن تكتشف بخطوط بصماتها الدقيقة خطوط

بصمات مجتمعها الأكثر دقة، والتي لا يكشفها إلا مثل تلك القوة الفنية المتفوقة الحساسية، التي تستطيع تمييز أكثر النقاط المضيئة في الواقع تأثيراً في النفوس، فتلتقطها، وتنقلها إلينا بأرفع الأساليب البيانية، وفي الوقت نفسه أكثرها بساطة وألفة ونفاذاً إلى نفوسنا. ونقف عند هذا المقطع القصير للطنطاوي وهو يتحدث عن مدارس الأمس ومدارس اليوم في حديثه «العَصْيان» لنتبين بعض أسرار تلك المقدرة الفنية المميزة التي وُهِبَها الرجل:

«ولقد كان من المناظر المألوفة كل صباح، منظر الولد «العَصْيان»، وأهله يجرونه، والمارة وأولاد الطريق يعاونونهم عليه، وهو يتمسك بكل شيء يجده، ويلتبط بالأرض، ويتمرغ بالوحل، وبكاؤه يقرح عينيه، وصياحه يجرح حنجرته، والضربات تنزل على رأسه، يساق كأنه مجرم عات، يرى نفسه مظلوماً ويرى الناس كلهم عليه حتى أبويه، فتصوروا أثر ذلك في نفسه، وعمله في مستقبل حياته.

وما عجب أن تبكوا يا أولادي رغبة في المدرسة وقد صارت لكم جنات، وما عجب أن نبكي منها وقد كانت علينا جحيماً.

هي لكم مائدة، عليها الطعام اللذ الخفيف في أجمل الأواني، وحولها الزهور والورد، ومن ورائها الموسيقى، وقد كانت لنا طعاما دسماً ثقيلاً، في أوسخ آنية وأقبح منظر.

ولكن من استطاع منا أن يأكل أكثر، وأن يهضم ما يأكل، وأن ينتفع به؟ أنتم على كل هذه المشهيات، أم نحن على كل تلك المنفرات؟

أنتم تلبسون للمدرسة أبهى الثياب، ونحن كنا نذهب والله بثوب النوم «السركس» الذي لا يصل لأكثر من نصف الساق، وفوقه رداء «جاكيت» الأب، الذي رث وبلي، فحولته الأم وصيرته لنا؟ وفي الأرجل القبقاب أو الكندرة المصنوعة في المناخلية، ولقد صرت في الثانوية وما عرفت دكان الخياط، إنما ألبس ما تخيط أمي رحمها الله..»[8].

الإلقاء وفن الحديث الإذاعي :

لن نستهدف في هذا المقطع النموذج لغة الطنطاوي أو صوره أو أفكاره، فلسنا في صدد دراسة أدبية له، ولكننا سندرسها بقدر ما تساعدنا على اكتشاف العناصر التي تصب في البعد الرابع للأدب: الإلقاء، وسنكتفي من عناصر الإلقاء بتلك التي تتعلق بالحديث الإذاعي دون غيره من الفنون القولية الإلقائية.

إن المنظر الذي يصوره المحدث للولد «العصيان» - مجرداً من عنصر الإلقاء - يكاد بواقعيته ذات النكهة الحادة المميزة ينبعث أمامنا حياً متحركاً، إذا اقتصرنا في النظر إليه على العناصر التقليدية الثلاثة للأدب، إن صورة التلميذ المسكين تكاد تخرج من «شاشة» حديث الطنطاوي لتعيش معنا وتختلط بنا، فنحس ونحن نتملاها - قراءة - بأن حديثه أشبه بنوع سينارامي متطور من أجهزة الرائي، يجسم الصورة تجسيماً عجيباً، حتى لنكاد نحس «أولاد الطريق» الذين يعاونون الأهل على ولدهم يزحموننا - نحن المشاهدين - بكثرتهم وفوضاهم، وأن أقدام التلميذ الصغير تكاد تلمس وجوهنا وتعفر ثيابنا وهو «يلتبط بالأرض ويتمرغ بالوحل» وأن بعض هذه «الضربات التي تنزل على رأسه» يكاد أن ينالنا منها نصيب، إننا نلتحم بالصورة التحاماً فريداً، حتى لتتداخل أجزاؤنا بأجزائها.. فكيف لو أضفنا إلى كل هذه «الحركية» الأسلوبية حركية التحديث والإلقاء؟.

التحام الأبعاد الأربعة للأدب :

والحق أن هناك التحاماً بيانياً ساحراً عند الطنطاوي بين الأبعاد التقليدية الثلاثة والبعد الرابع، والخطوط الأربعة التي تمثل هذه الأبعاد عنده تنطلق حين تنطلق من الواقع، وحين تلتقي في الذروة تلتقي عند الواقع أيضاً، وهذه «الهرمية» الواقعية هي التي نسعى إلى إقامتها في الحديث الإذاعي الإسلامي، وهي للأسف شبه معدومة بين المحدثين الإسلاميين وغير الإسلاميين، إذا استثنينا قلة قليلة من هؤلاء وأولئك، على رأسهم **علي الطنطاوي، ومحمد متولي الشعراوي، ومصطفى محمود، والمهدي بن عبود، ونجاة قصاب حسن**[9].



الشيخ الشعراوي

ونستطيع أن نتصور الطنطاوي وهو يلقي علينا حديثه هذا عبر الرائي[10]، من خلال معرفتنا بشخصيته التحديثية في أحاديثه أو مطارحاته الرائية، ونستطيع أن نتخيله الآن وهو يصف لنا المعركة غير المتكافئة بين التلميذ «العصيان» من جهة، والأهل والمارة وأولاد الطريق من جهة أخرى.

فالعنف «الدرامي» أو «الحركي» المتولد عن شدة الصدام بين الفريقين: شراسة المقاومة التي يبديها «العصيان» وقسوة المواجهة التي يلاقيها من الآخرين، يواكبه «حركية» إلقائية من نوع آخر، ليس فيه العنف، ولا تميزه القسوة بطبيعة الحال، ولكن تميزه «واقعية اللهجة» عند الطنطاوي، إنه يلجأ غالباً إلى إهمال الإعراب في أواخر الجمل، وهي صفة ملازمة للعامية، ولكنها ملازمة للفصحى أيضاً عند الوقف، فهو يوفق بين واقعية العامية ورسمية الفصحى - لو صح أن نجعل الرسمية بمقابل الواقعية - فيتعمد تقصير الجمل، والإكثار من الجمل الاعتراضية، والاتكاء على الألفاظ العامية والأعجمية أحياناً، مع تمييزها عن غيرها على الأغلب، يرافق ذلك كله توقف يتكرر في

نهايات معظم الجمل، ولاسيما الانفعالي والعاطفي منها، مع ما يرافق ذلك من إهمال الإعراب في تلك النهايات، فيزيد بهذا من القوة الإثارية لعبارته، كما يمكن أن تكون عليه هذه الجمل «.... يلتبط بالأرض، ويتمرغ بالوحل، وبكاؤه يقرح عينيه، وصياحه يجرح حنجرته، والضربات تنزل على رأسه...». وعندما يتوالى ساكنان في نهاية الجملة – كما في الجملتين الأوليين هنا – يتحقق له نبر محبب آسر أكثر مقدرة على شد المستمع إليه، فنحس، والمحدث ينبر عند نهاية الجملة، أن الساكن الأول قد تحول إلى كسر – كما في العامية الشامية – فتصبح الأرض «أرِضْ» – بإمالة الراء – والوَحْلُ «وَحِلْ» – بإمالة الحاء – وهو منزع لغوي معترف به في قواعد اللهجات العربية، فيزيده كل ذلك التصاقاً بالواقعية الإلقائية التي نسعى لتكريسها..

عنصر المفاجأة الفكرية واللغوية والخيالية:

ومن أهم العناصر التي يغذي بها الطنطاوي حركيته عنصر المفاجأة الفكرية واللغوية والخيالية، فيثيرنا بلفتة لغوية جديدة، أو تفجير فكري غريب، أو خطفة خيالية مدهشة، ويحقق بهذا الحركة الفنية المطلوبة.

وهو في هذا الباب كثيراً ما يعول على عنصر الصدام الفكري أو اللغوي أو الخيالي، ليفجر من خلال ذلك عنصر المفاجأة المطلوب، وانظر إلى هذه المقابلة اللغوية – البديعية – في مقارنته بين مدارس الأمس، وقد كانت تبعث في نفوس الصغار الخوف والهلع، ومدارس اليوم، وقد أضحوا يبكون احتجاجاً على حبسهم عنها، إن المقارنة بين الصورتين المتباعدتين المتناقضتين ساعدت المحدث على صياغة هذه المقابلة البديعية المعنوية الطويلة بين الجملتين: وما عجب أن تبكوا رغبة في المدرسة وقد صارت لكم جنات، وما عجب أن نبكي منها وقد كانت علينا جحيما.

ويفتق له هذا التناقض بين الحالين صداماً خيالياً – وهو أرقى من كل من الصدامين اللغوي والفكري – يعمق الخط الحركي لحديثه، حين يصور المدرسة الحديثة بـ«الطعام اللذيذ الخفيف، في أجمل الأواني، وحولها الزهر والورد، ومن ورائها الموسيقى»، على حين كانت المدرسة القديمة «طعاماً دسماً ثقيلاً، في أوسخ آنية، وأقبح منظر».

ولكن المفاجأة الكبرى التي ينتهي إليها تصعيد الطنطاوي لخط مفاجآته، لتكون الذروة الفنية لهذا الخط، هي المفاجأة الفكرية، ففي الوقت الذي شعرنا فيه بالخَدَرِ يدب في أوصالنا ونحن نستسلم لفكرة الطنطاوي التي حاول أن يثبتها لنا منذ بداية الحديث: تفوق مدارس اليوم على مدارس الأمس، وفي الوقت الذي شعرنا عنده بالحاجة إلى «مد أرجلنا» والاقتناع بما بثه في نفوسنا دون أدنى محاولة للجدل أو رد ما يقول، يفاجئنا بهذا الانفجار الفكري الذي يحطم كل البناء السابق، بقوة تتناسب طرداً مع قوة ذلك البناء: أي المدرستين مع ذلك كانت أكثر نفعاً لأبنائها، وأقدر على تغذيتهم بالعلم والمعرفة، وعلى تخريج العظماء والعباقرة منهم «من استطاع منا أن يأكل أكثر، وأن يهضم ما يأكل، وأن ينتفع به؟ أنتم على كل هذه المشهيات، أم نحن على كل تلك المنفرات»؟. هذه المفاجأة سلاح خطير قد ينقلب على صاحبه فيفتك به وبحديثه، إذ ربما أصابت القارىء أو المستمع بالإحباط وهو يستيقظ فجأة على الفكرة الجديدة تهدم كل البناء الذي استسلم لأسسه ونام في ظله على مدى الجزء الأول من الحديث، ولكن الطنطاوي، ببراعة الفنان، حول ذلك الإحباط إلى تسليم مطلق من المستمع للفكرة الجديدة، وقد كان قبل قليل استسلاماً مؤقتاً للفكرة السابقة.

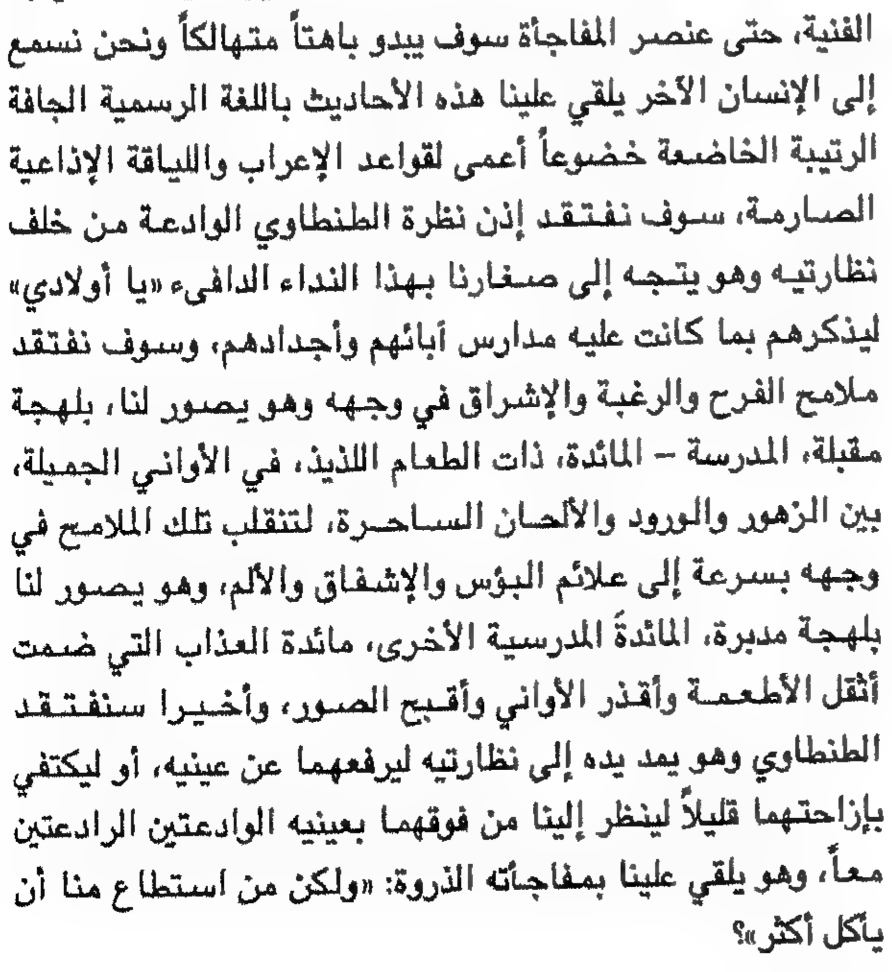


مصطفى محمود



الإلقاء هو البعد الرئيس عند الطنطاوي:

هذه المفاجآت ذات الأبعاد التقليدية الثلاثة، لا يمكن أن نجردها من البعد الرابع – البعد الرئيس عند الطنطاوي –، ولتقدير قيمة هذا البعد عنده لنا أن نتصور تلك الأحاديث وقد ألقيت علينا من قبل إنسان آخر، إن فصل إلقاء الطنطاوي عن كلمات أحاديثه سيفقدها كثيراً من حساسيتها



الفنية، حتى عنصر المفاجأة سوف يبدو باهتاً متهالكاً ونحن نسمع إلى الإنسان الآخر يلقي علينا هذه الأحاديث باللغة الرسمية الجافة الرتيبة الخاضعة خضوعاً أعمى لقواعد الإعراب واللياقة الإذاعية الصارمة، سوف نفتقد إذن نظرة الطنطاوي الوادعة من خلف نظارتيه وهو يتجه إلى صغارنا بهذا النداء الدافىء «يا أولادي» ليذكرهم بما كانت عليه مدارس آبائهم وأجدادهم، وسوف نفتقد ملامح الفرح والرغبة والإشراق في وجهه وهو يصور لنا، بلهجة مقبلة، المدرسة – المائدة، ذات الطعام اللذيذ، في الأواني الجميلة، بين الزهور والورود والألحان الساحرة، لتنقلب تلك الملامح في وجهه بسرعة إلى علائم البؤس والإشفاق والألم، وهو يصور لنا بلهجة مدبرة، المائدةَ المدرسية الأخرى، مائدة العذاب التي ضمت أثقل الأطعمة وأقذر الأواني وأقبح الصور، وأخيرا سنفتقد الطنطاوي وهو يمد يده إلى نظارتيه ليرفعهما عن عينيه، أو ليكتفي بإزاحتهما قليلاً لينظر إلينا من فوقهما بعينيه الوادعتين الرادعتين معاً، وهو يلقي علينا بمفاجأته الذروة: «ولكن من استطاع منا أن يأكل أكثر؟»

حركية الحديث الإذاعي والبعد الرابع للأدب



١٩٧٠ م ، ندوة في ضواحي بون

إنه تساؤل موجه إلى العقل وليس إلى الذاكرة – وإن بدا لنا كذلك لأول وهلة – وهذا هو الفرق الحاسم بين الطنطاوي والآخرين، إنه رغم اعتماده على الذاكرة والماضي والتاريخ اعتماداً كبيراً، يتوجه بحديثه دائماً إلى العقل، ويستطيع بمقدرة فائقة أن يتخذ من الذاكرة مطية إلى العقل، ومن الماضي وسيلة إلى الحاضر، ومن التاريخ سبيلاً إلى الحقيقة الأزلية الراسخة، إن أحاديث الطنطاوي هي أحاديث العقل الذي يتكيء على الذاكرة، وأحاديث معظم المحدثين الآخرين – ومنهم كثير من خطباء المساجد – هي أحاديث الذاكرة التي لا تهتم بإقامة جسور اتصال مع العقل، وإذا فعلت – وقل أن تفعل – فلتنطلقَ من العقل إلى الذاكرة وليس العكس، مما يوقفها غالباً عندَ لحظتها، ويقطعها عن الحاضر الذي نعيشه ويعيشه المحدث مع مستمعيه، وهو شرط فني أساسي هام إذا فقده الحديث، وكذلك الخطبة، لم يعد حديثاً ولم تعد خطبة.

ورغم أن تساؤل الطنطاوي المثير جاء في جملة استفهامية لا محل لها من الإعراب – شأن معظم الجمل الاستفهامية – يظل الاستفهام بصيغته الإنشائية الحركية، قادراً على تحريكنا أكثر من أية صيغة أخرى، بل إننا ندعي أن في الاستفهام جانباً معنوياً هاماً أغفله النحويون، قد يجعل من جملته مقولا لقول محذوف، فتكون جملة لها محل من الإعراب، خلافاً لما هو العهد فيه، ونستطيع أن نتصور بسهولة جملة الطنطاوي الاستفهامية هذه وقد سبقها هذا القول المحذوف: «ولكن، قولوا لي: من استطاع منا أن يأكل أكثر»؟، وهكذا يكسب الطنطاوي جملته التحديثية حركة الجملة الإنشائية وحركةالجملة ذات المحل من الإعراب، من غير أن يلجأ إلى الأسلوب الوعظي المباشر «افعل، ولا تفعل، ويجب أن تفعل.. إلخ». ذلك الذي درج عليه معظم محدثينا وخطبائنا ووعاظنا، وهو أسلوب تنفر منه الطبيعة البشرية، إلا أن يأتيها من الخالق عز وجل أو أنبيائه المرسلين.

محاولة لرصد البعد الرابع

هذه المحاولة لرصد البعد الرابع في أحاديث الطنطاوي لم تكن أكثر من حجرصغير يلقى في بحيرته الأدبية المتسعة، وستظل مجرد خطوة متعجلة نحو إدراك الفضاء البعيد لفن التحديث الإذاعي الإسلامي، وللبعد الإلقائي فيه عامة وعند علي الطنطاوي خاصة، وهو فضاء يحتاج لجهود متوالية وأقلام شتى، تتضافر لوضع ذلك الفن وهذا القلم في مكانيهما بين الدراسات الأدبية.

وأكاد لا أعرف قلماً معاصراً ظلمته الأقلام، وأديباً عقه الأدباء، ومحدثاً أغفله المحدثون، وقمة تجاهلها المتسلقون، كمثل الطنطاوي، وإن كنا على ثقة من أنه فوق أن يكترث بهذا الظلم أو ذلك العقوق، ما دام يدرك أية قمة تربع فوقها، وأي مكانة تسنمها في ريادة الحديث الإذاعي والواقعية الإسلامية، ثم لم يسمح لأحد بأن يمسها أو يصل إليها. ■

---

(١) رغم أن ذاكرتنا السمعية ما تزال تحتفظ إلى الآن بصورة واضحة عن تلك الأحاديث الإذاعية المبكرة التي بثها الطنطاوي من دمشق، ولكن الذاكرة لا تستطيع أن تكون وثيقة علمية معترفاً بها، وأظن أن لدى إذاعة دمشق أو لدى أستاذنا الطنطاوي على الأقل وثائق سمعية مسجلة عن تلك الأحاديث.ثم إن الأستاذ الطنطاوي ما زال يقدم في بعض المواسم «أحاديث حقيقية» في الرائي السعودي يمكن أن تكون وثيقتنا النموذجية التي نسعى إليها.

(٢) علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص٥. دمشق ١٩٦٠م.

(٣) نفسه، ص٦.

(٤) مما اعتدنا التعبير عنه بالكلمة اللاتينية «الاستوديو».

(٥) وهذا التوازن لم يتحقق مثلاً عند المحدث الكبير محمد متولي الشعراوي الذي يؤخره في نظرنا عن مكانة الطنطاوي إسرافه في تحريك يديه ورأسه وسائر جسده، مما يمجه المثقفون خاصة، ولكنه يحلق فيما سوى ذلك إلى مراتب لا ينكرها حصيف.

(٦) وفي ظننا أنها – أو معظمها – تصلح لأن يصدر بها أكثر الشعراء دواوينهم.

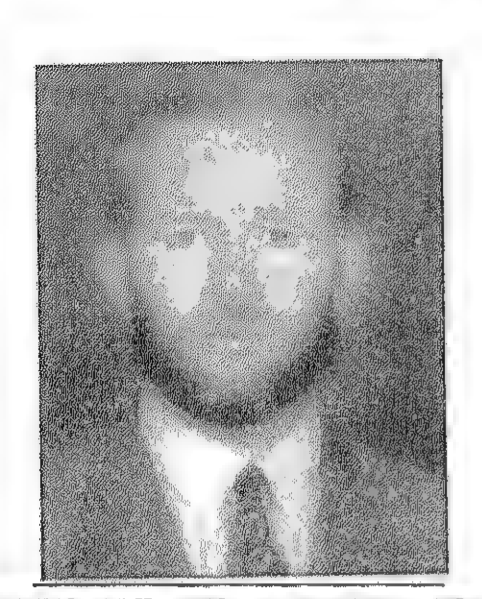
(٧) من حديث النفس «صورة المؤلف بقلمه»، ص ٧٥ – ٧٦. دمشق ١٩٦٠م.

(٨) من حديث النفس، ص ٣٥ – ٣٦.

(٩) لاشك أن هناك محدثين آخرين قد يرتقون إلى المرتبة الواقعية أو قريب منها، ولكن ظروفهم أو ظروف بلادهم السياسية أو الفكرية لم تسمح لهم بالظهور على المستوى العربي وربما على المستوى المحلي أيضاً.

(١٠) قدمه الطنطاوي من إذاعة دمشق عام ١٩٥٩م كما أثبت في مقدمة الحديث.

أدبيات ابن الجوزي في منظور الشيخ علي الطنطاوي



بقلم: د. بن عيسى باطاهر
الجزائر

قد يتردد الإنسان ويتلجلج به القلم أحيانا في الكتابة عن شخصية علمية مرموقة ومعروفة بين الناس برسوخ القدم في ميدان العلم والثقافة والفن، وذلك لما قد يحدث من قصور في الحكم، أو خطأ في التقويم، أو تقصير في الإحاطة بالموضوع من جوانبه كلها، وبخاصة حين لا تكتمل الأدوات والوسائل الضرورية للقيام بهذا العمل، والتي من أهمها الاطلاع العميق والدقيق على مؤلفات تلك الشخصية وآثارها، ومعرفة بعض التفاصيل التي تمس حياتها الشخصية والثقافية.

والشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - هو أحد تلك الشخصيات العلمية والأدبية النادرة في هذا القرن، وهو معروف بين طوائف المثقفين والمتعلمين بتعمقه في العلوم الشرعية والأدبية، وبتفننه في أساليب الكتابة الأدبية الجميلة، وتعرفه طوائف العوام من الناس بمكانته في الفقه والإفتاء والدعوة إلى الله، فقد كان يلبي حاجاتهم إلى معرفة الأحكام الشرعية، وما يترتب على ذلك من معرفة الحلال والحرام، وكان - رحمه الله - عند الناس خاصتهم وعامتهم مثالا للاعتدال والوسطية، في عصر اختلفت فيه الموازين والقيم، وطغت فيه العصبيات والأهواء، وقد اجتهدنا في الكتابة عنه لتنوير القراء ببعض ما تميز به من ذوق أدبي رفيع، وحس نقدي دقيق.

تأثر الطنطاوي بابن الجوزي:

وسيكون هذا الحديث السريع منصبا على الحس الأدبي الذي كان يمتاز به الشيخ الطنطاوي منذ صباه، واستمر معه بقية عمره، والذي جعله يتأثر بالإمام الكبير «ابن الجوزي» المتوفى سنة «٥٩٧هـ»، وبخاصة في كتابه «صيد الخاطر» الذي قرأه وتأثر به منذ أيام الطلب الأولى، واستمر تأثيره ملازما له طوال حياته، وهذا ما حمله على الاعتناء به وتحقيقه والتعليق عليه.

لقد كان تأثير ابن الجوزي في شيخنا الجليل عظيما، وكان سببا في هدايته واستقامته على الحق، وقد ذكر ذلك ممتنا فقال: «أنا قديم التعظيم لابن الجوزي، قديم الحب له، ولقد كان كتابه في سيرة عمر بن عبد العزيز.. من أوائل ما قرأت من الكتب، وقد خلف في نفسي أثرا لا يزول، وكان من أسباب الرشاد لي والحمد لله، ولرب كلمة يسمعها الناشىء، أو كتاب يقرؤه، أو إنسان يصحبه، يكون سبب دخوله الجنة أو دخوله النار[1].

وكتاب ابن الجوزي «صيد الخاطر» هو أحد ينابيع الأدب الصافية، النابعة عن التجارب الحية، والعواطف الصادقة، وهو من نماذج الأدب الإسلامي الحي الجدير بعناية الباحثين والدارسين لما فيه من صفات الصدق والإخلاص كما يرى الشيخ أبو الحسن الندوي[2].

وقد كان هذا الكتاب ذا تأثير قوي في نفس الشيخ الطنطاوي، وهو ما جعله يسير على نهجه في كتاباته الأدبية المتميزة، وذكر ذلك فقال: «كان فيما استعرت من مكتبة بغداد سنة ١٩٣٦م كتاب بلغ من إعجابي به أن استبقيته عندي إلى أن فارقت الكلية، أقرأ فيه كل يوم فلا أمل القراءة فيه، ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتعظ بها، أو فائدة أستفيدها، أو طرفة آنس بها، وفيه فوق ذلك تحليل للنفوس، وفيه وصف للمجتمع في أسلوب مبتكر، وطريقة في التصنيف



لا أعرفها لأحد من المصنفين، وكان الكتاب صيد الخاطر»[٣].

أسباب إعجابه بابن الجوزي:

ويعود سر إعجاب الشيخ الجليل بابن الجوزي وكتابه إلى أسباب عدة منها: منزلته في الوعظ، والإرشاد، وذلك لما أوتي من قوة العارضة، وحسن التصرف في فنون القول وشدة التأثير في الناس[٤]، وقد ذكر ابن الجوزي ذلك فقال: «ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو مئتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجلسي أكثر من مئة ألف»[٥] ويعود أيضا إلى قوة بديهته، وسرعة بادرته، وحضور ذهنه، ونوادر أجوبته، مع كثرة محفوظه، وسعة روايته.

العبقرية في صيد الخاطر:

وكتاب «صيد الخاطر» هو نوع من الأدب الذي يسمى أدب الخواطر، أو أدب الاعترافات، وهو يهتم بتسجيل الخواطر وخوالج النفس ساعة ورودها على الذهن، وقد وفق ابن الجوزي أيما توفيق في اختيار عنوانه، فقد صور الخواطر كأنها طيور السماء تراها العين ساعة ثم تفتقدها في برهة، فاذا اصطدتها وقيدتها ملكتها أبدا، فكان هذا الاسم «صيد الخاطر» - في رأي الشيخ الطنطاوي - نفحة من نفحات العبقرية[٦].

ويمتاز الكتاب بطابعه الأدبي الجميل الذي يحقق لقارئه الفائدة والمتعة في آن واحد، ففيه مواعظ تصل إلى قرارة النفس، يخاطب فيها القلب والعاطفة والعقل بالدليل، يمزجها مزجا عجيبا، فيه من شواهد الأشعار، وعجائب الأخبار ما يثبته في النفس، ويرى الشيخ في تلك المواعظ بذورا تلقى في الأرض لتنبت الصلاح، وتثمر الجنة[٧].

ويرى شيخنا الجليل أن الكتاب متميز بأسلوبه الجميل، فهو يسمو حينا حتى يبلغ الذروة، ويكون منه المعجب والمطرب، حتى كأنه شعر مطبوع.. وينطلق أحيانا سهلا بلا تكلف وكأنه يتحدث إلى جليس، وربما عقد وعاظل، واختصر المعنى، واكتفى بالإشارة عن البيان[٨].

ولعل التوفيق الذي حظي به الكتاب عند القراء عائد أيضا إلى كثرة استشهاده بالشعر، فقد كان ابن الجوزي يسوق خلال فصوله شوارد الشواهد، ويقيد نوافر الأوابد[٩].

وكان ابن الجوزي شاعرا مجيدا يتذوق الشعر، ويكثر الاستشهاد به، وكان كثير الافتخار بنفسه وبعلمه، فمن ذلك قوله:

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا
وأكابد النهج العسير الأطولا
لو كان هذا العلم شخصا ناطقا
وسألته هل زار مثلي قال: لا



الطنطاوي أساليب ورؤى:

إن الشيخ الطنطاوي هو من العلماء البارزين الذين كانوا يؤمنون بواجب الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والأدب الهادف، فالدعوة عنده بث الأفكار، وعرض الحقائق على أفراد الناس في المجالس، والمجامع، والطرق وفي كل مكان بالأسلوب المناسب، والتعبير الموافق لما تقتضيه الحال من غير دخول في جدل، أو اشتباك مع مخالف[١٠].

لقد كان يرى في قوة الشباب آمال الأمة في الخروج من الضعف إلى القوة، ويعني بالشباب هنا ذلك الشباب الحي العامل، القوي المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحا، ومثلا عاليا ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية[١١].

انظر معي إلى هذه النصائح التي تشع بالأمل، والتفاؤل، والإيجابية، يقول مخاطبا الشباب: «اقرؤوا قصائد الشعراء من الشباب، إنها مليئة بالآلام، مغمورة بالكآبة، غارقة بالدموع.. لم يبصرون ظلام الليل، ولا يرون بهاء السماء؟

لم يفكرون في وحشة الخريف، ولا يفكرون في روعته؟

لم ينتبهون إلى عري الشتاء، ولا ينتبهون إلى خشوعه؟

إن كل ما في الدنيا جميل بهي، ولكن في عين الشباب الصحيح القوي، أما المريض، أما المسلول المحطوم، فلا يرى إلا الظلام.

فيا شبابنا داووا نفوسكم من سل اليأس[١٢].

وختاما نقول: إن الشيخ علي الطنطاوي هو أحد رواد الأدب الإسلامي في هذا القرن بإنتاجه المتميز، وأسلوبه الشائق، فرحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجازي به عباده المؤمنين المجاهدين. ■

الهوامش:

(١) صيد الخاطر - ابن الجوزي - تحقيق علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي - ص٧، ط٥، دار المنارة، جدة ١٩٩١م.
(٢) نظرات في الأدب - أبو الحسن الندوي، ص ٣١ - ٣٢ ط١، دار البشير، عمان ١٩٩٠م.
(٣) انظر مقدمة صيد الخاطر - ص٥.
(٤) نفسه - ص ١٠.
(٥) نفسه ص ١٥ - ١٦.
(٦) نفسه ص ٥.
(٧) نفسه ص ٢٧.
(٨) نفسه ص ٤١.
(٩) نفسه ص ٤١.
(١٠) فصول إسلامية - علي الطنطاوي، ص ٢٤ - ط٤، دار المنارة، ١٩٩٠م.
(١١) نفسه ص ٤٢.
(١٢) نفسه ص ٥٧.





بقلم: إبراهيم الألمعي
السعودية

عاش الطنطاوي زمناً ملء السمع والبصر، عاش مؤنساً وموجهاً وداعياً وناصحاً لنا، فأحببنا فيه أنفسنا، وبعد رحيله نعيش على ذكريات الزمن الجميل، زمن ابن باز وابن عثيمين والطنطاوي والغزالي، والشعراوي ومحمود شاكر، والزرقا، أولئك العمالقة الذين توجهوا نحو السماء واحداً بعد الآخر، أقف اليوم لأكتب بدموع الحب والوفاء كلمات في رثائه، أخص بها مجلة الأدب الإسلامي، التي تؤدي واجباً لرائد الأدب الإسلامي، وأستاذ رائده، فالطنطاوي أستاذ «عبد الرحمن رأفت الباشا» رائد الأدب الإسلامي، ولقد كتبت عن الطنطاوي - رحمه الله - في ملحق الأربعاء، وفي مجلة المعرفة، وفي جريدة الشرق الأوسط، وكتب عنه الكثير ورثاه الشعراء والأدباء والعلماء، غير أن هذا كله ليس قطرة في بحر عطائه، وهو صاحب معلقة التسعين عاماً في خدمة الإسلام والعربية والفضيلة والخير والجمال وتربية الأجيال:

ورحلت والتسعون عمر أول
وبناؤك الأجيال عمر ثان



مع أدب الطنطاوي :

عن أدب الطنطاوي حدث ولا حرج، يقول الأستاذ سعود الصاعدي: «إن أدب الطنطاوي يرتكز على محاور عدة، جعلت منه أدباً محلقاً يرفرف في سماء الأدب العربي، وهذه المحاور لم تأت في أدب الشيخ الطنطاوي اعتباطاً، وإنما تعكس مقدرة الشيخ البيانية والأدبية، والثقافية والتاريخية، كذلك والدينية»[١].

ثم أشار في مقالته إلى محاور ستة هي:

١- اللغة والأسلوب.
٢- الخيال المتزن.
٣- الحجج العقلية المقنعة.
٤- العاطفة الصادقة.
٥- الطرفة الهادفة.
٦- الهدف.

وعن أدوات الطنطاوي الأدبية يقول: «.. وهو أيضاً كاتب وروائي وقاص، يملك أدوات الأديب المكتمل غير أنه ليس بشاعر، ولا فرق بينه وبين الشاعر إلا الوزن الذي هو العمود الفقري للشعر، وما عدا ذلك فكل ما عند الشاعر عنده، بل وأوضح بياناً، وأقوى لغة»[٢].

الطنطاوي الشيخ الأديب الذي أحبه الناس على اختلاف مشاربهم، وتنوع همومهم، نتيجة اقتناعهم به فقيهاً وأديباً صاحب قلم يترفع فيه عن مجاراة التيار ويرفض الخنوع، ويخاطب العقول والقلوب على حد سواء.

يقول الدكتور عبد الله مناع رئيس تحرير مجلة الإعلام: «عندما رأيته واستمعت له.. وجدتني اقترب منه.. ثم تحول القرب إعجاباً.. فحباً.. فولها به، وبفكره الحر وعقله الواعي المتأمل في معاني النصوص ومغازيها، وصدقه وجرأته على قول الحق ولو خالف به من خالف.. بل وبصوته ورشاقة عبارته، وخفة دمه التي لا تخفى على أحد»[٣].

أما في مجال التحديث فله القدح المعلى، شهد له بذلك أساتذة النقد الإذاعي، يقول الدكتور. أحمد بسام ساعي: «ورغم تألق عديد من المحدثين العرب في ثلث القرن الأخير، على مدى حدود الوطن العربي، يظل علي الطنطاوي المحدث العربي الأكبر، الذي يستقطب من أعداد الجمهور ما لا يطمح إليه الآخرون، ويظل كذلك الأفضل بين من نستعين بطرائقهم التحديثية حين نضع القواعد الفنية للحديث الإذاعي»[٤].

وعنه يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «شارك الشيخ – وهو طالب – في مقاومة الاحتلال الفرنسي لسوريا، وكان يحرض الطلاب، ويحرك الجماهير ويسير المظاهرات، ويلهب الحماسة بخطبه النارية، وبيانه الساحر، وأصابه في ذلك ما أصابه حيث اعتقل وأودع السجن»[٥]



ويصفه بأنه «أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء»[٦] وهو يعرف منزلته من الأدب، وإن سكت عن بيانه بعض الناس غمطاً له وحسداً، يقول في زفرة مصدور: «إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم، وصب الحمم أحد، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق.

أستغفر الله، فما أحب الفخر ولكني اضطررت فقلت، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي؟»[٧]

وإذا أردت يا قارئي أن تعرف ما هو «السهل الممتنع» حقيقة لا وصفاً، فاقرأ علي الطنطاوي أو اسمعه، فأسلوبه هو السهل الممتنع في صورة من أندر صوره، في سهولته وسلاسته، وسلامته، وبلاغته وسحره وحلاوته، ودقته المدهشة في التصوير والتعبير، وقدرته الفائقة على تيسير العسير، وتقريب البعيد، والوصول بالأفكار والمشاعر، والحقائق والمعارف، بطريقة بسيطة مفهومة محكمة محببة، إلى الكبير والصغير، والمرأة والرجل، والمتعلم والعامي، من مختلف طبقات الناس» [٨].

الطرفة عند الطنطاوي :

أما الطرفة الهادفة، فقد أخذت نصيباً من اهتمام الشيخ الطنطاوي، فوظفها أحسن توظيف، وعرضها بأجمل أسلوب، كما في كثير من الموضوعات مثل «أعرابي في سينما»[٩] و«أعرابي في حمام»[١٠] و«سيدة»[١١] و«موضوع إنشاء»[١٢] و«في الترام»[١٣] وغيرها.

الطنطاوي مؤرخا :

عندما يعمل الطنطاوي قلمه في أحداث التاريخ، فيصور التاريخ بقلم الأديب، الذي لا يخرج الحدث عن إطاره التاريخي، ولكنه يلبسه ثوباً يجعله أبلغ أثراً وأكبر قدراً في نفس المتلقي، فعل ذلك في حوادث عدة، فخرج كتابه «قصص من التاريخ»[١٤] الذي كان غاية في الروعة والجمال، ينتزع القصة من رفات التاريخ فينفخ فيها الروح من سحر بيانه؛ فإذا هي تنبض بالحياة، وتنطق بألسنة أبطالها، وتشهد على عصرها، وتنبي



عن العبرة العظيمة التي من أجلها استهلها الطنطاوي، ليقول: اعتبروا يا أولي الأبصار.

وقد بلغ من إبداعه في معالجة الخبر التاريخي، بأسلوب الروائي العظيم، أنه لما كتب خطبة من إنشائه على لسان سبط ابن الجوزي[١٥]، ظنها الناس خطبة سبط ابن الجوزي حقيقة، حتى إن خطيب المسجد الحرام رواها في خطبة الجمعة على أنها لسبط ابن الجوزي حقيقة، وانظر في كتابه هذا إلى سحر البيان في «هجرة معلم»[١٦] و«ابن الحب»[١٧] و«وديعة الله»[١٨] وسائر القصص.

الطنطاوي كما يرى نفسه:

عندما يكتب الطنطاوي عن نفسه فإنما يصور حال الناس ونفوسهم، فيرى القارئ نفسه في مقالات الطنطاوي، ففي تلك الصورة التي رسمها لنفسه بقلمه سنة ١٩٣٦م يقول: «.. وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد وأبعدهم عن تكلف الوقار، واتباع «الرسميات»، فلا يكون في مجلس إلا حركه بحديثه وإشاراته، ونكاته وأفاض عليه روح المرح والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجئ، قد تطغى على قلبه في أشد الساعات سروراً وأكثر المجالس طرباً، فإذا هو حزين كئيب..»[١٩]

وهو يثبت أن الإسلام ليس كلمات تقال، أو مظاهر تتشكل أومجرد طقوس، بل هو سلوك واعتقاد، وحسن معاملة ومما يقول: «إنني أكتب لنفي صناعة المشيخة، وإفهام الناس أن المسألة ليست بالعمامة والجبة، ولكن بالعلم والتقى، وأن علينا إذا أمرنا بالمعروف أن نجعل أمرنا بالمعروف، وأن نستن بسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الدعوة، وأعوذ بالله أن أقول لأحد: اكتم الحق ليقول الناس إنك لطيف، أو أقرر الباطل الذي تراه ليقول الناس: إنك مهذب، أو ساير الناس في طريق الإثم ليقولوا: إنك اجتماعي»[٢٠] وهذا منهجه في الدعوة الذي اختطه لنفسه كاتباً وخطيباً، وواعظاً وأديباً.

ذائقة الطنطاوي:

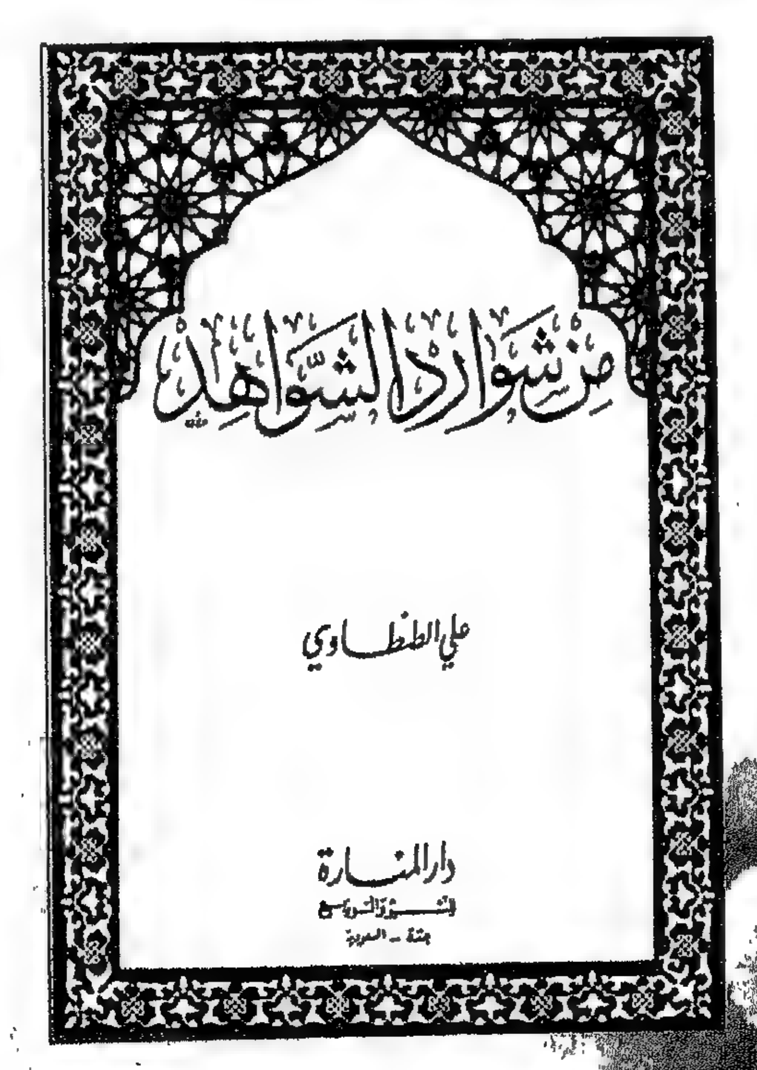
الطنطاوي متذوق رائع، وناقد نافذ البصيرة، دقيق في استشهاداته الشعرية، بارع في التقاط مكامن الجمال في البيت أو القصيدة، انظر إلى وصفه مرثية مالك بن الريب: «قصيدة وهبها للموت، إذ تغنى له فيها، فوهب له بها الحياة، لم يتفلسف فيها تفلسف المعري، ولا تجبر تجبر المتنبي، ولا أغرب إغراب الدريدي، ولكنه جاء بأقرب الأفكار، في أسهل الألفاظ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة»[٢١]

وانظر إن شئت تلمس ذائقته الشعرية والنقدية في مثل: «حلم في نجد»[٢٢] و«الأعرابي والشعر»[٢٣] و«شوارد الشواهد»[٢٤] و«الأبيوردي»[٢٥] و«شاعر يرثي نفسه»[٢٦] و«عائشة التيمورية»[٢٧] و«أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة»[٢٨] و«النشيد السوري»[٢٩] و«من غزل الفقهاء»[٣٠] وغيرها من الدراسات الشعرية في ثنايا كتبه.

والطنطاوي كان يرى أنه لا غنى للإنسانية عن الشعر، فهو من لوازمها، فمن لم يتذوقه ويطرب له فما هو - عند الطنطاوي - بإنسان.

يقول: «.. فكيف يكون فيها «أي الدنيا» من يكره الشعر، وهوجمال القول، وفتنة الكلام؟وهو لغة القلب، فمن لم يفهمه لم يكن من ذوي القلوب، وهو صورة النفس،فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً، وهو حديث الذكريات والآمال، فمن لم يذكر ماضياً ولم يرج مستقبلاً، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً فليس بإنسان»[٣١].

وليس كل ما يسمى شعراً يحظى عند الطنطاوي بهذه المنزلة، فهو يعتبر نسبة ما يسمى بالشعر الحر إلى الشعر تزويراً، ويظهر هذا في مواطن عدة، وفي أسلوب نقدي متهكم يقول: «رحم الله الأستاذ العقاد عندما كان رئيس لجنة الشعر، قدموا إليه بعض هذا الذي يسمونه شعر الحداثة، فأحاله إلى لجنة النثر لأنه أراد أن يدخل مدينة الشعر بجواز سفر مزور فرده إلى موطنه، ولولا أنه رحمه وأشفق عليه لأحاله إلى محكمة الجنايات بتهمة التزوير»[٣٢]



ويقول في موضع آخر: «شعر (الحداثة) الذي يشبه (الحدث) الأكبر، ولكنه لا يطهره شيء ولا الغسل سبعاً، إحداهن بتراب المقبرة الذي يتمنون أن يدفنوا فيها الشعر»[٣٣].

والإشادة بعظمة الأدب تظهر جلية في مواقف وصفحات كثيرة، فيما كتب الطنطاوي ولكنه الأدب العبقري، الممتد على جسر من اللغة الفصيحة والصاعد على قمة من البيان، المتمثل في رشاقة الأسلوب، وعظمة الأفكار.

«.. من هنا جاءت عظمة الأدب،



وجاء خلوده، إنه ليس كالعلوم، إن قرأ طالب الطب في كتاب ألف قبل أربعين سنة، سقط في الامتحان، أما طالب الأدب فيقرأ شعرا قيل من ألف وخمسمئة سنة، ولا يزال جديداً، كأنه قيل اليوم..

لا أعني الشعر الذي هو الرنات والأوزان، ولا الألفاظ المنمقة التي لا تحمل معنى، ولكن أعني بالشعر، حديث النفس، ولغة القلب، وكل ما يهز ويشجي، ويبعث الذكريات، وينشئ الآمال، ويقيم النهضات، ويحيي الأمم، الشعر الذي يشعرك أنه يحملك إلى عالم غير هذا العالم»[٣٤]

والطنطاوي مع اعتزازه بالأدب، لا ينساق وراء كل ما يسمى أدباً بل يريده أدباً سامياً راقياً، كتب في ذلك وسطر المقالات التي تستنهض الأدباء إلى السمو في اللغة والأسلوب والرقي في الأدب ليكون بانيا للأمم، وممجداً للدين والأخلاق والقيم، وداعياً إليها، ومذكراً بالفضائل، ظهر ذلك في كل كتبه، واقرأ إن شئت: «بين العلم والأدب»[٣٥] و«في النقد»[٣٦] و«أنا والنجوم»[٣٧] و«أنا والقلم»[٣٨] و«أدب هذا.. أم ماذا؟»[٣٩] و«دفاع عن الأدب»[٤٠] و«مستقبل الأدب»[٤١] وكثير مما كتب في أثناء كتبه ومقالاته، وذكرياته.

اللغة العربية عند الطنطاوي:

أما اللغةالعربية، فكانت عند الطنطاوي كبرى المعجزات، التي لا يستطيع أحد أن يكشف كل أسرارها، ويقتحم كل مكامن جمالها، وهل الأدب العربي إلا ابن اللغة العربية، الذي لا يقوم إلا بها، ولا يظهر جميلاً إلا في إهابها، وما أعظم العربية عندما تلد الأدب العظيم، على يد الأديب العظيم فتتمثل بهذه المقومات أرقى أنواع الأدب، شعراً ونثراً. «إن اللغة العربية معجزة الذهن البشري، وأعجوبة التاريخ في عصوره كلها، وإذا كان التاريخ يذكر ولادة كل لغة ويعرف مراحل نموها ومدارج اكتمالها، فإن العربية أقدم قدماً من التاريخ نفسه، فلا يعرفها إلا كاملة النمو، بالغة النضج..»[٤٢]

وهكذا يتكلم الطنطاوي دائماً عن اللغة العربية، روعة وجمالاً، وسحراً وبياناً في كل كتاباته عنها، فنشر مقالات في الدفاع عنها وتمجيدها فكتب «دفاع عن العربية»[٤٣] و«لغتكم يا أيها العرب»[٤٤]، «آفة اللغة هذا النحو»[٤٥] و«لو أقر المجمع»[٤٦].. وغيرها.

ولهذا عرفه الناس خط الدفاع الأول في عصره عن العربية، في وجه كل الدعاوي ضدها، يقول الدكتور عبدالرحمن العشماوي عنه في مرثيته:

مضى الأديب العصامي الذي احتفلت
به البلاغة وازدانت روابيها
مضى، كأن لم يصافح كفه قلم
عذب يذود عن الفصحى ويحميها
يا مازج العلم بالآداب في زمن
آدابه انسلخت مما يزكيها
عزت بك اللغة الفصحى وكنت بما
أوتيت من فكرك الصافي تغذيها[٤٧]

الحب عند الطنطاوي:

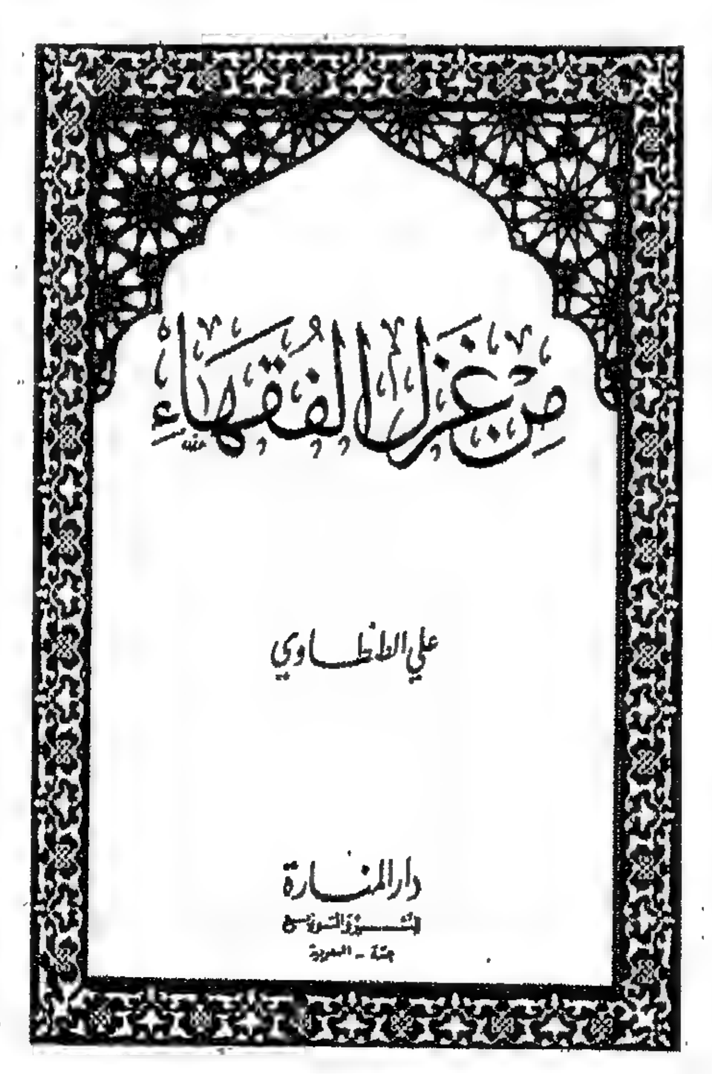
لقد اجتمعت لشيخنا الطنطاوي إلى جانب فقهه وعلمه الشرعي، وأدبه الراقي، نفس شفافة، وذوق رفيع، فنطق أعذب الكلمات وأخلدها، وأجمل الأوصاف وأوضحها، فتحدث عن الحب الذي يعتبره من أسرار الوجود، وكتب عنه ما يعجز عن كتابته مجانين العشق، فضلاً عن الفقهاء والمفكرين، فكثيراً ما يلحق بقارئه في مدارج عالية، على أجنحة من العاطفة الجياشة، والحب الطاهر، والبيان الرفيع.

يقول عن الحب: «يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه، والفضيلة والرذيلة، والطموح والحسد، ولكن لا يمحوه شيء.

الحب أحجية الوجود.. ليس في الناس من لم يعرف الحب، وليس فيهم من عرف ما هو الحب.

الحب مشكلة العقل التي لا تحل، ولكنه حقيقة القلب الكبرى.. الحب أضعف مخلوق وأقواه، يختبئ في النظرة الخاطفة من العين الفاتنة، وفي الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية، وفي البسمة المومضة من الثغر الجميل. ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً، فيبني الحياة ويهدمها، ويقيم العروش ويثلها، ويفعل في الدنيا الأفاعيل»[٤٨]

ها هو ذا الحب يتحول عند الطنطاوي إلى مخلوق حي، يختبئ خلف الجفون، وفي رنات الصوت الجميل، ويكشف في ذكرياته سراً آخر من أسرار الحب والجمال، فيقول: «كم



قال الشعراء، وكم كتب الكتاب في «الحب»، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟.

وهو يرى أن الحب والأدب والإنسانية، متلازمات، فالأدب هو وسيلة التفاهم بين المحبين، يعبرون من خلاله عن الحب الذي به تبقى الإنسانية ببقاءالجنس البشري، يقول: «إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء، ودليل ذلك أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم، وما العلم إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبوا.. ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى كلمة الحب، لمكان الغريزة من نفسه، ولأنها «أعني غريزة حفظ النوع» كانت أقوى فيه، والحاجة إليها أشد، وبقاء النوع معلق بها، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب، كتبت يوم لم يكن علم، ولا عرفت كلمة العلم.. ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب، ولم يعش إلا به، ولكن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً، وهؤلاء الأكابر من العلماء كانوا يضطرون في ساعات من ليل أو نهار، إلى مطالعة ديوان شعر، أو النظر في قصة أدبية، أو صورة فنية ليلبوا صوت العاطفة، ويستمعوا نداء الشعور.


الشيخ ابن عثيمين

رحم الله الطنطاوي :

لله در الطنطاوي، أي نفس شفافة سكنت بين جنبيه؟! وأي قلب قوي حوى صدره؟! وأي فكر وعى ذهنه المتقد؟!

وإني لأعجب أيضاً من الظلم الذي تعرض له في حياته من قبل الهيئات، ووسائل الإعلام والجامعات، فلم ينصفه حقه إلا القائمون على جائزة الملك فيصل العالمية، الذين منحوه جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام - مناصفة - عام ١٩٩٠م.

رحم الله الطنطاوي، وجزاه عن أمته خير الجزاء، فقد قدم الكثير الكثير. ■

الهوامش:

١- ملحق الأربعاء - ١٤١٩/٢/٢٨هـ - ص ١٨.
٢- المصدر السابق.
٣- مجلة الإعلام - عدد (٣) رمضان ١٤٢٠هـ.
٤- د. أحمد بسام ساعي - الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد / ص ١٣٩ - دار المنارة، ط ٨، ١٩٨٥م.
٥- الشرق الأوسط - عدد (٧٥١٠) في ١٩٩٩/٦/٢١م.
٦- المصدر السابق.
٧- من حديث النفس - ص ٩٠/ دار المنارة، ط ١٩٩٠/٤م.
٨- الشرق الأوسط - ١٤٢٠/٣/٢٠هـ.
٩- صور وخواطر - ص ٧٨ / دار المنار / ط ٢ - ١٩٩١م.
١٠- المصدر السابق - ص ٧١.
١١- مقالات في كلمات - ص ٩٩/ دار المنارة - ط ٢ - ١٩٩٨م.
١٢- مع الناس - ص ٢٠٦ / مصدر سابق.
١٣- صور وخواطر - ص ٩٩ / مصدر سابق.
١٤- نشر أول مرة سنة ١٩٣٩م، وصدرت الطبعة السادسة منه عن دار المنارة / سنة ١٩٩٦م في ٢٧٠ صفحة.
١٥- وذلك في قصة «رجل وامرأة» ص (١٩٦ - ٢٠١). قصص من التاريخ / ص ١٩٦/ ط ٥ / ١٩٩٥م - دار المنارة.
١٦- المصدر السابق - ص ١٢٨.
١٧- المصدر السابق - ص ٥٣.
١٨- المصدر السابق - ص ٣٦.
١٩- من حديث النفس - ص ٧٧/ مصدر سابق.
٢٠- مع الناس - ص ١٣٦/ مصدر سابق.
٢١- رجال من التاريخ - ص ١٦٦/ دار المنارة / ط ٨ - ١٩٩١م.
٢٢- صور وخواطر / ص ٢٤٠/ مصدر سابق.
٢٣- المصدر السابق - ص ٨٥.
٢٤- فكر ومباحث - ص ٧٨/ دار المنارة، ط ٢/ ١٩٨٨م.
٢٥- المصدر السابق - ص ١٩٣.
٢٦- رجال من التاريخ - ص ١٦٥/ مصدر سابق.
٢٧- المصدر السابق - ص ٨١
٢٨- المصدر السابق - ص ٤٧٥.
٢٩- في سبيل الإصلاح - ص ٢٠٧/ دار المنارة - ط ٣ - ١٩٩٠م.
٣٠- فكر ومباحث، ص ٣١.
٣١- فكر ومباحث - ص ٣٢/ مصدر سابق.
٣٢- ذكريات الشيخ علي الطنطاوي - ج ٨ - ص ٣٤٣/ دار المنارة - ط١/ ١٩٨٩م.
٣٣- في سبيل الإصلاح / حاشية الصفحة ٧١/ مصدر سابق.
٣٤- رجال من التاريخ - ص ١٦٧/ مصدر سابق.
٣٥- فكر ومباحث - ص ٢٠ / مصدر سابق.
٣٦- المصدر السابق - ص ١٤٧.
٣٧- من حديث النفس / ص ١٧/ مصدر سابق.
٣٨- المصدر السابق ص ١٧٣.
٣٩- هتاف المجد - ص ١٧٥/ دار المنارة / ط ٢ - ١٩٩٠م.
٤٠- في سبيل الإصلاح - ص ٧٤/ مصدر سابق.
٤١- المصدر السابق - ص ٣٣.
٤٢- فكر ومباحث - ص ١٠/ مصدر سابق.
٤٣- مقالات في كلمات - ص ١٧٨/ مصدر سابق.
٤٤- فكر ومباحث، ص ٧، مصدر سابق.
٤٥- المصدر السابق - ص ١٣.
٤٦- في سبيل الإصلاح - ص ١٦٦/ مصدر سابق.
٤٧- من قصيدة نشرتها جريدة الرياض، بعد وفاة الطنطاوي بأيام.
٤٨- قصص من التاريخ - ص (٥٨ - ٥٩) مصدر سابق.



المكتبة السمعية والمرئية للشيخ علي الطنطاوي

ترجع صلات الأستاذ الطنطاوي الإعلامية إلى أكثر من سبعين سنة، وقتها كانت الخطابة الوسيلة الأشهر، فامتطى صهوتها من خلال قدرته الفائقة على إقناع الخاصة والعامة. لم يكن موظفاً يتقاضى راتباً، إنما كان يكفي أن يقف إلى طرف مسجد بني أمية في دمشق، ويهتف: «إليَّ إليَّ عباد الله» حتى يأتي إليه الناس جماعات ووحداناً، ثم استمر خطيباً في دمشق في مسجد الجامعة، وحيثما حل يخاطب العقل ويخصب العاطفة[1].

ثم طور الشيخ أسلوبه الإعلامي الذي يهدف من ورائه إلى التبشير بالإسلام، والتأكيد على حضارته ونظمه فتساءل ذات مرة، «أوليس من العجب أنك تدخل في القاهرة السينما التي تعرض الفيلم الإفرنجي فترى له فكرة وموضوعاً وهدفاً، وربما رأيت فيها الفيلم العلمي أو التاريخي الذي يمر كله فلا تسمع فيه كلمة غرام، ولا ترى فيه قبلة، وتدخل لترى الأفلام العربية فتجدها كلها إلا النادر منها سخيفة النسج مضطربة الموضوع عمادها العري والخلاعة والتخنث ورقص البطون»[2].

لقد أدرك الشيخ رحمه الله أن موقف السلبية لا يقدم ولا يؤخر، فالموج قادم ولابد من عقلية الاقتحام عوضاً عن الانسحاب والهروب. كان يتخذ موقفه بعيداً كل البعد عن إرضاء أحد، وإنما هو نابع من «يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود، وغاية الحياة، واستعبدها لما بعد الموت»[3] ودخل الطنطاوي بهذا الوعي عالم الصحافة والإعلام.

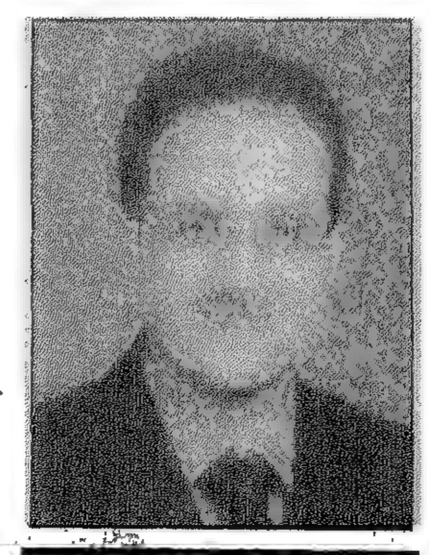
وبحضور ملحوظ عرب الشيخ – رحمه الله – كلمة التلفزيون فأسماه الرائي اسم فاعل بمعنى اسم مفعول كقوله تعالى: «فهو في عيشة راضية» أي مرضية.

وقد لاقت أحاديث الشيخ علي الطنطاوي قبولاً كبيراً، قاربت ساعاته المسموعة خمسة آلاف ساعة، تتوزع معظمها ما بين إذاعات دمشق والرياض وعمان والشرق الأدنى، إضافة إلى برامجه المرئية وخصوصاً «نور وهداية» الذي استمر ربع قرن في رائي السعودية، وبرنامج على مائدة الإفطار في شهر رمضان وكان يبث يومياً.

ونظراً للصعوبة التقنية والفنية في حفظ هذه المواد العلمية فقد ضاع أغلبها إلا أن الشيخ كان لديه بعض منها، من كلمات ومواعظ ودروس وتعرضت للتلف أيضاً، وبمبادرة خيرة من شركة سنا للإعلام تم تنقية المحفوظ من تراث الشيخ الإصلاحي، وتم إصدار سلسلة «دين ودنيا» وهي تتألف من: في ظلال آية، خير الهدى، على هامش السيرة، عقيدة المسلم، قضايا فكرية، قطوف تربوية، إلى الشباب، فقه المسلمات، ذات الخمار، أبغض الحلال، مع القرآن، خواطر داعية، الزواج، نحو بيت مسلم، في طوق الحب، الصلاة عماد الدين، وأن المساجد لله، ويؤتون الزكاة، في المال والاقتصاد، من فقه الصيام، لبيك اللهم، لسان العرب، في دوحة الأدب، الدين والحياة، من فقه الدعوة، وفي الفقه زاد، بين السحر والجن، النفس المطمئنة، من كل بستان، على صهوة الكلمة، داء ودواء، على بصيرة، كلمة طيبة، حماة الديار، كتب وعلماء، السلام عليكم.

تستوعب هذه الموسوعة السمعية موضوعات مشوقة لسماعها فهي «أول سلسلة صوتية صدرت للشيخ علي الطنطاوي تحتوي العلم الشرعي والفكر الواعي واللفتة المؤثرة مع الأسلوب الأدبي والذوق الشائق، مما يشكل نخبة من أجمل الأحاديث التي تتناول مختلف نواحي الحياة معتمدة طريقة السؤال والجواب – كما جاء في تعريف شركة سنا لها.

نجد مثلاً في ساعة «على هامش السيرة» تنوعاً غزيراً في المادة المقدمة حيث يتطرق الشيخ إلى السفر إلى المدينة في شهر ربيع الأول، ويتناول موسوعة للأطفال تهاجم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتحدث عن مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعن موضوعات متعددة تهم كل مسلم وناهل للمعرفة.



بقلم: علاء الدين آل رشي
سورية

رحم الله شيخنا الحبيب فقد كان سفيراً إعلامياً متحضراً بشر بالإسلام وبكرامة الإنسان، ودعا إلى شمائل حسن الخلق. والتمسك بها ومجافاة كل ما يخدش رائق الصورة الجميلة لإسلامنا الذي نؤمن به. ■

الهوامش:

1- في المستقبلة العدد ٣٦٨، الإعلام والطنطاوي، عبد الله زنجير.

2- صور وخواطر ص ٢٠٦.

3- من حديث النفس ص ٢٠٤.

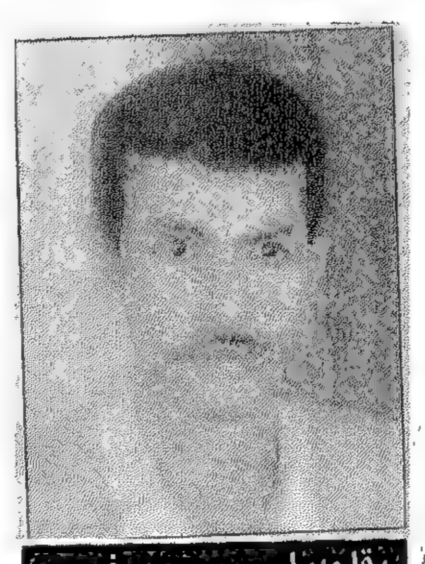
علي الطنطاوي
بين الإبداع والتنظير

يمثل التراث الأدبي الذي خلفه الشيخ الأديب علي الطنطاوي تطبيقاً عملياً بالغ الروعة على نظرية الأدب الإسلامي في معظم فنون الأدب، حيث كتب المقالة والقصة والمسرحية وأدب الرحلات والتراجم التاريخية.. وغيرها، فكانت قضية الحرية والالتزام هي محور عقل هذا الأديب وقلمه طوال أكثر من سبعين سنة قضاها في الكتابة تنظيراً وإبداعاً.

ولما كانت أهم الملاحظات التي يؤكد عليها النقاد في قضية الأدب الإسلامي هي حاجتنا إلى مسلمين يعيشون الإسلام في حسهم حقيقة واقعة، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامي، ومن خلال التصور الإسلامي، فنانين في ذات الوقت، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة في حسهم بصورة جميلة موحية، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيري[1].

أقول: لما كانت هذه هي أهم ما يؤكد عليه نقاد الأدب الإسلامي، فإن الطنطاوي يعد نموذجاً تطبيقياً للأديب الإسلامي، كما يعد أدبه صورة ناجحة إلى أبعد حد من صور الأدب الإسلامي المنشود.

فلقد كان اسم علي الطنطاوي فيما بين عقود الثلاثينيات والخمسينيات أحد ألمع الأسماء الأدبية في دنيا العروبة، فمنذ شبابه الباكر، كان علي الطنطاوي قد اختط بقلمه مكانة علية بين رموز الأدب العربي الكبرى من أمثال الرافعي والزيات والمازني ومحمود محمد شاكر وزكي مبارك.. وغيرهم، ونشرت إنتاجه الرفيع كبرى المجلات الأدبية والثقافية شأن «الفتح» و«الزهراء»

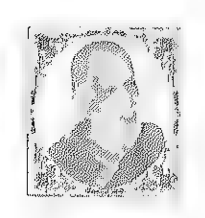


بقلم: ياسر محمد غريب
مصر

و«الرسالة» و«الثقافة» و«المسلمون» وغيرها.

وفي كل تلك الصحائف نثر الطنطاوي أجمل فنون لغة الضاد، حيث انسابت فصوله عذبة طلية فاتنة في أطوائها السحر الحلال.. وياله من نثر كان الأقرب إلى لغة الشعر، أو قل إنه الشعر وإن لم يوزن بأوزان الخليل[2].

بدأ الطنطاوي أديباً ملتزماً، حيث أنتج الهيثميات ورسائل سيف الإسلام وهو في العشرينيات من عمره بإحساس إسلامي عميق، هذا الإحساس الذي لم يتغير لحظة واحدة حتى رحل إلى رحمة الله، وإن كان



أسلوبه وقيمه التعبيرية والفنية قد تطورت – ولاشك – بشكل كبير وواضح جعله على قدم المساواة مع رواد الجيل الذهبي من كتاب «الرسالة».

الاتجاه إلى التاريخ :

ولم يكن غريباً على علي الطنطاوي أن يتجه إلى الكتابات التاريخية مبكراً، ولئن كان قد قرأ في التاريخ كل هذه الكتب المطولة، فإن أكثر ما كان يحب أن يظهره منها للناس هو سيرة عباقرة الإسلام ومواقف المجد والعظمة في تاريخه، وهو ما صنعه حين وضع مناهج الكليات الشرعية في الشام، فاستبدل بالتاريخ السياسي وأخبار الوقائع والمنازعات والفتن تراجمَ الأبطال والعظماء من المسلمين[٣].

وفي كتاباته التاريخية يصل الطنطاوي إلى أعلى درجات الوعي بمهمة الأديب المسلم في الحياة، خاصة ما يتعلق بضرورة نقل التجارب الخالدة للمتلقين حيث يطرح جانباً تلك الكتابات التاريخية المألوفة التي حصرت نفسها واختزلت تاريخ أمتها في أخبار الملوك والقصور، وعن ذلك يقول: «ولست أعني التاريخ السياسي وحده، تاريخ القصور والملوك، بل أعني التاريخ العلمي أولاً، تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم لله مجاهدين في ميادين الطروس، بأسنة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم، وغرائزهم واطرحوا رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنهم كانوا يرحلون على الإبل أربعين ليلة، من مشرق الأرض إلى مغربها، إلى بغداد أو الشام أو الحجاز، في طلب مسألة مفردة أو حديث واحد، أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل القرون الآتيات، فسارت «البشرية» في طريق الحضارة على ضوئها»[٤].

وهكذا نرى «أن الأديب الإسلامي لا يستطيع أن يخاصم العصر أو يهرب منه إلى عصور قديمة، والأدب الإسلامي حينما يتناول موضوعاً تاريخياً «قديماً» لا يهرب في الواقع من مجابهة المجتمع أو الحياة الحديثة، إنه يتناول التاريخ وعينه على الحاضر، ففي التاريخ كنوز ثمينة من التجارب الإنسانية العامة – الشاملة التي لا تموت بمرور السنين»[٥].

وإن للتوجيه نحو التاريخ دوراً عظيماً في عملية التربية الإبداعية، هذا الدور يتمثل في أن التاريخ يعكس البيئة التي خرج فيها الإسلام، وقدم النماذج المشرقة التي كان الأدب الإسلامي في فترة من فترات تطوره – منذ بدايات الدعوة إليه في القرن الماضي – يحتاج إليها لتكون لديه رصيداً وجدانياً للأديب والمتلقي على السواء للوصول بعد ذلك في مرحلة تالية إلى أدب إسلامي عميق الجذور.

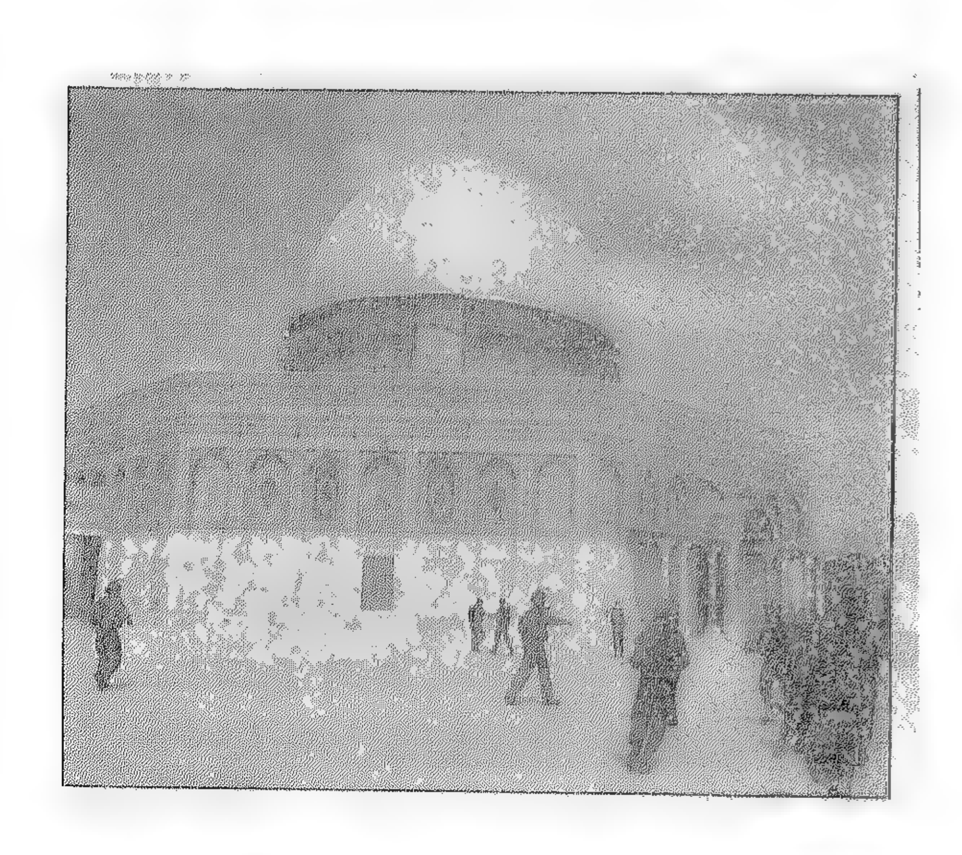
علي الطنطاوي وقضايا الأمة :

ولم يكن اتجاه الطنطاوي نحو التاريخ بالذي يجعله يستغرق في الماضي على حساب الحاضر، بل كان للسان الطنطاوي الخطيب ولقلم الطنطاوي الأديب دور كبير في استنهاض الهمم وشحذ النفوس ضد الأخطار التي أحاطت بالأمة منذ مطلع القرن العشرين، ولم يكن حبه للشام ليجعله أسيراً لتاريخه وحده، فكما تغنى وأشاد ببطولات المجاهدين، في ميسلون أشاد بالفدائيين في قناة السويس، وبشهداء الجزائر وبانتفاضة فلسطين وغيرها..

ولم يكن قلمه موجهاً فقط للمجاهدين على أرض المعارك بل كان يصرخ في الكتاب والمفكرين والأدباء لكي يوجهوا أقلامهم وأدبهم نحو قضايا أمتهم للتعبير عن آمالها وآلامها وهو يتساءل عن الأقلام التي غابت عن خوض هذه المعمعة: «أين تلك الأقلام تعرف هذا الشعب بنفسه، وتتلو عليه أمجاد أمسه، وتذكره أنه لم يخلق ليذل ويخنع، وإنما خلق ليعز ويحكم، وأن الله ما برأه من طينة العبيد، بل سوَّاه من جذم الصيد الأماجيد، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين أصلاً في الأرض، وأعلى فرعاً في السماء، وأكرم نفساً، وأشرف عنصرا، وأنقى جوهرا، وأنها إذا أفقرت الأيام الغني، وأذلت العزيز، فإن الفلك دوار والدهر دولاب..».

ويقول: يا خجلتاه غداً من كتاب التاريخ إذا جاؤوا يترجمون لأديب فيقولون : لقد رأى أعظم بطولات بدت من بشر، وشاهد أجل الأحداث التي رآها الناس، ثم لم يكتب حرفاً، لقد شغلته عنها شواغل الأيام، ومباهج الأحلام، وملذات الغرام»[٦].

لقد عاصر الطنطاوي تحولات خطيرة كان لها أكبر الأثر ليس على عالمنا العربي والإسلامي فقط، بل على العالم بأسره، لقد كان شاهد عيان على قيام دول وتشييد





امبراطوريات، كما كان شاهد عيان على انهيارها، وكذلك رأى تساقط الدول العربية والإسلامية واحدة تلو الأخرى في قبضة الاستعمار، وعاش بنفسه آلام هذه الفترة وآمالها حتى عاين تحررها واحدة تلو الأخرى.

وكان الغزاة عندما نزلت جيوشهم، لم تنزل فقط بأسلحة وعتاد، وإنما نزلت بأفكار ونظريات، فلما يئست طائفة من مقاومة سلاح العدو استسلمت لأفكاره، فظهرت في البلاد دعوات عميلة وأفكار مريضة تصدى لها الأدباء الإسلاميون والمفكرون ومن بينهم الطنطاوي، فكشف اللثام عن هذه الدعوات وأبان عوراتها وفضح زيفها، كالدعوة إلى القومية العربية التي يريد أصحابها أن يجردوا العروبة من إسلامها، والبلاد من عروبتها والعباد من لغتهم وتراثهم بل وقرآنهم.

وقف الطنطاوي لهذه الدعوات بالمرصاد فكانت مقالاته صرخات حركت وجدان الأمة في فترة كانت الشعوب أحوج ما تكون إليه .. وهذا هو دور الأديب.

ولم تغفل مؤلفات الطنطاوي القضية الفلسطينية وكان همه أن يشحذ النفوس نحو قضية العصر وقضية الأمة وهو يثير الناس، ويذكرهم بجرائم الصهاينة في فلسطين دائما، ففي كل شبر من فلسطين بقعة حمراء من أثر الدم الزكي، دم الشهداء الذين سقطوا صرعى دفاعاً عن بيوتهم وقريتهم وعن شرفهم وعن دينهم، ودم النساء والأطفال الذين ذبحهم اليهود»[٧].

لقد وقف قلم علي الطنطاوي الأديب الإسلامي موقفاً مشرفاً في الذود عن أمته العربية الإسلامية ضد الأخطار التي أحاطت بها طيلة قرن من الزمان، تلك الأخطار التي تمثلت في أزمته بين كيد الخارج وضعف الداخل، في وقت نكست فيه الرؤوس، فمضى كثير من المتأدبين يلهثون وراء أوروبا وأفكارها المنحلة.

مع آرائه النقدية :

الالتزام هو السمة الرئيسة في إنتاج علي الطنطاوي الفكري بجانبيه الإبداعي والنقدي، لذلك كان يقف الطنطاوي بالمرصاد لكل من سولت له نفسه من الأدباء خرق هذا الالتزام، مثل دعاة نظرية الفن للفن، فيرد على أحد أساتذة كلية الآداب الذي صرح في محاضراته بأنه ما ينبغي للأدب إلا أن يكون ألهية يتلهى بها العقل، فيرد الطنطاوي قائلا: «الأديب في الأمة لسانها الناطق بمحاسنها، الذائد عن حماها، وقائدها في مواطن فخرها، وذرى مجدها، فهو ذخر لها لا يعدله ذخر، وقصيدة أو مقالة تحررها أنملة أديب بليغ، مؤمن بما يقول، مخلص لما يدعو إليه، أنفع للأمة المظلومة، وأعون على نيلها حقها، من مئة كمي مدجج بالسلاح»..

«الأدب المنتج هو الذي يخدم القضية الوطنية الكبرى، ويربط ماضي الأمة بحاضرها ويعينها على النجاح في مستقبلها فإن كان هذا وإلا فسلام على أدب لا يقصد منه إلا التلهي واللذة، وسلام على أصحابه المخلصين العاملين!! واحذريهم أيتها الأمة فهم أعداؤك قبل أعدائك»[٨].

وكان هجوم الطنطاوي معروفاً على الشيخ أمين الخولي، حيث كان الثاني مشرفاً على رسالة دكتوراة موضوعها «القصص في القرآن» حاول صاحبها دراسة القصص القرآني كعمل فني يقبل النقد.

وفي شهر مارس ١٩٤٦م من مجلة الرسالة كتب الطنطاوي عن نزار قباني حين أصدر ديوانه الأول «قالت لي السمراء» قائلا: «طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعمه، ملفوف بالورق الشفاف الذي تلف به علب الشكولاته في الأعراس، معقود عليه شريط أحمر كالذي أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه في خصور بعضهن ليعرفن به، فيه كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشطار طولها واحد إذا قستها بالسنتيمترات..

«ويشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق القارح والبغي المتمرسة الوقحة وصفاً واقعياً، لا خيال فيه، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل غني، عزيز على أبويه، وهو طالب في مدرسة، وقد قرأ كتابه الطلاب في مدارسهم والطالبات».


زكي مبارك

«وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو، لأن الناس قد ملوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلم يكن بد من التجديد»[٩].

وهكذا سخر الطنطاوي قلمه الساخر لمحاربة كل ما هو مرذول في الحياة الأدبية، وكانت آراؤه النقدية في الأدب واللغة تصدر دائماً عن حس فني إسلامي، بلغ في التزامه مبلغ الريادة.

وكان من أبرز ما يميز علي الطنطاوي عشقه اللغة العربية، ودعواته الدائمة للتمسك بها، حيث كان يرى أن بقاء الأمم في بقاء لغاتها، وكانت له آراؤه في تيسير تعليم النحو وضرورة ذلك، لأن كتب النحو أتخمت بما لا يفيد من فلسفات لا طائل من ورائها، وأعلن غير مرة الحرب على من ينادون بتنحية اللغة العربية وإحلال العامية مكانها، وهو يسخر من الداعية إلى العامية بقوله: «وعندئذ يكون «شكوكو» أمير الشعراء الذين ندرس آثارهم في الجامعة، و«إسماعيل ياسين» من أمراء النثر، ويكون من تعبيرات النقد الجديدة أن نقول للكاتب المعقد الذي لا يفهم «إنه يكتب بالعربي» كما يقال في أوروبة عن الكاتب الفرنسي المحدث إذا أغرب وعقد: إنه يكتب باللاتيني»[١٠].

ولم يكن رفض الطنطاوي للعبث في اللغة، وتمسكه بالتراث يعني أنه لا يقبل التطور في أساليب الكتاب والأدباء، بل كان يرحب بذلك في إطار الالتزام بقواعد اللغة، فهو يعجبه ميخائيل نعيمة وأسلوبه الجديد، إلا أنه لا يرتضي تجاوزاته في حق اللغة وقواعدها، ويقول: «وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي فيكون نادرة الأساليب ومفخرة الأدب».

كذلك لم يكن ليشفع للتراث أنه تراث إذا خالف الالتزام الذي كان ينشده الطنطاوي، فعلى الرغم من إعجابه الشديد بقصيدة أبي فراس الحمداني أراك عصي الدمع» فإنه يرفض قوله: «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر»

فيقول: «انظروا كم بين قوله هذا وبين قول المعري:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

أبو فراس ينحط إلى أدنى دركات الأثرة والأنانية، لا يرتفع درجة فيهتم بأهل أو ولد، ولا يرتفع درجة أخرى فيهتم ببلد أو وطن، إنه لا يبالي إلا بنفسه، فإذا مات عطشاناً فلينقطع المطر وليحترق الزرع، ولتقفر الأرض، وليعم القحط، وليهلك القريب والبعيد، والصديق والعدو، ولا يبقى أحد.

والمعري يرتفع إلى أعلى درجات الإيثار فلا يرضى أن ينزل المطر عليه ولا على أرضه، لا يرتضي إلا غيثا عاماً يشمل خيره البلاد والعباد..[١١].

وأخيرا..

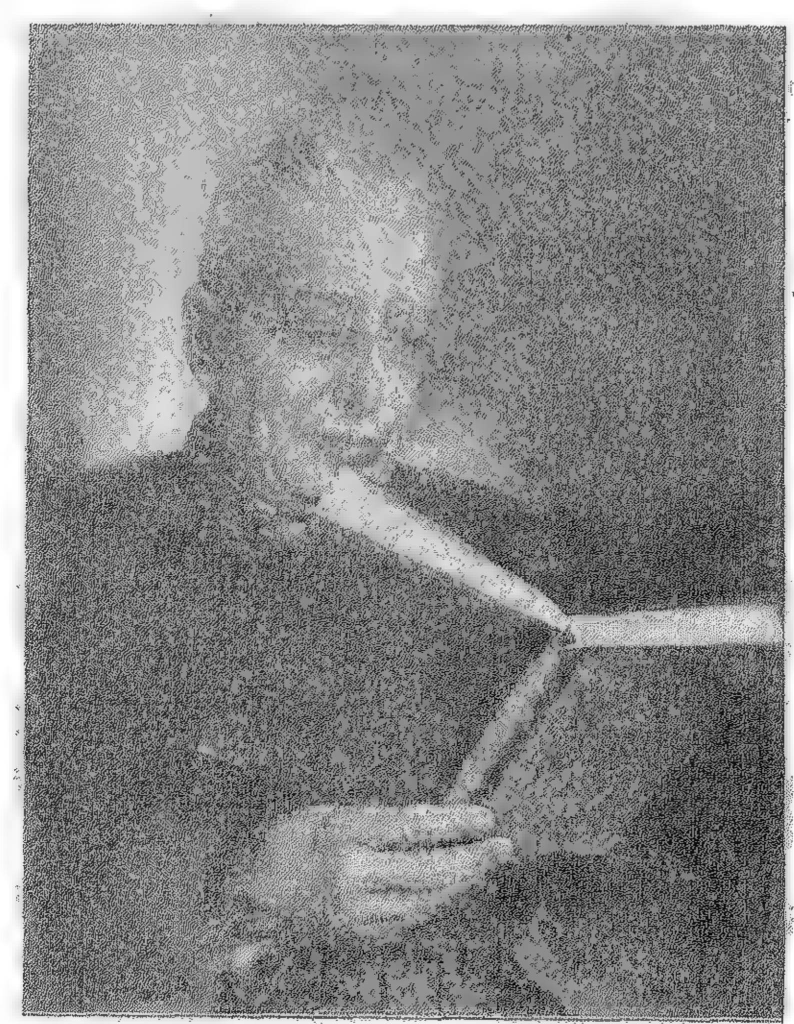
فإن هذه أمثلة من مئات، وأسطر من مقالات، وهي وإن أشارت إلى أدب هذا الشيخ فإنها لا توفيه حقه.

ومن ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن علي الطنطاوي أفضل من علي الطنطاوي؟! وهل ترك الطنطاوي عن نفسه شيئاً لم يقله؟! ومن يقدر أن يكتب عن الطنطاوي ألفين وخمسمئة صفحة كتبها هو في ذكرياته؟!

إن حديث الطنطاوي طوال سبعين سنة قضاها كتابة وخطابة لم يكن سوى حديث عن نفسه، ولقد اعتذر ذات مرة إلى قرائه لأنه دائم الحديث عن نفسه، بأن الأديب لا يملك إلا هذا النوع من الحديث.. حديث النفس.. لكنه كان يقول: «أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس، وحين أصف شعور واحد وعواطفه أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم، كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته، ولكنه يشق الصدر والصدرين، ثم يقعد القاعدة ويؤصل الأصل.. فلا يشذ عنه إنسان[١٢]..

لذا كان آثار الطنطاوي حديثاً عن قرن من الزمان عاش فيه الطنطاوي، لا حديثاً عن علي الطنطاوي الذي عاش في ذلك القرن من الزمان فكان مرآة صادقة للأدب العربي والإسلامي.

مرآة مستوية في عصر كثرت فيه المرايا المحدبة والمقعرة.. رحم الله الشيخ علي الطنطاوي. ■



المازني

الهوامش:

١- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص ١٨١.

٢- محمد وقيع الله، علي الطنطاوي فارس البيان الملتزم، مجلة الإصلاح العدد ٣٤٤ - ١٤/٥/١٩٩٦م، ص ٤٨.

٣- مجاهد مأمون ديرانية، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص ٨٣، ٨٤.

٤- علي الطنطاوي، قصص من التاريخ، ص ١٠.

٥- نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ١٠٢.

٦- علي الطنطاوي، في سبيل الإصلاح، ص ١٧، ٢١.

٧- علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص ٦٥.

٨- علي الطنطاوي، الأدب القومي، ص٥ وما بعدها «سنة ١٩٣٠م».

٩- نزار قباني، قصته مع الشعر، ص ٨٨، ٨٩.

١٠- علي الطنطاوي، في سبيل الإصلاح، ص ١٦٦.

١١- علي الطنطاوي «جمع مجاهد»، مقالات في كلمات «٢»، ص ٢٣٠.

١٢- علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص ١٧.

السخرية الأدبية شيء غير الهجاء والفكاهة، وإذا ما أحسن الأديب استغلالها ولم تكن سوداء تجتوي العالم وتمقت الأحياء، فهي أرقى منهما معاً وأعمق أثراً، ولذلك يرى عدد من الكتاب والمعنيين بالجمال أن السخرية بمفهومها الفني عبقرية لا تقل في اقتدارها على تجميل الحياة، وتثقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين، وجمال ينضاف إلى العناصر الجمالية والنفسية في النص الأدبي متى أجاد الأديب (الكاتب / الشاعر) توظيفها، وأحسن استعمالها"[١]. أما جان كوهين[٢] فيؤكد على أمرين فيما يخص الهزلي (السخرية / الفكاهة): أنه أثر جمالي بارز في العمل الأدبي. وأنه يتمتع وحده من بين جميع الفئات الجمالية بمزية ردّ فعل فسيولوجي خاص، قابل لأن يتعرف عليه.

فن السخرية وبعدها الإسلامي في أدب الشيخ علي الطنطاوي

الذكريات أنموذجاً*

بقلم: أحمد بن علي آل مريع**
السعودية

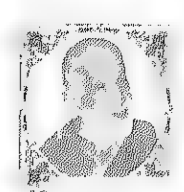
السخرية في ذكريات الطنطاوي وأسبابها:

جاءت كتابات الطنطاوي حافلة بالسخرية على اختلاف في جودتها الفنية ومساحاتها من مقال إلى مقال ومن كتاب لآخر. ولكنها كانت ظاهرة أسلوبية وفنية عامّة وواضحة، وظّفها الطنطاوي عن وعي وفهم دقيق بما للسخرية من قدرة على إيصال المعنى والموقف والصورة المثالية التي تملأ نفسه في آن، مع الاحتفاظ بعنصري الفن والابتعاد عن المباشرة والتقريرية.

وجد الطنطاوي السخرية سلاحاً مَاضياً على مافيه من ليونة الملمس ونعومة المظهر، وأنه يبلغ به مالا يبلغه الهجاء أو بتعبير عليٍّ نفسه: «لاتغرّنكم نعومة الفأس، ولاتخدعنكم خشونة الحطبة، فإن الفأس على نعومتها تقطع أشدّ الحطب على خشونته»[٣]. لذلك أفاد من السخرية في معاركه الأدبية والفكرية الكثيرة، فكان يلجأ إليها للنكاية بخصمه وتبكيته أو تصغيره إلى نفسه، وتهوين أمره بين الناس، وتحقير دعوته بين المتأثرين بها. وأحسب أننا لو وقعنا على معاركه الأدبية

* مقالة مجتزأة بتصرف عن الفصل الرابع من دراسة أعدها الكاتب عن الشيخ الطنطاوي رحمه الله بعنوان " ذكريات علي الطنطاوي.. دراسة فنية "، ونال بها درجة الماجستير عام ١٤٢٠هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

** كاتب وأكاديمي سعودي، عضو نادي أبها الأدبي.





الكاتب مع الشيخ الطنطاوي في منزله بجدة

التي نشرها في عدد من الدوريات والصحف لوجدنا الكثير الكثير من صنوف السخرية المرّة التي تهدف إلى النكاية بالخصم والنيل منه، دون سبّ أو إقذاع. ويذكر الطنطاوي أن أول زاوية كتبها بانتظام كانت في جريدة «فتى العرب» عام ١٩٣٠م، وكانت بعنوان «مذكرات خنفشاري» وهي زاوية ساخرة كما يتضح من اسمها ومن ملابسات اختيار عنوانها. وكان يُقلد فيها الأستاذ يوسف العيسى صاحب صحيفة «ألف باء» الذي يحرر زاوية دوريّة ساخرة لاذعة بعنوان «مباءة نحل» لأنها تلسع لسع النحل.

وترجع الظاهرة الساخرة في أدب الطنطاوي وفي ذكرياته موضع الدّراسة بخاصة إلى أسباب كثيرة، يمكن أن أقدّم منها ماظهر لي من خلال العناصر التالية:

(أ) – **طبيعة تكوينه النفسي وشخصيته:** فالطنطاوي يحمل بين جنبيه نفساً منطلقةً منشرحة، وروحاً حلوةً خفيفة، وشخصية حكيمة متزنة تميل إلى البساطة في كُلّ شيء وتنفر عن التعقيد والتزمت، وتستخف بأعباء الحياة، وتعلو على آلامها، في هدوء تام وصبر يتيح له فرصة كبيرة لتدبر الأمور، ووزن الأشياء وقياسها. وإذا كان الطنطاوي في صدر شبابه سريع الانفعال حادّ اللهجة؛ فإن السنين أورثته حكمة الصمت الطويل، والنظر الدقيق إلى الأشياء، واللين في التأتي لها، وعرضها على معيار العقل لا العاطفة. والطنطاوي إلى ذلك رقيق الحسّ، يحمل بين جنبيه نفساً شفافة سريعة التأثر، لاتحجب شيئاً عن الوصول إلى أعماقه من مشاهد الحياة وأحداثها، وذهناً لمّاحاً ذكيًّا يهديه إلى العلاقات وإن نأت، والصلات والروابط وإن بعدت.

(ب) – **ولاشك أن لاتصاله منذ نعومة أظفاره بأساتذة ذوي اتجاه قوي نحو السخرية، وتتلمذه على بعضهم أثراً لايصح إغفاله؛** فالنفس الإنسانية تحمل في داخلها استعدادات كثيرة وصفات متعددة، ينمو بعضها ويعمر مدى الحياة، ويموت الآخر منها؛ بحسب البيئة التي ينشق هواءها، والثقافة التي تتشرّبها تُربته. كانت البيئة التي تفتحت فيها نفس الطنطاوي على الأدب والحياة بيئة ملأى بالساخرين، تعج بالاتجاهات الساخرة في أحاديث الناس وكلامهم، وفي الأدب والصحافة وفي الفن. وبيئة مثل تلك البيئة الانتقالية يكثر فيها الصدام بين الأفكار والعناصر في المجتمع، وتضطرب فيها السياسات، وتتبدل فيها النظم والقيادات، يصبح من الطبيعي بل من الضروري ظهور هذه الاتجاهات الساخرة ليتنفس من خلالها الناس نسائم الحرية، ويعبروا عمّا في

دواخلهم من السخط والرضا، وينفسوا عن عواطفهم المكبوتة التي يضرّ بهم كتمانها.

وقد شاء الله له أن يبدأ أولى خطواته في ميدان الكتابة الإنشائية تحت ناظري أديب وأستاذ قدير أحبّه الطنطاوي حُبّاً شديداً؛ واتصل حبله به بعد أن تجاوز مرحلة الطلب النظامية وهو الأستاذ حسني كنعان - رحمه الله - حيث كان أول من علم الطنطاوي وزملاءه من التلاميذ الإنشاء العربي عام ١٩١٨م (نحو عام ١٣٣٧هـ) وكان أديباً وموسيقيا، وصاحب نكتة، يقول عنه الطنطاوي: «كان كاتباً ساخراً يسخر حتى من نفسه ويروي النكتة ولو كانت عليه»[٤]. وكان أستاذه في مكتب عنبر الشيخ عبدالقادر المبارك آية في الظرف، وكان صاحب نوادر وغرائب كثيرة، وقد تأثر به أديبنا أيّما تأثر؛ فقلد صوته وحاكى لهجته، حتى صارت لهجته في التدريس وهو لايدري.وكان الأستاذ عبدالوهاب أبو السعود مُدرِّساً للطنطاوي في مكتب عنبر. وهو رسّامٌ هزلي ساخر، وكان الطنطاوي يقبس منه فنون الرسم، ويعجب به ويحرص على متابعة تصاويره «الكاريكاتورية» الممتعة التي ينشرها في مجلة هزلية ساخرة تصدر في دمشق اسمها «المضحك المبكي» لصحفي اسمه حبيب كحالة، «ينشر في كُلّ عدد منها صورة كاريكاتورية في الموضوع الذي يشغل الناس، تبقى الأسبوع كله حديث البلدة، وبطلها تاجر وجيه اسمه أبو درويش سويد، عبقري في ابتكار النكتة، ما رأيت له مماثلاً ولافي مصر بلد النكتة - كما يقولون[٥] . كما ذكر الطنطاوي: أنه كان يحب المازني كثيراً، ويطرب لأسلوبه الهازل، وأنه قد تأثر به حيناً وحاول تقليده[٦].



عبد القادر المبارك

(جـ) - وفي «مكتب عنبر» اتصل الطنطاوي بأدب جديد بلغته الأساسية، فقد درس الأدب الفرنسي دراسة متأنية، وقرأ كثيراً من روائعه، واطلع على أدب كثير من أعلامه، مثل أدب «كورناي» و «راسين» و «موليير» و «لافونتين» وباقي الأدباء المنهجيين أو (الكلاسيك)، واطلع على أدب «روسو» و «شاتوبريان» و «لامارتين» التأتي و «دوموسه» و«هوغو»، وعلى أعلام الأدباء الرّومانسيين والواقعيين، وكانوا آنذاك يُلزمون بما كان يُلزم به الطالب الفرنسي في باريس[٧] . والأمة الفرنسية أمة ضاحكة، بل إنها من أحفل أمم الغرب بالفكاهة، وهي أيضاً أمة الاستهزاء - كما قال كارليل - عند تعرضه لأدب «فولتير» وسخرياته[٨] .

(د) - على أنه يجب ألاّ يغيب عن ذهن القارئ الكريم أن الطنطاوي سليل مدرسة بيانية عريقة في السخرية، هي مدرسة الجاحظ وتلميذه أبي حيانٍ التوحيدي. وليس بمستغرب ولامنكور أن يقبس منهما هذه النزعة كما قبس عنهما الاستطراد وتوليد المعاني وبسطها.

(هـ) - ولعل لاتصال أديبنا بواقعه وأمته، وشعوره المتنامي بالواجب، وميله إلى المثال، ومعرفته بالحدود والواجبات، وبالرّسوم والضرورات، التي يحز في نفسه أن تُتجاوز أو يُهمل في أدائها، وميله بطبعه إلى الإنصاف، ورغبته في وضع كل شيء عظم أو قل شأنه في موضعه؛ فلا تهنأ نفسه ولايسكن خاطره حتى يكون له مايريد؛ لعل هذا قد فرض عليه منذ فترة مبكرة جداً ابتعاث دور المصلح الديني والمرشد الاجتماعي في ذاته وأدبه وفكره، المصلح الذي ينبه إلى الأخطاء، ويحذر من عواقبها، ويرشد إلى المعالي ويشحذ الهمم لها، ويسعى لأن تتبوّأ الأمة مكانتها بين الحضارات، ولكن هذه الهمة العالية، والأمل الكبير يصطدم بواقع مرير يعج بالمتناقضات والتجاوزات والدّعوات الهدّامة، وتنتشر فيه صور وأحداث لاتمت للمثال الذي يعيش بين جنبيه وفي دنيا أحلامه بصلة، فيتألم لذلك أشدّ الألم، وتتبرّم نفسه بواقعه أعظم مايكون التبرّم، وتترك أمته المنكوبة بوجدانه ندوباً وآثاراً بالغة، يعبر عنها بأسى شديد، ويدعو إلى التخلص منها: تارةً ينفعل فيغلظ القول ويحتد فيه كثيراً، وتجري على لسانه وقلمه تقريرات ووعظيات وألفاظ صريحة مكشوفة، وتارة يميل إلى عقله عارضاً الأمر عليه، متأملاً هذه

الأحداث والصور في دقة وأناة شديدتين فيظل يضحك... يضحك مستهجناً و«شرّ البلية مايُضحك» ويضحك متهكماً بهذه المفارقات العجيبة بين واقعه ومُثله وآماله، وتتدفق السخرية على أسَلة لسانه وشق قلمه حية بالصدق، نابضة بالألم، لينة بالشفقة والرحمة، ناقدة وموجهة ومصلحة، ليحمل هؤلاء وهؤلاء على مراجعة سلوكهم وتغييره، وتهذيب واقعهم وتطهيره.

سخريته مبعثها الواقع وهدفها المثال:

فالسخرية في الذكريات إذن مبعثها مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التي ينبغي أن يكون عليها الواقع، فالصراع بين الواقع والمثالي لايؤدي إلى مخرج مأساوي فحسب، بل إن هذا الصراع يمكن أن يتم حلّه فيما لو خضع المثالي للواقع، أو بعبارة أدق: فيما لو انتصر الواقع على الفكرة المثالية التي يتبنّاها الإنسان في كفاحه اليومي بطريقة غير مباشرة، ولو انهار في هذا الصراع الواقع، أو عندما نتأمل الظواهر في الحياة الإنسانية، لاسيما عندما نحسّ بتصويرها الفني، أو عندما نشعر بقبحها ووضاعتها وفنائها وسطحيتها أو تناقضاتها؛ فرغم ذلك نظل نضحك لهذه التناقضات، ومن خلال ضحكنا وسخريتنا اللاذعة عليها نؤدي إلى تحطيمها؛ فإن هذه الظاهرة تصبح ساخرة[٩]... ولكن لايفهم من الحديث عن صور الكمال أو المثال أن تكون واضحة في ذهن الساخر تمام الوضوح كما هي عليه في ذهن المصلح أو المفكر والفيلسوف. وإذا تحقق ذلك للساخر فما أحسب السخرية مهما أوتيت من قدرة الفن والبيان بقادرة على أن تجلو للقارئ أو السامع هذه الصورة بتمامها ووضوحها. ولكن يكفي في السخرية الفاعلة أن تنبه إليها النفوس، وتوقظ الإحساس العام بصورة المثال.

وقد استطاعت سخرية الطنطاوي المنبثّة في ذكرياته أن تثمر فينا هذا الإحساس، كما استطاعت تقريراته الكثيرة، وتعليقاته المتدافعة، ووعظياته المباشرة تقديم إحساسه العام بصورة الكمال واضحة ومكشوفة. والسخرية في الذكريات متشعبة الاتجاهات متعددة المحاور لاتكاد تغفل جانباً من جوانب العجز أو الخطأ والانحراف، أو مظهراً من مظاهر التصلّب والجمود، مما يجعل الإحاطة بها والتعليق عليها في هذا العدد متعذرة.وكنت قد ملت في رسالة الماجستير إلى قصر موضوعات السخرية في أدب الطنطاوي عموما (وفي كتابه الذكريات موضع اهتمام الرسالة) على موضوعين عامين أو اتجاهين كبيرين، تندرج ضمنهما جميع ممارساته الساخرة، وهما:

أ - النقص أو العيب ومخالفة العرف.

ب - الجمود أو التصلب.

وأستغني بالإشارة السريعة هنا إلى بعض المحاور التي دارت السخرية الطنطاوية حولها، تاركاً التفصيل لمن أراد مراجعة (الفصلين الرابع والخامس) من رسالتي للماجستيرعن ذكريات الشيخ الطنطاوي رحمه الله، هذه المحاور هي:

- العادات والتقاليد الاجتماعية الخاطئة.
- الطباع والسلوك.
- السخرية ممن يحارب الفضيلة ويدعو إلى الرذيلة.
- السخرية من التنظيمات والقوانين.
- الأدب والأدباء.
- الحكم والسياسة.
- الإعلام.
- سخرية الطنطاوي من نفسه.
- السخرية بمظاهر التصلب والجمود.
- عادات وصفات الشعوب.
- اللغات.
- الحضارة الغربية المادية ومن يستوفدها.
- الفلسفة والفلاسفة.
- العقائد والمذاهب الفاسدة.
- العاهة الخلقية والعيب الجسدي.
- المؤسسات ذات التوجّه التبشيري.

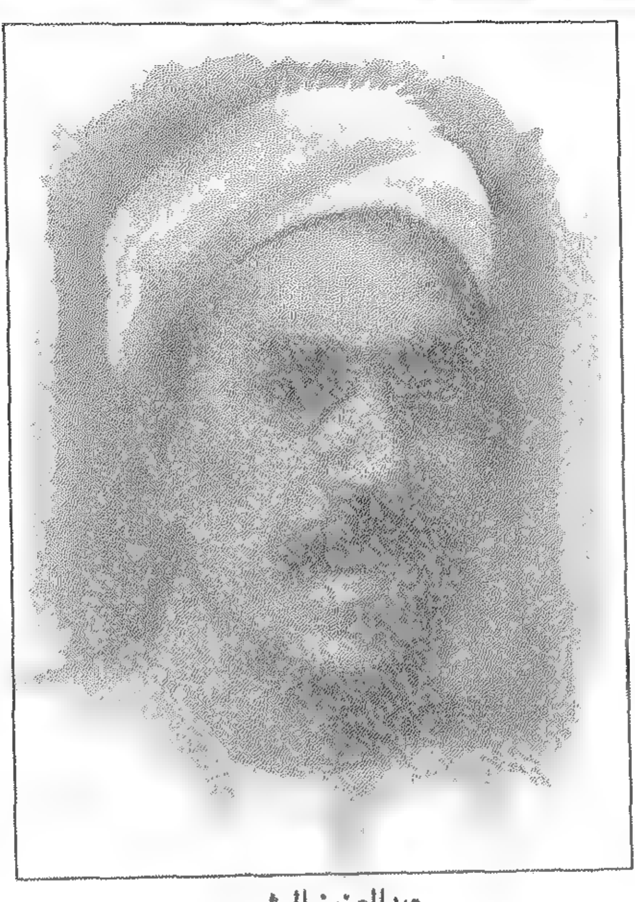
إن عالم السخرية فسيح الرحاب، يشمل الكون من جميع أقطاره، ويتسع باتساع مرائي الإنسان وتنوّع تجاربه، ويثرى بثراء إحساسه بالواجب، وقدرته على استحضار صور الكمال. وكُلّ هذا قد توافر لأديبنا فكانت هذه المحاور المتعددة التي دارت حولها سخريته والذي ظهر لي - من واقع الاستقراء الشخصي - أن هذه المحاور هي أبرز المحاور - أيضاً - التي دارت حولها سخريات الطنطاوي في نتاجه الأدبي بشكل عام، وتبقى الدراسة المتخصصة وحدها الكفيلة بسبر أغوارها.

من أساليب السخرية ووسائطها الفنية:

أمّا الأساليب التي استخدمها الطنطاوي في تشكيل سخريته وبعثها في الأسلوب؛ فهي أساليب كثيرة: بعضها يمكن تنظيره وكتابته، وبعضها يدرك من الحال فقط دون أن يحيط به القلم، أو يبلغ وصفه اللسان. ومن أشهر هذه الأساليب، أو الوسائط أو الأدوات - إذا شئت-:

١- التصوير الهزلي (الكاريكاتوري):

اعتمد الطنطاوي على أسلوب «التصوير الهزلي» أو «الرسم الكاريكاتوري» بالكلمة في بعض سخرياته في «الذكريات»، وهو أسلوب ليس بغريب عليه حيث نجده في بعض كتبه السابقة يعمد إلى انتشال السخرية من الواقع الماثل أمامه، ويظل يراجع هذا المشهد في ذهنه، مضيفاً على السخرية بعض الصفات، أو مضخِّماً بعضها كأنما يُرِيْد أن ينمي الضعف والعيب الذي يكمن فيه إلى أقصاه.وهذا اللون يقترب جداً من رسم الكاريكاتير (رسم يغالي في إبراز العيوب؛ من أجل السخرية) إلا أن أدواته: الكلمات، ورواءه وجماله في معانيه وبيانه وبديعه، والرسم أدواته القلم والفرشاة وجماله في الألوان والظلال. ومن النماذج التي تقترب إلى حد كبير من أسلوب الأديب (عبدالعزيز البشري) وصوره الهزلية قوله: «رأيت يوماً في طريقي إلى المحكمة امرأةً كأنها جبل من الشحم واللحم. تميس لاكغصن البان بل كجذع السنديان. على ساق أضخم من خصر إنسان، ومعها خادمة رقيقة العظم، نحيلة الجسم، بادية السقم. وما أظن أن عمرها يزيد على سبع سنين. وتحمل للمرأة ولداً عمره ثلاث. ولكنّه صورة مصغرةٌ لها، يشبهها كما يشبه الفيل الصغير الفيل الكبير. منفوخ نفخ الكرة، لايعرف طوله من عرضه إلا بالحساب والجبر والمثلثات، ولايحيط به ذراعها النحيل، ولاينهض به جسدها الهزيل. وهي تخطو به تَجرّ قدمها جراً من الإعياء، وتلهث من التعب. والمرأة تخطو متعالية؛ ففكرت أن أكلمها، وفتّشت في ذهني عن الكلمات التي تصلح لها، ولكني رأيت رجلاً مكتهلاً قد سبقني إليها، وقال لها: ياست حرام هذي البنت، خذي الولد منها. فوقفت الست ووضعت يديها في خاصرتها، ورفعت أنفها ثلاثة أصابع، ومدّت شفتيها إصبعين. وقلبت وجهها حتى صار كوجه من أكل ليمونة بقشرها، وصبت عليه من فمها سيلاً من أوساخ اللغة وفضلات الكلام. وهرب كل من في الطريق من قذارته وسوء رائحته. وهربتُ مع الناس[١٠].



عبدالعزيز البشري

وقد يحاول الطنطاوي في بعض صوره الهزلية أن ينقل لنا الصوت والصورة معاً. وهذا ليس باليسير على الأديب الناشئ، ولكنه يصبح أمراً ممكناً وميسوراً عند أديب مثل الطنطاوي. ومن الشواهد على ذلك النموذج التالي: «ثم جاءنا مدرس لبناني نصراني، قصير القامة، غريب الشكل، له شاربان دقيقان مفتولان. يأتيان من تحت منخريه، ويمتدان إلى الأمام. كأنهما رجلا عنكبوت، يخرج صوته من أنفه ويمر على شاربيه بالكلمة الفرنسية يلحق بها ترجمتها العربية، بصوت ثاقب، كأنه صوت دجاجة جاءت تبيض فعلقت البيضة بـ... أعني بمخرجها منها. ولم يطل بحمد الله مقامه بيننا وصرف الله غلاظته عنّا[١١] .

ومما يدخل ضمن التصوير الهزلي / الكاريكاتوري مايمكن أن أسميه: «الصورة الكرتونية» نسبة إلى أفلام الكرتون التي تتَّسم الحركة فيها بالثراء وبالتنوع الشديد، وغير المعقول؛ ولذلك لايمكن تخيل شخوصها – ولو كانوا معروفين – إلا أفراداً من جنس «بني الكرتون»، والفارق الدقيق بين الصورة الكاريكاتورية وبين ما أسماه الباحث بالصورة الكرتونية هو: أن الصورة الكاريكاتورية تعتمد وتركز على تضخيم العيوب، ويكمن الفن فيها في طريقة إبرازها وقبل ذلك التقاطها، أمّا في الصورة الكرتونية فإن مكمن الفن فيها يعود إلى الحركة الشديدة والتخيل غير المنضبط، والجمع بين كل ذلك جمعاً طريفاً لذيذاً يثير السخرية في إطار من العلاقات غير المعقولة، يقول الطنطاوي واصفاً معاناته مع لباس الجندية، وقد أُمرَّ المدرسون بارتداء زي الضُّبَّاط على عهد سامي شوكة في العراق، يقول: «.. كان الزيّ المألوف يومئذ للضباط أن يعقد على وسطه نطاقاً عريضاً من الجلد، وأن يُربط بجلدة أدق منه تصعد من فوق الكتف، لتنزل من الظهر، فترتبط من الجهتين بهذا النطاق، وأن نلبس حذاءً طويلاً يصل إلى الركبة. وقد صنعتُ ذلك فأحسست لما لبست هذا الثوب كأنني الصنم الذي ورد ذكره في كتاب «كليلة ودمنة»، لا أستطيع فيه أن أهزّ رأسي لئلا تسقط السيدارة عنه، والسيدارة – كما تعرفون – لاتستر من الرأس إلا رُبعه، ولا تكاد تستقر فوقه، أو أنني أنا الذي لم أعرف كيف ألبسها... وأشد منها الحذاء... لقد كان لبسها عملاً شاقًّا، ولكنْ نَزْعَها مصيبة !! فلم أكن أستطيع – رغم أنهم علموني – أن أُخرج رجليَّ منها حتى يأتي من يمسك بكتفي، ويأتي آخر

كل فردة منهما، ثم يندفعان إلى الوراء فتخرج من رجليَّ، وينقلب كلٌّ منهما على ظهره[12] !!!

٢- الحكي العادي (الصورة الأدبية / اللوحة)[13]:

قدّمت /الذّكريات عبر الصورة الأدبية / القص البسيط / الحكاية العادية مواقف ومشاهد حافلةً بالشذوذ أو الخطأ. سواء كان ذلك في إطار السلوك المفرد أو العادات الجماعية لمجتمع ما. وتقوم هذه الصورة بالتركيز على جانب الخلل وتضخيمه والمبالغة في تقديمه بحيث تجعله يهز وجدان القارئ هزًّا ولكن دون إثارة غضبه أو انفعاله، فهي تخاطب عقله قبل كل شيء، وتحمله هذه الصور في نهاية المطاف على استهجان هذا السلوك أو تلك العادة عن طريق تنبيهه إلى هذا العيب إن كان فيه، وتدفعه إلى التخلص منه والحذر في التعامل مع المرضى به، يقول: «كنت يوماً أقطع الشارع، أتلفت ذات اليمين، وذات الشمال، أرقب السيارات وهن يسرعن، مختلفات الأشكال والمظهر، ولكنهن متحدات الحقيقة والأثر. كلها تمثل الموت تحت العجلات فما كدت أتوسط الشارع حتى سمعتُ نداءً ملهوفٍ يهتف باسمي؛ فاستدرت لأنظر فكادت دراجة ناريّة تصيبني، وولت عني، وأصوات محركها بالضجيج، وسائقها بالشتم لاتزال في أذني. ووصلت إلى الرصيف، وإذا بالرجل يلحق بي ويناديني. فوقفت، فأقبل علي وهو مفتوح الفم من الضحك والسرور، وقال: الأستاذ الطنطاوي ؟ قلت متجهِّماً: نعم، قال: أهلاً وسهلاً، في غاية الشوق. لقد مضى زمن طويل. قلت: على ماذا ؟ قال: على لقائنا. قلت: ومتى التقينا ؟ قال: نسيتني ؟ قلتُ: من حضرتك ؟ قال: احزر. قلتُ: يا أخي أنا لا أعرفك، لم أعرفك أبداً. فازداد ضحكاً، وقال: إنك تمزح بلاشك، قلت: قل ماتريد وخلصنا؛ فذكر اسمه، قلت: ماسمعت بهذا الاسم قبل الآن. قال: الخلاصة متى أستطيع التشرف بزيارتك ؟ قلت: وماذا تريد مني ؟ قال: لاشيء، لاشيء.. التشرف بك فقط، قلت: أنا مشغول، ويعرف أصحابي كلهم أني لا أزور أحداً ولا أستقبل زائراً إلا نادراً. قال: وهذا من النّادر. قلت: يارجل هل تريد مني شيئاً ؟ قال: التشرف بك فقط. أنا أحب أهل الفضل والعلم. قلت: أنا لست منهم، قال: كيف وأنت سيدنا ومولانا؟ قلت: أستغفر اللَّه. قال: متى أزورك ؟ قلت: تعال إلى المحكمة في الساعة الواحدة؛ فإن الباب يفتح للمراجعين. قال: أظن البيت أحسن. قلت حازماً: غداً في المحكمة، وتركته ومشيت. وجاءني في اليوم الثاني وبدأ يتكلم في الصحة وفي الجو، وفي أحوال الدنيا، ثم ألقى محاضرة في الثناء علي ومدحي وأني شيء عظيم، وأثنى على كتبي، فسألته: أي كتاب قرأ منها ؟ فقال: إنه قرأها كلها، ولكنّه أعجب بحديث الأربعاء. قلت: ولكن حديث الأربعاء لطه حسين ؟ فلم يخجل ولم يضطرب، وقال: عفواً. قصدت أن أقول كتاب فجر الإسلام. ولم أقل له إن فجر الإسلام كتاب لأحمد أمين لئلا يقول: إنه كان يقصد كتاب ألف ليلة وليلة... وعرض حاجته فإذا هو صاحب دعوى في المحكمة يريد أن يوصيني بها[14]

وهذه لوحة ثانية يلتقط عناصرها من الشارع والحياة اليوميَّة، ثم يعرضها بواقعيّة تامَّة وقد وشَّحها بروح السخرية اللاذعة: «كُنّا ذاهبين إلى كشف فاعترضنا سائق «كميون» والكميون في لغة أهل الشام عربة طويلة لها ستة دواليب تحمل عليها وتجرها ثلاثة من البغال القويّة، ويسوقها غالباً ناس لهم ألسنة طويلة، لايتحاشون فاحش القول، فسدّ الطريق على سيارتنا، فقلت للسائق: «زَمِّر له» فالتفت إلينا، وبدأ معزوفة «مونولوج» له أول ماله آخر، ضَمَّنَهُ من أنواع الشتائم كل مبتكر وكل بذيء، والسائق ساكت حتى إذا بلغ الماء حافة الكأس ولم يعد للصبر مكان نزل إليه فأمره بأن يسكت، فعاد يسب ويشتم، فلكمه تحت فكه لكمة ألقته كومة واحدة على الأرض، فقام متخاذلاً متذللاً وساق أصحابه الثلاثة البغال ومشى من طريقنا»[15] .

لاشك أنه لايريد بذلك التهوين من شأن أحد أو النيل من كرامة شريحة من شرائح المجتمع، ولكنّه - دون ريب - أراد تصوير عيب من عيوب المجتمع، وتقويم اعوجاجه وكانت وسيلته في ذلك السخرية المنتمية إلى المجتمع وقيمه وأعرافه.

٣- الأسلوب الحكيم / المغالطة:

يوظف أحياناً الحوار على طريقة الأسلوب الحكيم أو القول الموجب كما يسميه البلاغيون، حيث يُظهر من خلاله السخرية بمن يحاوره، ويكشف بلادته أو عيّه وغباءه، ويدعو الإمام عبدالقاهر هذا الضرب بـ (المغالطة). وهو من اللعب بالمعاني لأنك تلقى المخاطب بغير ما يترقّب، وتلقى السائل بغير مايتطلّب... وهذا الأسلوب يستعمل للتّظرُّف والتخلص من إحراج السائل. ومثال ذلك في الذكريات: «... قرعتُ الجرس أستدعي ممرضة الليل، وكانت غليظة سمجةً بشعة، تزيد ببشاعتها مرض المريض، وكانت فوق ذلك غبيَّة نادرة في الغباء، فأعطتني ما أمر به الطبيب من المسكنات فما أفاد، فجاءت بشيء في يدها، وقالت خذ هذا فقبّله باحترام، وضعه على موطن الألم. قلتُ: ماهذا ؟ قالت: إنّه الصليب... فتغابيت وتجاهلت وقلت: من هذا ؟ قالت هو يسوع ابن الرب. قلتُ: ابن ربٍّ يُصلب ؟! ومن صلبه ؟ قالت: اليهود، ألم تسمع بذلك ؟ قلتُ: لا، مع أنّني أقرأ الجرائد كُل يوم، فما نشر خبره فيها. قالت: إن هذا شيء قديم، حتى إن جدّة أبي



سمعته من الكبار ولم تعرف متى كان. قلت: وكيف صلبوه ؟ وهل تعرفين المعري ؟ قالت: ما أعرفه، ولكن أعرف بيته. قلت: بيت من ؟ قالت بيت الأمعري لأنّه كان على طريقي. قلت: ويحك المعري، لا، الأمعري، المعريّ الذي يقول:

ليت شعري وليتني كنت أدري

ساعة الصلب أين كان أبوه

قالت: كان مسافراً في الهند ومات على الطريق. قلت: ومن الذي كان في الهند ؟ قالت: أبوه. قلت: أبو من ؟ قالت: أبو الأمعري؛ فقلت لها: اذهبي من وجهي، ولاتعودي إليّ، لقد زدتني بغبائك مرضاً على مرض. قالت: أنا غبيّة !! أنا كنتُ أذكى تلميذة في المدرسة. قلت: أيّ مدرسة هذه التي كنت أنت أذكى تلميذاتها ؟ قالت: مدرسة الراهبات»[16] . وواضح أن منشأ الضحك هنا هو التناقض بين السؤال والجواب، أو بين الجواب الذي يتوقعه السائل، والجواب الذي ينطق به المجيب، ولكنه ليس ضحك تفكّه ومزاح، وإن كان ظاهره ذلك، وإنما هي سخرية عميقة تشتمل على غمز ولمز للرّاهبات، وأن واحدةً منهن لم تكن لتقدم على الترّهب لو كانت على مسحة يسيرة من الجمال الحسي والمعنوي.

٤- الأمثال والأقوال المشهورة:

يستعمل أديبنا الأمثال والأقوال السائرة، وسيلة من وسائل إذكاء نار السخرية في أسلوبه، أو يجعلها أداة من أدوات بعثها. يقول مفاضلاً بين الاستعمار الإنجليزي والاستعمار الفرنسي: «وهما بَعْد ذلك كحماري العبادي.... قيل له: أي حماريك أسوأ من صاحبه ؟ قال: هذا وهذا !! أو كما يقول المثل اللبناني العامي: كما حَنّا كما حْنيْن الله يِلْعن الإثنين[17].

كما أفاد في سخريته من شراهة الإنجليز من بعض الأقوال السائرة على ألسنة الناس في إذكاء نار السخرية مثل: «ولم أفهم معنى قولهم: إن المؤمن يأكل بمعيٍ واحد، والكافر يأكل بسبعة أمعاء» إلا حين عاشرت الإنجليز ورأيتُ أكلهم[18]... وهو حديثٌ نبويٌّ، ولكني جعلته حيث ذهب ظن المؤلف.

٥- مواجهة القارئ بعكس ما يتوقع:

بأن يذكر في صدر كلامه مايدل على معنى أو يستلزمه؛ فيتهيأ له السامع أو القارئ ويستعد لقبوله، ثم يأتي في عجز الكلام بما يقلب المعنى قلباً. مثال ذلك:«إن الأستاذ ظافراً القاسمي... ترك مطابع الشّام... واختار (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت. فأخرج الكتاب إخراجاً بلغ في فن الطباعة الغاية، ولكن من تحت... حتى إني لم أر (وقد رأيت آلافاً من الكتب) غلاف كتابٍ هو أقبح شكلاً، وأبعد عن الذّوق، من غلاف (مكتب عنبر) الذي أخرجته (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت[19] !!.

أهداف السخرية لدى الكاتب :

وسخريات الطنطاوي تؤدي أهدافاً أربعة سامية:

أولها: التهذيب والتقويم:

حين يستخدم السخرية لتسفيه الآراء الباطلة، ومناهضة التقاليد البالية وإبراز نقائص الواقع وتضخيمها والهزء بها، وكشف فساد الأنظمة والقوانين والتشريعات كُلّ ذلك يجعل الأفراد والمؤسسات تتحامى الوقوع في مثل تلك الهنات الوضيعة التي تشوّه الواقع، وتفتح الباب لماهو أدهى وأمرّ. وهكذا يتهذب السلوك، ويستقيم للمُصلح واقع أمته، ويقترب به من صورة الكمال التي تؤرقه.

و من العيوب وأنواع السلوك ما لا ينهض بمقاومته إلا السخرية؛ فلا القوانين الوضعية، ولا العرف الاجتماعي، ولا الوازع الديني عند صاحب السلوك بقادر – لضعفه في نفسه – على ردعه أو استئصاله. فالسارق أو المرتشي قد يردعهما وعظ وإرشاد وتذكير، أو عقاب محكمة، أو خوف فضيحة، أو سجن... وماذا يفعل المجتمع مع الأحمق البليد، أو الجامد المتصلب أو الثرثار المهذار ؟! هذه عيوب لاتبلغ حد الجريمة، ولايعاقب عليها القانون، وليست من التعديات المادية والمباشرة التي تلحق الضرر بالناس، فيحاول المتضرر الانتقام لنفسه. وليس من المعقول أن يستعدي المجتمع القانون ضد بليد لايحس، أو أحمق لايفهم أو متصلب جامد الذهن، أو ثرثار لايصمت !! وليس من الجائز أن ينحو المجتمع معهم منهج القوّة والعنف، ولا أن يُترك الناس كُلّ يكيل لهم الصاع صاعين فينافسهم في الحمق والتصلب والثرثرة...

لمناهضة هذه العيوب وأمثالها ليس هناك أنجع من السخرية لتحقيق التقويم والتهذيب الذي لاتطيقه وسائل التهذيب والنقد والتقويم الأخرى، أو لايدخل تحت اختصاصها وهناك نلتقي مع برجسون في تفسيره الاجتماعي «للضحك» الساخر[20]. وأستطيع أن أمثل لهذا الهدف من نتاج الطنطاوي بالسخرية التالية:

«لما دخلنا الفندق – أي في صوفر: عمامتان عاليتان على رأس البهجتين، بهجة العراق وبهجة الشام (أي: الأثري والبيطار) وعقال نجدي على هامة سيد من سادة نجد هو الشيخ ياسين الروّاف، ونحن اثنان مطربشان... الأستاذ عزالدين التنوخي وأنا. لمّا دخلنا تعلقت بنا الأنظار، ودارت حولنا الأبصار، وخف بنا شباب يسلمون علينا فقلنا: وعليكم





من اليمين: الأثري ، الطنطاوي ، البيطار ، التنوخي ، الرواف

السلام يا إخواننا.. فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون، فقلتُ لأحدهم: قل لي لماذا تضحك ؟ هل تجد في هيئتي مايضحك ؟ فازداد الخبيث ضحكاً، فهممت به، فوثب الحاضرون فقالوا: يا للعجب، أتضرب فتاة ؟ وإذا الذين حسبناهم شُباناً فتيات بسراويل (بنطلونات) وحلل (بذلات) فسرنا ونحن مستحيون، نحاول أن لا نعيدها كرّة أخرى. ولّما خرجت في الليل لمحتُ في طريقي واحدة من هؤلاء النسوة، فحيتنا، فقلتُ لها: مساء الخير مدموزيل، قالت: مدموزيل إيه يا وقح ؟! فقلت في نفسي: لعلها متزوجة، وقد ساءها أني دعيتها بالمدموزيل (الآنسة)؛ فأسرعت وتداركت الخطأ وقلت: بردون مدام. قالت: مدام في عينك يا قليل الأدب، بأي حق تمزح معي ؟ أنا فلان المحامي، فقلتُ: عفواً بردون. وولّيت هارباً وذهبت إلى صاحب الفندق فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة، فدهش مني، ووجم لحظة، ثم قدّر أني أمزح فانطلق ضاحكاً. قلتُ: إنني لا أمزح، ولكني أقول الجدّ، وقصصت عليه القصة. قال: وماذا نعمل ؟! قلت: لوحةً صغيرة مثلاً من النحاس أو من الفضة توضع على الصدر يكتب عليها «رجل» أو «امرأة»، تعلق تحت الثدي الأيسر، في مكان القلب، أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلاً أو دجاجة، أو شاة أو خروف، أو أي شيء آخر من علامات التأنيث ؟!! وراقه اقتراحي وقبله على أنّه نكتة، ولم يفكر بالعمل به لأنّه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق مادام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين[٢١] . فالطنطاوي بسخريته هذه إنما قصد إلى الإصلاح والتهذيب، وذلك حين اتجهت سخريته إلى مظهرين من مظاهر النقص والقصور والانحراف، لا يعاقب عليهما القانون لاسيما حين يكون وضعيًا، ولكنهما يعدان خروجاً على أعراف المجتمع وسلوكيات أفراده بل خروجاً على قانون الخالق الذي ميز بين الجنسين: الذكر والأنثى، فكانت السخرية بمثابة الاحتجاج والإنكار والعقاب الاجتماعي لتقويم الخلل، وإصلاح المروق والزلل.

وثانيها: التطهير من الآلام النفسية أو تخفيفها:

تسهم السخرية في تطهير نفسه من الضغينة والآلام، وتعينه على تبديد انفعالاته المكبوتة، فيعود بعد السخرية متفائلاً منشرح الصدر، هانئ البال مرتاح الضمير؛ لأنّه أدّى حق نفسه بالتنفيس عنها، وحقّ أمته بإرشادها إلى الأصلح والأمثل، وحق الكلمة بالإعراب عن موقعه من الأحداث وموقفه من المشاهد والناس. يقول أناتول فرانس: «لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها التهكم والشفقة؛ فالتهكم بابتسامته يحبب إلينا الحياة، والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة، إنّه لايستهزئ بالحب والجمال، فهو رقيق وفيه عطف... وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من

الأشرار والحمقى؛ ولولاه لأفضى بنا الضّعف إلى كراهتهم...». يقول الطنطاوي في رسالة نشرها قبل إحدى وسبعين سنة:«ولقد تعلمتُ كيف أتلقى غضب الغاضبين، وإعراض المعرضين؛ بابتسامة السخرية والاستخفاف أو بقلة الاكتراث مادمتُ أقول الحق، أو ما أعتقد أنّه الحق، وأجدُ له من أولي البصائر أنصاراً»[٢٢].

وثالثها: المحافظة على كيان الجماعة وخصائصها:

تهدف السخرية فيما تهدف إلى المحافظة على كيان الجماعة، وحماية عاداتها الحميدة وتقاليدها الحسنة، وحفظ لغتها وعقيدتها، ومعاقبة الخارج على قوانينها، وتهيئة جوّ من الألفة والتفاهم يسود أفرادها، كما تسعى إلى تنمية إحساس أبنائها بهذا الكيان، وتعمل على اعتزازهم، وغرس الانتماء في ذواتهم إلى حضارتهم المجيدة دون مباشرة. كالسخرية بالحضارة الغربية، وتسميتها بـ «حضارة الموت والدّمار والإيدز»[٢٣] . وتلقيب من يستوفدها دون وعي بـ «أكلة الصراصير»[٢٤] . في سخرية لاذعة عميقة؛ مما يقوي الانتماء إلى الأمة الواحدة، ويدعو إلى الانضواء تحت لواء الحضارة التي تنتمي إليها والتمسك بقيمها والفخر بذلك، ولايعني ذلك أن الطنطاوي يذهب إلى رد معطياتها الحديثة فإن له موقفه الواضح من الحضارة الغربية وقد أعلنه منذ وقت مبكر جداً، ولكنه يرفض السعي الأكمه وراء كل لافت دون تمحيص ووزن. وليأذن لي القارئ الكريم في ذكر مثالٍ واحد أختم به هذا الهدف، وهو سخريته ببعض عساكر الانتداب الفرنسي، يقول: «ضابط باريزيّ أشقر ناعم، كأن رجولته خطأ مطبعي في سجل الحياة، أو كأنّه أنثى متخفية في ثوب رجل، أحب أن يرى صورة حسن الخرّاط؛ فجاءه أحد ظرفاء الحيّ بصورة «عنتر» التي تعلق في المقاهي؛ فلمّا نظر إليها ورأى سواداً كالليل، وعينين تتقدان كعيني الصقر، وشاربين كساريتي المركب... انخرط بطنه، وأصابه الزّحار (الدوسانطريا) فحُمِلَ من فوره إلى المستشفى... وحسن الخرّاط، أحد رموز المقاومة الشعبيّة في سوريا[٢٥]».

هذه السخرية تقوم على أساس المقابلة بين الماضي العريق والحاضر وبين القوّة والشجاعة، والليونة والخور، والقيم والمبادئ والتجرّد من كُلّ ذلك... وهذه السخرية من شأنها أن تذكي في النفس الحمية للجنس واستصغار الآخر والنيل منه، وهي إذا كانت ممقوتة وقت السلم والأمن؛ لأنها تعوق تجاوب الحضارات وتمنع من الاطلاع على ماعند الآخر، واستجلاب ما دق من أسرار الحكمة والحضارة؛ فإنها تؤدي وظيفة جليلة وقت النضال بشحذ العزيمة، وإعلاء الهمة والإحساس بالذات والماضي العريق...

ورابعها: النكاية بالخصم:

ولا يتراءى هذا الهدف إلا ضمن مساحة محدودة جداً في الذكريات، وهي ما اتصلت بمعاركه الأدبية والفكرية؛ حيث نجده يميل إلى الإفادة من طاقات السخرية للنيل من خصمه وتبكيته، وعادة ماتكون معاركه لصالح الأمة وفكرها، وانتصاراً لمبادئها وقيمها[٢٦].

سخرية الطنطاوي بين القبول والرد:

مادام الباحث قد عرض – فيما مضى – بشيء من الدّرس والتحليل لظاهرة «السخرية» عند الطنطاوي من خلال ذكرياته؛ فما أحرى أن يتساءل: هل هي من قبيل السخرية المعيبة ؟ ولماذا ؟ وبعبارة دقيقة: هل يميل الباحث إلى قبولها أو ردّها ؟ أحسب أن هذا التساؤل من الأهمية بحيث لا يجوز إهماله:

١- لاتصاله الوثيق بهذه الدراسة.

٢- وللخصوصية الإسلامية التي يجب أن نستشعرها عند النظر إلى الأشياء ومحاكمتها، ومنها الآداب والفنون.

٣- ولاتصال الدراسة بأديب ذي طبيعة خاصة؛ فهو أديب فقيه وداعية إلى الله على بصيرة، ومفكر إسلامي له مكانته في مسيرة الدعوة الإسلامية، وحضوره الفاعل خلال هذا القرن الميلادي المنصرم.

والباحث يميل إلى أن «السخرية» التي ظهرت في ذكريات الطنطاوي تمثل استغلالاً نافذاً لطاقات السخرية الفنية والنفسية دون تعسف أو تخبط، أو مساس بالقيم الإنسانية، أو إخلال بالأدب الرّباني الذي أراده الله لعباده حين قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾[٢٧] . وهذا ليس بمستغرب فالطنطاوي ليس أديباً فحسب يلهث وراء الجمال ويخدعه لألاؤه وبريقه، ولاهو بالعادي العامي الذي ينساق وراء نزوات القلم ورغباته، ولكنه أديب فقيه، جمع إلى الحس الجمالي بصيرة الكهولة وتجربة السنين، والوعي بالشرع والدين. فجاءت «سخرياته» نموذجاً يحتذى من حيث القدرة على الانطلاق بالكلمة الساخرة عبر المسافات الآمنة والآفاق المشرعة التي تنفسح للأدب الإسلامي الملتزم، والتوقف عند الحدود التي يجب أن يقف عندها. وأحسب أيضاً أن هذه السخرية – وأقصر الكلام على الذكريات – يمكن أن تقدم نموذجاً موفقاً للسخرية في الأدب الإسلامي.

ذلك أن السخرية – فيما أحسب – ليست بمحرمة ولابمعيبة متى مانبل مقصدها، واستقامت وجهتها، وسمت غايتها عن أدران الفساد، والنظرة الضيقة المحضة، أو كانت انتصاراً من بعد ظلم،

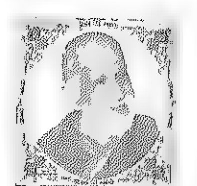
أخي الكريم السيد أحمد علي آل مريع وفقه الله إلى كل خير
السلام عليكم ورحمة الله
قرأت ما كتبت عني وأنا أشكرك على مرتين
مرة لأنك أوليتني من فضلك ما لا أستحق، وثانيا لأنك
أجدت فيما كتبت. ولو كان ذلك عن غيري لما نقص إعجابي
به... وأشهد أنه بحث جيد على قلة ما نقرأ من جيد الكلام
هذه الأيام. فلك أجزل الشكر، وعليك أزكى السلام
جدة: ١٧ المحرم ١٤١٤
علي الطنطاوي

أو اقتصاصاً بالمثل، أو دفاعاً عن الفضيلة، أو نيلاً من دعاة الرّذيلة. فالله قد عفا عن الجهر بالسوء من القول لمن ظلم؛ فقال: ﴿لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وكان الله سميعاً عليماً﴾[٢٨]. وقال مقرراً منهجاً عامًّا للشعراء والأدباء على السواء: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون* ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيَ مِنقلبٌ ينقلبون* ﴾[٢٩]

وقد كان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يهجو في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - بفاحش القول، وكان الرسول الكريم يثني عليه، ويدعو له، ويستمع منه لأنّه في معرض الدّفاع عن أعراض المؤمنين، ونصرة الدين، وردّ الاتهام[٣٠]، وكذلك كان كعب بن مالك رضي الله عنه.

فالسخرية - إذن - فيها شيء من فسحة، فليست كل سخرية محرمة، ولاكل سخرية معيبة، إنما المعيبة والمحرمة التي قصدها القرآن الكريم بقوله: ﴿ لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن...﴾ هي: السخرية التي يكون المقصود بها الاحتقار والازدراء، والتصغير من شأن الناس وانتقاصهم بغير وجه حق، وليس الأمر على إطلاقه كما فهم منه بعض الباحثين. يقول الدكتور نعمان طه: «إن المقصود بالسخرية المحرمة هو السخرية بالنقص البشري الطبعي الذي لايد فيه للإنسان أن يصلحه أو أن يردّه: كالسخرية من عضو من أعضاء الجسم، فهذا مما يؤلم ويحول مجرد المزاح إلى شجار لاتؤمن عقباه. أمّا السخرية الثانية: كالهزء بالأشحاء والخائفين أو لئام الطباع أو المتصنعين غير السالكين السلوك الطبعي في الحياة، والسخرية من المتكبرين أو المتغطرسين أو الحكام المستبدين؛ فهذا - في ظني - مالا ينكره الدين[٣٥]... فإذا ما نأى الساخر عن ذكر الأسماء، وابتعد عن تعيين الشخصيات؛ حفاظاً على الودّ، أو رعاية لحق صديق، أو جنوحاً إلى إسباغ الستر - كما فعل الجاحظ في بعض سخرياته والطنطاوي هنا في ذكرياته - أو جعل الشخصيات نماذج، أو كنماذج يُبَيِّن من خلالها الخلل، وينبه على الزلل؛ فتكون السخرية من الفعل لا الفاعل، والذم للحال لا للذات؛ فهذا أصون لفنِّه وأحوط، وأبعد عن مواطن الاتهام والخطل.

ولانكاد نجد عنده شيئاً من السخرية المؤذية في حق صديق أو شخص معين أو مصرَّح باسمه، إلا ماكان من سخريات يسيرة لينة صرح فيها بأسماء بعض المجهولين من العامة الذين لاتدل أسماؤهم على التعريف بأشخاصهم؛ فإذا ذكر أحداً باسمه فإنما هي سخرية عطوفة رقيقة تهدف إلى التسلية والإضحاك، ويخص بها نفسه أو من لاتجرحه السخرية لاتساع أفقه، وسعة صدره، ولروايته مثلها وماهو أكبر منها عن نفسه، مثل أستاذه (حسني كنعان) وقد ذكر الطنطاوي أنه لايغضب من رواية السخرية عليه، بل لقد ذكر في بعض كتبه ماهو أشد وأعظم في حياته[٣٦]. ومثله تكون السخرية في حقه من جملة المزاح. يقول الإمام الغزالي: «وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به فأمّا من جعل نفسه مسخرةً فربّما فرح من أن يُسخَرَ به كانت السخرية في حَقِّه من جملة المزاح»[٣٧]، ويقول الشيخ السيد سابق: «النهي عن السخرية، وهي: احتقار الغير، واستصغاره لغير سبب ظاهر، سواء أكان الاستصغار



بالعبارة، أم بالإشارة، أم بأيّ طريقة مفهمة لمعنى التحقير. وإنما نهى الله عن ذلك؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه. فإذا كان المسخور منه بليد الشعور، لايتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النهي في هذه الحالة لايتناوله، بل يكون تحقيره ضرباً من المزاح الذي أحله الله»[28] . ويعلق على هذا القول في الحاشية رقم (٣) فيقول: «لو احتقر إنسان غيره لفعله السيئ أو لتكبره على الناس مثلاً لم يكن ذلك منهيًا عنه.».وهذا مايجعلنا نميل إلى قبولها والاحتفاء بها. وليس هذا دفاعاً عن السخرية الطنطاوية بقدر ماهو انتصار للحق.

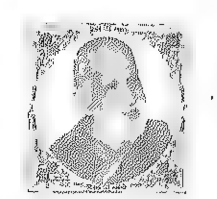
وبعدُ

فإن السخرية في ذكريات الطنطاوي هي من ذلك النوع العطوف المتسامح، ولم تكن في مرة من المرّات سخرية بائسة سوداء تجتوي الحياة وتمقت الأحياء كماهي عليه عند أبي حيان، والمعري، وابن الرومي، فالطنطاوي فرد من أفراد المجتمع منتمٍ إليه، لاخارج عنه، محب له، حريص على هنائه ورغد عيشه، واستقامة حاله. والحافز الذي دفعه إلى السخرية حاجات نفسية ومزاجية، وحاجات فنية وإصلاحية. وهي أشبه ماتكون بالعدسة تجمع أشعة الشمس المتفرّقة في الفضاء، وتحصرها في حيّز ضيق ثم تسلطها دفعة واحدة إلى نقطة محددة، فتحدث بها أثراً قويًا هو الإحراق.

ترصد السخرية في «ذكرياته» مواقف شتى في الحياة والمجتمع يجمعها الخطأ والانحراف أو التصلب والجمود فتسلط عليها الهزء والتبرّم، والمقت والاشمئزاز، فإذا تلك المواقف مهتوكة الستار، عارية القبح.أو هي كالعدسة المكبرة المضخمة تلتقط العيب الهين الذي لايلتفت إليه بحكم العادة، وبرود الإحساس بصور الكمال؛ فتكبره وتضخمه، وتملأ بتلك الصورة نفس القارئ، كما تملأ العدسة صفحتها المجلوّة بالمشهد المنصبّ عليه، وتنفي كل مشهد سواه يشتت الذهن أو يدعو القارئ لأن يتعزى به عن تلك الهنة.وقد خفّفت السخرية من غلواء المباشرة والتقرير ورتابة السرد، كما أسهمت بقوّة في أداء مهمة تتضافر جميع العناصر الفنية في الذكريات للقيام بها، وهي مهمة «البوح» والتعبير عن الذّات، والكشف عن مواقفه تجاه الأشياء والأفراد، ووضع الأحداث في موضعها من خارطة نفسه وعقله؛ بحيث يراها كل قارئ لبيب ويصبح الكتاب إذ ذاك ليس تأريخاً لحياة فحسب بل وثيقة فنية وفكرية مهمة، وهو ماينبغي أن تكونه جميع الفنون القائمة على عنصري: البوح، والمشاركة الوجدانية. ■

الهوامش:

١- العقاد: ساعات بين الكتب: ٢٢١، ود.عدنان رشيد: دراسات في علم الجمال: ١٢٥ .
٢- في مقالة بعنوان " الهزلي والشعري ص ١٢٩-١٣٠ - ترجمة د.محمد علي العمري ".
٣- الذكريات:٨١/٢، و ١٥٤/٥ .
٤ - السابق: ٦٨/٥ ومن أشهر مقالاته الساخرة التي يذكرها الطنطاوي في الذكريات، ماكتبه في قرية «الصنمين»، حيث سمّاها بلد الأصنام الثلاثة، ويقصد بالثالث نفسه، غير أن مقالاته لم تجمع ولم تطبع في كتاب (السابق: ٢٧١/٧ و٣١٦).
٥- الذكريات: ١٥١/١- ١٥٢ .
٦- السابق: ٣٦/٣ .
٧- الذكريات: ١٥٣/١ .
٨- العقاد: جحا الضاحك ١٠٤ و ١٠٦ وساعات بين الكتب:٥٢٣ - ٥٢٤ .
٩- عدنان رشيد: دراسات في علم الجمال: ٢٥ .
١٠- الذكريات: ١٨٩/٧ .
١١- السابق ١/ ١٥٢ .
١٢ - السابق: ١/ ١٣٩-١٤٠ .
١٣- الصورة الأدبية / اللوحة: مصطلحان من وضع الأديب الراحل يحيى حقي وضعهما علماً على فن أدبي نثري متميز عن *المقالة والقصة*؛ متميز عن المقال في جمالية نزعته التصويرية الإنشائية غير المقيدة، ومتميز عن القصة في عدم التزامه بابتكار شخصية لاوجود لها لمحاكاة الواقع أو في اتباع القوانين الصارمة لفن القصة، مع الاحتفاظ بعنصر القص البسيط.
١٤ - السابق،١٨٥/٧.
١٥- السابق: ٢٨٤/٦-٢٨٥ .
١٦- السابق: ٦٩/٤-٧٠ .
١٧- السابق: ٦٦/١ وينظر للاستزادة: ١٣٨/٢-١٣٩ .
١٨- السابق: ١٩٢/٥ ، حديث صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ، في كتاب الأشربة.
١٩- الذكريات: ١٠٥/١، وينظر مثال آخر ٥١/٨ .
٢٠- العقاد: جحا الضاحك المضحك ٧٦-٧٧، و د. نشأة العناني. فن السخرية في أدب الجاحظ: ٣٨- ٤٠ .
٢١- الذكريات: ٦٤/٤-٦٦ .
٢٢- الرسالة الرابعة من رسائل الإصلاح: ٣-٤، طبعة الترقي عام ١٣٤٨هـ .
٢٣- السابق: ١٤٢/٣ .
٢٤- السابق: ٢٣٤/٧ .
٢٥- السابق: ٢١٤/١، وينظر أيضاً: ٦٠/٥.
٢٦- السابق ٣/ ٢٢، ٤/ ٢٦٦، ٨/ ٨-٩ .
٢٧- الحجرات: ١١ .
٢٨- النساء: ١٤٨ .
٢٩- الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧ .
٣٠- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ٥٦٢/١٠- ٥٦٣ .
٣١- هود: ٣٨ .
٣٢- الألوسي: روح المعاني: ٢٤٩/٦-٢٥٠، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٢٣/٥، الزمخشري: الكشاف: ٢١٥/٢ .
٣٣- الأنبياء: ٦٢- ٦٣ .
٣٤- الظلال: ٢٣٨٦/٤-٢٣٨٧ .
٣٥- *السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري*: ٧٥-٧٦ .
٣٦- الذكريات: ٥٤/١-٥٥ و٦٨/٥، وينظر صور وخواطر: ٢٦٦-٢٦٧ .
٣٧- إحياء علوم الدين: ٣٠/٩-٣١ .
٣٨ - إسلامنا: ٢٧٨ .



أسلوب علي الطنطاوي في الحديث عن المرأة

كان الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله ذا أسلوب مميز في تربية بناته ومعاملتهن، وفي الحديث عن المرأة عموماً. وله مواقف مشهودة في حل المشكلات الزوجية ومعاملة المرأة في أسلوب أدبي رفيع.

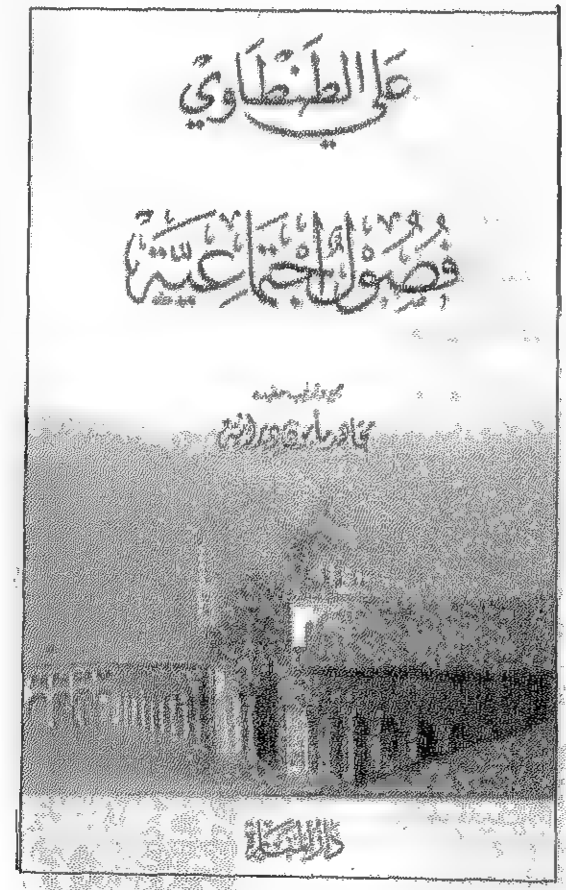
بقلم: محمد حيان حافظ
سورية

و سنورد نماذج من كتاباته في ذلك. فقد كتب في مقال بعنوان زوجتي: « قال لي صديق، معروف بجمود الفكر، وعبادة العادة، والذعر من كل خروج عليها أو تجديد فيها. قال: أتكتب عن زوجتك في الرسالة تقول إنها من أعقل النساء وأفضلهن؟ هل سمعت أن أحدا كتب عن زوجته؟ إن العرب كانوا يتحاشون التصريح بذكرها، فيكنون عنها بالشاة أو النعجة استحياء وتعففا، حتى لقد منع الحياء جريرا من رثاء زوجه صراحة، وزيارة قبرها جهارا. ومالك بن الريب لما عد من يبكي عليه من النساء قال:

فمنهن أمي وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا

فلم يقل وامرأتي. وكذلك العهد بآبائنا ومشايخ أهلنا. لم يكن أحد منهم يقول: زوجتي، بل كان يقول أهل البيت وأم الأولاد، والجماعة، والأسرة، وأمثال هذه الكنايات. أفترغب عن هذا كله، وتدع ما يعرف الناس، وتأتي ما ينكرون؟ قلت نعم. فكاد يصعق من دهشته مني، وقال: أتقول نعم بعد هذا كله؟ قلت نعم مرة ثانية. أكتب عن زوجتي، فأين مكان العيب في ذلك؟ ولماذا يكتب المحب عن الحبيبة وهي زوج بالحرام، ولا يكتب الزوج عن المرأة وهي حبيبة بالحلال؟ ولماذا لا أذكر الحق من مزاياها لأرغب الناس في الزواج؟ والعاشق يصف الباطل من محاسن العشيقة، فيحبب المعصية إلى الناس. إن الناس يقرؤون كل يوم المقالات والفصول الطوال في مآسي الزواج وشروره، فلم لا يقرؤون مقالة واحدة في نعمه وخيراته. ولست بعد أكتب عن زوجي وحدها، ولكني كما كان هوجو يقول: إني إذ أصف عواطفي أبا، أصف عواطف جميع الآباء».

ويقول في المرأة المسلمة: «إنكم تحسبون أن نساء العرب كن، مذ كن، كأكثر من نرى من النساء، جاهلات خاملات، يثرن المشكلات، وينغصن عيش الرجال، أو مترفات مدللات همهن صبغ الوجوه، وتلوين الأظافر، وإنفاق الأموال، فتعالوا أخبركم كيف كانت المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كيف عملت في بناء هذا الصرح العظيم، وشاركت في إقامة الدولة الإسلامية، وكيف سعى النساء في كل مجال كان يسعى فيه الرجال، في مجال الدين والتقوى، وفي مجال العلم والأدب، وفي مجال المعارك والحروب. وكيف كان منهن المرأة العاقلة الحكيمة كخديجة التي وضعت ثاني حجر في صرح الدعوة. والمرأة العالمة المعلمة كعائشة التي كانت أستاذة عصرها، وكان فحول العلماء تلاميذها، وكانت أعجوبة في سعة روايتها. والمرأة الأديبة التي خدمت بالدعاية اللسانية، بالشعر يوم كان الشعر هو الصحافة وهو الإذاعة وهو سبيل الدعاية لا سبيل غيرها، كصفية، ونعم بنت سعيد، وهند بنت أثاثة. والمرأة العاملة في المصالح العامة كأسماء بنت الصديق يوم الهجرة، وموقفها العظيم في ذلك. والمرأة في الدفاع، كما صنعت صفية لما كانت في الحصن مع النساء، فرأت يهوديا يطيف بالحصن فخافته على النساء أن يؤذيهم، فشدت وسطها ونزلت بالعمود فضربته حتى قتلته. وكان منهن المرضة المواسية، كرفيدة التي جعلت في خيمتها مستشفى سيارا. ومنهن أيضا المرأة المقاتلة التي تأتي بالبطولات هذه أم عمارة، نسيبة المازنية. وهذه أم سليم تثبت في هوازن في الموقف المهول. وغيرهن كثير. هكذا كانت المرأة العربية المسلمة، جمعت أطراف الفضائل، وحازت خلال الخير، وكانت للدين والدنيا، وللعلم وللأدب، وللدار وللحياة، وكان هديها القرآن، ودليلها الشرع، وغايتها رضا الله، والنجاة في الآخرة، فأين نساؤنا اليوم؟».



وقد توزعت مقالاته عن المرأة في كتبه وبخاصة كتاب فصول اجتماعية من الصفحة ١٢٥ إلى الصفحة ٣٠٠ نهاية الكتاب حيث عرض بالحديث لمختلف الجوانب التي تتعلق بالمرأة والحياة الزوجية. ■



الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب

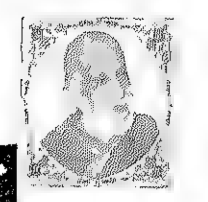
ما عرف عن الشيخ علي الطنطاوي، رحمه الله، إلا روح الشباب المتوقدة حتى في سني حياته الأخيرة، فكنت تراه يطل عليك من وراء شاشة (الرائي) ليبعث فيك روحا لايبعثها غيره من المتحدثين، وكنت دائما تحس أن فيه من روح الشباب ماليس فيك وهو ابن الخامسة والثمانين وأنت ابن الخامسة والعشرين، فما بالك بهذه الروح وهو ابن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، وهذه أهم صفة في الخطيب الذي يراد منه إشعال روح الشباب الوثابة في أمة انتهكت حرماتها لكي تهب من رقادها.



هتاف المجد :

في تلك الفترة من حياة الشيخ كانت بعض البلدان العربية قد تحررت من ربقة الاستعمار وبدأت تتلمس طريقها نحو النهضة بشعوبها واحتلال موقع لها تحت الشمس، وكان بعضها الآخر مايزال يرزح تحت إسار الاستعمار الغربي، وكانت شعوب تلك البلدان تبذل الغالي والرخيص في سبيل نيل حريتها وفك قيودها. وكان الشيخ - وهو يرى بني دينه وقومه بين مقاتل من أجل الحرية ومكافح من أجل النهضة - يوزع جهوده بين هذا وذاك بالقلم واللسان وعلى منابر الخطابة وصفحات الجرائد.

كان - وهو يرى بني أمته يكيلون لقوى العدوان الصاع تلو الصاع - ينفث في شباب الأمة وقادتها وعلمائها روحا لم يفتأ يستمد لها القوة من الله حتى تحقق للأمة ماتريد. وقد تجلى ذلك واضحا في أحد كتبه الذي جمع فيه مقالات وأحاديث إذاعية كتبها بروح الخطيب وأسلوب الخطابة

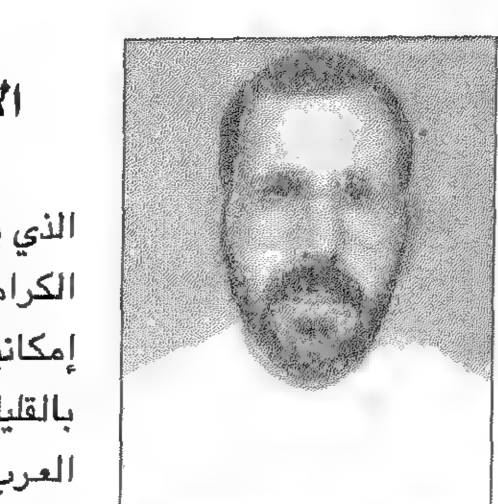


بنشرها على فترات متفاوتة خلال تلك الفترة لعصيبة والغنية في آن من حياة الأمة ووسم هذا الكتاب بعنوان يدل على مضمونه ألا وهو "هتاف المجد".

خطيب الأمة:

والمستعرض لما يتضمنه هذا الكتاب الذي يعكس روح الشيخ الوثابة تطلعا للمجد واستعادة لما أهدرته الأيام منه يجد الشيخ يتناول جميع معارك الأمة على جميع الصعد التحررية والدينية والاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية حتى إن القارئ ليرى نفسه في خضم بحر متلاطم من المشاعر الإسلامية الوحدوية التي سعى الشيخ من خلال كلماته التي تشع بروح الجهاد وحلو الأمل إلى ترسيخها في نفوس الشباب والشيوخ على السواء، وحتى كأن القارئ يرفع رأسه إليه من خلال كلماته وهو على أعواد المنابر يحث العرب والمسلمين على العودة إلى أصول الدين الحنيف ليستعيدوا العزة التي بناها لهم مجيء محمد (صلى الله عليه وسلم) فيهم فيذكرهم قائلا: "لما كان هتافنا (أمجاد ياعرب أمجاد) لم تنصرنا أمجاد العرب، لأن مجد العرب الحق ولد يوم ولد محمد..."(١) بل ويبشر بطلائع عودة المجد التليد لأبناء الإسلام الحق فيقول في لغة ليس أجمل منها: "إن النهار لنا، لقد أذن مؤذن النهضة فينا: حي على الفلاح، فقمنا، وصاحت ديكة الفجر تطرد بقايا النوم عن عيون الزهر. والمستقبل لنا"(٢).

ومع هذه النزعة الإسلامية الجامعة التي تضج بها كلمات الشيخ تتسارع مفرداتها فتشرق وتغرب حتى تجمع الأمة في إطار واحد، وكأنك وأنت تقرأ أحاديثه وخطبه التي تضمنها الكتاب تلمح في الأفق خيول الله تعدو ضبحا من كل ركن دان وقاص لتقيم للمسلمين ذلك الكيان الجامع رغم أن دنيا المسلمين في الأيام التي كتب فيها الشيخ هذه المقالات والخطب لاتعدو أن تكون بعض مزق من شلو ممزع، تسمعه يقول: "أفنعجز أن نوجد للمسلمين نظاما جديدا مبتكرا، يجمع متفرقهم ويدني بعيدهم ويصلحهم ويصلح لهم"(٣). ويقول: "أما الإسلام: فهو في ذاته قوة لايحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها، بل هو الذي يؤيدهم بقوته فينصرون"(٤). فتدرك أن الشيخ قد آمن إيمانا راسخا أن الظفر لايكون إلا بما كان به ظفر أول هذه الأمة وتشعر أنه يحس في الأمة جمرا تحت الرماد ماعليه إلا أن ينفخ فيه حتى يتقد وقد بذل جهده في هذا الجانب من خلال المقالة والحديث الإذاعي والخطبة المرتجلة في المظاهرات واللقاءات والمناسبات كما عكسها الشيخ في هذا الكتاب.



بقلم: عبدالباسط أحمد
سورية

الأديب الملتزم والخطيب الناصح:

والشيخ في هذا الكتاب خطيب المعركة الذي يحرض المؤمنين على القتال لاستعادة الكرامة والعزة والمجد التليد ولكن ضمن إمكانيات الحاضر وهي كما يقول ليست بالقليل. فهاهو يناديهم فيقول: "فيا أيها العرب، فوق كل أرض، وتحت كل سماء، لقد جئت الليلة، ليلة هجرة محمد (صلى الله عليه وسلم)، أستحلفكم أن تثقوا بربكم، وأن لاتعتمدوا إلا على نفوسكم"(٥). ولاينسى في خضم ذلك مناقب الأديب الملتزم ورسالة الخطيب الناصح فيقول: "إني أكون خائنا لديني ولأدبي إذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم، أو كتمت الحق عنكم، إنكم لطالما تنكرتم لدينكم ونسيتم أقداركم واحتقرتم نفوسكم"(٦). ومن ثم يقول لهم بكلام واضح: "فإذا أردتم أن تستعيدوا في الدنيا مكانكم، وتسترجعوا مجدكم، فالطريق مفتوح أمامكم، فاحملوا المصحف بيد، والسيف بيد وامشوا على بركة الله"(٧).

والشيخ في هذا الكتاب دائم الوقوف على شرف يطل منه على قضايا المسلمين كلها وأهمها قضية فلسطين التي بذل لها من قلمه ولسانه ونفسه الكثير حتى ملكت عليه قلبه وأقضت عليه مضجعه فهو دائم التحفز ودائم الدعوة إلى القتال لاسترداد هذه البقعة المباركة من ديار المسلمين فيقول: "... إنها قضية دين وعقيدة، إن كل مسلم يدخل المسجد الأقصى، ويقوم حيال الصخرة ينسى كل شيء إلا أن ههنا موطنا من مواطن الروح، منزلا من منازل القدس، تسترخص في سبيله الأرواح، ويبذل في سبيله كل شيء، إنها قضية جهاد في سبيل الله"(٨). وأنت تقرأ هذه المقالات والأحاديث والخطب تلمس في الشيخ المتابعة اللصيقة للحدث لايتركه يمر دون أن ينفخ في الأمة من وحيه روح النهوض للعلا. فمن قرار التقسيم، إلى إضراب دمشق، إلى مجازر فرنسا في الجزائر، إلى ثورة يوليو في مصر، وإلى أسبوع التسلح في دمشق كان الشيخ يعتصر ألما أو يهتز فرحا، وبين هذا وذاك من المشاعر يتجلى فيه بيان الخطيب المفوه الهادف نحو إثارة مشاعر الأمة واستنهاض هممها لنيل المجد بالدم والحديد والنار.

وتراه وهو يعدد أسباب هوان الأمة وضعفها وهزيمتها فتعرف فيه الخطيب الآسي الذي يعرف من أين أتيت الأمة، ويعرف دواءها، بل ويصف لها الدواء، وهو القيادة المتمسكة

بكتاب الله، والعودة إلى شرع الله الحنيف، والأخذ بأسباب القوة.

ولاينسى الشيخ في غمرة الحروب التي كانت الأمة تعيشها شرقا وغربا أن يوجه الأدباء من الشباب إلى أن يعيشوا قضايا أمتهم وأن ينشروا الفضيلة بين الناس ويحذرهم من الأدب الخليع، فهذه معركة أخرى إن لم يدل فيها بدلوه ستكون القاضية، وليس بعد الدين والأخلاق إذا استبيحا معركة بالسلاح.

وتتجلى قدرة الشيخ الأدبية ومشاعره الجميلة وهو يودع عاما ويستقبل عاما آخر فيقول: "بعد ساعة واحدة ينقضي هذا العام فتبتلعه هوة العدم، ويفتح الماضي ذراعيه، ليضمه إلى الأعوام الكثيرة التي مرت من قبله، ويؤلفها (رزمة) واحدة، ثم يلقيها في بحر الأبد ..."(٩). بمكنة الأديب المسلم الذي يرى في الأدب الملتزم الرفيع سبيلا من سبل بناء الحاضر على أساس متين من الماضي.

ولئن كان الشيخ ومن وحي الأحداث الجسام التي كانت تمر بالأمة لها أو عليها يأخذ من الكلمات ألذ مافيها من رحيق وأقوى مافيها من نار ونور كما عبر هو نفسه عن ذلك إلا أنه يرى نفسه عاجزا عن التعبير في بعض الأحيان أمام مشاهد البذل والعطاء فيقول: "إني قد عجزت، وأنا مقر بعجزي، ولن أدعي بعد اليوم أني من فرسان الكلام، وأني من أرباب القلم"(١٠). وهو يعلم علم اليقين أنه لولا وقع كلماته في النفوس لما رأى مارأى من هذا البذل والعطاء.



والشيخ في كل هذه المقالات والأحاديث والخطب قريب جدا جدا من الناس لايكلمهم من برج عاجي كما يفعل بعض الخطباء والمتحدثين، وإنما ينزل إليهم ويلمس جراحهم ويفرح لأفراحهم فترى لكلماته أثرا بينهم قل أن يصل إليه خطيب أو متحدث. فهو يخاطب الحاكم والعالم والأديب والأمي والصغير والكبير والرجل والمرأة، فهو من ثم خطيب الشعب يستلهم موضوعاته من الشعب وينتهي به القصد إلى النهوض بهذا الشعب.

وكم تلمس روح الأمل في كلمات الشيخ، وكم تجد فيها من إيمان بقدرة الأمة على تحقيق أمانيها، فهو لايفتأ يذكرها في كل خطبه برجالاتها الذين رفعوا هامها عاليا ولايخص بالذكر منهم الفاتحين والمحررين بل والرجال العاديين الذين أبلوا خير البلاء في سبيل رفعة الأمة فخلدت الأيام ذكرهم أبطالا منافحين عن كرامة الأمة وعزتها.

مواقف خطابية:

ولابد لنا ونحن نتحدث عن الشيخ خطيبا وأديبا من خلال هذا الكتاب أن نرجع إلى ذكريات الشيخ لنقف على بعض العبارات التي ساقها الشيخ في ذكرياته عن قدرته الخطابية وبعض المواقف الخطابية المشهودة التي تثبت مايلمسه قارئ هذا الكتاب/الخطبة (هتاف المجد) من الملكة الخطابية الفذة التي امتاز الشيخ بها في كل المواقف التي تعرض للخطابة فيها.

ومن أوضح الأمثلة على تمكن الشيخ من جذب المستمعين إليه أنه أيام مقاومة الاستعمار الفرنسي في سورية جاءه جماعة من طلاب الطب وهو في كلية الحقوق وقالوا له: «إننا نفتش عنك، فهيا معنا، قلت إلى أين؟ قالوا: إلى الأموي، فقد احتشد فيه جمهور من غير الوطنيين، واستعدوا له من أيام، وأعدوا خطباءهم، فرأينا أنهم لايقوم له غيرك، فحاولت الاعتذار، فقطعوا علي طريقه حين قالوا: هذا قرار الكتلة (الوطنية)، فذهبت، وكان لي بحمد الله صوت جهير، فقمت على السدة مما يلي باب العمارة، وناديت: إليّ إليّ عباد الله! وكان نداء غير مألوف. ثم صار ذلك شعارا لي كلما خطبت، فلما التفتوا إلي بدأت ببيت شوقي:

وإذا أتونا بالصفوف كثيرة
جئنا بصف واحد لن يكسرا

وأشرت إلى صفوفهم المرصوصة وسط المسجد، وإلى صفنا، وأفضت في الكلام أضرب على وترين لهما في نفس كل سامع صدى: **الدين** وهو أول محرك للناس إن كانوا مؤمنين، وكان القائل صادقا فيما يقول، **والاستقلال** وهو مطمح كل سوري إلا من مالت به الدنيا ومنافعها إلى تأييد الغاصبين فآثرها على آخرته وعلى مرضاة ربه"(١١).

ومن مواقفه الخطابية الارتجالية المشهورة قيادته المظاهرات الشعبية التي قامت في بغداد تأييدا لسوريا ضد فرنسا أيام الاحتلال سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩ م. وكان قد نشر مقالة خطابية في صحف بغداد ناشد فيها الملك غازي بن فيصل بن الحسين بنصرة الشعب السوري وذكره بأيام

بغداد الخوالي عندما نهض المعتصم من بغداد لنجدة امرأة في عمورية، وكان لمقالته الخطابية صدى واسع أذيعت من محطة بغداد فسمع الناس صوت الملك غازي يقول مستجيبا: لبيك .. لبيك. وسارت بعد ذلك مسيرات غاضبة تأييدا لسوريا. وكان الشيخ يقود المسيرات ويحمس الناس فيقول عن ذلك: "أما أنا فكلما تقدم الموكب مئة متر دعيت لإلقاء خطبة، فلم نصل إلى جسر «موت» حتى بح صوتي وانقطع ولم يحدث لي مثل ذلك وأنا أخطب من أكثر من ستين سنة إلا هذه المرة"[١٢].

ومن ذلك خطبته في دير الزور حيث كان يعمل معلما فأراد منه إمام المسجد أن يخطب الجمعة. يقول الشيخ: "وكانت باريس قد سقطت في يد الألمان، وكانت الاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم ياشيخ حسين أنني كالقنبلة التي لايمسكها أن تنطلق إلا مسمار صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقول ما لايناسب المقام، فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ماتشاء، فالمجال أمامك فسيح." فألقى الشيخ "خطبة من تلك الخطب النارية" التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس غير أنها لم تكن مكتوبة فضاعت في المئات من الخطب. وكانت النتيجة أن خرج الناس من المسجد إلى ثكنات الجيش الفرنسي، وصدر أمر باعتقال الخطيب المعلم الطنطاوي، ثم أقيل من التعليم نهائيا"[١٣].


الطنطاوي في المظاهرة الكبرى بميدان جامع مرجان (بغداد) في ١٩٣٩م

ومن أشهر خطبه المرتجلة تلك التي ألقاها في حفل وداع الرحلة البرية التي خرج فيها إلى الحجاز سنة ١٣٥٣ هـ فيقول عنها: "وقف الموكب ظاهر دمشق حول قبة العسالي، وقد ملأ الناس الساحة على رحبها، وقام الخطباء يخطبون، وقمت أنا أشكرهم باسم الوفد، وأودعهم، وأشرح مقاصد الرحلة، وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب فزاد شحوبها الموكب هيبة وجلالا، وأقبل كل من المودعين على ذويه يودعهم فلم تكن ترى إلا العناق والتقبيل والدموع التي تسيل. ورقت نفسي رقة شديدة، وحين ترق النفس، ويحضر القلب، ينطلق اللسان بما لاعهد لصاحبه به، وألقيت على الناس كلمة، لو سئلت ماذا قلت فيها لما دريت، لأني لم ألق كلاما أدبيا، من طرف اللسان، بل قولا روحانيا من أعماق الجنان." وهذا دليل واضح على مدى تفاعل الشيخ مع مايقول.

ويقول: "وقد وقع لي مثل هذا مرات سأذكرها تحدثا بنعمة الله، منها: يوم اجتمع علماء سورية كلها وقابلوا (أيام الوحدة مع مصر) كمال الدين حسين، وشرفوني فكلفوني الكلام عنهم، ويوم انقطع الغيث (أيام الوحدة أيضا) سنتين متعاقبتين فدعوت إلى إحياء سنة الاستسقاء، وكانت معطلة في الشام من زمن قديم، فتكلم السيد مكي الكتاني الرجل الصالح النبيل، ثم تكلمت أنا بكلام لم أحفظه، لكن رأيت من أثره وأثر ماقال السيد أن العيون فاضت بالدموع، والقلوب توجهت إلى الله بالدعاء، ولطف الله بعباده فهطلت الأمطار بعد يوم أو يومين، حتى امتلأت العيون، وروي الناس والحيوان، وأمرعت الأرض، وكان فضل الله عظيما"[١٤].

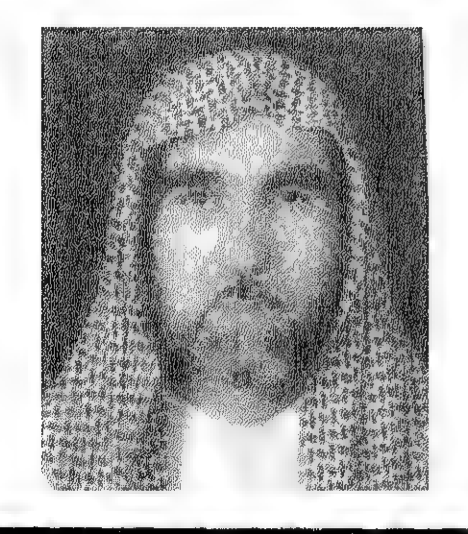
هذا هو الشيخ علي الطنطاوي كما عرفناه وقرأناه نحن جيل الشباب، وكما عرفته الأمة من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها خطيبا مفوها ملك أعواد المنابر ردحا غير قصير من الزمن، وصاحب كلمة فريدة قلما امتطى صهوتها غيره، وهو بحق صاحب مدرسة أصيلة في الخطابة المكتوبة على صفحات المجلات والصحف، والمرتجلة على أعواد المنابر، والمسموعة على موجات الأثير. ■

الهوامش:

١- هتاف المجد، ص ١٩
٢ - السابق، ص ٣٤
٣- السابق، ص ٣٩
٤- السابق، ص ٣٩
٥- السابق، ص ٧٧
٦- السابق، ص ٨١
٧- السابق، ص ٨١
٨- السابق، ص٦٣.
٩ - السابق ،ص ١٥٩
١٠- ذكريات، ج ٦٦/٢
١١- السابق، ج٦٧/٢
١٢- السابق، ج٩٩/٤-١٠٢
١٣- السابق، ج١٥٨/٤-١٦٠
١٤- السابق، ج٦٠/٣-٦١

عدد خاص

الطنطاوي
«صور وخواطر»
- قراءة ثانية -



بقلم: شمس الدين درمش

منذ ثلاثين سنة قرأت هذا الكتاب، ولم تغب صورته عن خاطري. ولم أفقد شعور السعادة والمتعة بقراءته، وكان الحبل الذي شدني إلى مؤلفه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

وعندما توفي الشيخ - بعد أسبوع تقريباً من اطلاعي على الملف الذي أعدته جريدة الجزيرة - عقبت على أحد مقالاته مسجلاً مواقف تركت بصماتها في نفسي، كان هذا الكتاب يملأ ذاكرتي فعدت إليه أقرؤه قراءة ثانية.

صحبت الشيخ في رحلة سفر طويلة متواصلة من مكة المكرمة إلى الرياض ومنها إلى دمشق وحلب. رحلة ما أجملها وما أسعدها. وكيف لا أسعد وأنا في صحبة شيخ الأدباء وأديب الشيوخ، جلست إلى جانبه جلسة التلميذ المحب لأستاذه يرهف سمعه لكل كلمة يقولها، ولكل إشارة يبديها، يصعد معه «الترام» فيرى حالة الشيخ مع المتعلمين والعوام، ويقف به على شرفة منزله في المهاجرين يطل على الغوطة الغناء من خلف السنين، وهو معه في بيروت على البحر متأملاً فيما مضى والزمان الآتي، وفي الأعظمية في بغداد، وفي مصر مراراً وتكراراً، يعيش هموم شبابها وشاباتها.

ويأخذ الشيخ المربي بيد تلميذه ليدخل به في أعماق النفس وصراعاتها مع الشيطان، وفي آفاق العقل وأوديته مع الفلاسفة والعباقرة فيريه منهم طرفاً، ومن جنون عبقرياتهم طرفاً.. أما الحب والمحبون فله معهم ومعه وقفات.

وفي ديوان الأصمعي عالم خاص لا يبقى فيه للزمان ولا للمكان آثار، تخترق فيه الحجب والأستار فترى من فن المقال ما لا يدركه أهل الأخبار. رحلة مع الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- زادتني له حباً، ولآثاره شوقاً. وكان من أدنى الواجب أن أقدم هذه القراءة الثانية لكتابه «صور وخواطر».



هذا الكتاب في طبعته الرابعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م صادر عن دار المنارة بجدة، يقع في ١٨٨ صفحة، يضم مقالات متنوعة لا ينتظمها ترتيب الزمان من حيث النشر، ولا ترتيب المكان من حيث الكتابة، ولم يقسم إلى موضوعات وأبواب وفصول كما هو الحال في سائر الكتب، وقد بلغت مقالاته سبعاً وثلاثين مقالة.

وسجلت في بعض المقالات تاريخ نشرها مقروءة أو مسموعة بحيث يمكن تحديد طرفي الفترة الزمنية لهذه المقالات بثلاث وثلاثين سنة. والرقعة المكانية لها دمشق، وبيروت، وبغداد، والقاهرة، ومكة، ونظراً لتاريخ ١٩٦٨م، أستطيع أن أقول: إن النسخة التي قرأتها في المرة الأولى كانت أصغر حجماً، ثم أضيفت مقالات أخرى فيما بعد وخصوصاً مقالات ديوان الأصمعي وحلم في نجد وغيرهما.

محاور الكتاب

في القراءة الثانية لحظت بوضوح سير المقالات في عدة محاور هي:

١- النفس ومحاسبتها وآفاتها وتربيتها.
٢- النقد الاجتماعي.
٣- التحذير من المدنية الغربية.
٤- الحب، أنواعه،وآثاره.
٥- التعليم ومتاعبه واحترام المعلم.
٦- التوجيه الديني.
٧- النقد الأدبي

والنظر في محاور الكتاب قد يوحي بأن الكتاب أقله في مجال الأدب، وسائره في سواه من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والعلمية والنفسية، ولكن الأمر على خلاف ذلك.

إن كل كلمة من هذا الكتاب من صميم الأدب بأسلوبه، وصوره، وخياله، وعواطفه، وكل كلمة في الأدب فيه هي من صميم الإصلاح.

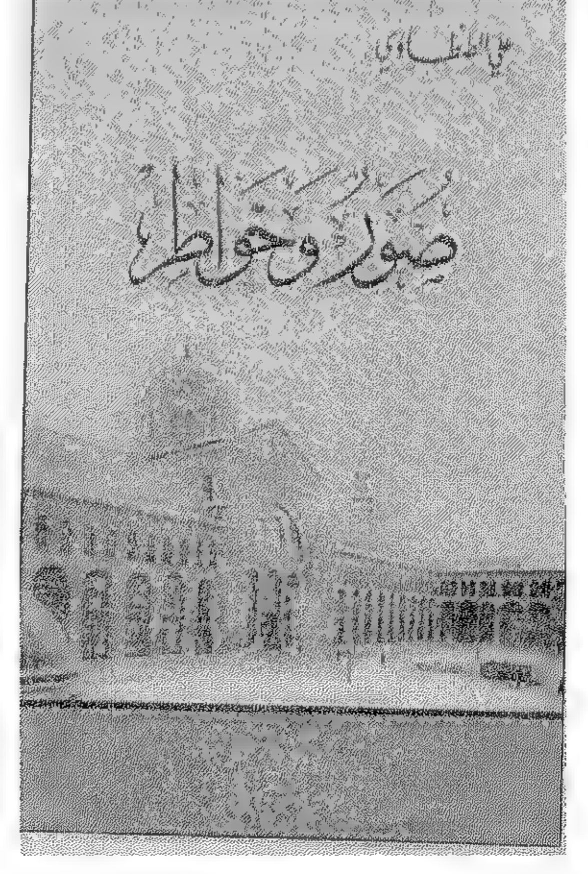
وللشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- آراء مهمة في الأدب وفنونه،وسنعرض لها عند الحديث عن محور النقد الأدبي.

وأسلوبه فيه أبعد ما يكون عن التكلف والتصنع، فهو يكتب كما يتحدث. بل لقد كانت بعض كتاباته أحاديث إذاعية، ففيها خفة العفوية، وقوة الصدق، ونصاعة البيان، وأشواق الروح، ومرح الفكاهة، وتدفق العاطفة، وانثيال الخواطر، ورفرفة الصور.

إنك عندما تدخل عالم الطنطاوي تنسى نفسك على زورقه السابح في مياهه المتدفقة، وتسير معه باتجاه التيار دون أن تعترضك عقبات الصخور، من وعورة الكلمات، وتعقيد المعاني، وخشونة الأسلوب. فلا تتركه لحظة حتى ينتهي بك في الصفحة الأخيرة،وتود لو أنك أعدت قطع المسافة من جديد لتعاود تأمل ما حولك مرة ثانية.

١- النفس[1]

وهو أطول المحاور وأغناها حديثاً وأكثرها تكراراً، وتكاد تجد في أكثر الموضوعات طرفاً منه، إضافة إلى ما خصه من موضوعات، وللشيخ وقفات مع النفس لمعرفة ما هيتها أو لأقل (فلسفتها) والتأمل في تقلباتها، وانفصال الإنسان عن نفسه فإذا هو نفسان بل أنفس، ومن ثم محاسبة هذه النفس في القيام بواجباتها نحو ربها ونحو ذاتها، ويغتنم لذلك مناسبات مختلفة، فانصرام عام مضى، وابتداء عام جديد مناسبة تكررت، وهو يقرر أنه في نهاية كل عام يحاسب نفسه على ما قدم فيما مضى، وعلى ما تحققت له من الآمال، وما فرط فيه من واجبات ويضرب لذلك المثل بالتاجر الذي يحصي بضاعته نهاية كل عام، ويصفي حساباته ليعرف ربحه من خسارته[2]، ومن ثم يحث نفسه والآخرين على اغتنام الأوقات وملئها بالصالحات. فمقالاته (عام جديد، السعادة، تسعة قروش، القبر التائه، في الليل، اعرف نفسك، بيني وبين نفسي، بين الله والطبيعة، وحي صورة، يوم مع الشيطان) تدور حول فلسفة النفس وسعادتها، وآمالها وآلامها وسبل تحقيق ذلك، وهو لا يتأملها مجردة تأملاً فلسفياً بل يكون طريقة لذلك هو التأمل في الحياة نفسها وفي الطبيعة من حوله، وفي الإنسان ذي الروح والجسد صاحب النزوات والأشواق، في طريق يبدأ في الدنيا وينتهي إلى الآخرة.



٢- النقد الاجتماعي[3]

قلما يتناول الشيخ علي الطنطاوي موضوعاً فيغفل الجانب الذي يمس حياة الناس مباشرة بإيجابياتها وسلبياتها. فالإصلاح الاجتماعي المبني على أساس من الدين الصحيح هدف ملازم لمقالاته. حتى التي يكتبها في محور النفس يصب في هذا الاتجاه لأن إصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الفرد. وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح نفسه، فمقالات (تسعة قروش، في

الليل، هيكل عظمي، في الترام، بين البهائم والوحوش، لا أؤمن بالإنسان، وحي صورة، يا ابنتي، يا ابني، فلسفة العيد، كتاب تعزية) هذه المقالات تهدف إلى الإصلاح الاجتماعي من خلال تصوير الحياة بين الماضي والحاضر، وتغير سلوكيات النساء والرجال، وخروجهم عن الالتزام الشرعي، وعدم إنكار المنكرات، ونشر الفساد الاجتماعي في الصحف والمجلات والسينمات. وهو يدعو تارة إلى سلوك سبل الإصلاح الإيجابي كما في مقال «تسعة قروش» حيث يدعو إلى مد يد العون للفقراء ليس في ضرورياتهم بل في متع أولادهم وذلك أن الشيخ أدخل السرور في قلوب تسعة من أطفال الحي بشراء تسع لعب لهم، فارتسمت السعادة في وجوه الأطفال وراح الشيخ يتأمل هذه السعادة (٤).

وأبرز مثال لمقالاته في الإصلاح الاجتماعي «في الترام»(٥).

فالمقال الذي كان يريد أن يكتبه للإذاعة ويفكر فيه في الترام وجده في الحديث عن راكبي الترام واختلاف مشاربهم وسلوكياتهم، وأن الترام صورة من هذا المجتمع فتجد فيه الرجل والمرأة، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والمتعلم والجاهل، وهو يمثل طباع البلد الذي فيه.

كان الوقت بارداً والهواء يندفع من الباب فيحاول كل من الشيخ نفسه، ورجل، وامرأة، وشاب عريض المنكبين مفتول الشاربين أن يغلق الباب فلا يستطيع لأن كلا منهم حاوله بمفرده، فيرى في ذلك صورة من صور تفرقنا تمثلت في محاولة دفع ضرر يشعر به كل واحد ويحاول دفعه منفرداً فيخيب، ثم ينقل مجموعة من المظاهر السلبية من راكبي الترام.

ويلخص الفكرة قائلاً: «إن الترام يكشف أخلاق الناس وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه والحسن فيتعلمه، ويستمتع الملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول الفيلم البشري المعروض عليه»(٦).

٣- التحذير من المدنية الغربية

هذا المحور يمكن تصنيفه في الإصلاح الاجتماعي، لكني آثرت إفراده لخصوصية الموضوع، حيث يتبين لنا موقف الشيخ من هذا الوافد الغريب على مجتمعاتنا.

وقد أفرد عدة مقالات حول هذا المحور من أبرزها: «إلى أخي النازح إلى باريز، أعرابي في الحمام، أعرابي في السينما، لا أؤمن بالإنسان، وحي صورة». فمقال: إلى أخي النازح إلى باريز(٧) أنشأه الشيخ عندما ودع أخاه الدكتور عبد الغني مبتعثاً إلى باريز لدراسة الرياضيات، وعاد بشهادة الدكتوراه، وكان أول سوري يحصل على هذه الشهادة. ففي هذه الرسالة يزود أخاه الذي يغادر بلده الملتزم بالسلوك الإسلامي إلى باريس بنصائح يحافظ بها على نفسه، حيث يضيع هناك كثير من الذاهبين فيأتون بورقة تحمل شارة الحصول على العلم، ولكنهم يفقدون دينهم.

حتى إنه ليقول له: «وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر احزم أمتعتك وعد إلى بلدك، وخل السوربون تنع من بناها، وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق»(٨).

٤- الحب

خص الشيخ علي الطنطاوي له مقالاً بعنوان «في الحب»(٩) وعرج عليه بعدة مقالات مثل (القبر التائه، مجانين، يا ابنتي، يا ابني، حلم في نجد، كتاب تعزية). إذ تحدث فيها عن الحب بمعناه السامي وبمعناه الهابط، وتحدث عن الحب العذري عند الشعراء، وعن الحب عند علماء النفس، وعن جب الطبيعة، وعن حب النفس، ويحذر المرأة في مقال (يا ابنتي) من دعاوي الحب العفيف الذي يزعمه دعاته، قائلاً: إن النظرة الأولى تعطي الإحساس بالجمال، والثانية تعطي الشعور بالحب، وهذا لابد أن يؤدي إلى اجتماع الذكر والأنثى، ويدعوها إلى صيانة نفسها، كما يدعو في مقال (يا ابني) إلى مراقبة الله والتقوى وضبط النفس بوسائله الشرعية إذا لم يجد الشاب وسيلة إلى الزواج الشرعي.

٥- التعليم

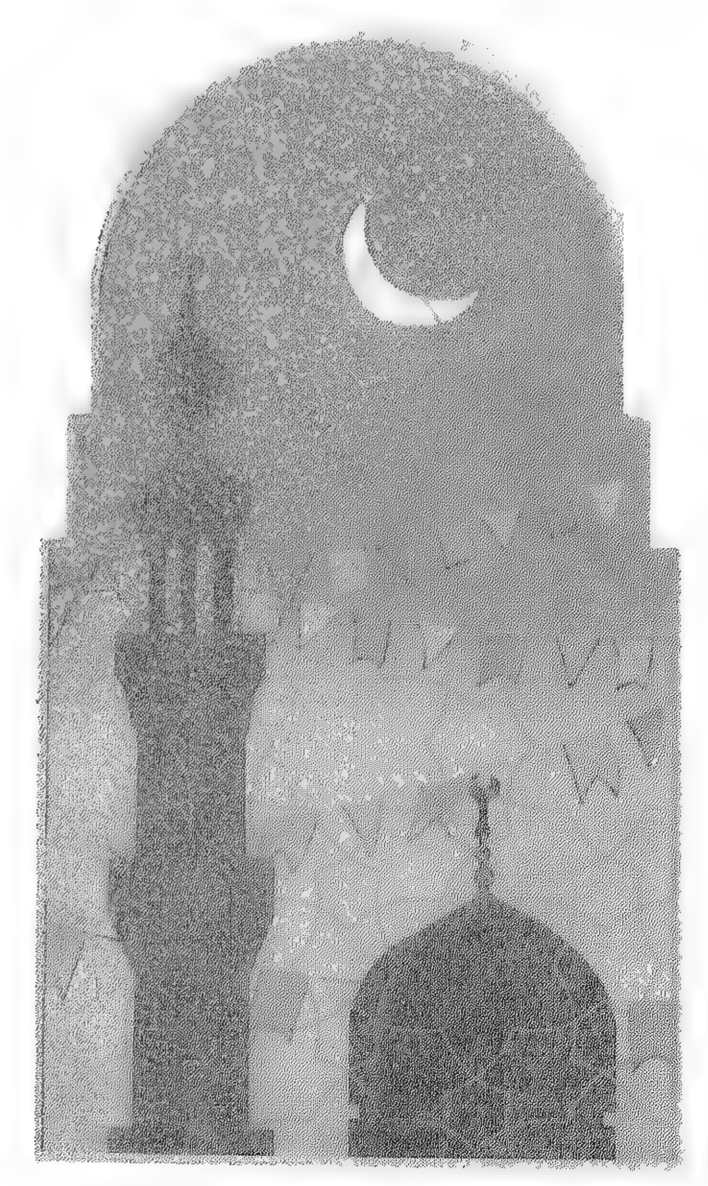
في مقالة (زورق الأحلام)(١٠) يعدد الشيخ علي الطنطاوي أسماء المدارس الأهلية التي علم فيها في دمشق وهي (الأمينية والكاملية والجوهرية، والتجارية). ثم صار معلماً في ظل الانتداب تحت الظروف المعيشية القاسية، ويصطدم مع الحاكم المستعمر فينقل في أقل من ثلاث سنوات بين خمس من القرى يقول الشيخ: (وآذيتهم بقلمي ولساني فتركت الشام وسافرت إلى العراق، وكان لي في العراق إخوان، وكان لي تلاميذ، منهم من صار رئيس جمهورية(١١)، .. ومنهم من لست أحصي ممن صاروا وزراء وصار منهم كبار القضاة، والقادة والضباط. ما كان أحلى أيامي في العراق. وصرفتني موجة أخرى إلى لبنان، فعملت في بيروت سنة ١٩٣٧، وصار تلاميذي فيها أساتذة في الجامعة، وناس من كبار الناشرين وأصحاب المجلات، وصار منهم رئيس القضاء الشرعي، ومنهم



عبدالغني الطنطاوي

الشاب[١٢] الصالح الذي سرني وفرح قلبي أن سمعت من أيام نبأ انتخابه بالاجماع مفتياً للبنان»[١٣].

ويذكر طرفاً من أخبار زملائه ومدرسيه ومدير المدرسة وكان من أساتذته الأجلاء سعيد مراد شيخ المعلمين ومدير الثانوي، والأستاذ حسني كنعان،وجميل مراد، والشيخ محمد النابلسي، وذلك في المدرسة السلطانية الثانية يومئذ وقد دخلها من الصف الرابع بعد أن كان في الصف الخامس في المدرسة التجارية[١٤] وكان من خبر الشيخ علي الطنطاوي مع أستاذه سعيد مراد ما حكاه قائلاً: «ومرت أيام طوال وكنت يوماً على قوس المحكمة، وأمامي من المحامين والمتقاضين عشرات وعشرات فلمحت من نافذة القاعة الأستاذ (سعيد مراد) واقفاً في صحن الدار مع من ينتظر من الناس، وقد أحنت الأيام ظهره وأرعشت يديه، وسألته عما يأمر وأخذته من يده، فقلت لمن كان في المحكمة: هذا أستاذي وأستاذ الشام وأنا أستأذنكم في أن أؤخر دعاواكم لأقضي حاجته، فكانوا في عجلة من أمرهم، فلما رأوا ذلك قالوا جميعاً: نعم ونحن راضون، فأقعدته على كرسي، وانطلقت أحمل أوراقه بنفسي، فرأيت دموعه تتساقط من خلال لحيته البيضاء[١٥]» هذا هو الشيخ علي الطنطاوي معلماً يتفانى في تعليم تلاميذه، وهذا هو تلميذاً يتفانى في خدمة معلميه، ويقبل يده على ملأ من الناس وهو قاضي محكمة النقض!!، وله مواقف أخرى يضيق المجال عن ذكرها.



٦- التوجيه الديني

أما نقده الديني فيتناوله من جهة التحليل النفسي أكثر، ويكشف عن كثير من الممارسات الخاطئة لدى الدعاة أو المتدينين مما يلبس الشيطان فيه على الناس، وذلك من قبيل ما وضحه ابن الجوزي في تلبيس إبليس، أو ابن قيم الجوزية في مصائد الشيطان، فيتحدث عن رمضان، وعن الصلاة، وعن المشاعر التي تعتري المرء في عبادته. وأبرز مثال لهذا المحور مقالان وهما: «رمضان، ويوم مع الشيطان».

في حديثه الإذاعي «رمضان» يوازن بين رمضان يومه، ورمضان أمسه قبل أربعين سنة، في ذاكرته وإحساسه وقلبه فينزل إلى شوارع دمشق وأسواقها ومساجدها وأحيائها فلا يجد شيئاً مما كان يعرف ويرى تناقضات صارخة أمامه فلا رمضان يعرف دمشق القديمة ولا دمشق الجديدة تعرف رمضان.

«أما رمضان الجديد فلا تعرفه هذه الشوارع الجديدة، والأحياء الحديثة،ولم يعرف بعد الطريق إليها، ودمشق القديمة لم يعد يستطيع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوءة بالنائمين، والمتحدثين والمدرسين الجاهلين، والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين، والصائمون تسوء أخلاقهم في رمضان من الجوع وشهوة الدخان،والشياطين تصفد في رمضان ولكن الفساق ينطلقون عاملين كما كانوا يعملون قبل رمضان»[١٦].

رمضان نور على المآذن، ونور في القلوب، رمضان صوم عن الطعام، وصوم عن الحرام،.. وإن كانت الدنيا للتناحر والخصام، فهذا الشهر للحب والوئام»[١٧].

٧- النقد الأدبي

كان الشيخ علي الطنطاوي ناقداً حاضر البديهة مع استطراده، يحب النكتة اللطيفة، والدعابة الظريفة مع حزمه وجده، وطرائفه وفكاهاته ذات مغزى عميق.

فالطرائف عند الشيخ ثوب خفيف مشوق يقدم فيه المعاني العظيمة خفيفة الوقع على النفس فيبلغ بذلك ما يبلغه الواعظ الجاد الذي يزلزل القلوب ويهز النفوس. أما مقال «ديوان الأصمعي»[١٨] الذي وسمه بعبارة «للتسلية والأحماض». ففي تسلياته وأحماضه أنواع من النقد شتى اجتماعية وسياسية ودينية وأدبية. ولعل الأدب هو الغالب، وفيه يخلط أسماء المعاصرين بالقدماء، ويلغي الزمان والمكان، فيقدم مقالاً حافلاً بالمعاني العميقة، والإشارات اللماحة السريعة لا يفهمها إلا من كان مطلعاً على العلوم والآداب ويعرف في الأشخاص من هو معاصر ومن هو قديم. وأنقل من مقدمة المقال نموذجاً : «قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء لم سمي أحمد بالشوقي؟ قال: لقد سألت عن هذا جدي أبا العلاء (يعني المعري) قلت:

وهو غير أبي علي المصري. فقال: سمي بذلك لأنه أكثر في شعره من ذكر الشوق. قلت: فلم لقب إبراهيم بالحافظ؟ قال: لكثرة حفظه الحديث!.

قال وحدثني إبراهيم المازني عن جده أبي عثمان المازني، أنه قال: لقد لقيت من الحفاظ من لا أحصي، فما وجدت مثل الحافظ إبراهيم. قلت: فما بلغ من حفظه؟ قال: إنه كان يحفظ أيام الأسبوع، وشهور السنة، ويعد الخلفاء الراشدين لا يغيب عن ذهنه أحد منهم!

قال إبراهيم بن عبد القادر المازني: فعجبت من ذلك ورويته في كتابي (قبض الريح في أخبار رواة الصحيح).

قال: والمازني لم يكن من بني مازن، ولكنهم ادعوه، وسبب ذلك أنهم سمعوا قصيدته المشهورة:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

فأعجبتهم، فردوا عليه إبله. وأكرهوا بني اللقيطة على تقبيل يده، وسؤاله الدعاء. قلت: وزعم أبو عبيدة أن اللقيطة أمهم. والصحيح أن «اللقيطة» قصة مطبوعة في مصر. وهكذا يمضي الشيخ في هذه المقالة الأدبية النقدية العجيبة في ثوب الطرائف واللطائف حتى يكاد القارئ يبتسم مع كل جملة للنقد اللطيف في ثوبه الظريف.

وهاجم توفيق الحكيم بخصوص كتابه (حماري قال لي) فيما سمي بين الأدباء بحمار الحكيم على سبيل الإضافة أوالصفة يقول الشيخ الطنطاوي «قال الأصمعي: وكان حماراً



توفيق الحكيم

هذا من كبار الحكماء، ولكن أهل مصر اطرحوه انتصاراً منهم للقفطي، فلم يذكره إلا رجل من أبناء عمومته يقال له توفيق الحكيم.

قال النووي: وتوفيق الحكيم وضاع لا يقبل له حديث، ذهب إلى قرى مصر نائباً في الأرياف فأهمل عمله وخان أمانته، وصار يفكر في الرقص والغناء، وهو على كرسي النيابة في المحكمة، والقاضي ينتظر مطالعته، والظنين يرقب ما تنفرج عنه شفتاه، فلما أفاق، زعم أن نومه معجزة، وأنه كان مع أهل الكهف.

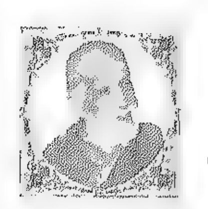
قلت: وكان يكتب في القهوات وعلى أرصفة الشوارع ويزعم في «الرسالة» [19] أنه يكتب من البرج العاجي»[20] ففي هذه الفقرة انتقد الشيخ توفيق الحكيم في كتابيه (حماري قال لي) و(يوميات نائب في الأرياف)، وطعن في سلوكه وأسلوبه في الكتابة.

وانتقد الشيخ الطنطاوي في «ديوان الأصمعي» د. طه حسين فسماه طه بن الحصيني، و(الحصيني) حيوان يشبه الثعلب، وفيه إشارة إلى مكره الفكري ومخادعته وسرقته لأفكار المستشرقين ونشرها على أنها له.

ومن المقالات التي أنشأها في النقد الأدبي (الأعرابي والشعر). وهو المقال الثالث الذي بناه بأسلوب القصة المحكية على لسان (صلبى) البدوي بعد مقاليه أعرابي في حمام،وأعرابي في سينما، فهنا يدله (صلبى) على أعرابي لم تخالط العجمة لسانه، ولم يخالط المدنية الحديثة، حيث يكتشف خلال حكم الملك عبد العزيز - رحمه الله- قبيلة (السوالم) العربية الذين يتكلمون الفصحى كما كان في العصر الأول، ويحضر شيخ القبيلة إلى السفارة السعودية في دمشق فيدل (صلبى) الشيخ علي الطنطاوي إليه لكونه من المعنيين بالشعر والأدب، فيجتمع الطنطاوي بشيخ السوالم ويتحاوران في الأدب والأدباء قديمه وحديثه.

ومن مقالاته التي أنشأها في النقد الأدبي مقاله «نداء إلى أدباء مصر» يشيد فيه بأسلوب جبران مع ما فيه من مخالفة لقانون اللغة وقواعد العربية «لما حمل من الصور البيانية، والمجازات المستحدثة، والتشبيهات التي لا نظير لها، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة، لأن علماءها لم يقرؤوا مثلها، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حي، وخيال قوي، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي فيكون نادرة الأساليب ومفخرة الأدب، وهيهات»[21].

غير أنه يهاجم مضمون أدب جبران هجوماً عنيفاً ويطرح به أرضاً، لأنه يدعو إلى الرذيلة ويمجدها ويقدم الآثام في ثوب من الأدب المزخرف الذي يغوي الناشئة.



وينكر أشد الإنكار أن يكون الفن في تزيين الرذيلة فيقول: « إن الذي أعرفه أن الفن هو الذي يبحث عن «الجمال» بحْثَ العلم عن «الحقيقة» وأنه يدرك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل، فمن قال إن الجمال لا يكون إلا في الفحشاء والمنكر؟[٢٢].

«إن من كانت هذه مقالتهم لم يأتوا بجديد إلا أنهم لم يسموا الرذيلة رذيلة ولا الفحش فحشاً وإنما سموه فنا، والجنون فنون»[٢٣]

أما الأدب في رأي الشيخ فله غاية وهي «تهذيب الطباع وصرف العواطف إلى الخير وتنبيه الضمائر الغافلة، وإيقاظ الهمم والمروءات وما إلى ذلك مما يكون منه نفع للناس[٢٤] ومن ثم يوجه نداءه إلى أدباء مصر قائلاً: «يا أدباء مصر: إن العالم العربي ليسمع منكم ويقتدي بكم فإن أنتم لم تسلكوا به سبيل الإصلاح وتدلوه على طريق الخير كان عليكم أكبر الوزر»[٢٥].

ويدور مقاله «نحن المذنبون» في المحور نفسه، إذ ينحي باللائمة على كتب الأدب التي تنشر الرذائل بصنع الكلام الجميل،ويتبرأ من هذا النوع من الأدب قائلاً: «وأنا أديب، ولكن إن كان هذا هو الأدب فاشهدوا علي أني طلقت الأدب طلاقاً لا رجعة فيه.. إن كان هذا هو الأدب فلعنة الله على الأدب.. لعنة الله على الشعر الجميل والوصف العبقري إذا كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والفضيلة والعفاف»[٢٦]

ويسلك عدداً من الأدباء في هذا السلك من عرب وعجم، من المحدثين والقدماء مثل بيرون، وجبران وبودلير وبشار وأبي نواس وبلزاك وإسكندر دوماس ثم يقول «وشر من هذه الكتب كلها، كتاب «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم لأنه دعوة صريحة للعبث بالأمانة الزوجية، وأن تشرك المرأة حبيبها مع زوجها في جسدها »[٢٧].

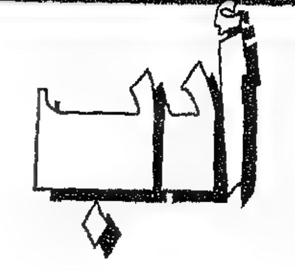
ويذكر واقعة طريفة لهذا الكتاب، وذلك أنه كان في عام ١٩٤٥م في مصر حيث أقيم له حفل تكريم، وكان من المتكلمين في الحفل «الشاب العالم الصالح عبد الرحمن الباني[٢٨] .. وكان طالباً في الأزهر فألقى خطبة عاب فيها على الأدباء المسلمين سكوتهم عن إنكار منكرات النشر، وضرب المثل بهذا الكتاب، وبلغت به الحماسة أن طوح به فألقاه عليَّ من فوق المنبر، وقال: خذ.. انظر ماذا يكتبون وأنتم نائمون؟ وأصابني الكتاب بضربة على وجهي، ولكني لم أغضب، ولم أردد عليه مثلها بل احتملتها صابراً لأن الحق كان معه! لأننا نحن المذنبون»[٢٩]

وفي مقاله (أنا والإذاعة) يعيب أن يكون الأدب ساحة لكل واحد يحمل قلماً فيكتب به ما يريد « وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى: كل يدعيه، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة، ويجد صفافاً يصف له حروفه، وصاحب جريدة ينشره، فهو كاتب بليغ، وكل من يأتي بلفظ موزون، أو شبه موزون فهو شاعر مفلق، وكل من يحفظ خبراً عن أبي تمام والمتنبي أو هوغو ولامارتين، أوشكسبير وملتون، فهو أديب أريب، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أوبباطل فهو ناقد محق. ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام،ويتكلم كما يتكلمون، ففكر تفكيراً غير آدمي وتكلم كلاماً ليس بإنساني، فهو شاعر رمزي، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي فالقراء جاهلون رجعيون جامدون»[٣٠].

فهذا هو شيخ الأدباء، وأديب الشيوخ علي الطنطاوي، كل كلمة يكتبها، وكل عبارة يصوغها، وكل فكرة يطرحها يهدف بها إلى غاية الإصلاح.. إصلاح الإنسان على أساس من الدين القويم، واقرأ ما شئت فلست بواجد عنده العبارة الجافة ولا الأسلوب الجافي، ولا الفكرة الغامضة. فهو مع الناس كنفسه، وسره كعلانيته، ووعظه كأدبه، وأدبه مستمد من البيان القرآني والهدي النبوي. سقى الله مثواه بفيض الرحمات، وأسكنه فسيح الجنات.■

الهوامش:

١- للمؤلف كتاب بعنوان: من حديث النفس.
٢- صور وخواطر، مقال: عام جديد، ص ٥.
٣- للمؤلف كتاب في سبيل الإصلاح.
٤- تسعة قروش، ص ٢٢.
٥- ص ٩٩
٦- في الترام ص ١١٢
٧- ص ٤١
٨- ص ٤٦
٩- ص ٢٠٩
١٠- ص ٢٢٣
١١- [illegible] عارف -رحمه الله.
١٢- [illegible] رحمه الله.
١٣- ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
١٤- ص ٢٦٤
١٥- ص ٢٦٥
١٦- ص ١٤٦
١٧- ص ١٦٣.
١٨- ٢٢٢ - ٢٢٣.
١٩- مجلة الرسالة كان يصدرها أحمد حسن الزيات.
٢٠- ص ٢٢٦.
٢١- ص ١٩٧
٢٢- ص ١٩٨ - ١٩٩
٢٣- ص ١٩٩
٢٤- ص ١٩٩
٢٥- ص ٢٠١
٢٦- ص ٢٠٣
٢٧- صار مفتشاً للتربية الدينية في وزارة المعارف السورية.
٢٨- ص ٢٠٥
٢٩- ص ٢٠٥
٣٠- ص ١٧٧





أدب الرحلات عند الطنطاوي

كان لفضيلة الشيخ والأستاذ الأديب علي الطنطاوي رحمه الله، دور بارز ومتميز في ميدان الرحلات، لكثرة رحلاته وتنوعها واتساع مداها، ولتناوله لهذه الرحلات فيما كتب من مقالات وما نشر من مؤلفات.

وقد بدأ رحلاته مبكراً، فبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة «البكالوريا» سنة ١٩٢٨م، كثرت رحلاته إلى دول مجاورة أو بعيدة، وتعددت وتنوعت أهدافها بين طلب العلم والعمل والعبادة والاكتشاف والدعوة، والعمل لقضايا الأمة والمشاركة في المؤتمرات الإسلامية.

ولو اقتصرت رحلاته هذه على تحقيق ما هدف إليه منها لنسيها هو ولم نذكرها نحن، ولكنه عمد إلى الحديث عنها، والكتابة فيها، كما فعل الشعراء في ارتحالهم، والمستكشفون في جولاتهم.

والشيخ الأديب علي الطنطاوي ذو قلم سيال إذا كتب، ولسان ذرب إذا تحدث، وخيال مجنح ونفس مرهفة وعين دقيقة في التقاط كل جديد وعجيب ومثير ومؤثر، كما أن ذاكرته قوية في الاحتفاظ بما يراه أو يسمعه أو يدركه، فقد بقي متوقد الذهن يستعيد المشاهد، حتى حين بدأ يكتب ذكرياته، أو يتحدث عن رحلاته بعد مضي نصف قرن على بعضها.

لقد جوّب في الآفاق، فزار مصر والعراق والحجاز مراراً، كما زار إيران وباكستان والهند وسنغافورة وماليزيا وأندونيسيا، وزار ألمانيا وأماكن أخرى، ولم يفته أبداً أن يتحدث أو أن يكتب عن كل زياراته هذه، حتى استغرقت قسماً كبيراً من حلقات ذكرياته، كما شغلت حيزاً كبيراً من أحاديثه الإذاعية والتلفزيونية، وأصدر حولها عدة كتب سجلها بأسلوبه الأدبي الجذاب.



بقلم: صدقي البيك
فلسطين

تنوع ما يتناوله في رحلاته

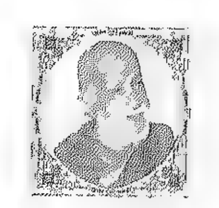
وهو في حديثه عن رحلاته لم يكن يكتفي بذكر جمال طبيعة البلاد التي يزورها أو قسوة الظروف التي يعانيها، بل كان يبرز دائماً ما خلفته هذه الديار من أثر في مشاعره وأحاسيسه، ويستعرض أحياناً تاريخ تلك البلاد بإيجاز، ودخول الإسلام إليها، والظروف الاجتماعية التي يعيشها الشعب فيها، وعاداته وتقاليده، وما قام به من بطولات وما قدمه من تضحيات حتى تحرر من الاستعمار، فهو يقول «وأنا حين أهم بالكتابة عن بلد لا أصف طبيعة أرضه، ولا تحديد مساحته وحاصلاته، ولكن أحاول أن أصف مدى شعوري به ومبلغ ماله في نفسي»[١].

وقد تحدث بتفصيل أو بإيجاز في «ذكرياته» عن زيارته إلى مصر مروراً بفلسطين[٢] وعن زيارته إلى بغداد سنة ١٩٣٦[٣] وعن زيارته إلى القدس ١٩٥٤ [٤]، وإلى كراتشي ودلهي[٥] وسنغافورة وماليزيا[٦] وأخرى إلى ألمانيا ١٩٧٠[٧]، كما تحدث عن قدومه إلى الرياض[٨].

رحلته عبر صحراء الحجاز

ولكثرة رحلات الشيخ علي الطنطاوي، فلن أتناول منها إلا رحلتين:

أما الأولى منهما فهي رحلته إلى قلب الصحراء التي لم يكن فيها طريق مسفلت ولا ممهد، وقد اضطر ورفاقه في الرحلة إلى أن يبعدوا عن الطرق المسلوكة، فامتطوا خمس سيارات



وانطلقت القافلة من دمشق عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) لاكتشاف طريق بري للحج بالسيارات يربط الشام بمكة المكرمة، وحالت السلطة في شرقي الأردن أيام الاحتلال الإنكليزي دون مرورهم فيها، فاضطروا إلى الضرب في أعماق البادية، مبتعدين عن المناطق المأهولة أو الخاضعة لسيطرة أبي حنيك «غلوب باشا»، ولاقوا في ذلك الطريق أهوالاً ومشاق تتضاءل أمامها معاناة المسافرين على الجمال! فالطريق بين دمشق ومكة يقطعها راكب السيارة حديثاً في أقل من يوم، ولكنهم قضوا ثمانية وخمسين يوماً في رحلتهم تلك.

فقدانه مذكرات الرحلة

وقد كان الطنطاوي عازماً على تسجيل رحلته هذه وتدوين كل ما يلاقيه فيها أو يطلع عليه من معالم جغرافية واجتماعية، يقول: «وعزمت أن أدون الرحلة ولا أكتفي بما تحمل ذاكرتي، فاتخذت دفتراً كتبت فيه كل طريق مشينا فيه، وكل جبل مررنا به، وكل أرض حللنا بها، ودونت أنساب وعادات وأحوال من لقينا فيها» وهو بذلك يحاول أن يجعل وصف رحلته أدق وأعمق ما يكون.. ولكنه فقد دفتره هذا بكل ما فيه من معلومات قبل وصوله إلى المدينة المنورة! فاضطر إلى الاعتماد، فيما كتب بعد ذلك على ذاكرته، وبعث بمقالاته إلى مجلة «الرسالة» في القاهرة و«ألف باء» في دمشق، كما أنه عاد إلى هذه الرحلة وتحدث عنها في ذكرياته في حدود عشر حلقات من الجزء الثالث.

وهو يصور لنا فيما كتبه عن رحلته هذه الطبيعة القاسية للأراضي التي مر فيها، فهي جبال وصحارى ووديان لم تطأها أقدام مسافرين من قبل، لأنهم اضطروا إلى الابتعاد عن الطرق المسلوكة من قبل، فيقول مثلاً: «وصلنا إلى حرة من أوسع الحرار وأعجبها ملتوية من الأراضي مفروشة بحجارة سوداء لامعة، أكثرها حاد الأطراف كالسكاكين.. وكنا ننزل من السيارة فنزيح الأحجار من طريقها، وإذا بلغنا هضبة لا تقوى السيارة على صعودها ربطنا السيارة بالحبال وجررناها ودفعها ناس من خلفها!! وقطعنا تسعين كيلاً.. خرجنا منها فوجدنا أنفسنا أمام «مركز الأزرق» الحدودي الذي هربنا منه»[٩].

عيوب الرحلة

ويقول في مكان آخر «حتى الطبيعة من حولنا لا أحس منها إلا ما يبعث الخوف وينفي الأمان: تلال الرمل وصخور الجبال، وأرض تشتعل رمضاؤها وتنفث لهباً سماؤها، وسراب رأيته أول مرة فحسبته ماء.. فهو كالشهرة والمجد والجاه.. يتمناها المحروم ولا يشعر بالمتعة بها من أوتيها»[١٠].

ولم يتحرج عن ذكر عيوب هذه القافلة وسلبياتها وأخطائها ونواقصها، فلم يكن معهم خريطة للمنطقة ولا بوصلة، ولا أمير للركب «وكنا كعادتنا دائماً: كنا جميعاً أمراء!! فكانت رحلتنا مثلاً في باب عدم التنظيم، أي أنها المثل الكامل للفوضى»[١١]. وفوق كل ذلك اتخذوا دليلاً في الصحراء، تبين لهم بعد فوات الأوان، أنه جاهل لا يعرف الطرق، ولم يركب في هذه الصحراء سيارة من قبل، أو أنه قليل الخبرة ولكنه خير منهم، فهم لا خبرة لهم.

في مركز حدود السعودية

وكان يقف طويلاً عند عادات أهل البادية الذي مروا بهم، فوصفهم ووصف مساكنهم ومعيشتهم وتقاليدهم، فيقول عن وصولهم إلى أول مركز حدود للمملكة العربية السعودية: «رأينا ثلاثة شبان بأثواب عربية فوقها رداء عسكري، يهبطون لاستقبالنا، بوجوه يشرق فيها الكرم.. وعليهم مناطق الرصاص وبأيديهم بنادق جديدة وعليها كتابة قرأتها فإذا هي «وقف الله تعالى وقفه عبد العزيز..» وساروا أمامنا حتى بلغنا الخباء في أعلى التل، فإذا فيه البسط والجلود ورحل جمل يتكئ عليه الجالس، وفي وسط الخباء حفرة فيها نار موقدة حولها دلال القهوة.. وواجبهم الرسمي أن يتحققوا من أسمائنا ويستقروا أحوالنا وهم في حيرة من أمرهم بين هذا الواجب الرسمي وبين كرم المضيف، حتى حل هذه المشكلة كبير الرحلة الشيخ ياسين الرواف فأطلعهم على الجوازات، وبعد أن أدوا واجب الوظيفة تفرغوا لأداء واجب الضيافة العربية»[١٢].

مساجد القريات

كما أنه يصف المساجد في «القريات»[١٣] في تلك الأيام فيقول «والمساجد خالية من الزخارف دانية السقوف، تقوم سقفها على عمد كثيرة متقاربة من جذوع النخل ومن اللبن، وأرضها مفروشة بالرمل، لا سجادة ولا بساط ولا حصير!!» ولا يسكت عما يرى أنه مخالف لرأيه فيقول: «أنا رجل سلفي، ولكني لست ظاهرياً أتمسك بحرفية النص وأحبس نفسي في حدود الألفاظ.. فلما كانت أرض البيوت من التراب كانت المساجد كذلك، أما أن نتخذ لبيوتنا أغلى السجاد العجمي و... ثم نجعل أرض المسجد من التراب وندوس عليه بالأحذية.. فلا»[١٤].

مجلس الملك عبدالعزيز

ويتابع رحلته إلى تبوك ثم المدينة فجدة ومكة، حيث أمضوا أسبوعين، ويصف زيارة الوفد للملك عبد العزيز «دخلنا مجلس الملك فقام لنا، وكان يقوم للداخل.. ورأيت أولاد الملك صفاً عن يمينه على ترتيب أعمارهم، ورأيتهم إن جاء أمير منهم تنحى له من هو أصغر منه، ولو بأسبوع حتى يأخذ مكانه بحسب عمره، وكان يدخل عليه من الناس من شاء، وكان أهل البادية يدعونه باسمه «والله يا عبد العزيز!»[١٥].



في تبوك ١٣٥٢ هـ

من مصاعب الرحلة

ولم تكن روحه المرحة تفارقه في كتاباته عن رحلته هذه، وهي روح تشيع في كثير من كتاباته وأحاديثه، فهو يتحدث بعد مفارقتهم تبوك أنهم مروا بجوار خط سكة الحديد والأرض قاسية أو فيها رمال تغوص فيها عجلات السيارات، فاقترح أحدهم أن يستفيدوا من طريق القطار الممهد أو من السكة الملساء المستوية فأعجبهم الاقتراح وجروا السيارات حتى صعدت إلى طريق القطار، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً لأن جنبات الطريق شديدة الانحدار، فلما وصلوا وسارت السيارات فوق الطريق لاقوا من الاهتزازات العنيفة بسبب العوارض التي تمسك القضبان الحديدية، فكانت أقسى عليهم من الحفر ومن الصخور، فآثروا بعد ذلك السير على الأرض، وتركوا خط القطار! وأنزلوا السيارات فلاقوا في إنزالها أشد مما لاقوا في رفعها، خوفاً من انزلاق السيارات وانقلابها، وما أكثر المشاهد المضحكة في سرده للمواقف العصيبة.

رحلته إلى إندونيسيا

وإذا كانت رحلته إلى الحجاز غلب عليها وصف الطبيعة القاسية وعرض الأهوال والمخاوف التي لاقتها القافلة، فإن له رحلة أخرى أبعد مدى وأطول زمناً وأمتع طبيعة وألين جانباً، إنها رحلته إلى إندونيسيا التي قام بها عام ١٩٥٤م في وفد أرسله المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس لنصرة فلسطين، وشرح القضية للمسلمين ليشاركوا فيها جهاداً بأموالهم.

وقد استغرقت رحلته هذه ثمانية أشهر جال خلالها في أرجاء العالم الإسلامي شرقاً حتى وصل إلى أندونيسيا، مروراً بالعراق وباكستان والهند وبورما وسيام والملايو وسنغافورة، وبعد أن عاد سجل رحلته هذه عبر أحاديثه الإذاعية ومقالاته في مجلة «المسلمون» ثم جمع ما أذاع وما نشر في كتاب اسمه «في إندونيسيا.. صور من الشرق» وتحدث عنها أيضاً في ذكرياته. وهو كلما وصل فيما كتب إلى دولة أو مدينة وقف عند طبيعتها يستجلي جمالها وخضرتها وأنهارها الجارية وجوها اللطيف، وتحدث عن تاريخها الغابر، وعن وصول الإسلام إليها، وتناول واقعها المعاصر من ثوراتها التي أوصلتها إلى الاستقلال، وحركاتها السياسية وتطوراتها الاجتماعية والعمرانية، وعادات شعوبها، وكأنه آلة تصوير للصورة والصوت، مع لمس المشاعر والأحاسيس والعقائد والمواقف.

جاوة جنة الدنيا

فهو عندما وصل إلى جاكرتا رآها جنة الدنيا وعدها «سويسرا الشرق» فيقول: «وليست جنة الدنيا الشام ولا لبنان ولا سويسرا، ولكنها جاوة، من رآها فقد علم أني أقول حقاً، ومن لم يرها لم يغنه عن مرآها البيان. أمضيت فيها يومين ما رأيت في حياتي يومين كانا أمتع لنفسي متعة وأحلى في عيني منظراً وأبقى في قلبي أثراً منهما، قطعت فيها الجزيرة بالقطار في طريق ما رأيت ولا سمعت، ولا أظن أني سأرى أو أسمع أن في الدنيا طريقاً أجمل منه!»[١٦].

وكان يقف في وصفه عند بعض مغانيها فيصور بقلمه جمالها.

بين الماضي والحاضر

وهو يتناول في الحديث عن إندونيسيا، دخول الإسلام إليها من قبل ٦٥٠ سنة أي قبل أن يصل إليها ابن بطوطة في رحلته الطويلة، على أيدي التجار المسلمين، وقيام دولة إسلامية فيها صارعت بعد ذلك الاستعمار البرتغالي ثم الهولندي، واستئنافها الثورة في أواسط القرن العشرين حتى نالت استقلالها عام ١٩٤٥م. ولم ينس أن يعقد فصلاً للحديث عن وصف ابن بطوطة لجزيرة الجاوة «يقصد سومطرة» وإبرازه جمالها وأنواع أشجارها وعادات أهلها وملابسهم في تلك الأيام..

كما تحدث عن واقعها السياسي ودور الحركة الإسلامية والجمعيات والأحزاب الإسلامية ومنها شركة إسلام، والجمعية المحمدية، ومجلس الشورى الإسلامي «حزب ما شومي»، وجمعية نهضة العلماء، والجماعة الإسلامية، كما تحدث عن «دار الإسلام» في إحدى جزر إندونيسيا، وعن الحركات التنصيرية فيها والمدارس الأهلية والإسلامية.

مشاهد من إندونيسيا

ويتناول عادات أهلها وطباعهم فيقول: «والقوم في إندونيسيا أرق الناس نفساً وأرهفهم حساً لا يحتملون شدة ولا عنفاً، ولقد لمت السائق مرة على ذنب أذنبه ورفعت صوتي عليه فبقي أياماً متألماً، وما سمعت في إندونيسيا ضجة، فالشوارع تكاد تكون هادئة، والكلام يكاد يكون همساً، وما رأيت فيها «خناقة»، والخناقات في الشوارع مقياس أعصاب الأمم.. وفيها لا يكون سبٌ أبداً لأن لغتهم، كما أظن، خالية من ألفاظ السباب!!»[١٧]



الشيخ علي الطنطاوي يخطب لشرح قضية فلسطين في إندونيسيا

ويتحدث عن وسائل النقل في داخل جاكرتا، وأكثرها انتشاراً الدراجات، حتى ظن ورفيقه عند جولته الأولى فيها أن هناك موسم سباق بالدراجات «الهوائية» وهي «يركبها الصغير والكبير والرجل والمرأة، وربما أردفت الفتاة وراءها أخرى أو رجالاً، لا يرون في ذلك بأساً، وإن بدا من الراكبة ما تخفي الفتاة عادة شرعاً من أعضائها، وأغرب من ذلك «في التكشف» أن فيها نهراً فيه ماء قليل ينزل إليه الرجال والنساء عراة إلا ما يستر السوأة الكبرى، فيغتسلون معاً.. ولم أجد من ينكر عليهم هذا المنكر!!»[١٨]

وهذا من استطرادات الطنطاوي التي اشتهر بها في أحاديثه وفي كتاباته أيضاً! ثم يعود ليكمل حديثه عن وسيلة نقل أخرى هي «الركشة» وهي «عربة صغيرة لها مقعدان يجرها إنسان يعدو بها حتى يتصبب عرقاً ويلهث تعباً» ثم يذكر أنواعها المتطورة ويقارن بينها وبين مثيلاتها في كلكتا وكراتشي.

عجَبٌ من عجب

ويصف احتفال المسلمين بعيد نزول القرآن ويحددون له يوم ١٧ رمضان «ويجعلونه أكبر أعيادهم، ويحتفلون به احتفالاً ضخماً في القاعة الكبرى من قصر الرئاسة، ويشترك رجالهم ونساؤهم في الاحتفال، يجلس الرجال في المقاعد اليمنى والنساء في المقاعد اليسرى، لا يتجاورون في المجالس، وأكثر النساء الحاضرات قد ألقين المناديل على رؤوسهن، فسترن بها شعورهن. وافتتحت الحفلة بآيات من القرآن تلتها قائمة أمام المذياع زوجة الرئيس سوكارنو، بصوت رخيم وقراءة فصيحة صحيحة المخارج. وقد عجبت من قراءتها القرآن دون الرجال فعجبوا من عجبي!» [١٩].

نبات أم بنات؟

ويصف ملابس النساء في ثنايا عرضه لجمال الطبيعة فيقول واصفاً ما يراه عبر نافذة القطار «فكانت عن يسارنا مزارع الرز، وعن أيماننا الجبال تلبس فروة خضراء تتزاحم على سفوحها وذراها عمالقة الأشجار، يمشي في موكبها وبين أرجلها آلاف من أنواع النبات، فمن دخل هذه الغابات لم تره عين الشمس، ولم ير هو وجه السماء، لأنه يكون تحت سبعة سقوف من الأغصان والأوراق، ورأيت الزهر خلال نبات الأرز كالشقائق الحمر خلال خضرة القمح في بلادنا، فلما دنا بنا من ذلك القطار، رأينا ما حسبناه زهراً ليس بالزهر، وما ظنناه من النبات إنما هو البنات الحاصدات بأزرهن الملونة «الفوط» التي تحكي الزهر بنقشها ولونها، وعلى رؤوسهن قبعات الخوص الكبار، كأنها المظلات الملونة المنقوشة» [٢٠]



تصرفات سلبية

وإذا كان يسهب في وصف جمال البلاد والجوانب الإيجابية في سلوك أهلها ومعاملاتهم، فإنه لا يسكت عن إبراز الجوانب السلبية والعيوب في تصرفات بعض من تعامل معه أو ما رآه، فهو لم يسكت عن التكشف والتعري في أحد أنهار جاكرتا، وتحدث عن تصرف أحد مرافقيهما اللذين انتدبتهما الحكومة لذلك، «وكان معنا مرافقان يتكلمان العربية واحد من وزارة الشؤون الدينية، عالم فاضل أمين صادق، وآخر من وزارة الخارجية، رأيت الكثير من شره وضره، وتعلمت منه أن الكذب والاحتيال بضاعة موجودة في كل مكان، وأن الواحد ربما أساء بفعله إلى بلد بكامله، فقد كان يأخذ السيارة المخصصة لنا ويدعنا بلا ترجمان، نستأجر السيارات، ويأكل في المطعم على حسابنا، وهو يأخذ من الحكومة ما يدعي أنه صرفه علينا لأننا ضيوفها!!»[٢١]

الجودك

ويصف طعامهم السائد فيقول: «وهؤلاء يأكلون دائماً الرز المسلوق الذي يخلطونه بالفليفلة يعملونه كجرادق رمضان، والموز المشوي والمقلي والمطبوخ، والشاي البارد بلا سكر»[٢٢] . «وكنت كلما شكوت من هذا الطعام قالوا:ستذوق «الجودك» فتعرف مائدة الطعام الإندونيسي! فهو أفخر طعام في الدنيا.. فإذا بي أجد في فمي شوربة زيت الخروع بصبغة اليود! ولم أستطع أن أبتلع اللقمة.. فقلت: وا شوقاه إلى الشام وطعام الشام!»[٢٣] ولم يفته الحديث عن المساجد في جاكرتا وسعتها وجمالها[٢٤].

والحديث عن رحلات الشيخ علي الطنطاوي يطول بمقدار طول حديثه هو عن هذه الرحلات، والذي امتاز بدقة الوصف وكثرة التمثيل والإسهاب وكثرة الاستطراد، كما امتاز بأسلوبه الأدبي الرشيق الذي جعل رحلاته تتقدم على كثير من كتب الرحلات الحديثة التي اهتمت بالموضوعية أكثر من اهتمامها بالأسلوب. ■

الهوامش:

١- ذكريات ج ٨/١/٨، ط٢، ١٤٠٩/ ١٩٨٩م، دار المنارة، جدة.
٢- ذكريات ج١/٢٤١، نفسه.
٣- ذكريات ج٣/ ٢٤١ .
٤- ذكريات ج٥/١٢٢.
٥- ذكريات ج٥/١٧٧.
٦- ذكريات ج ٦/١٠٩.
٧- ذكريات ج ٧/٢٠٢.
٨- ذكريات ج٨/١٨١.
٩- ذكريات ج٣/٦٧.
١٠- ذكريات ج٣/٨٦.
١١- ذكريات ج٣/٥٧.
١٢- ذكريات ج٣/٧٤.
١٣- القريات: مدينة في شمال السعودية، الحدود الأردنية.
١٤- ذكريات.، ج٣/٨٢، نفسه.
١٥- ذكريات.، ج٣/١٣٨، نفسه.
١٦- كتاب: في أندونيسيا.صور من الشرق، ص ٩١. ط ٢، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م، دار المنارة - جدة.
١٧- السابق، ص ١٦٣.
١٨ - السابق ، ص ٨٥.
١٩- السابق ، ص ٨٦.
٢٠- السابق، ص ٩٢.
٢١- السابق ، ٩٤.
٢٢- السابق، ص ٩٥.
٢٣- السابق ، ص ١٠٤.
٢٤- ذكريات.، ج٦/١٥٩.

مع حدو القافلة!

علي الطنطاوي - رحمه الله -

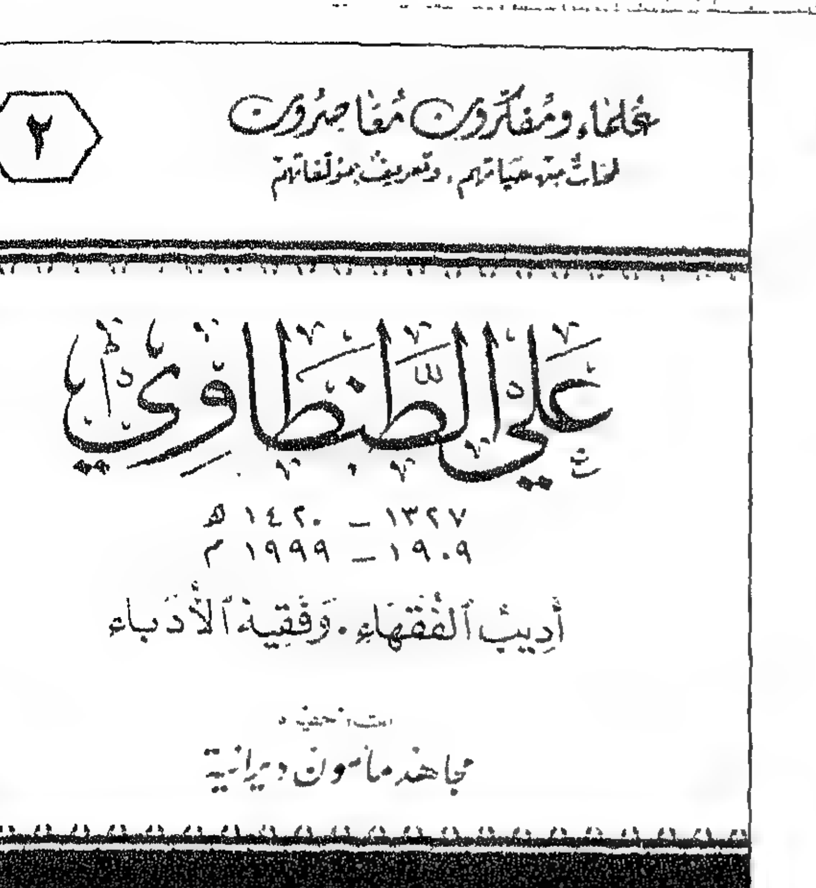
بقلم: محمد شلال الحناحنة
الأردن

أيها الراحل فينا من الوريد إلى الوريد، كيف نبكيك، وأنت أعمق من أن تحدوك قوافي الشعراء؟!

كيف نشدو لك أشواق الروح؟ فأي لغة شفيفة تراها تحيط بذكرياتك؟! كيف نحاور اليوم دمشق بكل ينابيعها المفعمة بدفء نبضك لتحنو عليك؟! أي تاريخ غدا قطوفاً دانية من صفاء أحاسيسك؟ أي تاريخ قرأناه معك عابقاً في حياة أبي بكر وأخبار عمر رضي الله عنهما؟ ترى أنى نحدثك وكل ما نسطره لن يفيض عن حديث أنفاسك؟!! أتموت واقفاً آبياً فقيهاً أديباً في الزمن الصعب، زمن التردي حين داهمنا ركام الخنوع والانكسار؟! أتموت شامخاً، وكنا نسألك حين تعز الأسئلة، حين نتوجس راجعين منحنين من ثقل المعصية؟! أتموت ونحن لم نزل نهدهد آهاتنا، نفر من نفحات الألم إلى : «نفحات الحرم» التي تداعب أزهار سطورك؟! من منا تراه سيهاتفك وأنت الذي هاتفت عروقنا اليابسة بأندى «هتاف المجد»؟! هل ترانا نشعل الجراح ثانية، وأنت الذي أشعلت جراحنا في «قصتنا مع اليهود» وأوغلت بنا في «صور من الشرق» الأسير؟ عم نتحدث إليك وأنت الذي أضأت حروفنا المتعبة في دمغ زيف الحضارة عبر «موقفنا من الحضارة الغربية»؟ هل من كلمات تتألق مع حدو القافلة أمام: «رجال من التاريخ» وأمام «عبد الرحمن بن عوف» أو «عبد الله بن المبارك»؟! وهل من باقات نقطفها إليك؟ ومن أي نافذة مشرعة سنأوي إلى رباك المزهرة وفينا كل هذا الأسى؟! ■

من مكتبة الأدب الإسلامي

الكتاب: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء
المؤلف: مجاهد مأمون ديرانية
الناشر: دار القلم - دمشق - سوريا
الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م



هذا هو الكتاب الثاني في سلسلة «علماء ومفكرون معاصرون .. لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم» وذلك بعد الكتاب الأول الذي أصدرته دار القلم عن الشيخ أبي الحسن الندوي لمؤلفه د. محمد اجتباء الندوي.

وكتاب «علي الطنطاوي» جاء من مؤلف قريب من الشيخ -رحمه الله- فهو حفيده وكان أولى المؤلفين بالكتابة عن جده في النسب، وجد الملايين في الأدب.

يقع الكتاب في ١٣٦ صفحة من القطع المتوسط، وقد قسمه المؤلف إلى فصلين ليعطي من خلالهما فكرة موجزة ومركزة عن الشيخ ومؤلفاته.

تحدث في الفصل الأول عن لمحات من حياة علي الطنطاوي تناول فيه أصله وأسرته، ونشأته ودراسته، وعمله في مجالات الصحافة، والتعليم، والقضاء، ثم فترة إقامته في المملكة العربية السعودية، ثم وفاته.

وفي الفصل الثاني «تعريف بمؤلفات علي الطنطاوي» بدأه بالحديث عن آثاره القديمة: أول مقالة نشرت له، وأول كتاب طبعه عام ١٩٣٠م، واسمه «الهيثميات» وكان عمره ٢١ عاماً، وما تلا ذلك من مؤلفات ذُكِرَتْ في مؤلفات الشيخ علي الطنطاوي في السيرة الذاتية من هذا العدد الخاص به من مجلة الأدب الإسلامي.

ثم قسم المؤلف كتب الشيخ إلى مجموعات على الشكل الآتي:

١- **الأدبيات** وتشمل: فكر ومباحث، صور وخواطر، مع الناس، هتاف المجد، مقالات في كلمات، قصص من الحياة، صيد الخاطر.

٢- **الإسلاميات** وتشمل: فصول إسلامية، في سبيل الإصلاح، تعريف عام بدين الإسلام، فتاوى علي الطنطاوي.

٣- **التاريخيات** وتشمل: أبو بكر الصديق، أخبار عمر، رجال من التاريخ، أعلام التاريخ، قصص من التاريخ، حكايات من التاريخ، دمشق، الجامع الأموي.

٤- **الذكريات** وتشمل: من حديث النفس، من نفحات الحرم، بغداد، صور من الشرق «أندونيسيا»، ذكريات علي الطنطاوي - ثمانية مجلدات.

وهذا التقسيم من المؤلف اجتهادي تقريبي، وأي قارئ يمكن أن يلاحظ التداخل بين أدبيات الشيخ وتاريخه وذكرياته وإسلامياته. وأشار المؤلف إلى هذا قائلاً: «لا يكاد يكون ممكناً فصل مجموعة بعينها من كتابات علي الطنطاوي دون باقي كتاباته بأنها كتابات أدبية..» إلخ.

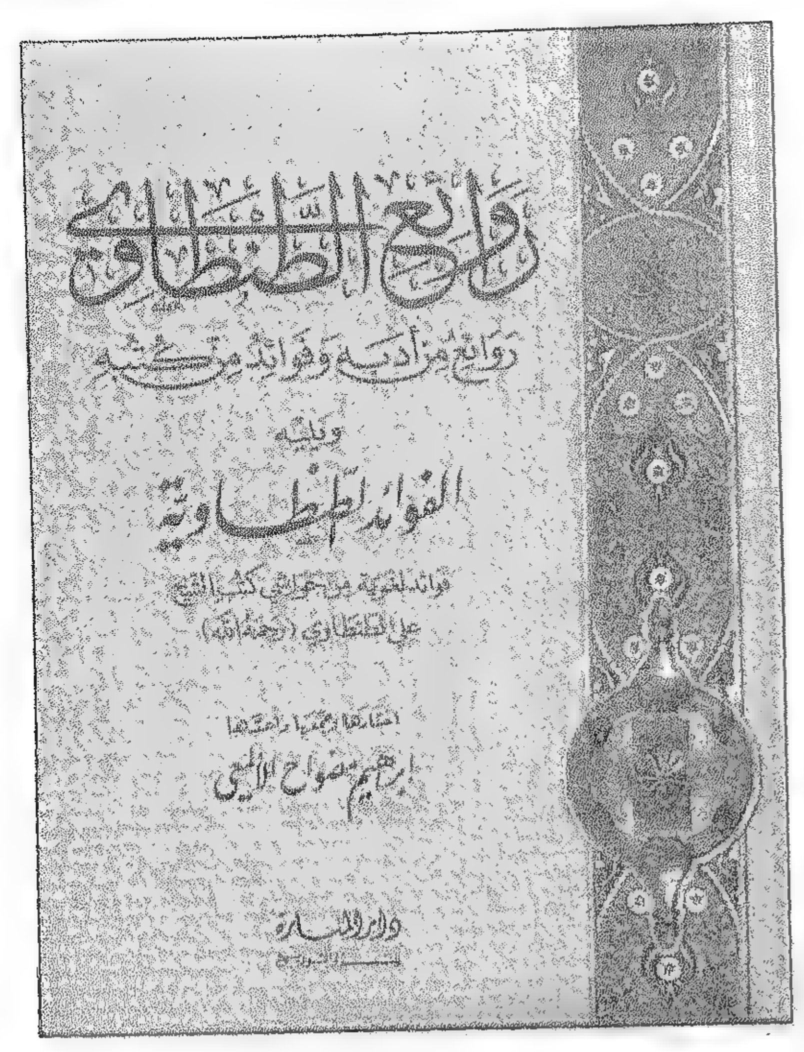
وقد اتبع المؤلف أسلوباً واحداً في عرض هذه المجموعات فهو يذكر عنوان الكتاب في المجموعة، ويقدم بعد ذلك عدد المقالات التي في الكتاب مشيراً إلى التاريخ الإجمالي لكتابتها، وعدد الصفحات ومقاس الكتاب، ثم يتحدث بإيجاز عن الكتاب من صفحة إلى أربع صفحات.

ويعطي هذا الكتاب بمنهجه التعريفي فكرة مناسبة عن الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله. ■



من مكتبة الأدب الإسلامي

الكتاب: روائع الطنطاوي
المؤلف: إبراهيم مضواح الألمعي
الناشر: دار المنارة - جدة - السعودية
الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م



يقع هذا الكتاب في ٣٥٢ صفحة من القطع العادي حرص مؤلفه في القسم الأول أن يقدم للقارئ مختارات من روائع أدب الشيخ علي الطنطاوي، وفوائد من كتبه، كما قدم في القسم الثاني مختارات سماها «الفوائد الطنطاوية» وهي فوائد لغوية استخرجها من حواشي كتب الشيخ علي الطنطاوي.

وقد عُرف المؤلف: إبراهيم مضواح الألمعي بالاهتمام بكتابات الطنطاوي حيث كتب العديد من المقالات كما أن له مؤلفاً مخطوطاً بعنوان «الطنطاوي عناق الفكر والفقه والأدب» أيضاً. ولاشك أنه بذلك بذل جهداً كبيراً لتقديم باقة مجتمعة من أدب الطنطاوي وفكره للقراء.

أما محتوى **القسم الأول** فقد جعله المؤلف فصولاً:

الفصل الأول: في واحة الإيمان من ص ١٣ -٢٨. اختار فيه مقالات إيمانية مثل: الإيمان سبيل الاطمئنان، وأثر الإيمان، والحقيقة الكبرى.. إلخ، بلغت اثني عشر اختياراً آخرها، طريق الجنة وطريق النار.

الفصل الثاني: صفحات إسلامية من ص ٢٩ -٨٤. واختار فيها موضوعات متنوعة بين الحاضر والماضي، وآداب الدعوة، واشتمل اثنين وخمسين اختياراً.

مثل: نحن المسلمون، الإسلام أعجوبة الدهر.. أمر الطفل بالصلاة، التصفيق للخطيب.

الفصل الثالث.. تأملات تاريخية من ص ٨٥ -١٠٠، وضم أربعة عشر اختياراً بدأها بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم، وآخرها حقيقة المدنية. وقد أقحم في هذه المجموعة موضوع «طه حسين» ولا أدري ما علاقته بالتاريخ.

الفصل الرابع: مواقف وذكريات من ص ١٠١ -١٤٨، وضم واحداً وثلاثين اختياراً، منها أول خطب نزل بي، أول مقالة نشرتها، مما حدث لي.. إلخ.

الفصل الخامس: في اللغة والأدب من ص ١٤٩ -١٨٠، وضم ثلاثة وثلاثين اختياراً، منها العربية أوسع اللغات، رسالة الأديب، الجمال والشعر، شهيد العيد.

الفصل السادس: تجارب ونظرات من ص ٢٠٣ - ٢٥٨، وضم تسعة وعشرين اختياراً، منها: في رمضان، المستقبل، وقفة على طلل..

الفصل السابع: خواطر وتأملات من ص ٢٠٣ - ٢٥٨، وضم واحداً وخمسين اختياراً، منها: إلى الأغنياء، بطون جائعة وأموال ضائعة ، سلاح المرأة، كل شيء للناس.

ويمكن أن نلحظ بوضوح التداخل في تصنيف الاختيارات مثل عنوان «في رمضان، ومن دروس رمضان، ومثل: هذه الدنيا والآخرة، فقد أوردها المصنف في «تجارب ومشاهدات» ويمكن «أن تكون في واحة الإيمان، وفي «خواطر وتأملات»، وسبب ذلك عائد إلى الأسلوب الموسوعي الذي يمتلكه الشيخ علي الطنطاوي في كتاباته.

أما **القسم الثاني** من الكتاب فهو «الفوائد الطنطاوية» فقد رتبها المصنف ألفبائياً، وأتبعه بفوائد متفرقة.

وضمت هذه الفوائد: شروح المفردات الغامضة، والتعريفات والتعليقات التي أوردها الشيخ علي الطنطاوي في حواشي مؤلفاته ومنها مثلاً:

* **الاستعمار:** هو في الحقيقة «استخراب» هم المخربون المدمرون لا المستعمرون، كما يسمون التنصير والتكفير تبشيراً.

* بس: **فصيحة** معرَّبة من قديم. * **البطاريَّة**: ذاخرة.

وقد شمل هذا القسم الصفحات من ٢٦٢ - إلى آخر الكتاب.

ويمكن للقارئ أن يرصد الكلمات التي عرَّبها الشيخ الطنطاوي، ووضع مسميات لبعض المخترعات الحديثة مثل «الرائي للتلفاز» وغير ذلك. الكتاب جهد يشكر عليه مؤلفه.■

الشيخ علي الطنطاوي مربيا إسلاميا



علي الطنطاوي مع إخوته

إن للتربية أهمية كبيرة في تقدم الأمم ونهضتها، لذلك يجب أن يقوم بها الجميع «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

ومن أوائل المسؤولين عن ذلك: المعلمون والمدرسون والعلماء، وقد عرف منهم على المستوى العربي والإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي»، وثلة أخرى من العلماء والمدرسين الذين أشرفوا على تربية الأجيال..

وإذا كان العلم الواسع والشخصية الجذابة والهدف السامي وحب الآخرين، من أبرز مميزات المربي الناجح، فإن الشيخ علي الطنطاوي نال حظاً وافراً منها!.

بقلم: احمد حسن الخميسي
سورية

رفيق الكتب والعلماء

فبالإضافة لنيله الشهادات النظامية والجامعية، تلقى العلم على يد عشرات من العلماء والفقهاء في الشام ومصر والعراق، وكان أولهم والده الشيخ «مصطفى الطنطاوي» الذي تفتحت عيون علي الطنطاوي على كلماته وإرشاداته ومواعظه، لقد كان الفتى شغوفاً بالمطالعة منذ نعومة أظفاره، حيث اطلع على كتب الفقه والتاريخ واللغة والأدب، وتابع ثقافة العصر يقول عن نفسه: نشأت بين الكتب والعلماء واستفدت من رفقتهم[٢].

إن شيخنا استطاع أن يتعلم من صدور العلماء ومن سطور الكتب، مما جعل لعلمه طعماً خاصاً، يمكنه من الغوص في ميادين التربية وشعابها.

ولقد عرف الشيخ علي الطنطاوي بشخصيته الجذابة التي تنبع من حديثه الحلو الذي يمتزج بالفكاهة، ومن مظهره الجميل، وتواضعه الجم الذي يلمسه منه كل من عاشره وعاش معه.

أساسيات التربية

لقد قضى الشيخ علي الطنطاوي حياته وهو يربي الأجيال على الفضيلة ليكون المجتمع مؤمناً صالحاً، وكانت أساسيات تربيته ودعوته منطلقة ومنبثقة من الإسلام الحنيف الذي ارتضاه الله تعالى لنا ديناً.

يقول في مقدمة كتابه «من حديث النفس»: أنا أكتب في المجلات والصحف وكتبت أكثر من عشرة آلاف صفحة... لقد كنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائما».

وكانت نيته إرضاء الله تعالى، وهذا ما وجدناه يصرح به في كتبه وأحاديثه، فكثيراً ما كان يقول: أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، ولا يحرمني الثواب عليه.. اللهم اجعل ما كتبت وما حظيت من العلم النافع الذي لا ينقطع بانقطاع العمر.. اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه[٣].

هكذا كان يسأل الله تعالى أن يتقبل منه العمل ويجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به وأن يثيبه عليه.

إنها مقاصد سامية تجعل العمل - بإذن الله - ينبت نباتاً حسناً، ويجعل التربية تثمر وتؤتي أكلها.

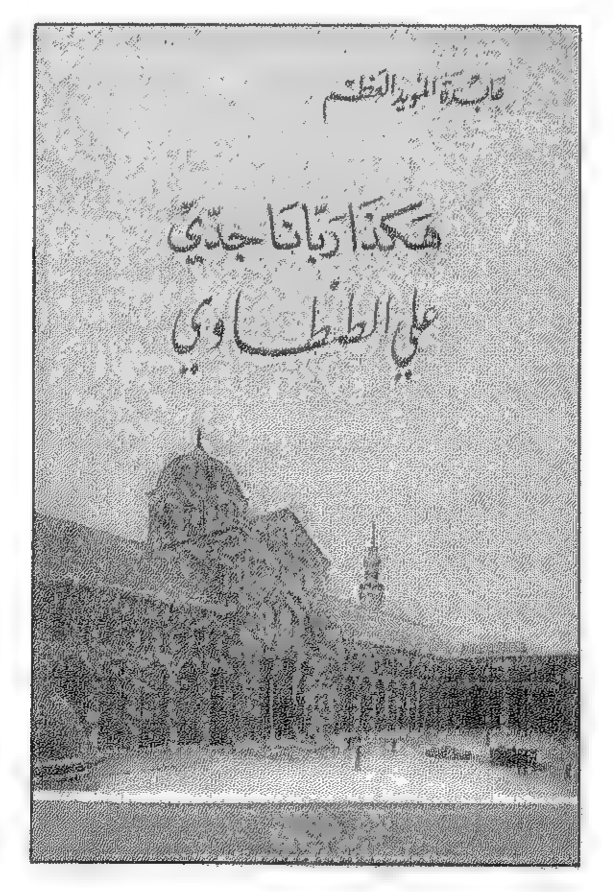
المربي الناجح

ومن الأمور التي رفعت أستاذنا إلى مرتبة المربي الناجح : حبه للآخرين وخاصة الأطفال، وهذا ما لمسه منه كل من عرفه وصاحبه وتعامل معه، لقد عبر عن حبه للأطفال ذات مرة فقال يخاطبهم: اقبلوا هذه الهدية الصغيرة مني، حبي وعواطف قلبي وهذه التحية[٤].

لقد أخلص في حبه للأطفال وفي حبه لطلابه في المراحل الدراسية المختلفة مما جعلهم يتعلقون به، ويتلقون عنه العلم برغبة وحماسة، ويريدون له كل خير، يقول عن ذلك: وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه، وأخلصت لهم، وحرصت على رضاهم، وكنت أحس بالفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً، أو درأت عنه شراً.. ووضعت بين أيديهم رأسي، أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال»[٥].

ميادين التربية

إن أهم ميادين التربية في مسيرة علي الطنطاوي هي : الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام.. لقد حرص منذ أن أصبح أباً أن يربي أولاده على الفضيلة، لقد ربى خمس بنات وعدة أحفاد تربية كريمة تعلقوا به



وأحبوه، ومما يدل على حسن تربيته لأولاده وأحفاده الكتاب الذي ألفته حفيدته «عابدة العظم» التي جمعت فيه مواقف الشيخ التربوية، هذه المواقف التي تجلت فيها نظريات تربوية حديثة في إطار إسلامي قويم.

إن حفيدة الشيخ في كتابها «هكذا ربانا جدي» تعترف بتميز جدها تربوياً، وخاصة في تعديل الطباع فتقول: «وكنت كلما سمعت مشكلات الآباء في تربية الأبناء، أعترف لجدي بالتميز والإبداع في معالجة الأخطاء وتعديل الطباع»[٦]

وعلى نطاق الأسرة أوصى الآباء بالأطفال، وحثهم على أن يولوهم من أنفسهم وأموالهم اهتماماً حتى يكون أحدهم «رجل الغد الذي ينفع نفسه والناس بعلمه وخلقه. وعلى الأب أن يمهد لطفله بحسن التربية طريق السعادة في الدارين والنجاة في الحياتين»[٧].

مسيرته التربوية في التعليم

أما مسيرة الشيخ علي الطنطاوي في المدارس والتعليم، فهي مسيرة حافلة بالعطاء مليئة بالتجارب والذكريات، فكثيراً ما حدثنا في كتبه ومحاضراته عن تلك الأيام التي قضاها في التربية والتعليم في مدارس الشام والعراق وكليات الجامعة في المملكة العربية السعودية.

لقد كان له في هذا المجال إسهامات واسعة لا تنسى، منها: إصلاح التعليم الشرعي في سوريا، فقد كلف بتخطيط مناهج التعليم الشرعي في مرحلتيه المتوسطة والثانوية، وكان له الفضل في اتجاه تربوي جيد، فأدخل مادة أعلام الإسلام، وهي تدريس التاريخ من خلال رجاله الذين يكونون وراء الحركات الكبرى في التاريخ[٨].

كما أنه ألف أكثر من كتاب في المناهج المدرسية مثل «التحليل الأدبي»، وكتاب المحفوظات، ومن بواعث تأليفه كتاب «تعريف عام بدين الإسلام»، إلحاح الطلاب عليه في وضع كتاب يعرض الإسلام كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضه على من يفد عليه من العرب «أو الأعراب» فيفهمونه في يوم واحد أو بعض أيام[٩].

وصار للكتاب شهرة واسعة فقد طبع في «المدينة» في المملكة العربية السعودية ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية في عدد خاص من مجلتها «رسالة المعلم» ووزعته على جميع المعلمين والمعلمات في المملكة، ثم طبع في مؤسسة الرسالة، ولا يزال يطبع لما لاقاه من قبول، فهو يجمع بين الإقناع العقلي بالحجج والبراهين وبين آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، ويتميز بسهولة العرض، وضرب الأمثال الحسية التي تقرب الأمور المعنوية وتوضحها.

التربية والإعلام

وأما عن ميدان الإعلام، فحدث ولا حرج عن طول باعه ومقدرته على الدخول إلى قلوب المشاهدين والمستمعين بدون استئذان، فيغرس فيهم القيم السامية التي تربي الإنسان وتجعله سويا يرضي ربه، ويحسن معاملة الناس ويسهم في بناء أمته، ويشهد له بذلك كل الذين شاهدوه وسمعوه وهو يتحدث في برامجه التي كان يقدمها «مسائل ومشكلات» و«نور وهداية» و«على مائدة الإفطار».

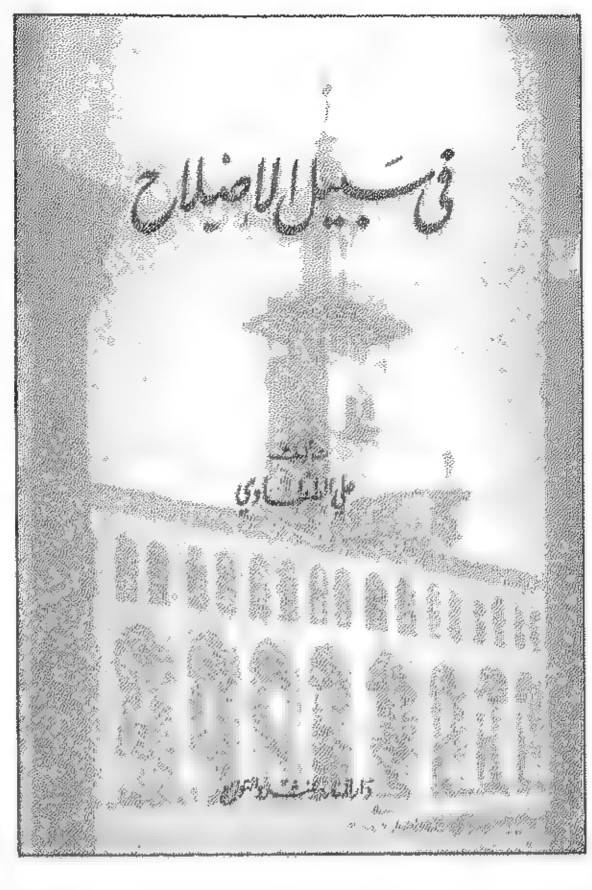
لقد قال عنه الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: الأستاذ الطنطاوي محدث ناجح في الإذاعة والتلفاز، فقد شهد له الخبراء المختصون، بأنه أنجح متحدث في هاتين الأداتين من أدوات الإعلام، ويمتاز بإلقائه الجميل المحبب إلى النفس[١٠].

إلى جانب هذه الأوساط الثلاثة الأسرة والمدرسة والإعلام التي ربى من خلالها الأجيال، عاش عمره وهو يكتب المقالات التي ينشرها في الصحف، وألف العشرات من الكتب التي تربي الإنسان عقلياً وقلبياً وجسمياً..

كتبه التربوية

لقد كتب للصغار، وكتب للكبار.

كتب سلسلة حكايات من التاريخ «وهي من أدب الأطفال» وألف للكبار كتباً كان محورها الأساسي التوجيه والنقد الاجتماعي الذي ينبع من رؤية إسلامية واضحة وصحيحة بأسلوب أدبي سهل ورشيق يترك أثره في القارىء، وإنني أعتقد أن ما كتبه هو في طريق التربية والإصلاح، ولقد كتب كتاباً



عنوانه «في سبيل الإصلاح» وآخر بعنوان «رسائل الإصلاح»، وإن كلمة الإصلاح قنطرة تنضوي تحتها كل مؤلفات الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي - يرحمه الله -.

لقد خاطب من خلال كتبه الشرائح الاجتماعية جميعها، وأولى قطاع التربية والتعليم - من معلمين وطلاب - الأهمية الكبرى، فما من كتاب من كتبه إلا وتجد فيه عناوين تخصهم، فعلى سبيل المثال: في كتابه «مقالات في كلمات» العناوين التالية:

معلمة - نحن وطلاب اليوم - المعلم الأديب - أبطال صغار - مجرم الغد - أدب الأطفال - النثر والشعر في المدارس.

ولو استعرضنا الكتب الأخرى لوجدنا المقالات والقصص الاجتماعية والتاريخية التي تصب في حقل التربية.

أقواله وآراؤه في التربية

بعد هذه الوقفة مع دور الشيخ علي الطنطاوي التربوي نورد بعض أقواله وآرائه ومقترحاته التربوية، فعن رسالة المعلمين ومهامهم يقول: «يجب على المعلمين أن يدلوا التلميذ على الطريق السوي والخطة المستقيمة.. أن يعلموه من هم أجداده، وماهي حضارته، وأن يصبوا في نفسه أخلاق العروبة وآداب الإسلام وأن يحببوا له العلم، حتى يقبل عليه بلذة وشغف، لا لنيل الشهادة والنجاح في الامتحان، بل ليستفيد في ترقية حياته وحياة أمته وخدمة بلاده وقومه.. وأن يفهموه «حقائق الحياة»[١١].

وعن معاناة المعلم ومكابداته - وقد ذاقها الطنطاوي - يقدم لنا صورة لمعلم ابتدائي يشكو مما يعانيه في تربية التلاميذ، فيقول هذا المعلم للشيخ علي الطنطاوي: «إني معلم في مدرسة ابتدائية.. نهاري نهار المجانين، وليلي ليل القتلى، فمتى أفكر؟ ومتى أكتب؟ وأنا أروح العشية إلى بيتي مهدود الجسم مصدوع الرأس جاف الحلق، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مئة حماقة، وأصحح مئة كراسة فأعمي عيني بقراءتها والإشارة إلى خطئها، وبيان صوابها وتقدير درجاتها فإذا انتهيت من هذا كله، عمدت إلى دفتر تحضير الدروس وهو الموت الأحمر والبلاء الأزرق الذي صب علينا هذا العام صباً، فأكتب فيه ماذا أنا فاعل غداً في الفصل.. حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه استنفدت آخر قطرة من ماء حياتي، فسقطت في مكاني، فحملت إلى السرير حملاً فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة».

وتابع المعلم يحكي للشيخ قصة معايشته مع التلاميذ وما يلاقيه منهم في المدرسة من شغب وقلة فهم ضمن ظروف غير ملائمة، مثل كثرة عدد التلاميذ في الفصل الواحد.

وفي نهاية الحديث قال المعلم للشيخ الطنطاوي: «أفتلومني بعد على أني لا أجود في الكتابة في هذه الأيام؟ فقال له الشيخ: هذه والله حالي فلست ألومك فرج الله عني وعنك»[١٢].

بالرغم من ذلك كله فإن المربي علي الطنطاوي يتحمل التعب والشظف من أجل هدفه السامي الذي يسعى إليه ومن أجل طلابه الذين أحبهم وأحبوه فيقول: «أصبر على شظف العيش من أجل الطلاب الذين أحبوني وأحببتهم، وتعلقوا بي فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسي.. ولا يدخرون وسعاً في إسداء يد إليّ أو دفع الألم عني.. ويحرصون على راحتي أكثر من حرصهم على نجاحهم في امتحانهم، ويفضلون كلمة مني على كلمة يقولها القانون.. أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم في قلبي..»[١٣]



وللشيخ علي الطنطاوي آراء تربوية تخص الأطفال، فقد أوصى برعايتهم ودفع الظلم عنهم حتى لا يكونوا مجرمين في المستقبل فيقول «ارفعوا الظلم، يرتفع الإجرام، وأذهبوا البؤس يذهب الخطر، واعلموا أن هؤلاء المجرمين الذين تمتلىء بهم السجون، كانوا يوماً أطهاراً، وأن هؤلاء الأطفال المهملين المظلومين سيصيرون يوماً مجرمين أشراراً، وإن رأس الإجرام ومنبع الشر هو الذي ظلم هؤلاء الأطفال.»[١٤].

وقال في ضرب الأولاد مجيباً على من سأله عن ذلك: «يا سيدي المسألة ما فيها نعم للجميع أو لا للجميع، المسألة مرتبطة بالشخصية والحدث، فبعض الأخطاء ينبغي أن يضرب عليها الطفل، وقد يكون هناك طفل آخر يكفيه التوبيخ، وضرب المعلم للطفل في المدرسة، ينبغي أن يكون مثل ضرب الأب له»[١٥].

ويحرص الشيخ على ثقافة الأطفال، فقد حذر من مجلات الأطفال المترجمة والمقتبسة، وذات مرة رأى في يد أحد التلاميذ مجلة فيها قصة تشجع على السرقة والاحتيال فقال: «فجعلت أفكر في هؤلاء الأطفال المساكين، كيف يكونون رجالاً صالحين ذوي إرادة وعزم وفهم للواقع وحب للاتحاد إذا كانت المجلات المدرسية التي تنشأ لتوجيههم إلى الخير والفضيلة، إنما توجههم إلى الغش والاحتيال»[١٦].

هذا يعني أن الشيخ فطن لما يكتب للأطفال من مجلات وقصص، وطالب بصورة مباشرة بالاهتمام بثقافة الأطفال.

ولشدة التصاقه بالطلاب، أبدى في كتبه آراء تخصهم، فهو في مقالته «إلى الطلاب» في كتابه «مع الناس» يحض الطلاب على مواصلة الدراسة والمطالعة وتنظيم الوقت والاستعداد للامتحان، والنوم باكراً والاستيقاظ باكراً، وطالبهم بالمواظبة على طاعة الله وترك المعاصي، فإن ذلك يعين على تحصيل العلم.

وفي عطلة الصيف طالب المسؤولين بتشغيل الطلاب، ورعاية مواهبهم، فخصص مقالة عنوانها «شغلوا الطلاب في عطلة الصيف»، وشدد على أن يكون هذا العمل



هادفاً منظماً، حتى لا يضيع الطلاب في الشوارع.

إصلاح المناهج

ومن خلال تدريسه المناهج في المدارس اطلع على جوانبها الإيجابية والسلبية ومما لاحظه انصراف الطلاب من النثر إلى الشعر، ففكر في السبب، فوجده في النصوص الميتة التي تقدم في المناهج، يقول: « والذي تقرر المناهج تدريسه في النثر العربي في مصر والشام والعراق، لا يخرج في جملته عن رسائل ميتة لا روح فيها أو فقرات جامدة مسجعة أو غير مسجعة ليس فيها وصف يهز القلب، أو معنى يوقظ الفكر»[١٧].

ثم يقترح أن تؤخذ نصوص من كتب أخرى مثل كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي فإن فيه من السلاسة والسهولة والمسائل النفسية والاجتماعية والدينية ما يغني عن غيره.

إن هذه الدعوة تشبه دعوة أبي الحسن الندوي في كتابه «نظرات في الأدب» الذي طالب بها العزوف عن الأدب الصناعي الذي كتبه الأدباء إلى الأدب الطبيعي الجميل المتوفر بكثرة في كتب الحديث والسيرة.

أساليبه التربوية

أما عن الأساليب التربوية التي اتبعها الشيخ المربي علي الطنطاوي، فقد تجلت في ضرب الأمثال، وإيراد الحجج والبراهين، وسرد القصص الاجتماعية الواقعية وسرد القصص التاريخية، وأسلوب الحوار والاستجواب، وإذا أردت دليلاً على ذلك، فكتابه «تعريف عام بدين الإسلام»، مليء بالحجج والبراهين العقلية وضرب الأمثال، كما أن كتبه الأخرى مليئة بالقصص والحوار والمحادثة التي توضح الفكرة التي يريد الكاتب أن يوصلها للقارىء.

إن الشيخ علي الطنطاوي يعد رجلاً من رجال التربية والإصلاح في عصرنا الحاضر بالإضافة إلى كونه عالماً عاملاً يعرفه القاصي والداني.

إن الجوانب التربوية في حياته متعددة، وإن حياته كلها كرسها للدعوة وتربية أفراد الأمة على الفضيلة وترك الرذيلة.

فجزاه الله خيراً.. وأحسن مثواه.. والحمد لله رب العالمين. ■

الهوامش:

١- رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما. والحديث جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».

٢- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض - الصفحة الثقافية العدد «٩٧٣٧»/١٢ صفر/١٤٢٠هـ.

٣- أدعية وردت في مقدمات الكتب على التوالي مع الناس - تعريف عام بدين الإسلام - قصص من الحياة - وكلها من تأليف الشيخ علي الطنطاوي.

٤- علي الطنطاوي - مقالات في كلمات - مكتبة دار الفتح - دمشق - ١٩٥٩، ص ٢٣.

٥- علي الطنطاوي - من حديث النفس - دار الفكر - دمشق - ١٩٧٩، ص ١١٢.

٦- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

٧- علي الطنطاوي - من حديث النفس ص ٤١.

٨- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

٩- علي الطنطاوي - تعريف عام بدين الإسلام - دار الرائد ص٧.

١٠- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

١١- من حديث النفس، ص ٥٢.

١٢- المرجع نفسه ص ٥٣.

١٣- المرجع نفسه ص ١١٧.

١٤- مقالات في كلمات - ص ١٣.

١٥- ملحق صحيفة الجزيرة - العدد ٩٧٣٧.

١٦- مقالات في كلمات - ص ٧٧.

١٧- المرجع نفسه ص ٢٠٣.

مواقف من حياة الشيخ علي الطنطاوي

بقلم: أحمد فؤاد حسن
مصر

أحد الرجال الأفذاذ الذين عاشوا حياتهم، ونذروا أنفسهم ومواهبهم وملكاتهم لله تعالى، ولنصرة دينه، والنهوض بأمته، وهو من الذين آثروا أن يعملوا في صمت، ويبنوا في هدوء ويشاركوا في صنع التاريخ بعيدا عن الصخب الذي يصك الأسماع، والبريق الذي يخطف الأبصار ونصب أعينهم قول الله تعالى:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له﴾

إنه علي الطنطاوي أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء! كما أطلق عليه د. يوسف القرضاوي.

نشأ الشيخ علي الطنطاوي في أسرة علمية فحفظ عشرات بل مئات القصائد من الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والأموي باعتباره الحجة في اللغة كما حفظ من الشعر العباسي أيضاً. وقرأ الكثير من الكتب الأدبية والتاريخ وعلوم الدين والثقافة العامة، وتعلم في مدرسة الحياة وكتاب الواقع، ومن خلال معايشته ورحلاته إلى مصر والعراق وإستانبول وأوروبا وآسيا وإفريقيا، وقد وُهِب بصيرة نيرة، وحساً نقدياً عالياً، تجلى ذلك في نقده الأدبي، ونقده الديني، ونقده الاجتماعي.

إن المتتبع لحياة الشيخ الطنطاوي يجدها حياة غنية بالمواقف والنشاطات فمن ذلك:

مشاركته في القضايا الوطنية

شارك الشيخ - وهو طالب - في مقاومة الاحتلال الفرنسي لسوريا، وكان يحرض الطلاب ويحرك الجماهير، ويسيّر المظاهرات ويلهب الحماس بخطبه النارية، وبيانه الساحر وأصابه نتيجة ذلك ما أصابه، فاعتقل وأودع في السجن.

أيد الشيخ الوحدة الاندماجية مع مصر مثل كل السوريين، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي، الذي تنازل عن رئاسته، ليصبح المواطن العربي الأول في الجمهورية العربية المتحدة، ولكن حينما أصبحت الوحدة في عهد عبد الناصر خطراً على الحريات وعلى الحقوق الإنسانية وقف - مثل جمهور السوريين - مع الانفصال، وأيده بقوة، وخطب خطبة تاريخية مشهورة، كان لها صداها الواسع، وتأثيرها البالغ على جماهير الناس، ومن بعدُ ضياع أول وحدة عربية حقيقية.

الطنطاوي في مواجهة القومية والاشتراكية دفاعاً عن الإسلام

الشيخ الطنطاوي جند طوال عمره قلمه ولسانه للذود عن حياض الإسلام، وحراسة قلاعه من المغيرين عليه سواء من أعدائه الصرحاء المكشوفين من الصهاينة والصليبيين، والشيوعيين، وأمثالهم، أم من المقنعين الذين يلبسون لبوس المسلمين، ويتسمون بأسماء المسلمين، وليسوا على هدي من هذا الدين، وهؤلاء هم الأشد خطراً.

يقول الطنطاوي: كان عندنا في الشام - ونحن صغار - مدرسون من فلسطين وتونس وفلسطين والمغرب، ومدرسون من الترك والأكراد، سردت أسماء بعضهم فيما مضى من هذه الذكريات، فما كنا نسأل، ولا نفكر أن نسأل عن أجناسهم ولا عن أقوامهم ولا عن مواطنهم، كانوا مسلمين ويكفينا أنهم كانوا مسلمين. فنشأتْ ونحن صغار فتنةُ القوميات، فقال الترك: ترك،



وقال العرب: عرب، وقال الأكراد: أكراد، فتفرق شمل الجميع، وتعددت الأمة الواحدة فصارت أمماً.

كانت فتنة القومية، وتعبنا في جدال هؤلاء القوميين، نتبع في ذلك الأمير شكيبا وإخوانه «شكيب أرسلان» ويتبعنا من جاء بعدنا، كتبتُ في ذلك عشرات من الصفحات، وألقيتُ في ذلك عشرات «عشرات حقاً» من الخطب والمحاضرات لنبين للناس أننا لا نعادي العربية، وإنما ندافع عن الإسلام، وأننا نعرف للعروبة قدرها، ولكن تحت راية الإسلام.

اللغة العربية لسان الإسلام

يعد الشيخ الطنطاوي اللغة العربية هي لسان الإسلام، فيعتز بها باعتبارها جزءا من الاعتزاز بالدين وبالذاتية الثقافية والهوية الحضارية للأمة، ويرفض الطنطاوي استخدام الكلمات الدخيلة المنقولة من اللغات الأجنبية، إلا بعد تعريبها أو إيجاد البديل لها، مثل كلمة «الرائي» بدل كلمة «التليفزيون» وكلمة «الراد» بدل الراديو، كما عرب كلمة «الكيلو» بالكيل وغيره.

ومن هنا دافع الشيخ عن الفصحى دفاعه عن الإسلام، ودافع عن الأدب الراقي، وقاوم الأدب السوقي، ودافع عن الشعر العمودي ذي الوزن والقافية.

يقول رحمه الله: «بدأت في أيامنا فتنة «الشعر المنثور» الذي سئل عنه الأستاذ المازني يوما، فقال: «على عادته في السخرية والتحكم»: بل هو النثر المشعور!» أو «ما هذا الكلام المصفوف صفاً الذي ينشر في الجرائد على أنه شعر، وعلى أن أصحابه شعراء، ما فيه من الشعر إلا أنه طبع على هيئة أبيات القصيدة، فهو شعر المسطرة، أما موسيقى الشعر، وجمال الشعر، وسمو الشعر، فما فيه من شيء.

ولقد قدم شيء من هذا الشعر إلى الأستاذ العقاد – وهو رئيس لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب – فكتب: يُحَوَّل إلى لجنة النثر. أي أنه أراد أن يدخل دولة الشعر بجواز مزور، فرفضه ورده إلى موطنه».

ومما امتاز به الشيخ علي الطنطاوي أيضاً:

صراحته المتميزة

فهو يقول الحق كما يعتقده، ولا يخاف لومة لائم، ونقمة ظالم، وإن كان في الفترة الأخيرة من حياته المباركة أقل حدة مما كان عليه من قبل فللسنين حكمها، وللزمن «بصمته» على الإنسان.

فلذلك نقد كثيرين، وهاجم كثيرين، وهاجم قوماً، ثم عاد فمدحهم، كما فعل مع الشاعر الأديب السوري الأستاذ شفيق جبري، فقد هاجمه حين كان مديراً لديوان المعارف، وكان كما قيل: ما رأيت مثل الفرزدق: هجاني أميراً، ومدحني معزولاً!.

وذكر أنه خطّأ أحد طلابه مرة أمام زملائه وقسا عليه، فلما عاد إلى البيت، وراجع المسألة، عرف أن الطالب كان على صواب، وأنه هو المخطىء، وعندما رجع إلى طلابه في اليوم التالي أعلن أمامهم صراحة أن الطالب كان على حق، وأنه أخطأ في حقه مرتين. أنه خطأه وهو مصيب، وأنه قسا عليه، على غير ما يليق بالعلماء مع تلاميذهم.

ومن الطريف أن نجد صراحته في مواقف كثيرة مع نفسه منها: ما سجله في مذكراته في مناجاة أو محاسبة لنفسه، فقد كان الشيخ يكتب مقالاته بأجر، وهذا معروف عنه، ويهمني أن أنقل هنا هذه المحاسبة الصريحة من الشيخ حول هذه القضية، يقول رحمه الله في ذكرياته: «لقد أمضيت حقبة من عمري في حلبة النضال، أقاتل وحدي على ضعف يدي وقلة عزمي، حاربت على جبهتين، جبهة الجهلة الجامدين، الذين يحرفون الدين ويغشون المسلمين، وجبهة الفاسدين المفسدين.

وما حدت بحمد الله عن هذا الطريق، وما كتبت بقلمي متعمداً ما لا يرضى ربي، وإن كنت لا أبرىء نفسي من الخطأ.

وأنا أكتب في الستين سنة كاملة، وآخذ على ما أكتبه أجراً لأنني كاتب محترف، كتبت آلافاً وآلافاً من المقالات، وأنا أحاسب نفسي الآن، وطالما حاسبتها قبل الآن، فأتساءل: هل هذه الأجرة من الناس تذهب ما آمل من الثواب عند الله؟ وأخشى أن أكون قد قضيت لنفسي، وأنا أعرض قضائي على القراء لأسمع ما لهم فيه من آراء.

وأنا أولاً أسأل نفسي فأقول: يا نفس هل كنت تكتبين ما يخالف الدين، ولو أعطيت على كتابتي الملايين؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق، أن: لا.

وأسألها إن لم يكن في الساحة من ينكر المنكر غيرك يا نفس، وكان الإنكار واجباً شرعاً، هل كنت تمتنعين عن إنكاره، لأنك لم تعط أجره من قبل؟ والجواب هو أني ما بدلت بحمد الله، ولا غيرت، وما قلت يوما كلمة الباطل وأنا أعرف بطلانه.

إن أول كتاب صغير نشر لي سنة ١٣٤٨هـ هجرية – ما قلته فيه هو الذي قلته في آخر كتاب أعيد طبعه لي سنة ١٤٠٦هجرية، وإن تبدل في شيء فهو الأسلوب كنت فتى فيه شدة وفيه حدة، فألانتني الأيام قليلاً، وهدأت حدتي، وإن كانت لم تستطع أن تمحوها من نفسي.

والشيخ لا يترك أخلاقه
حتى يوارى في ثرى أمسه
وذو الشوق القديم وإنْ تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا ■

عدد خاص

قراءة في كتاب

«تعريف عام بدين الإسلام»

للشيخ علي الطنطاوي

بقلم: محمد يوسف التاجي
مصر

وقفة قصيرة مع قصة هذا الكتاب

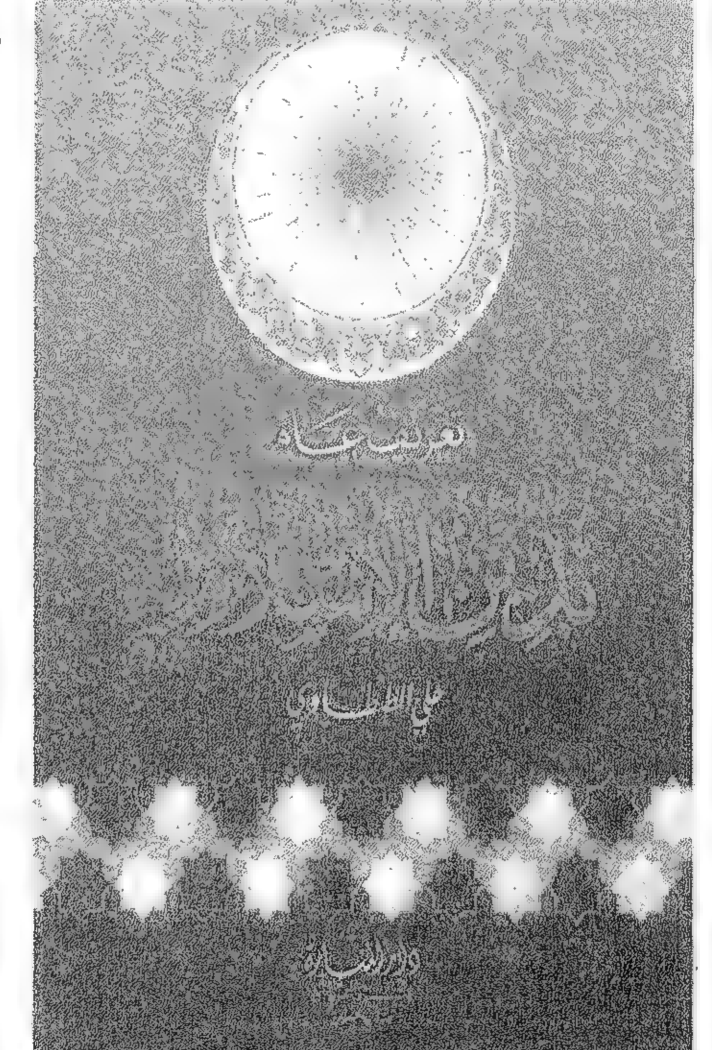
إذا كان من شيء يقال بداية قبل الولوج إلى ساحة التناول النقدي لهذا الكتاب فهو حرص شيخنا على أن يجمع فيه بين عطاء الداعية الأديب والمفكر الإسلامي الأريب، الأمر الذي كان يشكل أملاً طالما حرص الشيخ على تحقيقه عبر جهاده الفكري الطويل.. ولنقرأ السطور التالية من مقدمته المعنونة بـ« قصة هذا الكتاب» كي نكتشف حقيقة اهتمامه بتحقيق هذا الأمل، وذلك قوله[1]:

« ولما ذهبت إلى العراق سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٣٦م مدرسا للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد.. وكلفت حينا بتدريس الدين.. جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد، يفهمون منه الإسلام.. ولا يريدون كتاب تجويد، ولا كتاب توحيد، ولا كتاب تفسير، ولا فقه ولا أصول، ولا حديث ولا مصطلح، بل كتاباً في الإسلام يعرضه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضه على من يفد عليه من العرب « أو الأعراب» فيفهمونه في يوم واحد.. فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب، فكتبت في الرسالة.. وكنت من كتابها عشرين سنة كاملة، من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها، كتبت مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب، وأعدت الدعوة فما استجاب لها أحد إلا شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وإذا رجعتم إلى « الرسالة» وجدتم فيها ما كتب».

وقارىء السطور السابقة سوف يلمس كيف كانت مسألة تأليف هذا الكتاب تشكل هماً غالباً لهذا الداعية المخلص.. ألهمه به خاصة طلابه في مرحلة من أحفل مراحل الإنسان المتلقي للدين الحنيف. حتى لقد بدا ذلك في صورة الأمل الذي لم يجد بداً من التوفر عليه بنفسه، بعدما أعجزته دعوة غيره إليه دون استجابة من أحد إلا شيخه البيطار كما سبقت الإشارة.

منهج الطنطاوي في تناول المفاهيم:

فإذا بدأنا التوجه للقراءة، ألفينا الشيخ يعطينا في مقدمة تالية لا تزيد صفحاتها عن إحدى عشرة صفحة، تحت عنوان «بين يدي الكتاب» ما يشبه المفاتيح للقراءة في فصوله التالية مع ملاحظة أن ما أتى بها منها لا يقل إفادة ولا نفعاً عما جاء بالمتن الأصلي. يعطينا ذلك من خلال ضرب الأمثلة المقنعة، هذا فضلا عن بيان بعض الاستخدامات اللغوية، رأيناه يفعل ذلك في التمهيد لفهم معنى طريق الجنة والنار، أو ما جاء في موضع آخر بلفظ «النجدين»، والذي جاء ذكره بالنص الشريف **«وهديناه النجدين»** أي الطريقين، ثم في التعريف بألفاظ «الدعوة» و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الإنسان» و«الموت» و«الدنيا والآخرة»، ألمَّ بذلك جميعاً وغيره إلمامات متأملة يلوح فيها سمات التأمل النفسي الجامع بين عقل المفكر الواعي وحس الأديب المرهف وضمير المتدين النقي الملتزم.



ولعله يحسن التعرض لواحدة من إلماماته بهذه المقدمة التمهيدية، وقد مسَّ بها «الإنسان ويبدو فيها بوضوح موسوعية ثقافته وشمولها..يقول(٢): الإنسان مخلوق متميز فيه شيء من الملائكة، وشيء من الشياطين، وشيء من البهائم والوحوش. فإذا استغرق في العبادة، وصفا قلبه إلى الله عند المناجاة وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلي، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الملكية. فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإذا جحد خالقه وأنكر ربه فكفر به، أو أشرك معه في عبادته غيره، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الشيطانية.

وإذا عصف به الغضب، فأوتر أعصابه وألهب دمه، وشد عضلاته، فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضه بأسنانه، وينشب فيه أظافره، ويطبق على عنقه بأصابعه فيخنقه خنقاً ويدعسه دعساً .. غلبت عليه في هذه الحال الصفة الوحشية، فلم يبق بينه وبين النمر والفهد كبير فرق.

وإذا عضه الجوع، وبرح به العطش، وانحصرت آماله في رغيف يملأ معدته، وكأس تبل صداه. أو تملكته الشهوة، وسيطرت على نفسه الرغبة الجنسية فغلا بها دمه، واشتعلت به عروقه، وامتلأ ذهنه بخيالات الشبق وأمانيه غلبت ع في هذه الحال الصفة البهيمية فكان كالفحل الحصان أو ما شئت من أصناف الحيوان.

هذه هي حقيقة الإنسان.. فيه الاستعداد للخ والاستعداد للشر، أعطاه الله الأمرين، ومنحه الع الذي يميز به بينهما، والإرادة التي يستطيع بها يحقق أحدهما. فإن أحسن استعمال عقله في التمي وأحسن استعمال إرادته في التنفيذ، ونمى استعدا للخير حتى تخلق به وأنجزه، كان في الآخرة السعداء، وإن كانت الأخرى كان من المعذبين!!».

ولعل أحداً لم يفته هذا المنهج التحليلي التأم اللغوي لشيخنا في تنا موضوع الإسلام، ذلك التنا الذي رجا في وقت ما يقترب به من طريقة المصط صلوات الله وسلامه عليه، تفهم أصول الدين للمتل عنه، برغم تفاوت أفهام واختلاف نوعياتهم، وتوص إلى معتنقيه بأبسط صو منذ بعثته صلوات الله وسلا عليه، وإلى آخر الزمان ح تمتد الحاجة إلى فهم أص هذا الدين بكل ركن من أرك العالم..

فإذا رحنا ننتقل إ فصول الكتاب التالية تمهي للتجول بين رحابها ألفينا جاءت على النحو التالي:



ولفتتنا طريقة الشيخ في تناول موضوعه، تلك التي جمعت بين ميله للتحديد العلمي القائم على التعريفات، أكاد أقول الاصطلاحية والتي جاءت بثاني فصوله، كما يتضح من البيان السابق وبين التعبير عنها بأسلوب أدبي بليغ شديد الجمال، مستمدا ذلك الجمال من طريقة العرض القائمة على الحوار من جهة، ومن جهة أخرى على أساليب البلاغة العربية استفهامية وتعجبية واستنكارية واستدراكية وغيرها، مهمشاً لها بهوامش تكشف عن ثقافته اللغوية المفيدة بدورها للقارىء.

ولنأخذ مثالاً بسيطاً نتبين منه بعضاً مما أشرنا إليه فهو يرينا بعد الاستفتاح بتساؤل يقول[٣]:

«قلت مرة لتلاميذي : لو جاءكم رجل أجنبي، فقال لكم إن لديه ساعة من الزمن، يريد أن يفهم فيها ما الإسلام؟! فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة؟!».

ولما أجابوه مستصعبين تحقيق ذلك في هذا الوقت الضيق، لحاجة الداعية إلى أنواع العلوم المفصلة بهذا الدين كالتوحيد والتجويد والتفسير والحديث والفقه والأصول. لما أجابوه بذلك، وجدناه يذكرهم بأن ما يريده بإثارة هذا السؤال هو إعادتهم إلى منهج الرسول الكريم *صلى الله عليه وسلم* في التعريف بالإسلام، وذلك بالتركيز على أهم ما يطلب من المدعو إليه .. فقال:[٤] «قلت: سبحانه الله.. أما كان الأعرابي يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلبث عنده يوما أو بعض يوم، فيعرف الإسلام ويحمله إلى قومه، فيكون لهم مرشدا ومعلماً ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً؟!

وأبلغ من هذا.. أما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم الدين كله في حديث «سؤال جبريل» بثلاث جمل تكلم فيها عن الإيمان والإسلام والإحسان.. فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة».

وقد أجاب على سؤال أتى به تاليا وهو: فما الإسلام؟! وكيف يكون الدخول فيه؟!

وأعطى مثالاً لتقريب المراد لما يفعله الإنسان حين يدعى إلى نحلة ما أو جمعية ما – خيرة كانت أو شريرة – سواء في أيهما تجتمع السمات التالية – وساق قوله الذي همشه على إحدى كلماته بما يفيد وهو:

«لكل ذلك مبادىء وأسس فكرية، ومسائل عقائدية، تحدد غايته وتوجه سيره وتكون كالدستور لأعضائه وأتباعه»!

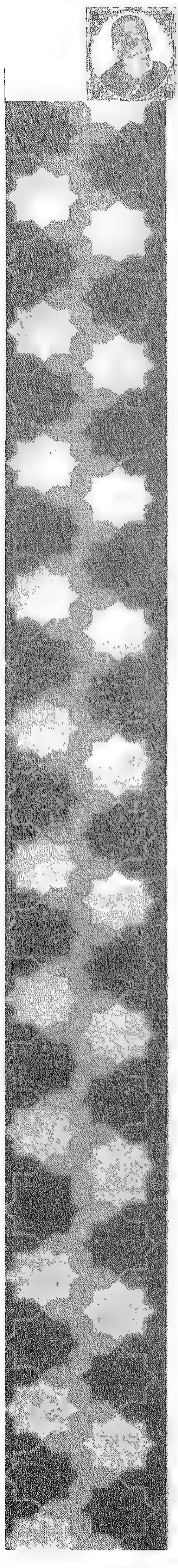
وهنا لا يكون أمام من آمن بهذه النحلة أو تلك الجمعية إلا أن يندرج في عضويتها، ملتزما بما جاء بمبادئها، عاملاً على نشرها والدعوة إليها، لا يخرج عنها قيد أنملة.. وقد جمع ذلك المعنى في شاهده التالي[٥]:

«فالعضوية في الجمعية علم بنظامها، واعتقاد بمبادئها وإطاعة لأحكامها، وسلوك في الحياة موافق لها. هذا وضع عام ينطبق على الإسلام فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه أولاً أن يقبل أسسه العقلية، وأن يصدق بها تصديقا جازماً، حتى تكون له عقيدة».

ولعله لم يفتك أن تحقيق معرفة الإسلام لا يقوم في الحقيقة إلا على أساس من القول الصادق والعمل المستقيم، كما يتضح من قوله صلى الله عليه وسلم الذي أهداه لمن سأله «قولاً لا يسأل فيه أحداً بعده» أو في رواية أخرى «غيره» «قل آمنت بالله ثم استقم».. فرتب فعل الاستقامة كعمل إيماني نقي على الإيمان القولي قبله بالله – ومقصود به طبعا الإدلاء بالشهادتين وهو الأمر الذي جاء قوله سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠/فاطر) فصدقه، غير مقيم للكلم الطيب وحده اعتباراً حتى يأتي العمل الصالح القوي النقي فيرفعه إلى مقام القبول الإلهي. كما لم يفتك كيف انتهى بالمؤمن الأمر ليكون «سلوكاً» لا يشذ مطلقاً عن سواه، وما يزال في ارتقاء *معارج القوة والثبات* حتى يصير «عقيدة» يستحيل أن يتزحزح عنها مهما أحاطت به الشدائد ونزلت به النوازل شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين يتعاظم نصيبهم من البلاء يليهم الشهداء فالصالحون ثم الأمثل فالأمثل كما جاء بالحديث النبوي الشريف.

ولعله لم يفتك أيضاً دور البلاغة النبوية في التعريف بدين الله وتحبيب ناشديه فيه، وإيصال ما يحقق ذلك لهم من أقرب وأسرع سبيل، موظفاً من حيث الشكل لشتى ضروب التعبير الأدبي ومختلف فنونه، إن في شكل قصة أو مثل، أو في شكل حوار أو غير ذلك، ومن حيث المضمون مستخدماً ماهو مناسب للتوصيل والإقناع كاستخدام أساليب القصر أو التعجب أو الاستفهام أو الإيجاز كما في الحديث الذي كان معنا قبل قليل أو غيرها.

كل ذلك دون أن يفوته التركيز على عنصر «النية الذي به تصبح العادات ذاتها عبادات توثق بين صلات العبد بربه. ذلك أنه ما من دين ربط كل أقوال الإنسان المؤمن وأفعاله بالنيات كالإسلام، حرصاً على توفير خاصية الإخلاص فيه، من منطلق «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».



منهج الشيخ الطنطاوي في التعريف بالمحاور التي يقوم عليها الإسلام:

ولما كانت غاية الشيخ في تقديم تعريف عام بدين الإسلام - كما وضح من عنوان الكتاب ذاته - تكاد أن يتوافق فيها عمومية هذا التعريف، ببساطة الأسلوب المؤدي إليه، بحيث يمكن به تقديم «الإسلام» إلى ناشديه في أجمل وأيسر صورة ممكنة حتى يتغلغل في ظلمات وأدغال نفوسهم تغلغل نور الصباح، ويجري في عروقهم جريان الماء القراح إلى كبد الظامىء الملتاح.. ويكون في أقصر فترة زمانية ممكنة، ودون أن يكون ذلك مانعاً لمن أدرك قيمته في التزيد من العلم به والفقه بأصوله وعلومه وأحكامه، تلمساً للرقي في مقامات المؤمنين العالية، والتي فيها يتنافس المتنافسون، كما جاءت الإشارة بقوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦) .

وقد اتبع الشيخ منهجاً دقيقاً في التعريف بالمحاور التي يقوم عليها الإسلام، وبدا حريصاً على التزامه في مدى صفحات الكتاب جميعاً، ويمكن إيجازه في النقاط التالية:

* محاولة تقديم أساسيات الإيمان في أوجز عبارة وأبلغها، مما يسهل من جانب التأثر بها بل وحفظها، ويحث من جانب آخر على الالتزام التام بها في كل صغيرة وكبيرة، لما في ذلك من الحرص على إبراز ما يدعو إليه الدين أو ينهى عما يخالفه كما رأيناه يفعل ذلك في تقديم تعريفات لأساسيات العقيدة، ممثلة فيما جاء بكلمات «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان».. الأمر الذي رأيناه يرصده رصداً يقظاً في شاهده التالي وفيه يقول[٦]:

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام، وهي التصديق المطلق بالله، وتنزيهه عن الشريك والوسيط، وبالملائكة، وبالرسل، وبالكتاب، وبالحياة الآخرة وبالقدر، ونطق الشهادتين، وصلى الفرائض، وصام رمضان، وأدى زكاة ماله إن وجبت عليه الزكاة، وحج مرة في العمر إن استطاع، وامتنع عن المحرمات المجمع على حرمتها، فهو مسلم مؤمن، ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه، ولا يحس بحلاوته، ولا يكون مسلماً كاملاً حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن. ولقد لخص رسول الله صلى الله عليه وسلم منهاج هذا السلوك بجملة واحدة، كلمة من جوامع الكلم، ومن أبلغ ما نطق به بشر، كلمة تجمع الخير كله، خير الدنيا، وما في عقبه من خير الآخرة، هي: أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده، وخلوته وجلوته، وجده وهزله، وفي حالاتها كلها، أن الله مطلع عليه، وناظر إليه، فلا يعصيه وهو يذكر أنه يراه، ولا يخاف أو ييأس وهو يعلم أنه معه، ولا يشعر بالوحشة وهو يناجيه، ولا يحس بالحاجة إلى أحد، وهو يطلب منه ويدعوه، فإن عصى - ومن طبيعته أن يعصي - رجع وتاب فتاب الله عليه.

كل ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في تعر[يف] الإحسان **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تـ[ـراه] فإنه يراك»**.

* توضيح ما عدّه بمثابة المصطلحات لبعـ[ـض] الألفاظ التي يكثر دورانها على ألسنة العلماء، مما يتـ[ـ...] بمعرفتها استقرار المعنى المراد بعقول المتلقين، كحد[يثه] عن معاني ألفاظ «الشك» و«الظن» و«العلم» بفرعـ[ـيه] «الضروري» و«النظري».

ومن هذا القبيل جاءت صفحات فصله المعنون «قوا[عد] العقائد»[٧] وقد جمعها في ثماني قواعد نوجزها فيما يلـ[ـي]:

١- إن كل محسوس لا أشك فيه حتى لا يحكم العـ[ـقل] بالتجربة السابقة وحدها أن ما أحس به وهم وخد[اع] حواس. فالعقل يخدع أول مرة حتى يظن مثـ[ـل] السراب ماء، ولكن التجارب اعتباراً من التالية للأو[لى] تنجح عادة في إبطال هذا الوهم وهذا الخداع.

٢- إن اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة، يحصـ[ـل] بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه.

٣- لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا [لا] ندركها بحواسنا.

٤- إن الخيال البشري بنوعيه: الخيال المرجع أي الذ[ي] نسترجع به صورة ما في الواقع، والخيال المبـ[ـدع] عند الكتاب والشعراء والفنانين لا يستطيع أن [...] إلا بما أدركته الحواس.

٥- إن العقل لا يستطيع أن يحكم، ولا يصح حكمه في الأمور المادية.. أما ما وراء المادة أي عـ[ـالم] الغيب فلا حكم للعقل عليه.

٦- إن الناس جميعاً على تباين عقائدهم وملـ[ـلهم] مؤمنهم وكافرهم إذا ألمت بهم شدة لجؤوا تلقا[ئياً] لله الواحد الأحد سبحانه، ونبذوا أشكال الآ[لهة] الأخرى المعبودة، مما جعل من تعريف (الإنسا[ن] مخلوق متدين) هو أصدق التعريفات التي عر[ف] بها الإنسان.

٧- إن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم الما[دي] ليس كل شيء، وإن وراءه عالماً روحياً مجهـ[ـولاً] يدرك منه لمحات تدل عليه. وهذا هو الدليل النفسـ[ـي] على وجود العالم الآخر.

٨- إن الاعتقاد بوجود الحياة الآخرة نتيجة لازمة للاعتـ[ـقاد] بوجود الله الأمر الذي لا يكتمل تصديق العقل له حـ[ـتى] تتم به فصول قصة الخلق والبعث جميعا.

* استخدام كل ما يصلح من العلوم والفلسفـ[ـة] والآداب في توكيد وتوثيق الفكرة التي يدور عليـ[ـها]

مستعينا في ذلك بموسوعية ثقافته، تلك التي ألم فيها من كل فن بطرف – كما قيل في واحد من تعريفات «الثقافة» – نرى ذلك في مثل قوله ناقضاً القول بقانون المصادفة، ضارباً مثالا «بالذرة» أدق الكائنات[٨]:

« ومن أعجب العجب، ومن أظهر الأدلة على الله، أن هذا الفضاء بكل ما فيه موجود بصورة مصغرة، بحيث لا يدرك العقل دقتها وصغرها – كما أنه لا يدرك سعة الفضاء ورحبه – موجودة في الذرة.

الذرة التي لا ترى ولا بالمجهر الألكتروني، الذرة التي كان يسميها العلماء والفلاسفة الأقدمون بالجوهر الفرد «الجزء الذي لا يتجزأ» ، الذرة التي قال العلماء: إنه لو صُفَّ أربعون مليوناً منها جنباً إلى جنب كان طولها معشاراً واحداً «سنتي متر».

وسط هذه الذرة فضاء فيه نواة، تدور حولها أجسام صغيرة أكدوا أن الكواكب في الفضاء، ونسبة النواة للذرة، كنسبة حبة القمح للقصر العظيم. والنواة يزيد وزنها وحدها عن وزن « ١٨٠٠ » من هذه الكهارب، فهل هذا كله من عمل المصادفات؟!».

ومثل قوله أيضا في ضرورة توافر أربع قضايا يسلم بها المسلم تسليما حتى يتم له الإيمان بالله، تلك هي:

« أن الله موجود بلا موجد، وأنه رب العالمين، وأنه مالك الكون المتصرف فيه، وأنه الإله المعبود وحده لا يعبد معه غيره»، وقد ساق دليلاً من سورة «الناس» يؤكد به هذه المفاهيم فقال:

« يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ فلماذا كرر لفظ الناس، وعمد إلى الإظهار بدل الإضمار، فلم يقل مثلا «رب الناس وملكهم وإلههم» الذي ظهر لي، كأن ربنا – والله أعلم – يقول لهم هذه ثلاث قضايا متماثلة متكاملة كل قضية مستقلة بنفسها، مع ارتباطها بأختها، فهو «رب الناس» أي خالقهم وحافظهم وهو «ملك الناس» أي مالكهم المتصرف فيهم، وهو «إله الناس» أي المستحق وحده لعبادتهم، ولا يجوز أن يكون له شريك فيها، ومقتضى ذلك أن تصدقوا بالقضايا الثلاث، أو أن تنكروا القضايا الثلاث، فما بالكم تصدقون بالأولى والثانية وترفضون الثالثة». كيف تفرقون بين المتماثلات؟ فتقبلون بعضاً وتأبون بعضا».

والثلاث سواء في الثبوت، لا سبيل إلى التفريق بينهما في الحكم».

فإذا كان الشيخ بدأ شاهده هذا بالإشارة إلى أربع قضايا، ثم ضمنها عند تحليله لسورة الناس، بالإشارة إلى ثلاث منها فقط دون الرابعة، فلعله أراد – وقد أشار إلى ذلك قبلا – أن يدرك المتلقي وحده ارتباط هذه الرابعة بثلاثتها، ارتباط البعض بالكل، والذي لا يصح معه إلا الإيمان بها ضمنا بل أساساً، حتى يكتمل الإيمان بالله سبحانه.

* تنقية وتحديد المراد من المسلم المؤمن حتى يتوافر له من إخلاص العقيدة والعمل بها ما يسلم به عمله – قولاً وفعلاً – ولا يقع في دائرة الإحباط المهدرة له.

رأيناه يفعل ذلك حين اهتم بجميع سمات توحيد الألوهية في عدة نقاط واضحة – مع أن علم التوحيد كعلم متخصص لا يسهل الإلمام به في نقاط قليلة، الأمر الذي رأينا شيخنا يفعله هنا – وذلك بعد التعريف المجمل بالعبادة التي عليها تقوم الصلة بالمعبود سبحانه، حيث قال[١٠]:

«والعبادة لها روح ولها جسد، فروحها العقيدة التي دفعت إليها، والغاية التي عملت من أجلها، وجسدها عمل الجوارح، من لفظ اللسان وحركات الجسم.. الصلاة مثلا حركات وألفاظ، قيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وذكر وتسبيح، لكن هذا كله جسد الصلاة، فإن لم يكن الدافع إليه توحيداً صحيحاً وعقيدة سليمة، لم يكن المقصود به امتثال أمر الله، وطلب رضاه، وكانت الصلاة جسدا ميتاً لا روح فيه»!!.

ثم مضى يكشف عما يجعل العقيدة سليمة والتوحيد سليماً، ممثلاً في:

١– أن نستخدم عقولنا للتفكير في خلق الله.

٢– ألا يصرفنا عدم إدراكنا للروابط بين ظواهر الأشياء وبواطنها، عن مواصلة التفكير فيها، أو الاعتقاد في عدم جدواها، أو حسبانها خالية من الحكمة﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾ ؟

٣– وأن حب الله والخشية منه هما من أسس التوحيد، وهما روح العبادة.

٤– ضرورة توفير الإخلاص في كل ما يتوجه به إلى الله من قول أو عمل، ولن يكون ذلك كذلك حتى تتوافر المراقبة الجادة لهما، أكاد أقول في كل نفس، وفي كل وقت وحين مصداقا لما جاء بقوله صلى الله عليه وسلم الذي عرف به معنى الاحسان **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».**

٥– أن يلتزم المؤمن في جلب المنفعة أو دفع المضرة الأسباب التي هيأها الله، والحق أحق أن يتبع.

هذه المنظومة في تقدير الإسلام بتعريفه العام:

فإذا دلفنا إلى نهايات هذه العجالة، وجدنا أنفسنا لا نستحسن ختامها إلا بالوقوف بعض الشيء عند تأملات شيخنا رحمه الله عن الإسلام وكتابه العظيم.. القرآن الكريم، إذ نراه حرص على أن يرصد واقعية الإسلام وإحاطته الشاملة



بالإنسان المسلم في كل مكان وزمان.. ولنقرأ معاً سطوره التالية من «خاتمة» كتابه هذا والتي يقول فيها[11]:

«إن كانت ديانات الناس للمعابد وحدها، فالإسلام ليس للمسجد وحده، ولكن للمسجد وللدار وللسوق، ولقصر الحكم وللحرب وللسلم.. الإسلام يلازم المسلم دائماً، يبين له ما يباح له وما يحرم عليه.. هو معه إن خلا بنفسه، ومعه إن انفرد بأهله وهو معه في تجارته وفي عمله. كل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الخمسة، ومنها الإباحة الأصلية.. وإن كانت الديانات الأخرى عبادات فقط، لا علاقة لها بالسياسة ولا بالعلم، فالإسلام عبادة، وقانون مدني، ونظام إداري، ومذهب خلقي، وهو علم وهو سياسة وهو عمل وهو جهاد. افتحوا أي كتاب من كتب الفقه، وانظروا في فهرسه، تروا هذه الجوانب كلها فيه».

وإذا كان الشيخ بدا لنا في سطوره القليلة السابقة ناظماً منظومة نثرية فائقة في التنويه بالإسلام، وعطائه المبارك المحيط بحياة المسلمين إحاطة شمول ورعاية، كأنه الحارس لهم في أحوالهم جميعاً، فقد رأيناه في مقطع تال من هذه الخاتمة، يوالي بتنويهه بهذا الدين العظيم، ودوره الفائق في خدمة الحياة والأحياء ولنقرأ سطوره التالية التي ساقها رحمه الله في تقدير العمل والعلم[12]:

«وإذا فصلوا بين الدين - الذي هو عبادة فقط - وبين العلم، فالإسلام دين العلم .. أول كلمة نزلت من كتابه كانت «اقرأ»، لم تكن «قاتل، ولا «اجمع المال» ولا «ازهد في الدنيا». و«اقرأ» هذه أول كلمة أنزلت من القرآن، وجاء بعدها ذكر العلم. ما منَّ الله على الإنسان بما أعطاه من مال ولا قوة ولا جاه، بل بأنه علمه ما لم يعلم.

وكل عمل يحتاج إليه مجتمع إسلامي، يكون تعلمه «فرض كفاية» على القادرين عليه.. فهل في الوجود دين - إلا الإسلام - يجعل تعلم الكيمياء والطب والطيران من الفروض الدينية؟!».

ولعله لم يغب عنك إمكانات القوة التي اشتملت عليها تعاليم الإسلام، ممثلة في جانبي العلم والعمل مرتقياً بالثاني ما دام يقوم على أساس متين من الأول، جاعلاً في تعلم كل علم من شأنه النهوض بالحياة، وحركة الأحياء فريضة من فرائض الدين. ويظل شيخنا في منظومته هذه مبيناً دور كل من الإسلام في حركة الحياة والمسلم نفسه في الدفع بهذا الدين إلى أرجاء العالم المفتقد بحق إليه، ولا يكون ذلك إلا بأن يتوافر من الدعاة إليه من كانوا قدوات صالحة، تدعم بأفعالها كل ما جاء بأقوالها عن دينها أليس هذا هو ما تعكسه السطور التالية[13]:

« وهو - أي الإسلام - يريد من المسلمين أن يصدقوا الإيمان، وأن يتبعوا الشرع، وأن يكونوا مع هذا أرقى الأمم، وأقوى الأمم، وأعلم الأمم، وأغنى الأمم، يجمعوا حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، وأن يعلم كل مسلم - بعد هذا - أن عليه واجباً آخر هو التعريف بالإسلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ف[...] يكره الناس على الإسلام «لا إكراه في الدين» بل يعرض عليهم محاسنه حتى يرغبوا فيه، ولا يدعو بلسان مقا[له] فقط، بل بلسان حاله، بأن يكون المجتمع الإسلامي صو[رة] مجسمة لمبادئ الإسلام، لا بأن يكون صورة مشوهة لو[...] تنفر منها وتبعد عنها كما هي الحال الآن.. بأن يكو[ن] الداعي قوي العقل ليقيم الحجة، عالما بالإسلام ليحس[ن] العرض، مثقفا بثقافة العصر ليكلم الناس بلغة العص[ر] وأن يكون لطيف المدخل خفيف الظل، لا فظاً ولا غليظ ولا جافياً عاتياً»، إلى أن يقول فيها بآخر منظومته هذه:

فالإسلام باق لا يزول، والعاقبة له، ولكن إما أ[ن] نعود - نحن المسلمين - إلى ديننا فيكون لنا شر[ف] النصر في الدنيا، وثواب الله في الآخرة، وإما ا[ن] يستبدل قوماً غيرنا يدخلون في الإسلام، ويتولو[ن] الدعوة إليه والدفاع عنه.

ونعوذ بالله أن يستبدل بنا، ونسأله أن يردنا إلى دين[نا] إلى أن يكتب له النصر على أيدينا، وأن يغفر لنا ويرحمنا

أما بعد:

فاذا كان ثمة كتاب يمكن به تمثل شخصية الشي[خ] علي الطنطاوي الداعية الفذ الأديب، والمفكر الإسلا[مي] الأريب، فلن يكون سوى كتابه هذا الذي عرضنا له ع[بر] الصفحات القليلة السابقة «تعريف عام بدين الإسلام» جعله الله سبحانه في ميزان حسناته.. ورحمه ا[لله] رحمة واسعة. ■

الهوامش:

١- تعريف عام بدين الإسلام فضيلة الشيخ علي الطنطاوي - ط ١٤١٥/١٩٩٥م عن دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا - مصر، المقدمة المعنونة بـ«قصة هذا الكتاب» ص ٨، ١١، ١٢.

٢- من المقدمة الثانية «بين يدي الكتاب» والتي مهد بها الشيخ لأقس[ام] كتابه التالية ص ١٨، ١٩.

٣- تعريف عام بدين الاسلام ص ٢٥.

٤- لم يفت الشيخ هنا أن يوضح بقوله في الهامش ص ٢٥ «تج[...] النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم فنقول «حقوق دولي[ة]» و«قوانين عمالية» و«مظاهرات طلابية» و«مسائل عقائدية» كما قا[ل] «عالم أصولي» و«رجل أنصاري» و«مائدة ملوكية» و«رسائل إخوان[...]» وهو ما جعلنا نشير إلى أن هوامش الكتاب لا تقل أهمية عن متنه.

٥- تعريف عام بدين الإسلام ص ٢٦.

٦- المصدر نفسه ص ٣٠ - ٣١.

٧- انظر تفاصيل هذا الفصل ص ٣٧ - ٥١.

٨- الكتاب نفسه ص ٦٠ من فصل بعنوان «الإيمان بالله».

٩- جاء بالهامش معرفاً «هذه الأجسام الصغيرة يسمونها الكها[رب] «الألكترونيات».

١٠- المصدر نفسه ص ٦٦.

١١- من خاتمة كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» ص ١٨٧.

١٢- المصدر السابق نفسه ص ١٨٨.

١٣- المصدر السابق نفسه ص ١٨٩ - ١٩٠.



رسائل جامعية

ذكريات علي الطنطاوي

دراسة فنية

لأحمد علي آل مريع

بقلم: عبدالرحمن درباش الزهراني
السعودية

ذكريات الشيخ علي الطنطاوي دراسة فنية، الباحث: أحمد بن علي آل مريع (١٩٧٠م/١٣٩٠هـ)، رسالة ماجستير في مجلدين (٦٢٤ صفحة)، سجلت بجامعة أم القرى في ١٤١٦/٦/١٤هـ، ونوقشت مساء السبت ١٤٢٠/٢/١٤هـ، وأجيزت بتقدير (ممتاز) مع شهادة تقدير، أشرف على الرسالة د. حسن محمد باجودة، وناقشها كل من: .د صالح جمال بدوي، ود. صالح سعيد الزهراني. الرسالة لم تنشر، وهي مصفوفة على الحاسب الآلي وموجودة في المكتبات ومراكز البحث العلمي، صُدِّرت الرسالة بإهداء جميل إلى الطنطاوي، حيث أفضل الله على كاتبها بأن أنجزت في حياته، وقرأ عليه فصولاً منها أثناء الإعداد لها، وأهدى إليه نسخة خاصة بعد المناقشة.



الرسالة عرض وقراءة:

تعرضت شخصية الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- إلى شيء غير يسير من التجاهل «ولا سيما في جانبها الأدبي» ومرجع ذلك ليس التعمد والقصد، ولكنه بصورة «ما» أقرب ما يكون إلى النسيان غير المقصود، فمن عادة الإنسان أنْ ينصرف ذهنه إلى المبهر فيما يفجؤه لأول وهلة، ويدع التنقيب عن جوانب أخرى ربما تكون أغنى وأقنى وأمتع أيضاً.

وقد جاءت هذه الدراسة بحثاً رأسياً في الجانب المنسي من شخصية الطنطاوي الأدبية، فكانت بمثابة التذكير بصورة من الصور البهية التي كان أديبنا -رحمه الله- يخطر فيها. ووجدت الدراسة وهي تزفه إلى القارئ عبر بوابة الأدب المشرعة: أنه لا يختلف كثيراً من حيث المبادئ والقيم عما عهدناه به، شيخاً وقوراً عليه سيما التقى والصلاح، لأنه من طائفة أخذت على نفسها العهد بمهمة الريادة الفعلية للأمة، ومشاركتها قضاياها الملحة والمصيرية، في صدق الأديب المسلم والتزامه، وإن بدا أديبنا ملهماً في فنه أكثر إبهاراً وتجدداً لما اتسم به فنه من الجمال والحيوية، ولغته من البيان الراقي.

الدراسة هنا قراءة أولية في أدب الرجل، وبالتحديد في سفر الذكريات ذي المجلدات الثمانية، تفرغت فيها للجانب الفني حتى تمنح نفسها مساحة جيدة من العناية لحساب التخصص في التناول، لتحقق قدراً من العمق، وتكون بالتالي دراسة من الداخل لا من الخارج، ووصفاً لآلية الإبداع وليس حديثاً عن مجالاته فحسب.

المقدمة

أشار الباحث في مقدمته إلى أنه وظف مفهوم المنهج التكاملي في النقد فأفاد من جميع المناهج التي من شأنها أن تعمق وتفعِّل الدراسة، فاعتمد على المنهج الوصفي في تقديم الظواهر الفنية وإبرازها للقارئ ليكون على معرفة بها وتصور كامل لها، وحتى يشاركه عملية البحث والتفكير، ويعطيه من ثم فرصة للاختلاف أوالموافقة، واعتمد على المنهج التحليلي في تفسير الظاهرة ومناقشتها، وبيان أسبابها ومنشئها ودوافعها، وأفاد من المنهج التاريخي في تتبع تلك الظاهرة عند الكاتب عبر نتاجه الأدبي عامة، وعند أسلافه الذين اقتبس عنهم هذه الخصائص أو السمات، وأفاد من النقد الأدبي والبلاغي القديم في درس وتقويم بعض الأساليب والنماذج الأدبية التي وقع عليها، ليس لعجز في النقد الحديث ولا المعاصر، ولكن لأن الكاتب الطنطاوي انطلق فيها من خلفية ثقافية بلاغية ونقدية قديمة. كما أفاد من معطيات الفكر النقدي الحديث في جوانب أخرى من الرسالة، وبخاصة من النقد المصاحب للسرديات «الرواية / القصة»، ومن النقد المصاحب لفن السير، ومن المنهج الآيديولوجي/ الاعتقادي عند محاكمة و«تقويم» بعض الجوانب الأدبية، وكان يحكمه في كل ذلك الثقافة الإسلامية التي صبغ الطنطاوي تحت مظلتها ونما بعينيها. وأفاد من منهج الموازنة عند المقابلة بين هذه الظاهرة أو تلك عند الأديب نفسه، أو عند غيره في ثقافته أو لغته، والمنهج المقارن عند مقابلتها بغيرها في أدب أديب في أمة أجنبية.

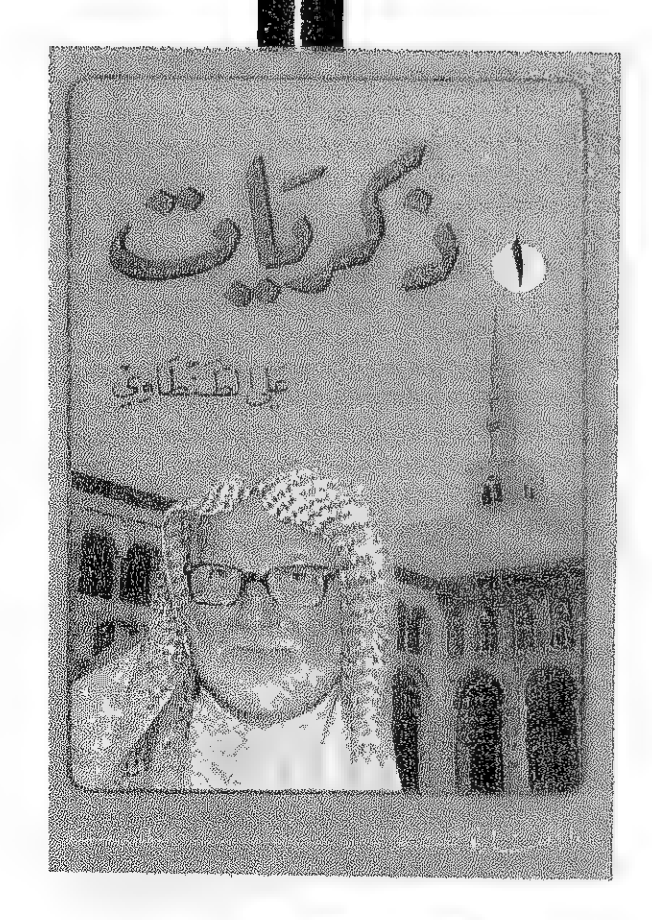
أجزاء الرسالة

وقد جاءت الرسالة في مقدمة، وتمهيد، وسبعة فصول، أشار الباحث في المقدمة إلى أهمية موضع البحث، وقيمة كتاب الذكريات، والدوافع التي حدت إلى تسجيله، والعقبات التي واجهت الدراسات، وتناول في التمهيد ثلاث مسائل معينة على الدراسة:

الأولى بعنوان «السيرة الذاتية الحد والمفهوم ص ١٥ - ١٠٣» عرض فيها لكلمة «سيرة - ترجمة» في المعجم العربي واختار الأولى لأسباب فنية ولغوية وضحها في موضعها، ثم حاول تعريف السيرة الذاتية أكاديمياً من واقع الأعمال الحية، وبالنظر إلى وظيفة السيرة الذاتية، مناقشاً عدداً من التعريفات المطروحة، ثم انتقل للأنواع التي تلتبس بفن السيرة الذاتية في استعمالات الأدباء والنقاد المحدثين وتحدث عن كل منها حديثاً مستقلاً لينتهي به المطاف إلى اقتراح تعريف أدبي خاص لفن السيرة الذاتية الأدبية قد نختلف أو نتفق مع الباحث فيه، لكنه كان مدخلاً موفقاً يسر له نظرة دقيقة للذكريات، وأعانه على التعامل القوي والانطلاق من أرضية صلدة قوامها البحث الخبير لا الرجم بالغيب والظنون.

والمسألة الثانية من مسائل التمهيد هي بعنوان «علي الطنطاوي حياته وآثاره» تناول فيها سيرة الطنطاوي وكفاحه، وأحصى نتاجه المطبوع والكتب التي أعدها الشيخ ثم طواها فلم يخرجها. أو صرح بها ولم ينشرها لظروف مختلفة.

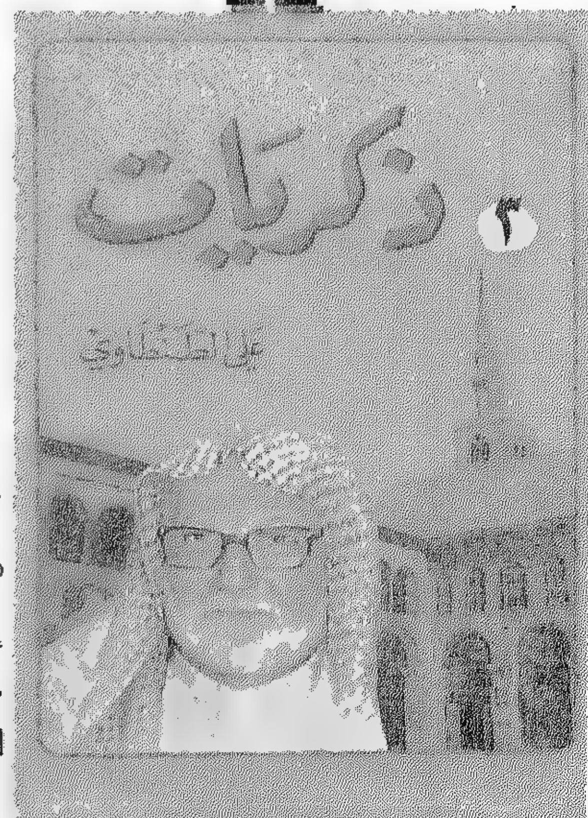
وكانت الوقفة الثالثة أمام الكتاب ذاته «ذكريات الطنطاوي» وعنون لهذه الوقفة بـ«ذكريات علي الطنطاوي



نظرة عامة» عالج فيها أربعة أمور «قصة الكتاب» و«أهميته» و«الدوافع إلى كتابته» ، و«تجنيس الكتاب» وهي مسائل في غاية الأهمية، لأنها تعين على استكشاف الكتاب موضع الدراسة، وتعرف بقيمته على الإجمال، وتبحث في المحركات النفسية والفكرية الخفية التي عملت على إخراجه أو أسهمت في تشكيله. لذلك كانت من صميم البحث، ولو تناولها الباحث ضمن التمهيد لطبيعة التشكيل المنهجي الذي فرضه الموضوع على الباحث.

التكنيك الفني للسرد والحوار

وكان الفصل الأول «التكنيك الفني للسرد والحوار ص ١٠٥ - ١٨٤، معنياً بالبناء السردي وبالحوار في الكتاب، عرض فيه لمفهوم السرد فنياً، ونبه على الفروق الجوهرية بين السرد الروائي والسرد السيري والفرق بين السردين في السيرة والرواية، وأكد على أنَّ من الظلم محاكمة الطنطاوي إلى آليات السرد الروائي الصارمة، وإن كان من الواجب بل والممكن قراءة الذكريات سردياً نظراً لانطوائه على عوالم مميزة لا تظهر قيمتها إلا بالكشف عنها سردياً. وصنف العمل بأنه مما يندرج تحت مصطلح السرد الأدبي المفتوح، وهذا قد أعطاه قيمة أدبية خاصة، لأنه نتاج أديب موسوعي مثل الطنطاوي -رحمه الله-. وتتبع الباحث الأسباب المحفزة لهذا المنحى «السردي المفتوح» عند الكاتب، وانتهى إلى تقرير عدد من الأسباب: الفنية، والشخصية، والآنية، التي رافقت نشر الكتاب في صحيفة على حلقات متواصلة وأدت بالمساق السردي إلى هذه الحالة، إلا أنه أكد على أنَّ الرسالة التي حمَّلها الطنطاوي النص كانت أعظم من أن يحيط بها التنظيم.



وفي جانب «وجهة نظر السارد / الراوي» أشار إلى عدد من الملاحظات القيمة، منها تطابق وجهة نظر الراوي/ السارد والكاتب نظراً لاستعماله صيغة السرد الذاتي «أنا»، وهذا إذا كان له جوانب إيجابية تختص بقدرته على التعبير عن الذات وتعمق الأحوال النفسية للشخصية فإن له عيوبه الخاصة ومن أشدها: جعل القارئ يربط بين ذات الكاتب وبين السارد، وهذا ما أثر على السرد تأثيراً واضحاً فكان الكاتب الطنطاوي كثيراً ما يقحم نفسه ليقدم موقفه المحسوب من الواقع - كما يقول الباحث.. وأدى من جهة ثانية إلى: قذف المتلقي في وعي الملقي/ السارد من حيث لا يشعر، فأخذ الكاتب يوجه كلامه على حاضر يسمعه ويراه، وهذا ترك أثره على خطابه الأدبي.

ومن ملاحظات الباحث الذكية أن السرد الطنطاوي يفجؤنا بحالة سردية مغايرة، إذ يسلم السارد مهمة توجيه السرد لموجهات خارجية.. ولكن مما يحمد للسرد الطنطاوي أنه قد نجح في تحرير العمل من نموذج أدب المذكرات والذكريات ودفع به إلى حياض أدب السيرة الذاتية حين خلصه من الاسترجاع التاريخي المنصب على رواية الأخبار ونقل المشاهدات. وقدم الحياة من خلال شخصية حية تفكر وتعمل.. وتتبع الباحث الآليات التي تواترت في السرد، فبين أن السرد اعتمد على آلية الحكاية داخل الحكاية، وأفاد من أسلوب الرسائل والوثائق، ووظف التحليل والوصف، واتسم بشيء من العرض الفلسفي والوعظ والخطابية.. كما اتخذت سيرته الإطار المقالي بما فيها من مقدمة وعرض وخاتمة وتحليل وتفسير. أما الزمان فقد سار على منهج السنين، وهو منهج قديم من مناهج التاريخ والسير، وكثيراً ما كان ينفرط عقد الزمان بين يدي الكاتب!! ولم يكن المكان - بحسب الباحث - حيزاً مجرداً من المعاني لذلك أسهب في وصفه، وتفنن في استحضاره، وكانت أبرز صفاته في الذكريات الطهورية والتعددية. وبالنسبة للحوار فقد جاء على ضربين، حوار داخلي مع النفس، وحوار خارجي بين شخصيتين مختلفتين، ويتميز عموماً بالإيجاز، ومثالية ما يدور فيه من أفكار، وحكاية بعض الألفاظ العامة.

الحقيقة والخيال

أما الفصل الثاني، بعنوان «الحقيقة والخيال ص ١٨٥ - ٢٦٢» فقد وقف أمام الصدق في السيرة عند الكاتب المسلم، وبين أنه مطالب بالموازنة بين قول الصدق والاستتار بستر الله، وعدم الوقوع في المجاهرة بالإثم من جهة وبين تزكية النفس من جهة أخرى. ومتى ما قدر على ذلك فلا بأس سواء جاء ذلك تحت مسمى اعترافات أو مصارحات أو غيرها. وقد وجد أن الطنطاوي على وعي كامل بأهمية الحقيقة في السيرة الذاتية، وروى موقفه من ذلك، وحدد عدداً من معوقات الصدق التي استشعرها الكاتب وهو يدون السيرة، ورصد مشاهد الصدق في الذكريات في عدة صور: الاعتراف، محاسبة النفس، الإنصاف والعدل، نفي الخيال وإثبات الواقع، الصراحة في النقد والتعبير عن الفكر، وإبراز الجوانب المضيئة في شخصيته.

الاستطراد

وخصص الفصل الثالث لسمة من أبرز سمات الكتابة الطنطاوية، حيث عنونه بـ«الاستطراد ص ٢٦٣ - ٣٠٥» درس فيه



الاستطراد كسمة فنية اتصف بها طائفة من الأدباء «كالطنطاوي» ممن جمعوا إلى ملكة البيان تجارب ثرية، وثقافة واسعة، وهماً تنويرياً يدفعهم دفعاً إلى التعليم والتثقيف، ولم يقع الباحث في إسار النظرة البلاغية القديمة برغم إفادته منها، ولم يعتمد على نظرية السرد التي ترى أنّ الاستطراد خروج عن المهمة الأساسية، بل سعى إلى فهم الظاهرة «الاستطراد» من خلال أهداف الكاتب، وطبيعته الموسوعية، والدوافع الباعثة على الكتابة، وتكنيك الكتابة والكتاب.

السخرية

وافتتح الجزء الثاني بالفصل الرابع، بعنوان «السخرية» موضحاً أنها شيء غير الفكاهة والهجاء، وأنها أرقى منهما وأمضى ، واقترح تعريفاً لها يسهم في تخليصها مما علق بها من الفهم الخاطئ، ويعين الدراسة على ألاّ تقع في الخلط الذي وقعت فيه دراسات أخرى.

وفي هذا المجال وجد الباحث أن السخرية سمة أسلوبية وصفة فنية بارزة في نتاج الكاتب بعامة وذكرياته بخاصة، وأرجعها إلى أسباب عديدة، منها: شخصيته ونفسيته، ولاتصاله بأساتيذ ذوي توجه قوي نحو السخرية، وقراءته للأدب الفرنسي، ولكونه سليل مدرسة الجاحظ وأبي حيان التوحيدي، ولانتمائه إلى أمته، وحبه وضع كل شيء موضعه.

ومبعث السخرية عند الطنطاوي، هو الواقع باعتبار ما فيه من نقص، ومقابلته بما في ذهن الكاتب من صور المثال باعتبارها أسمى الحالات التي ينبغي أن يكون عليها الواقع، وأرجع سخرية الطنطاوي في الكتاب إلى اتجاهين عامين هما: التصلب والجمود، والخطأ والانحراف والعجز. وتحتهما أشار «مستشهداً ومناقشاً» إلى سبعة عشر محوراً دارت حولها سخريته، ورأى أنها هي المحاور ذاتها التي دارت في أفلاكها السخرية الطنطاوية في سائر نتاجه، ثم وقف أمام ما أسماه «الوسائط الفنية» مؤكداً على أنه استخدم عدداً من الأساليب والوسائط لبعث السخرية في كتابته منها ما يمكن التنظير له والحديث عنه، ومنها ما تدركه الأفهام ويعجز عن وصفه القلم، ومنها: التصوير الكاريكاتوري، والحكي/ اللوحة، والأسلوب الحكيم/ المغالطة، والأمثال والأقوال المشهورة، ومواجهة القارئ بغير ما يتوقع، والعبث والتلاعب، والتعريض، والتهكم/ الذم بما ظاهره المدح، وتوظيف مصطلحات العلوم والفنون، وقلب الأسماء أوتحريفها، والكلمة المفردة/ اللفظ، وقد تناول كل أسلوب بشيء من التفصيل والمناقشة التي عمقت الدراسة، ولم يغفل الباحث الإشارة إلى أهداف السخرية في الذكريات، وحصرها في ثلاثة أهداف مستعيناً بالشرح والتمثيل لكل هدف، وأولها: التهذيب والتقويم ، والثاني التطهير من الآلام النفسية أو تخفيفها. والثالث: المحافظة على كيان الجماعة وخصائصها.

وأثار في مختتم هذا الفصل تساؤلاً عن مدى قبول السخرية فناً في السيرة الإسلامية؟ وهل تقبل السخرية أم ترفض في دائرة الأدب الإسلامي؟ وانتهى لتحديد سمات السخرية الفنية المقبولة في دائرة الفن والأخلاق. وأكد قبول سخرية الطنطاوي على أساس أنها سخرية عطوفة ومتسامحة، ولم تكن في يوم ما سخرية سوداء تمقت الخَلْقَ وتزدري القيم بل كانت حارساً للقيم، ومعززة لمهمة البوح والتعبير عن الذات.

الفكاهة

وعقد الفصل الخامس بعنوان «الفكاهة ص ٣٤٨ – ٣٧٨» حيث توقف عند جانب مكمل للسخرية، ولكنه يختلف عنه في أنه ضحك القلب الطيب، وأن أهدافه تكاد تنحصر في إجمام النفس وبعث النشاط، والتسلية. وقد أرجع الفكاهة في الكتاب إلى نوعين أساسيين، هما: النادرة، والدعابة. ووقف طويلاً عند بواعثها. وسماتها، ووظائفها في الكتاب.

الصورة

وفي الفصل السادس «الصورة ص ٣٧٩ – ٤٥٣»، حيث درس فن الصورة الأدبية في الذكريات، وعلل لدراسة الصورة في هذا الفصل الضخم على رغم أنّ العرف جرى على تلمس فن الصورة عند الشعراء وليس الكتاب، بأن هذا من قبيل الاستثناء، وذلك لغنى تجربة الكاتب الفنية، وأن الكاتب قد تأثر بالعرف الأدبي في الفترة التي بدأ فيها الكتابة حيث كان يميل العرف الأدبي إلى اقتناص الصور الجميلة والجديدة، وكانت الصورة بالإضافة للصياغة الجوهر الأساس الذي يفصل بين الأدب وغيره، وأشار إلى مسألة خفية هي أن الطنطاوي يحمل بين جنبيه نفساً شاعرة، وقد ذكر عن نفسه أنه كان ينظم الشعر، وكان لمحفوظه من الشعر – ولا شك – دور واسع في تشكيل الصورة

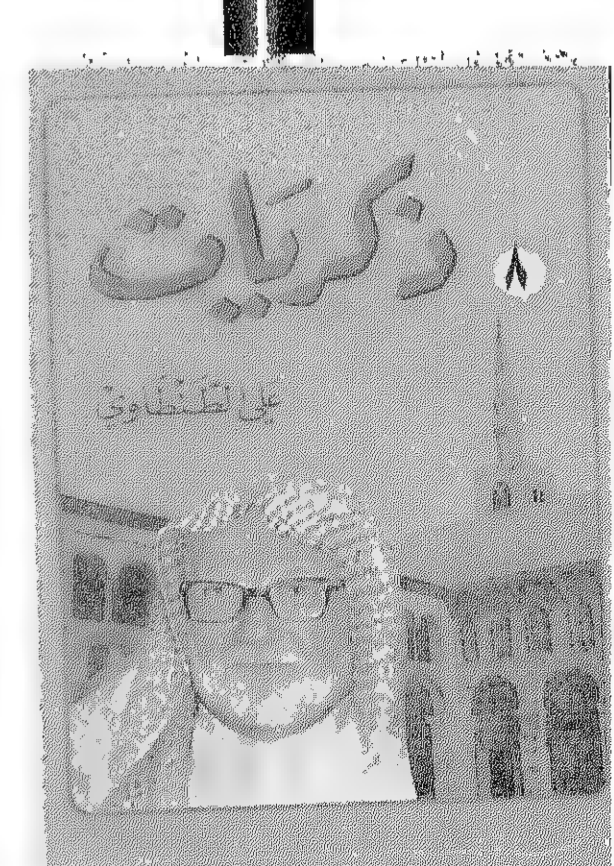




الطنطاوية. ولاحظ بأن الصورة عنده تقوم على عدة تشكيلات، هي: التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والمجاز،والكناية، والصورة الذهنية المباشرة، والحكاية الرمزية، والإحالة إلى الخرافات والأساطير، والصورة المجلوبة، واستحضار الشخصية المؤثرة، والتلوين ثم درس كل أداة من هذه الأدوات وفصل القول في طريقة عملها والكيفية التي تبرز من خلالها الصورة. ونبه القارئ عند الكلام على مادة الصورة إلى طغيان السمت البصري للصورة في الذكريات، ورأى أن ذلك شيء طبيعي. فشعرنا العربي تعتمد فيه الصورة على الإدراك البصري حتى عند الشعراء العميان، وأضاف بأنَّ العين أكثر الحواس استقبالاً للصور، وأنَّ الطنطاوي كان ذا ذاكرة بصرية تحفظ عليه صفات الأشياء وأجرامها وأحجامها وألوانها أكثر من أية وسيلة إدراكية أخرى. وقد رد جميع مصادر الصور في الكتاب إلى ثلاثة مصادر رئيسية استقى منها الكاتب صوره، وهي: البيئة، والثقافة، والذاكرة، ووقف عند كل مصدر منها معرفاً وشارحاً ومدللاً.

الأسلوب

وفي الفصل السابع «الأسلوب ص ٤٥٤ - ٥٥٨» أكد الباحث على أن أسلوب الكاتب في الذكريات يمثل المرحلة الرابعة من مراحل تطوره الأسلوبي، وهي مرحلة أخذ ينحو فيها نحو المباشرة والتلقائية والكتابة على السجية كما يصنع في حديثه اليومي. وقد استغرقت دراسة الأسلوب أكثر من مئة صفحة، توقف فيها أمام خمس عشرة سمة أسلوبية لم يسبق له أن تناولها في الصفحات السابقة، فدرسها بعناية وفرع فيها القول، وهي على الإجمال: التلقائية والعفوية، والسهولة الممتنعة، وعذوبة التعبير، والتأثر بأساليب القدماء، والانفتاح على التعبيرات المعاصرة، وبسط المعاني والأفكار، والتكرار، والإكثار من الرجوع، والتلاعب بالجمل، واستخدام الأقوال السائرة، والالتفات بين الأساليب، وموسيقية الأداء التعبيري، والإكثار



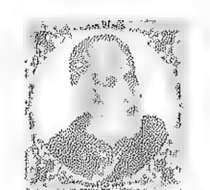
من الاستشهاد، واستخدام البديع، والاعتناء باللغة.. وختم البحث بعرض موجز لأهم القضايا المثارة، وذكر بعض التوصيات.

تقويم الدراسة

ويمكن القول بأن البحث كان دراسة جادة في نتاج علم من أعلام الأدب والفقه، وفق الباحث فيها إلى أن يضع يده على نقاط جوهرية في الفن الطنطاوي بعامة، وكان كتاب الذكريات بابا أو كالباب ولج منه إلى تجربة الطنطاوي ، رفده في ذلك حسه النقدي السليم، وقراءته المستوعبة لنتاج الطنطاوي. ومما يحمد للدراسة أنها استخدمت عدداً من الآليات النقدية الحديثة في مقاربتها ودراستها مما فعّل التناول وأنطق العمل الأدبي بحقائق تحسب لها ولا شك، لا سيما أنها انطلقت دون نموذج نقدي سابق تناول الطنطاوي. وزاد في قيمة الدراسة أسلوبها القيم وصياغتها الرصينة، وشجاعتها في مناقشة القضايا الشائكة، مثل التصدي لدراسة السخرية والاعتراف عند أديب مسلم وعلم من أعلام الفقه والفتيا،والتنظير المنهج إزاء الدراسة التطبيقية.

وقد حرص الباحث فيما يأتي ويدع على ألا تنساق الدراسة وراء الأحكام الجاهزة، أو تلك التي لا تستحضر طبيعة الثقافة العربية والمجتمع العربي وقيمهما، كما حرص - من جهة أخرى - على الدقة ولا سيما في استعمال المصطلحات الأدبية،وفي بيان إطارها الفلسفي المراد استعمالها بشأنه، وشرعيتها لهذا الاستعمال، والحدود التي تبدأ بها وتنتهي عندها، وألزم نفسه إذا ما وجد «المصطلح» غير واضح في محيطه الأدبي، أوملتبساً بغيره، أو غير دقيق في الدلالة على ما تحته أو يداخله شيء من الاضطراب، كأن يكون مستعملاً في النقد القديم والحديث استعمالين غير منضبطين ولا متداخلين، ألزم نفسه بتوضيح المصطلح وتمييزه عن غيره، أو ينص على ما يريد به، ويبين كيف فهمه وكيف استعمله، ويشير إلى التداخل الذي وقع فيه، والمعنى الذي يحيل إليه. ويلاحظ على الباحث أنه قد أباح لنفسه الاصطلاح على بعض المصطلحات التي يريد، للاستغناء بها عن التطويل، ولا حرج في ذلك ما دام التزم ببيان المراد بها بدقة. وسخر ذلك للموضوع نفسه، وسيره ليصب فيه، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب - كما يقول الأصوليون.

واجتهد الباحث في أن يقف من الكاتب وكتابه موقفاً منصفاً فأشاد بمواطن الجمال والقوة، ونبه على مواطن الضعف، مستحضراً الدوافع والمبررات، فإن الأدب تعبير عن الأديب وحاجاته في المقام الأول، وحري بكل باحث الفطنة لمثل ذلك، ولا يكفي فقط، الحكم بجودة أورداءة، فلابد من معرفة سبب ذلك والدافع إليه، فقد يتنكب الأديب سبيلاً قاصداً أو ممتعاً إلى آخر طويل شاق لحاجة في نفسه، أو لفهم خاص به لطبيعة الأدب، أو وظيفة المثقف والأديب، أو لظروف في عصره ومجتمعه، فيتبدل الحكم، ويبدو لنا ما نستحسن به ما كان ظاهره الرداءة، ونرد ما كان ظاهره الوجاهة.■



مؤلفات الشيخ علي الطنطاوي وما كتب عنه

مؤلفاته:

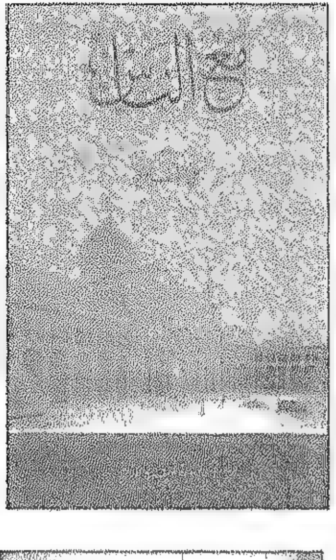
١- رسائل الإصلاح ١٣٤٨هـ.
٢- بشار بن برد ١٣٤٨هـ.
٣- رسائل سيف الإسلام ١٣٤٩هـ.
٤- الهيثميات ١٣٤٩هـ.
٥- في التحليل الأدبي ١٣٥٣هـ.
٦- عمر بن الخطاب ١٣٥٢هـ.
٧- كتاب المحفوظات ١٣٥٥هـ.
٨- في بلاد العرب ١٩٣٩م.
٩- من التاريخ الإسلامي ١٩٣٩م.
١٠- أبو بكر الصديق ١٩٨٦م.
١١- قصص من التاريخ ١٩٨٣م.
١٢- رجال من التاريخ ١٩٨٦م.
١٣- صور وخواطر ١٩٨٢م.
١٤-قصص من الحياة ١٩٨٠م.
١٥- في سبيل الإصلاح ١٩٥٩م.
١٦- دمشق ١٩٥٩م.
١٧- أخبار عمر ١٩٨٣م.
١٨- مقالات في كلمات ١٩٥٩م.
١٩- من نفحات الحرم ١٩٨٠م.
٢٠- هتاف المجد ١٩٦٠م.
٢١- من حديث النفس ١٩٨١م.
٢٢- الجامع الأموي ١٩٦٠م.
٢٣- في أندونيسيا ١٩٦٠م.
٢٤- فصول إسلامية١٩٦٠م.
٢٥- صيد الخاطر لابن الجوزي ١٩٧٨م (تحقيق وتعليق)..
٢٦- فكر ومباحث ١٩٦٠م.
٢٧- مع الناس ١٩٦٠م.
٢٨- بغداد ١٩٦٠م.
٢٩- سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠م.
- وزارة بعنقود عنب - التاجر والخراساني - ابن الوزير - التاجر والقائد - قصة الأخوين - المجرم ومدير الشرطة - جابر عثرات الكرام.
٣٠- سلسلة أعلام التاريخ ١٩٧٩م.
- عبد الرحمن بن عوف - عبد الله بن المبارك- القاضي شريك - الإمام النووي - أحمد بن عرفان الشهيد.
٣١- فتاوى علي الطنطاوي ١٩٨٦م.
٣٢- تعريف عام بدين الإسلام ١٩٧٤م.
٣٣- ذكريات علي الطنطاوي ج١، ١٩٨٥م.
٣٤- ذكريات علي الطنطاوي ج ٢، ١٩٨٥م.
٣٥- ذكريات علي الطنطاوي ج ٣، ١٩٨٦م.
٣٦- ذكريات علي الطنطاوي ج ٤، ١٩٨٦م.
٣٧- ذكريات علي الطنطاوي ج ٥، ١٩٨٧م.
٣٨- ذكريات علي الطنطاوي ج ٦، ١٩٨٨م.
٣٩- ذكريات علي الطنطاوي ج ٧، ١٩٨٩م.
٤٠- ذكريات علي الطنطاوي ج ٨، ١٩٨٩م.
٤١- قصة حياة عمر ١٩٩٣م.
٤٢- فصول اجتماعية- ٢٠٠٢م.
٤٣- سيد رجال التاريخ ..- ٢٠٠٢م.

مقالات طبعت في كتيبات:

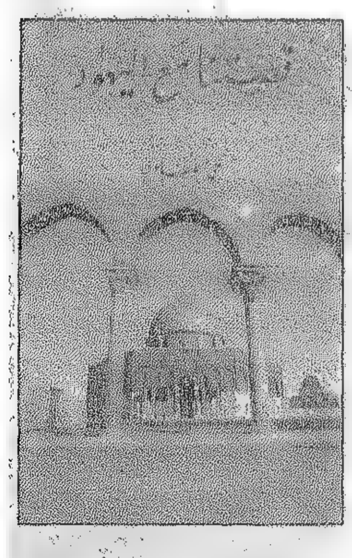
١- المثل الأعلى للشباب - دار المنارة ١٩٨٨م.
٢- يا بنتي ويا ابني - دار المنارة ١٩٨٧م.
٣- من غزل الفقهاء - دار المنارة ١٩٨٨
٤- تعريف موجز بدين الإسلام - دار المنارة ١٩٩٢م.
٥- الرزق مقسوم - دار المنارة ١٩٩٦م
٦- موقفنا من الحضارة الغربية - دار المنارة ١٩٩٠م.
٧- ارحموا الشباب - دار المنارة ١٩٩٥م.
٨- القضاء في الإسلام - دار المنارة ١٩٨٨م.
٩- من شوارد الشواهد - دار المنارة ١٩٨٨م.
١٠- حلم في نجد - دار الأصالة ١٩٨٣م.
١١- قصتنا مع اليهود - دار المنارة ١٩٩٠م.
١٢- طرق الدعوة إلى الإسلام - دار المنارة ١٩٩٠م.
١٣- صلاة ركعتين - دار المنارة ١٩٩٠م.
١٤- طريق الجنة وطريق النار - مكتبة المنارة ١٩٨٨م.
١٥- قصة كاملة لم يؤلفها بشر - دار المنارة ١٩٩٨م.
١٦- الباب الذي لا يغلق في وجه سائل - دار المنارة ١٩٩٧م.

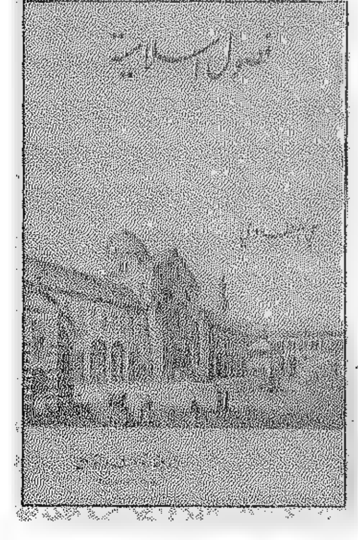
مما ألف عنه:

- (مقدمات الشيخ علي الطنطاوي) كتاب صدر عن دار المنارة، في جدة عام ١٤١٨هـ، جمع فيه الأستاذ مجد مكي مقدمات قدمها الشيخ لبعض الكتب، له ولغيره، يقع في مجلد ضم (٤١٤صفحة).
- كتاب لحفيدته عابدة العظم بعنوان «هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي».
- رسالة ماجستير للباحث / عبدالله بن جبريل بعنوان «بعض الآراء التربوية للشيخ علي الطنطاوي» من جامعة أم القرى- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- رسالة ماجستير للباحث / أحمد آل مريع بعنوان «ذكريات الطنطاوي دراسة فنية» من جامعة أم القرى.
- رسالة دكتوراه للباحث / عبدالله فاروق بعنوان «علي الطنطاوي.. مساهمته في تطوير النثر العربي الحديث» جامعة عليكرة عام ١٩٩٥م.
- «الأديب السوري علي الطنطاوي» للدكتور عبد الحميد شعبان، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد (١١) - ١٩٩١م.
- أدب الفكاهة عند الشيخ علي الطنطاوي، تأليف أحمد آل مريع، كتيب المجلة العربية العدد ٤١.
- علي الطنطاوي.. تأليف مجاهد ديرانية، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ.
- روائع الطنطاوي.. تأليف إبراهيم مضواح الألمعي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. ■









سيرة الشيخ علي الطنطاوي

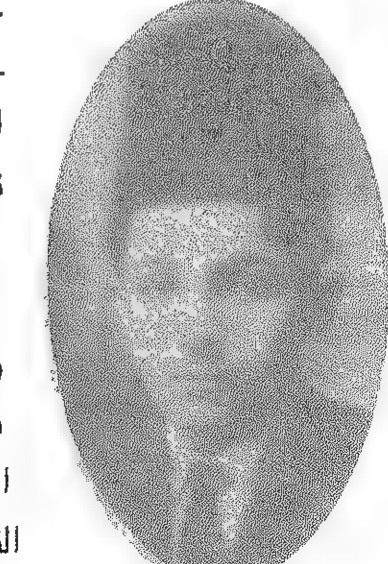
بقلم: مجاهد ديرانية*

عاش جدي الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله- حياة حافلة بالأحداث زاخرة بالأعمال الجليلة، وقد اتيح له تسجيل بعضها كما أتيح لغيره تسجيل بعضها الآخر. ومع ذلك فإن كل ما تم تسجيله عن حياته لا يتسع لها لامتدادها وكثرة أحداثها. ولعلنا في هذا المقال نغطي بعض الجوانب الجديدة من هذه الحياة العظيمة.

أصله وأسرته

حيث إن لقب جدي هو «الطنطاوي» فإن الذي يتبادر إلى الذهن أن أصله من طنطا في مصر، والأمر - بالفعل - كذلك. فقد نزح جده منها إلى دمشق سنة ١٢٥٥هـ، أي منذ قرن وثلاثة أرباع القرن، برفقة عمه. وكان عمه هذا عالماً أزهرياً حمل علمه معه إلى ديار الشام حيث جدد فيها العناية بالعلوم العقلية ولا سيما الفلك الرياضيات.

ـات سنة ١٣٠٦هـ، أي قبل أن يولد جدي بإحدى ـرين سنة؟! وترجمته في الكتاب القيم «روض ـشر» للشيخ عبد الرزاق البيطار، وفي كتاب الحدائق» للشيخ عبد المجيد الخاني - وهما تلميذاه - وقد جاء في ترجمته: «هو محمد بن مصطفى، الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشافعي مذهباً. وكان فقيهاً عالماً بالعربية والفلسفة والعلوم، ومن آثاره البسيط (وهو آلة فلكية) الموضوع في منارة العروس بالجامع الأموي». ومن نظر في تراجم علماء الشام في القرن الماضي وجد الكثير منهم قد قرأ عليه وقعد بين يديه»[1].



في الصف العاشر

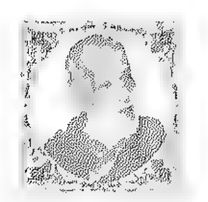
* حفيد الشيخ علي الطنطاوي.

هكذا كان ابتداء أمر أسرة الطنطاوي في الشام. اما جد جدي (الذي جاء من مصر برفقة عمه الشيخ محمد) فهو أحمد ابن علي بن مصطفى، وقد كان إمام طابور متقاعداً في الجيش العثماني. وقد وصفه جدي لنا[2] فعلمنا من وصفه أنه كان نظامياً حريصاً على الترتيب، كل شيء في حياته بحساب، المنام والقيام والطعام. وقد سكن أولاً مع عمه في داره الكبيرة وتزوج ابنته، لذلك كان يعرف نفسه بأنه «سبط الطنطاوي»، أي ابن بنته[3].

هذا هو جد جدي. أما أبوه الشيخ مصطفى الطنطاوي، فقد كان من العلماء المعدودين في الشام، وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. كان «من صدور الفقهاء ومن الطبقة الاولى من المعلمين والمربين»[4].

وكان الشيخ مصطفى مديراً للمدرسة التجارية التي دَرَس فيها جدي وكانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي والثانوي، مجموع سنوات الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة»، وبعدما ترك مديرية المدرسة ولي منصب رئيس ديوان محكمة النقض عام ١٩١٨م إلى أن توفي في عام ١٩٢٥م (وكان عمر جدي - حينذاك - ست عشرة سنة وثلاثة أشهر)[5].

وأسرة أمه أيضا من الأسر العلمية في الشام فهي «رئيفة بنت الشيخ أبي الفتح الخطيب»، وأصل اسرتها من بغداد، ثم نزلت حماة ونزح فرع منها إلى قرية عذراء «عدرا» شرقي طريق دمشق - حلب مشرفة على الغوطة، وانتقل منهم إلى



دمشق الشيخ عبد الرحيم بن محمد الخطيب المدفون في مقبرة الدحداح سنة ١١٩٩هـ. وقد بلغت ذريته الآلاف وغدت من أكبر الأسر الدمشقية»[٦]، وكثير من أفرادها من العلماء المعدودين ولهم تراجم في كتب الرجال، وخاله، أخو أمه، هو محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتي «الفتح» و«الزهراء» وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع هذا القرن.

نشأته ودراسته

كان علي الطنطاوي من أوائل الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ والدراسة في المدارس النظامية، وقد عد من مشايخه الذين قرأ عليهم – في حاشية طويلة في أول كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» – طائفة منهم يجاوزون الأربعين.

تلقى دراسته الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالباً في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديراً لها إلى سنة ١٩١٨م، ثم في المدرسة السلطانية الثانية، وبعدها في المدرسة الجقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣م، حين دخل «مكتب عنبر» الذي كان الثانوية الكاملة الوحيدة في دمشق حينذاك، ومنه نال البكالوريا «الثانوية العامة» سنة ١٩٢٨م. لقد عاش جدي في هذه المدرسة ستاً من أغنى سني حياته لم ينس أثرها ولم تغب عنه ذكراها إلى آخر أيامه [٧].

بعد ذلك ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، وكان أول طالب من الشام يؤم مصر للدراسة العالية، ولكنه لم يتم السنة الأولى، وعاد إلى دمشق في السنة التالية ١٩٢٩م، فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس «الإجازة الجامعية» سنة ١٩٣٣م. وقد رأى – لما كان في مصر – لجاناً للطلبة لها مشاركة في العمل الشعبي والنضالي، فلما عاد إلى الشام دعا إلى تأليف لجان على تلك الصورة، فألفت لجنة للطلبة سميت «اللجنة العليا لطلاب سوريا» وانتخب رئيساً لها وقادها نحواً من ثلاث سنين. وكانت لجنة الطلبة هذه بمثابة اللجنة التنفيذية للكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي للشام، وهي التي كانت تنظم المظاهرات والإضرابات، وهي التي تولت إبطال الانتخابات المزورة سنة ١٩٣١م.

وقد علمتم أن أباه توفي وعمره ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض بأعباء أسرة فيها أم وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم.

ومن أجل ذلك فكر في ترك الدراسة واتجه إلى التجارة، ولكن الله صرفه عن هذا الطريق وعاد إلى الدراسة ليكمل طريقه فيها[٨].

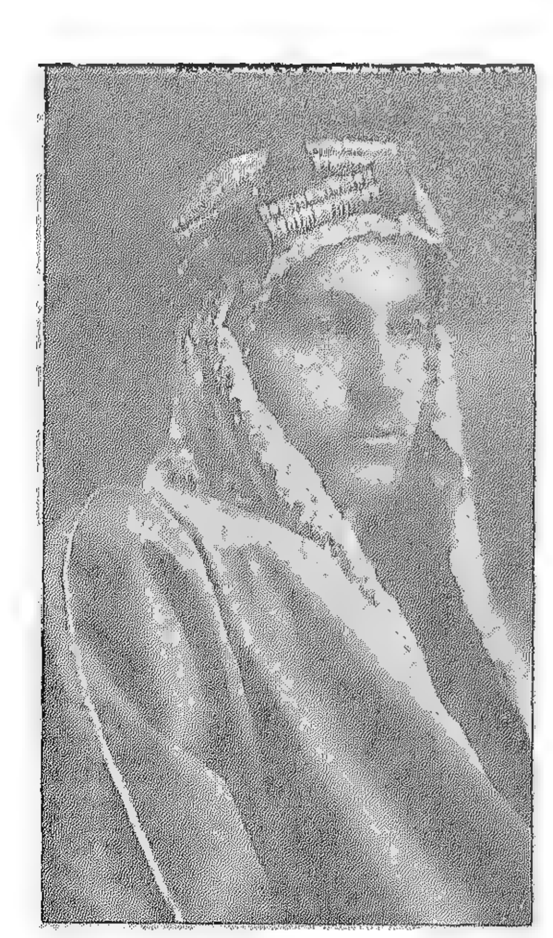
ثم ماتت أمه وهو في الرابعة والعشرين، فكانت تلك واحدة من أكبر الصدمات التي تلقاها في حياته بعد صدمته بموت والده. ولقد شهدته مراراً يذكرها ويذكر موتها – وقد مضى على موتها أكثر من ستين سنة – وأشهد أنه ما ذكرها إلا وفاضت عيناه[٩].



مع أخيه الأصغر محمد سعيد

في الصحافة

نشر علي الطنطاوي أول مقالة له في جريدة عامة في عام ١٩٢٦م، نشرها له الأستاذ محمد كرد علي في جريدة المقتبس، وكان في السابعة عشرة من عمره[١٠] ويعد هذه المقالة لم ينقطع علي الطنطاوي عن الصحافة أبداً، فعمل بها في كل فترات حياته ونشر في كثير من الصحف، شارك في تحرير مجلتي خاله محب الدين الخطيب، «الفتح» و«الزهراء» حين زار مصر سنة ١٩٢٦م، ولما عاد إلى الشام – في السنة التالية – عمل في جريدة «فتى العرب» مع الأديب الكبير معروف الأرناؤوط، ثم في «ألف باء» مع شيخ الصحافة السورية يوسف العيسى، ثم كان مدير تحرير جريدة «الأيام» التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة ١٩٣١م ورأس تحريرها الأستاذ الكبير عارف النكدي، وله فيها كتابات وطنية كثيرة. وخلال ذلك كان يكتب في «الناقد» و«الشعب» وسواهما من الصحف. وفي سنة ١٩٣٣م أنشأ الزيات المجلة الكبرى، «الرسالة» فكان جدي واحداً من كتابها واستمر فيها عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة ١٩٥٣م. وكتب – بالإضافة إلى كل ذلك – سنوات في مجلة «المسلمون»، وفي «الأيام» و«النصر». وحين جاء إلى المملكة نشر في مجلة «الحج» في مكة، وفي جريدة «المدينة»، وأخيراً نشر ذكرياته في «الشرق الأوسط» على مدى نحو من خمس سنين، وله مقالات متناثرة في عشرات من الصحف والمجلات التي كان يعجز – هو نفسه – عن حصرها وتذكر أسمائها.



في دمشق عام ١٣٤٩هـ



وقد بقيت الصحافة أبداً العمل الأثير لديه[11]، وفي الذكريات المنشورة «الجزء الثاني، الحلقات ٣٥-٣٧» تفصيل ممتع وأخبار كثيرة طريفة مفيدة عن اشتغاله بالصحافة وعن الذين اشتغل معهم فيها، فمن شاء فليرجع إليها هناك.

في التعليم

إذا كانت الصحافة هي المهنة التي أحبها علي الطنطاوي، فإن التعليم هو العمل الذي ملأ حياته كلها، لقد كان يقول عن نفسه إنه أقدم المعلمين في الدنيا أو من أقدمهم. وكيف لا يكون كذلك وهو قد بدأ بالتعليم ولما يزل طالباً في المرحلة الثانوية؟ لقد بدأ بالتدريس في المدارس الأهلية بالشام، في الأمينية والجوهرية والكاملية، وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره «في عام ١٣٤٥ هجرية»، وقد طبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن «بشار بن برد» في كتاب عام ١٩٣٠م «أي حين كان في الحادية والعشرين من العمر».

بعد ذلك صار معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة ١٩٣١م حين أغلقت السلطات جريدة «الأيام» التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في الابتدائي إلى سنة ١٩٣٥م. وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة، فما زال ينقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، حتى طوف بأرجاء سوريا جميعاً. من أطراف جبل الشيخ جنوباً إلى دير الزور في أقصى الشمال والشرق، ولكن شيئاً من ذلك لم يصرفه عن التعليم أو يقعد به عن المضي فيه، اقرؤوا كيف وصف في ذكرياته [12] تنقله بين المدارس في القرى، وفي الجبال وفي الحرّات، في أيام القرّ وفي أيام الحر، يخوض في الثلوج وينام مع العقارب.. صور لو قرأها فتيان اليوم لعجبوا كيف يطيقها إنسان، ولكننا نجده ماضياً بعزيمة وهمة لا يني ولا يكل[13].

لقد بدأ جدي التعليم مدرساً في المدارس الابتدائية في القرى، وقد انطلق إلى هذا العمل مشحوناً بحماسة ندر أن نجد لها مثيلاً لدى معلم صبيان. ولكن طموحه كان أكبر من تعليم صبيان، كان - أبداً - يريد أن يصب ما في رأسه من علم، أو في جعبته من إبداع حيث عمل ومع أي أناس اشتغل. ها هو ذا يقول عن عمله مع تلاميذ المدرسة الابتدائية بقرية سلميَّة التي علم فيها سنة ١٩٣٢م: «وكنت - من حماستي، ومما وجدت من ذكاء التلاميذ وحسن استجابتهم ورغبتهم في الاستفادة



بغداد مع طائفة من طلاب المدرسة الغربية

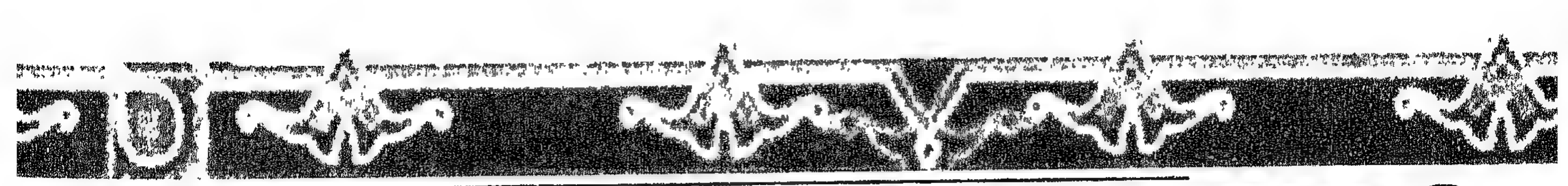
والتحصيل - أريد أن أجعل منهم كتاباً وخطباء، وجعلت من دروس التاريخ محاضرات وطنية لا مجرد معرفة بأحداث الماضي..»[14].

ولما نقل إلى قرية سقبا «من قرى الغوطة، قرب دمشق» في السنة التالية صار مسؤولاً عن مدرسة ابتدائية فيها أكثر من مئة من التلاميذ [15].

بعد ذلك انتقل إلى العراق - عام ١٩٣٦م - مدرساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية «التي صارت كلية الشريعة»، ولكن روحه الوثابة «التي لم يتركها وراءه حين قدم العراق» وجرأته في الحق «ذلك الطبع الذي لم يفارقه قط» فعلا به في العراق ما فعلاه به في الشام، فما لبث أن نقل مرة بعد مرة، فعلم في كركوك في أقصى الشمال وفي البصرة في أقصى الجنوب. وقد تركت تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسها، وأحب بغداد حتى ألف فيها كتاباً[16]. وكانت تجربته بالتعليم الثانوي هناك مختلفة عن تجربته بالتعليم الابتدائي في الشام أيما اختلاف، فقد انتقل من تلقين تلاميذ صغار محدودي الإدراك إلى تعليم طلاب كبار يتلهفون للتلقي والتعلم، فتفجرت قريحته ونثر ذخائر علمه بدون حساب[17].

بقي علي الطنطاوي يدرس في العراق حتى عام ١٩٣٩م، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرسا في الكلية الشرعية فيها عام ١٩٣٧م.

ثم رجع إلى دمشق فعين أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر «الذي صار يدعى مدرسة التجهيز، وهي الثانوية الرسمية





حينئذ بالشام، ولكنه لم يكف عن «شغبه» ومواقفه التي تسبب له المتاعب، وكان واحدٌ من هذه المواقف في احتفال أقيم بذكرى المولد، فما لبث أن جاء الأمر بنقله إلى دير الزور! وهكذا صار معلماً في الدير سنة ١٩٤٠م.

وألقى هناك خطبة جمعة حماسية ثار الناس بعدها غاضبين على الاستعمار الفرنسي، ولم يستطع الجنود الفرنسيون اعتقاله، ولكن لم يسمح له بالعودة إلى التدريس في دير الزور ثانية[١٨].

في القضاء

انتهى الأمر بجدي في إجازة قسرية بعد حوادث دير الزور أواخر سنة ١٩٤٠م. لقد أرادوا له أمراً وأراد الله له أمراً، وكان الخير فيما اختاره له الله، فلقد هيأت له هذه الحادثة ترك التعليم والدخول في سلك القضاء، دخله ليمضي فيه ربع قرن[١٩] كاملاً، خمسة وعشرين عاماً من أخصب أعوام حياته. خرج من الباب الضيق للحياة ممثلاً في التعليم بمدرسة ابتدائية في قرية، ودخلها من أوسع أبوابها قاضياً في النبك ثم في دوما «من قرى دمشق»، ثم قاضياً ممتازاً في دمشق، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر.

هذه المرة أيضاً ظهر نبوغ علي الطنطاوي وبان تميزه. لقد أراد - أبداً - أن يكون متقناً لعمله مجيداً له مخلصاً فيه، وما كان ليقبل أن يستغفله أو يستغله أحد، فلما نجح في امتحان القضاء وعين قاضياً في النبك «وهي بلدة في جبال القلمون» لم يسارع إلى استلام العمل، بل طلب من الوزارة أن تمهله شهراً، حتى يعرف المعاملات كلها: من عقد النكاح، وحصر الإرث، وتنظيم الوصية، إلى الحكم في قضايا الإرث والوقف والزواج..»[٢٠].

وبعد هذا الاستعداد وفقه الله فكان ابتداء عمله بالقضاء خير ابتداء، فقد قابلته في محكمة النبك قضية ضخمة جداً، إضبارتها تعدل في عدد صفحاتها - كما قال - جزأين من القاموس المحيط لا جزءاً واحداً، وكان كبار المحامين يأتون من دمشق للنظر فيها، فنظر فيها فبدا له أمر لم يكن أحد قد انتبه له، فإذا القرار.. انتهت المحاكمة، ونظر إليهم فإذا هم مثل الذي يصحو من حلم عجيب، وقد تنبهوا إلى أنهم كانوا يسيرون في طريق لا يوصل، ويضحكون من أنفسهم، ويهنئونه على هذا القرار. وذهبوا فحدثوا به في الأوساط القضائية في الشام، فكان - والحمد لله - خير ابتداء لعمله في القضاء»[٢١].

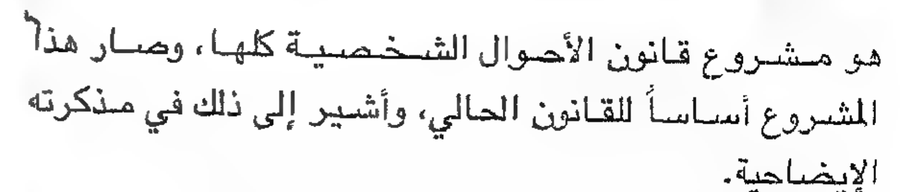


الطنطاوي وزملاؤه في المحكمة الشرعية بدمشق

أمضى جدي في النبك قاضياً نحو أحد عشر شهراً، ثم كانت تنقلات في وزارة العدل بين القضاة فنقل قاضياً إلى دوما، وهي قرية من القرى المحيطة بدمشق، وكانت محكمة دوما هي الطريق إلى محكمة دمشق، فمن ولي قضاءها انتقل منها فصار قاضياً في المحكمة الكبرى في دمشق. قال: «وقد انتدبت أول الأمر أياماً معدودة إلى محكمة دمشق فكان انتدابي إليها وعملي الرسمي في دوما، ثم صرت قاضياً رسمياً في دمشق، ثم القاضي الأول في المحكمة، الذي كانوا يدعونه القاضي الممتاز»[٢٢].

لقد صار قاضي دمشق الممتاز، فماذا صنع في هذا الموقع الذي شغله عشر سنين كاملات، من سنة ١٩٤٣م إلى سنة ١٩٥٣م حين نقل مستشاراً لمحكمة النقض لقد أحس بالمسؤولية الجسيمة التي ألقيت عليه حين صار إليه أمر المحكمة الشرعية، فلبث ليالي أرقاً يفكر ماذا يصنع حتى اهتدى إلى فكرة عجيبة انتظم بها أمر المحكمة [٢٣]، وانقطع بها ما كان من علل التسويف على العامة أو المحاباة للخاصة. أما تفصيل سيرته وما عمله في محكمة دمشق فله حديث طويل، فانظروه في آخر الجزء الرابع من الذكريات المنشورة.

وقد اقترح - لما كان قاضياً في دوما - وضع قانون كامل للأحوال الشخصية، فكلف بذلك عام ١٩٤٧م وأوفد إلى مصر مع عضو محكمة الاستئناف الأستاذ نهاد القاسم «الذي صار وزيراً للعدل أيام الوحدة» فأمضيا تلك السنة كلها هناك، حيث كلف هو بدرس مشروعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية وسواها كما كلف زميله بدرس مشروع القانون المدني. وقد أعد



هو مشروع قانون الأحوال الشخصية كلها، وصار هذا المشروع أساساً للقانون الحالي، وأشير إلى ذلك في مذكرته الإيضاحية.

وكان القانون يخول القاضي الشرعي في دمشق رئاسة مجلس الأوقاف وعمدة الثانويات الشرعية، فصار علي الطنطاوي مسؤولاً عن ذلك كله خلال عشر السنين التي أمضاها في قضاء دمشق، فقرر أنظمة الامتحانات في الثانويات الشرعية وكان له يد في تعديل قانون الأوقاف ومنهج الثانويات، ثم كلف عام ١٩٦٠م بوضع مناهج الدروس فيها فوضعها وحده - بعدما سافر إلى مصر واجتمع فيها بالقائمين على إدارة التعليم في الأزهر - واعتمدت كما وضعها.



المؤتمر الإسلامي في القدس ١٩٥٣م

رحلاته

وقد كانت له مشاركة في طائفة من المؤتمرات، منها حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية في دمشق على عهد أديب الشيشكلي، ومؤتمر الشعوب العربية لنصرة الجزائر، ومؤتمر تأسيس رابطة العالم الإسلامي، واثنين من المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا. ولكن أهم مشاركة له كانت في المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس عام ١٩٥٣م، والذي تمخضت عنه سفرته الطويلة في سبيل الدعاية لفلسطين، وقد جاب فيها باكستان والهند والملايو وأندونيسيا.

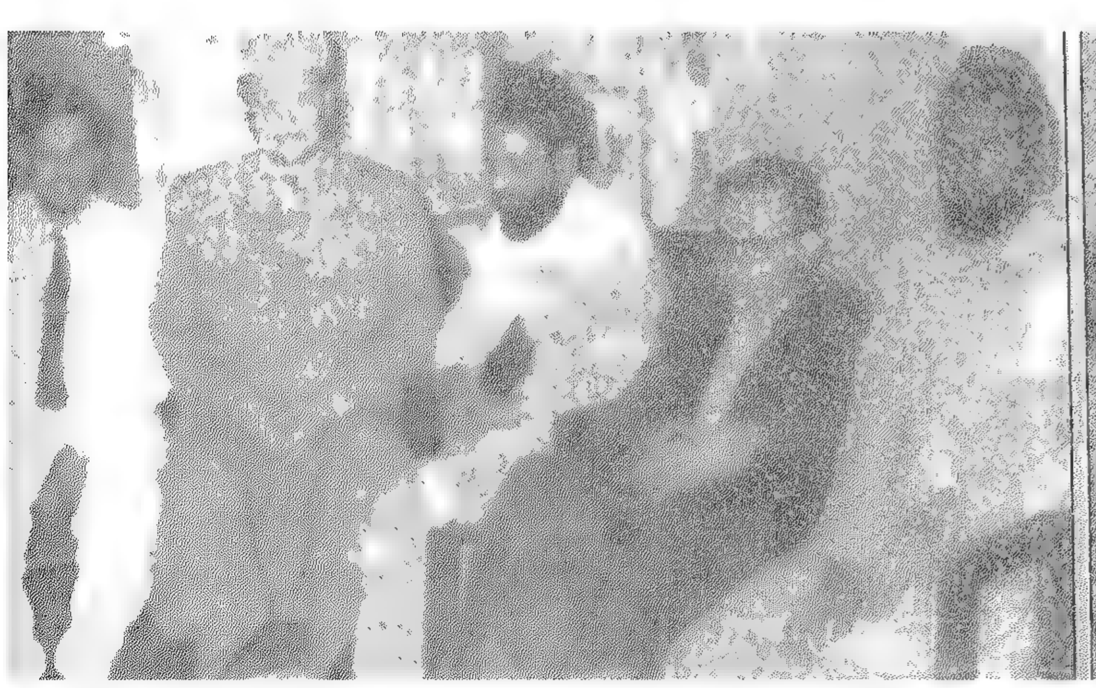
ولم تكن تلك أول رحلة طويلة يرحلها «وإن تكن الأبعد والأطول»، فقد شارك في عام ١٩٣٥م في الرحلة الأولى لكشف طريق الحج البري بين دمشق ومكة، وقد حفلت تلك الرحلة بالغرائب وحفت بها المخاطر، ومن أحب الاطلاع على تفاصيلها فلينظره في كتاب: «من نفحات الحرم».

في المملكة العربية السعودية

في عام ١٩٦٣ م قدم جدي إلى الرياض مدرساً في «الكليات والمعاهد» (وكان هذا هو الاسم الذي يطلق على كليتي الشريعة واللغة العربية، وقد صارت - من بعد - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، وفي نهاية السنة عاد إلى دمشق (لإجراء عملية جراحية بسبب حصوة في الكلية) عازماً ألا يعود إلى المملكة في السنة التالية، إلا أن عرضاً بالانتقال إلى مكة للتدريس فيها حمله على التراجع عن هذا القرار.



في حفلة لاجئي باكستان لمساعدة فلسطين



كراتشي ١٩٥٤م

وهكذا انتقل علي الطنطاوي إلى مكة ليمضي فيها «وفي جدة» خمساً وثلاثين سنة،فأقام في أجياد مجاوراً للحرم إحدى وعشرين سنة «من عام ١٩٦٤م إلى عام ١٩٨٥م»، ثم انتقل إلى العزيزية «في طرف مكة من جهة منى» فسكنها سبع سنوات، ثم إلى جدة فأقام فيها حتى وفاته - يرحمه الله - في عام ١٩٩٩م.

بدأ جدي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كلف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية، فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرغ للفتوى يجيب عن أسئلة الناس في الحرم - في مجلس له هناك - أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه: «مسائل ومشكلات» (في الإذاعة)، و«نور وهداية» (في الرائي)[٢٤] اللذين قدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة ورائيها.

هذه السنوات الخمس والثلاثون كانت حافلة بالعطاء الفكري للشيخ، ولا سيما في برنامجيه اللذين استقطبا - على مر السنين - ملايين المستمعين والمشاهدين وتعلق بهما الناس على اختلاف ميولهم وأعمارهم وأجناسهم وجنسياتهم، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، فلقد كان علي الطنطاوي من أقدم مذيعي العالم العربي، فقد بدأ يذيع من إذاعة الشرق الأدنى من يافا في أوائل الثلاثينات، وأذاع من إذاعة بغداد سنة ١٩٣٧م، ومن إذاعة دمشق من سنة ١٩٤٢م لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة العربية السعودية ورائيها نحو من ربع قرن متصل من الزمان.

هذا العمل ملأ عليه وقته كله خلال تلك السنوات، وقد عشت معه - عليه رحمة الله - بعضاً من تلك الأيام ما زلت أسترجع ذكراها إلى اليوم. لقد جئت إلى المملكة في مطلع عام ١٩٧٧م لدراسة الهندسة في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وكنت أمضي في نهاية كل أسبوع يومين أو ثلاثة أيام في بيته بمكة فأراه كيف يصنع. كان يمضي كل يوم ساعات عاكفاً على أسئلة المستمعين والمشاهدين قراءة وفرزاً ليختار منها ما يصلح للإجابة، وما كان يسعه أن يجيب عن كل سؤال يأتيه لأنه كان يستلم من الأسئلة في كل أسبوع مئات «حقيقة لا مجازاً» ووقت البرنامجين لا يكاد يتسع لغير عشر منها أو عشرين، ثم كان يراجع المسائل في أمهات الكتب ويضع تعليقات على الأسئلة بخطه في بعض الأحيان. وكان -فوق ذلك - يتفرغ للإجابة عن أسئلة المستفتين بالهاتف بين العصر والمغرب كل يوم.

ولطالما أعلن في الإذاعة والرائي أن ذلك هو الوقت الذي يتلقى فيه الأسئلة ولكن الهاتف كان يرن في كل ساعة من ليل أو نهار! فإذا جاء المغرب كان ينطلق إلى الحرم فيجلس في موضع له هناك لا يفارقه بين العشاءين فيأتيه من الناس من شاء ويسأله من شاء، فكان ذلك مجلساً مفتوحاً للعلم والفتوى. فإذا عاد من الحرم بعد العشاء فلا يستقبل أحداً «كما أنه لا يستقبل أحداً قبل العصر» ويعود إلى قراءته ومراجعاته وشؤون أهل بيته.

هكذا أمضى جدي تلك السنوات، حتى إذا جاوز الثمانين بدأ جسمه «الذي حمله في مسيرة حياته الطويلة الحافلة» بالتعب، وما عاد يقوى على العمل، فآثر ترك الإذاعة والرائي.

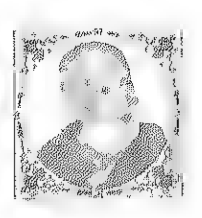
وكان -قبل ذلك - قد لبث نحو خمس سنين ينشر ذكرياته في الصحف، حلقة كل يوم خميس، فلما صار كذلك وَقَفَ نشْرَها «وكانت قد قاربت مئتين وخمسين حلقة» وودع القراء فقال: «لقد عزمت على أن أطوي أوراقي، وأمسح قلمي، وآوي إلى عزلة فكرية كالعزلة المادية التي أعيشها من سنين، فلا أكاد أخرج من بيتي، ولا أكاد ألقى أحداً من رفاقي وصحبي»[٢٥] وقد منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٩٠م.

عزلته ووفاته

أغلق عليه باب بيته واعتزل الناس إلا قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين،فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدى أدبياً وعلمياً تبحث فيه مسائل



علي الطنطاوي ومحمود شاكر وعبدالعزيز الربيع وآخرين





قبيل الرحيل



الوداع الأخير

العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ. وبات الشيخ -في آخر أيامه- ينسى بعضاً من شؤون يومه، فربما صلى الفريضة مرتين يخشى أن يكون نسيها، وربما نسي ما كان في اليوم الذي مضى، ولكن الله أكرمه فحفظ عليه توقد ذهنه ووعاء ذاكرته حتى آخر يوم في حياته. لقد صار أخيراً يتورع عن الفتوى مخافة الزلل والنسيان، ولكن الواقع أنه كان قادراً على استرجاع المسائل والأحكام بأحسن مما يستطيعه كثير من الرجال والشبان، وكان - حتى في الشهر الذي توفي فيه - تفتتح بين يديه القصيدة لم يرها من عشر سنين أو عشرين فيتم أبياتها ويبين غامضها، ويذكر العَلَمُ فيترجم له، وربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة أو في معناها فيقول هي كذلك، فنفتح القاموس المحيط «وهو إلى جواره، بقي كذلك حتى آخر يوم» فإذا هي كما قال.

ومضت به على هذه الحال سنوات حتى كَل قلبه الكبير فما عاد قادراً على المضي بعد، فلما كانت آخر السنوات أدخل المستشفى مرات وهو يشكو كل مرة ضعفاً في قلبه، وكانت الأزمات متباعدة في أول الأمر ثم تقاربت، حتى إذا جاءت السنة الأخيرة تكاثرت حتى بات كثير التنقل بين البيت والمستشفى. ثم أتم الله قضاءه فمضى إلى حيث يمضي كل حي، وفاضت روحه، -عليها رحمة الله - بعد عشاء يوم الجمعة، الثالث من ربيع الأول ١٤٢٠هـ، الموافق للثامن عشر من حزيران، عام ١٩٩٩م في قسم العناية المركزة بمستشفى الملك فهد بجدة، ودفن في مقبرة العدل بمكة المكرمة في اليوم التالي بعدما صلي عليه في الحرم المكي الشريف.■

الهوامش:

(١) الذكريات : ١٣٣/١.
(٢) الحديث عنه في: الذكريات: ١٤٣/١.
(٣) الذكريات: ١٤٤/١.
(٤) الذكريات: ١١١/٢، وتعريف عام، ص ٥.
(٥) الذكريات: ٣٥/٨.
(٦) الذكريات ٢٠١/١ ومابعدها.
(٧) في الذكريات حديث طويل عن مكتب عنبر، انظر: ١٠٣/١ - ١٣٠، ١٤٩ - ١٧٤.
(٨) الذكريات: ٢٦/٨.
(٩) الذكريات: ١٤٢/٢.
(١٠) من حديث النفس، ص ١٤٩.
(١١) الذكريات: ٥/٢.
(١٢) في آخر الجزء الثاني وأول الثالث.
(١٣) الذكريات: ١٢/٣.
(١٤) الذكريات: ٢٢١/٢.
(١٥) الذكريات: ١٠/٣.
(١٦) بغداد: مشاهدات وذكريات، ص ١٥.
(١٧) الذكريات: ٢٩٣/٣، وفي آخر هذا الجزء وأول الذي يليه تفصيل عن الدروس التي كان يلقيها على الطلاب هناك.
(١٨) الذكريات: ١٥٩/٤.
(١٩) مارس جدي القضاء عملياً من عام ١٩٤١ إلى حين سفره إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٩٦٣، أي نحواً من ثلاث وعشرين سنة، ولكنه بقي - رسمياً - قاضياً حتى أواسط عام ١٩٦٦م.
(٢٠) الذكريات: ١٦٦/٤.
(٢١) الذكريات: ١٦٧/٤.
(٢٢) الذكريات: ٢٥٩/٤.
(٢٣) الذكريات: ٢٧١/٤ وما بعدها.
(٢٤) بدأ هذا البرنامج نحو عام ١٩٦٧، وكان له - قبله - برنامج عنوانه «صور من أمجادنا».
(٢٥) الذكريات: ٢٤٠/٨.



ديوان المراثي











حمَّ الرحيلُ وما رأيتك تشفق ... وأجبْتَه والوجه طلق مشرقُ

فعجبْتُ يا شيخي وجئتُ مسائلا ... فيمَ البشاشة والرضا والرونقُ

كيف ابتسمْتَ وكان بشرك كالسنا ... ولمن هششْتَ ومن لقيْتَ ومن لقوا؟!

والعهدُ أن الموت يرهبه الفتى ... ويخافه حتى التقيُّ الأصدقُ

فأجبْتَ إني للرحيم مسافرٌ ... فعلامَ أشكو يا بُنيَّ وأقلقُ

والله رحمته ملاذي مشرعاً ... أبوابُه وبي الرجاءُ المطلقُ

أني ظفرتُ بها فماتت خشيتي ... قبلي فقل أنّى أخاف وأُشْفِقُ

سبعين عاماً عشْتَ فارسَ حلبةٍ ... لك في المحافل شدةٌ وترفقُ

أبداً بيانُك كالحسام مظفرٌ ... وثباتك المعهود عزمٌ يبرقُ

واللين أنتَ وأنتَ فيه نضارةٌ ... فإذا عدا العادي فأنت المحْنَقُ

ويعينُك الإيمانُ وهو حميةٌ ... ويعينُك العقل الذكي الأسبق

ويعينُك العلمُ الغزيرُ وحبه ... ويعينُك القولُ الجميلُ الأليقُ

ويعينُك الحبُّ الذي قد نلْتَه ... بين الأنام فإنْ رأوك تحلقوا

مطروفةٌ أبصارهُمْ مأخوذةٌ ... فيهم هُيامُ الطفل حين يحدِّقُ

وبهم إلى «الرائي» استباقُ ذوي هوًى ... إن قيلَ جاءَ الألمعيُّ المفْلِقُ

عقلٌ يجوبُ المعضلات فيجتلي ... أغوارَها وخبيئَها ويدقِّقُ

ويزفُّها للناس تزهرُ كالضحى ... والسامعون تشوُّفٌ وتشوُّقٌ

وعلى الوجوه إذا رأوك مودةٌ ... وعلى القلوب بشاشةٌ وتعلُّقُ

وعلى العقولِ وقد أسرْتَ ذكيَّها ... ألق الهداية وهو ضافٍ مورقُ

أما خيالُك فهو حيٌّ مبدعٌ ... يعلو ويستبقُ النجومَ فيسبقُ

كنتَ البيانَ سريَّه وجليَّه ... يُتْلى فيطرب أو يقالُ فيعْشَقُ

تبكي الفصاحةُ بعده أمجادَها ... وتظل من حزنٍ شجاها تطرقُ

وتقولُ هل منْ فارسٍ من بعدِه ... يهبُ الروائعَ كالسنا ويحلِّقُ

أم أن أغربة البيانِ ويومَه ... خلت الديارُ لها فراحتْ تنعقُ

يفني الزمان مدائناً وقياصراً ... ويزولُ مترفي الحياة ومملقُ

وعطاءُ مثلكَ دائمٌ متجددٌ ... يهفو إليه مغرِّبٌ ومشرِّقُ

نضرٌ يجددُ كل حينٍ حسنَه ... فجمالُه غضٌّ قشيبٌ مونقُ

كنزٌ يزيدُ إذا حبا قصّادَه ... ما يشتهون ولا يضنُّ ويفرقُ

يربو على الإنفاقِ وهو حبيبُه ... وإذا حبا فهو الجوادُ المغدقُ

ويظلُّ يحلو فهو بهجة مجتلٍ ... والحسن فيه نضارة تترقرقُ

كالروضِ باكرَه الحيا فإذا به ... وردٌ ونسرينٌ يفوح وزنبقُ

وعنادلٌ وبلابلٌ محبورةٌ ... نشوى تزغردُ فرحةً وتصفقُ


شعر د. حيدر الغدير
السعودية

أمـا الكنوزُ المقـفَـلاتُ فـإنهـا — عبءٌ لأهليـهـا ثقـيلٌ مـرهِقُ
ولقـد تبـدِّدها سـفـاهة وارث — يعـدو عليـهـا أو يضلُّ ويفـسُقُ
والمالُ سـيـدُ من يعـيشُ كـأنه — عـبدٌ له فـهـو الأسيـرُ الموثَقُ
والمالُ عـبدٌ عند آخـرَ لا يني — عن بذلِه في الحقِّ وهو مُرهَقُ
فـاهنأ بكنزِكَ يا عليُّ فـإنه — أغلى الكنوزِ البـاقـيـاتِ وأسمقُ
المسلمـون عـشـيـرةٌ لك كلُّهم — إن يحزنوا أو يفرحوا أو يقلقوا
تأسى لهم وتذودُ عن حُرُماتهم — وتكاد من آلامـهم تتـمـزَّقُ
فإذا انجلَت عنهم وعنك همومُهم — ضحكَتْ بوجهك بسمةٌ تتـألَّقُ
وإذا صنعْتَ الفضلَ لم تطلُبْ به — إلا الإله فـأنتَ راضٍ مطرِقُ
أمـا الدعـاةُ فـأنت فـيـهم والدٌ — يحنو ويصلِحُ بينهُم ويوفِّقُ
وإذا عكفت على الكتـابِ فـآيُهُ — تُجلى لديك فليسَ فيها مغلق
وإذا خلوتَ بـربِّك الملكِ الذي — يهبُ الحياةَ كما يشاء ويرزقُ
راعـتْك قـدرتُه فـقلبُكَ واجفٌ — من روعةٍ خشعتْ ودمعك مهرق
أقـدارُه في الكونِ وهْيَ طليـقـةٌ — هذا يموتُ بـهـا وهذا يُخلَقُ
غشيَتْك منها رعدةٌ وضراعةٌ — فإذا بك الصمْتُ العميقُ المطبقُ
لا العقلُ يقتحمُ المجالَ كعهده — حراً وقد سكَتَ اللسانُ الأذلقُ
ولربما غـمـرَتْ فـؤادك فـرحـةٌ — من جـوده فـإذا به مـتـشـوِّقُ
وإذا بـه يسـري إلى ملَكوته — ويطيـرُ في أجـوازه ويحلِّقُ
ويقولُ يا بشرى فقد نلْتُ الرضا — من خالقي وهو الجوادُ المغدقُ
فأنا السعيدُ إذنْ وغيري في الشقا — وأنا الغني إذنْ وغـيـري المملقُ
ومضيْتَ حين مضيْتَ كلُّ ثنيَّةٍ — في الأرض ودَّتْ أنها لك نُمرُقُ
لكنْ ظفـرْتَ بمكَّةٍ ولقـد رجَتْ — أن وسَّـدتْك مع المحـبـة جلَّقُ
يا طالما غنيْتَـهـا وعـشـقْتَهـا — ودمشقُ حسنٌ عند مثلك يعشقُ
وحـبـاك ربُّك عن دمشقَ مكةَ — وهي الأجلُّ جلالةً والأعرقُ
وسكنْتَهـا حـيـاً ومـيْتـاً بوركَتْ — سكَناً تظلُّ له النفوسُ تَشَوَّقُ
وسكنْتَ جـارَ المروتينِ وزمـزمٍ — وحراءُ جارُك وهو هديٌ يعبَقُ
والكعـبـةُ الزهراءُ منك قـريبـةٌ — وحـفـيَّةٌ فيها السنا والرونقُ
يا طيبَ حظِّك بالجوارِ وأهلِه — لما أتوكَ بشائراً تتسابَقُ
نمْ حيث أنتَ لك الملائكُ مؤنسٌ — في روضـةٍ بنعيمـهـا تتـأنقُ
كـرمُ الإله يزيدُ من إمدادها — فـيزينُهـا من كل حسٍ رونقُ
لا تأسَ قطُّ على الحياةِ تركْتَها — ورحلْتَ عنها فهيَ سجنٌ ضيِّقُ

* صحيفة الشرق الأوسط ١٨/٣/١٤٢٠هـ الموافق ٢/٧/١٩٩٩م



تلويحة وداع

للشيخ علي الطنطاوي

شعر: د. عبد الرحمن صالح العشماوي
السعودية

منابع الشعر لم تبخل سواقيها ... فكيف يحبسها من كان يجريها؟

وكيف يسجنها في ليل وحشته ... من لا يرى الأُنس إلا في قوافيها؟!

منابع الشعر ما جفت ولا مزجت ... بما يكدرها من وهم راويها

لكنها مزجت بالحزن لونّها ... بلونه، فرأينا حزننا فيها

يا لائم الشعر - صمتاً - رب قافلة ... تأبى مسيراً على أصوات حاديها

صمت الحزين بكاء لا تحس به ... إلا القلوب التي جارت مآسيها

نبكي بلا أدمع، إن الدموع إذا ... تمكن الحزن جفت في مآقيها

ما كل من ذرف الدمع الغزير بكى ... قد يذرف المرء دمع العين تمويها

تشوى قلوب بنار الحزن وهي على ... نهر المحبة، تستسقي غواديها

أكلما صدحت في القلب صادحة ... من الرضى جدّد الأحزان ناعيها؟!

وكلما ابتسمت أطياف فرحتنا ... مدت إليها يد الآلام تبكيها؟

يا من يعاتبني في حزن قافيتي ... أما رأيت سهام الحزن ترميها؟!

هل تطلب الشدو منها وهي واجمة ... مما ترى، وستار الليل يخفيها؟

تشدو بلابلنا لمّا يضاحكها ... فجر، ويسكت في الظلماء شاديها

يا لائم الشعر هل أدركت ما طويت ... نفسي عليه، وهل بانت مراميها؟!

هل اطلعت على آفاق لوعتها ... والشعر يبعدها عني ويدنيها

أما علمت بأن الشعر أفئدة ... نشدو بها وجراحات نغنيها

من زين النفس بالإيمان أنزلها ... مكانة قلّ فينا من يساميها

بيني وبين إباء الشعر ألوية ... معقودة، ومواثيق نراعيها

نغدو، نروح، نرى، نصغي، نمد يداً ... بلا ذراع إلى الأغصان نجنيها

نسعى، نحث خطانا، والسراب على ... طريق أحلامنا العطشى يلهيها

ونستدر من الدنيا سعادتنا ... وليس في ضرعها إلا عواديها

نبني، وتهدم ما نبني نهايتنا   كم تسخر الأرض من إصرار بانيها
تهيأت هذه الدنيا لجائحة   لأنها رفعت من شأن عاصيها
وأغرقت في محيط الظلم مركبَها   وصار إعلامها بوقاً لغاويها
ما بين حين وحين ينتهي علم   وتنطوي صفحات جَلَّ طاويها
يا ربِّ عونك ما زلنا نرى ثُلَماً   في أمة تشتكي جدباً مغانيها
رحيل أحبابنا نار مؤججة   تذيب أكبادنا وجداً وتصليها
مضى علي، أديب الفقه، شيّعه   حب عظيم وآلام نداريها
وشيّعته نفوس طالما شربت   من نبع حكمته ما كان يرويها
وشيّعته قلوب نبضها أمل   في الله أن يسكن الجنات باغيها
مضى الأديب العصامي الذي احتفلت   به البلاغة وازدانت روابيها
مضى، كأن لم يصافح كفَّه قلمٌ   عذب يذود عن الفصحى ويحميها
يا مازج العلم بالآداب في زمن   آدابه انسلخت مما يزكيها
عزت بك اللغة الفصحى وكنت بما   أوتيت من فكرك الصافي تغذيها
رفعت من «قصص التاريخ» ألوية   ما زال يقصر عنها من يباريها
وشيتها بجميل القول فابتهجت   فيها المعاني بما صاغت مبانيها
في «ذكرياتك» كنز قد بنيت به   صروح وعي، لسان الصدق يرويها
بها فتحت لنا الأبواب مشرعة   إلى حقائق كاد الصمت يفنيها
أسلمت للأدب الراقي صياغتها   حتى التقت بأدانيها أقاصيها
ودعتنا في زمان، ليل غربته   يكاد يلتهم الدنيا وما فيها
ما بين فكر إباحي وعولمة   في كف بائعها سم لشاريها
وأمتي - يا أديب الفقه - في زمني   تكاد تخرج من إشراق ماضيها
لها يد غير أن الحزم ينكرها   فما ترى الحزم إلا في أحاجيها
ما أقفرت أمتي، لكن غفلتها   ولهوها أنزلتها من معاليها
يا مازج العلم بالآداب كم هرعت   إليك أحرفنا الخضراء تؤويها
غادرتنا وحروف اللاهثين على   درب الحداثة آفات نلاقيها
صاولت أمثالها بالحق في زمن   مضى فحدثت الحصباء عن فيها
كذلك الهمم الكبرى إذا بنيت   على الوفاء، تهاوى من يعاديها
ها نحن نغرس أشجار الشموخ على   شطآننا، وبماء الحب نسقيها
تمد أغصانَها خضراءَ مثمرة   فما تطيق لها الرمضاء تشويها
إنا لنحرس آثار الذين بنوا   بالحزم والخلق الأسمى نقويها
إليك منا زهوراً من محبتنا   ودعوة في ظلام الليل نزجيها

عدد خاص



دمعة وفاء

شعر: محمد ضياء الدين الصابوني
سورية

الله أكبر ضج الشرق والأدب ... وقد بكته أساها العجم والعرب
بكت به عالماً لله فكرته ... كما بكته عيون الشعر والخطب
عرفته فعرفت الفضل شيمته ... إلى المكارم والأمجاد تنتسب
رب البيان، إمام الفكر، ما قعدت ... هماته أو ونت بل مله التعب
هذا الذي علم الأجيال ثقفها ... يفنى الزمان ولا يفنى به العجب
قد لفني الحزن حتى فت في عضدي ... وذي دموع فؤادي اليوم تنسكب
واحسرتاه فقدنا اليوم عالمنا ... العالم الفذ ابن (الشام) لا عجب
بكت عليك نفوس لا عداد لها ... كما بكت حرقة من وجدها الكتب
تبكي (دمشق) وما تنفك والهة ... غدت تجاوبها في حزنها (حلب)
وهذه (مصر) بل (بغداد) بل (قطر) ... وهذه (مكة الغراء) تنتحب
(رياض) تندبه و(الهند) والهة ... والقدس ينزف من أعماقها اللهب
يبكيه كل فؤاد مخلص فطن ... تبكي عليه أساها السادة النجب
أتاك ربك يا (أستاذ) موهبة ... إن المواهب نبع ما به نضب
إذا تحدث فالآذان مصغية ... ترى الدواخل من أقواله تجب؟؟
كم عالم عامل تزهو البلاد به ... ومدع خائب كأنه الخشب
قد زرته وفؤادي كله لهف ... وعدته وفؤادي كله لهب
ما كان أجمل أياماً بحضرته ... طويتها، ولقد مالت بنا الشهب!
دعني لأنشد في ذكراه مرثية ... تكاد من شدة الأحزان تنتحب
فأين من كان يرعانا بمجلسه ... يحنو علينا كما يحنو الأب الحدب؟
كم استمعنا إليه في (محاضرة) ... وكم سعدنا وزال الهم والنصب!
إن الحياة لأشجان مروعة ... هذي حياة (علي) كلها تعب
يا أمة غاب عنها اليوم (كوكبها) ... فأصبحت كشريد قد جفاه أب
الله يشهد أن الحزن زلزلنا ... وقد تقوضت الأركان والطنب
اليوم أبكيك من قلبي ومن كبدي ... إني على إثره يا قوم فارتقبوا



عليًّا ستبقى

شعر: سلمان بن زيد الجربوع
السعودية

لك الله، نعيُك ما أفجعا! ... قرأناه «روَّع» لا ودعا

قرأناه والنور في عارضيك ... يرقرقنا أدمعاً أدمعا

قرأناه فارتعش المنتدى ... وباح الحنين وفاض الدعا

قرأناه: يا لا نكباب الأماني ... على الشيخ ترجوه أن يرجعا

قرأناه، يا لانهمار القوافي ... تعزي وتنعاه فيمن نعى

أيا موتُ زرت الأديب الحبيب ... فهل زرته شائقاً مولعا؟!

وهل راقك السحر من وحيه ... تسلسل عذباً؟ فما أبدعا!

فجئت لتحضنه مسرعا ... وألفيته مقبلاً.. مسرعا

وهل هدأ الحزن من «بازنا» ... لتُلحقه نجمَنا الأسطعا؟!

وهلا عصفت بروض الهوى ... وأبقيت روض الهدى ممرعا

ولكنه الحكم.. حكم القضا ... وكلكما للقضا قد سعى

فيا ساحر اللفظ يا منبع المعا ... ني الدقاق.. ويا مُبدعا

ويا والدي كم دعاني الحنين ... وكم كنت أشتاق أن أسمعا

وأن ألتقي نوركم مرة ... وأن أستقي الحكمة الأروعا

فما للمعاني، وما للبيان؟! ... لقد أسدلا دوننا البُرْقعا

فما آسفَ العينَ بعد الفراق! ... وما أشنعَ البينَ، ما أشنعا!

أيا سيدي لم يرقني الجمال ... بُعَيْدَ الفراق وما أطمعا

أما تستحي الأرض أن تزدهي ... أما يخجل البدر أن يطلعا؟!

فأقبحْ بمربعنا بعدكم! ... وأكرِمْ بمربعكم مربعا!

فحتى ألاقيك في ظله ... بحبي.. وللحب أن يشفعا

لنا الله في الخطب يا سيدي ... ولله نعيُك.. ما أفجعا!

علياً حَييتَ.. علياً رحلتَ ... علياً ستبقى.. فطِبْ مضجعا



فقيد البيان*

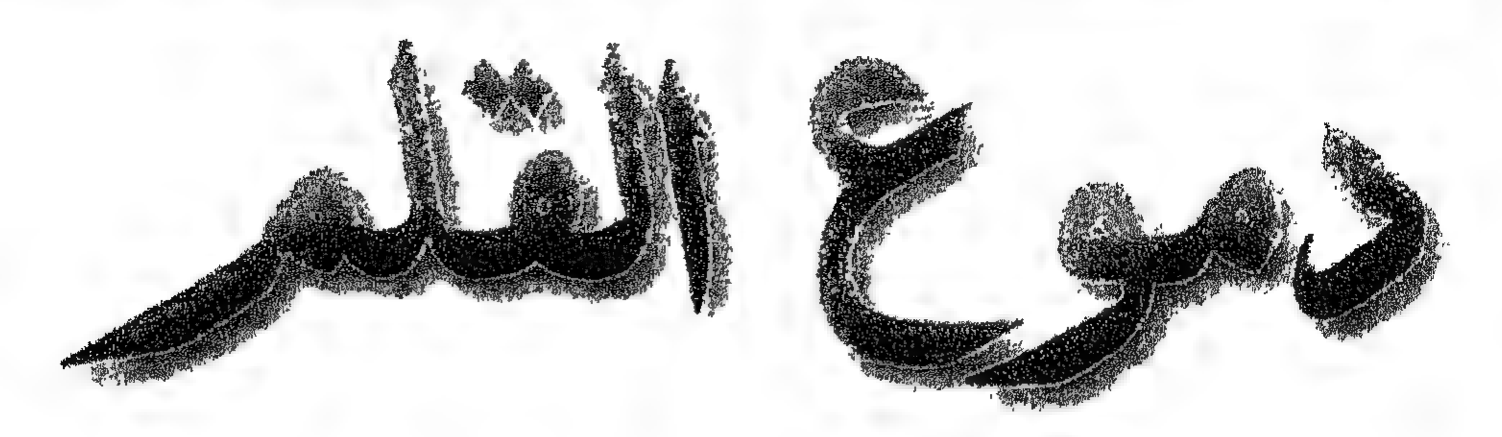


مات البيان فأين أين بياني ... يا ليتها تجري به ألحاني
الشيخ مات فودعي يا أمتي ... شيخ البيان العالم الرباني
ماذا سأكتب والقصيدة ودعت ... تبكي زمان الذل والإذعان
ماذا سأكتب هل يطاوعني فمي ... والقلب شل بسرعة الخفقان
ماذا سأكتب والحروف تآكلت ... والشعر مل مرارة الأحزان
بالأمس مات فقيهنا في عصره ... واليوم غاب بليغنا المتفاني
عاش الحياة مجاهداً في نثره ... وبدينه قد هام في الأوطان
باع الحياة مطلقاً لذاتها ... وهوى الممات بطاعة الرحمان
قد كان يدعو للجهاد بقوله ... وبفعله ويصيح يا إخواني
قوموا نعيد المجد في أوطاننا ... وندك كل معاقل الشيطان
ماذل من كان الجهاد قرينه ... يا رُبَّ نصرٍ في صدى الفرسان
قد كان يدعو للفضيلة دائماً ... وببره قد كان كالطوفان
قد كان كالأسد الهصور على العدا ... يرمي صروح معاقل الشيطان
قد كان كالصقر المحلق فوقنا ... يا ضيعة الغربان والعقبان
قد كان يرفع بالحديث رؤوسنا ... ويحارب الأعداء بالقرآن

قد كان يسحر بالبيان وربما ... سحر الأديب بريشة الفنان
قد كانت الأقلام تعشق نثره ... وتقول لا أحيا بلا وجدان
يا حسرة الأوراق ترثي نورها ... وتبث شكواها على الأكوان
فجعت به الكلمات وهو حبيبها ... كم عاش يرقيها من الهذيان
قل للذي يبغي بديلاً غيره ... ختم البيان بسيد الميدان
هذي هي الذكرى تلوح بخاطري ... والذكريات طغت على أوزاني
مازلت تكتب ذكرياتك مسعفاً ... بالخير من صدق ومن إحسان
حتى قرأناها فأعجبَنا الذي ... قد كان يجري منك في الريعان
ولكم غنمنا حين كنت تزيدنا ... علماً وترفدنا بغير توان
أمتعتنا فأفدتنا يا شيخنا ... وكسوتنا حللاً من الإيمان
علمتنا الإخلاص في كلماتنا ... وسقيتنا نبعاً عزيز الشان
يا شيخُ كنت معلماً ومهذبا ... تحنو على الدنيا بفيض حنان
قد كنت تبكي القدس وهي جريحة ... وتقول أين كتيبة الشجعان؟
قد كنت تحرص أن تكون كصخرة ... أو مثلما البنيان للبنيان
قد كنت تروي سيرة الأصحاب في ... تاريخك المملوء بالريحان
قد كنت تسبقنا إلى ركب العلا ... سيان أشياخ مع الشبان
الموت حق غير أن وفاتكم ... وقعت علي كصاعق أضناني
أأبا البلاغة يا معيدَ بريقها ... فقدتُك وهي مهيضة الأركان
إن كان للآداب ركن شامخ ... فلقد ثبت وكنت أنت الباني
يا رُبَّ حي مَيِّتٌ في عيشه ... ولرُبَّ مَيْتٍ عاش طول زمان
ما مات من كانت روائع علمه ... في الناس ملء العين والآذان

---

* ديوان الشاعر: / ليل الغربة / ط ٣ - دار الوفاء - الاسكندرية - مصر. مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١٣٦٢، ص ٥١

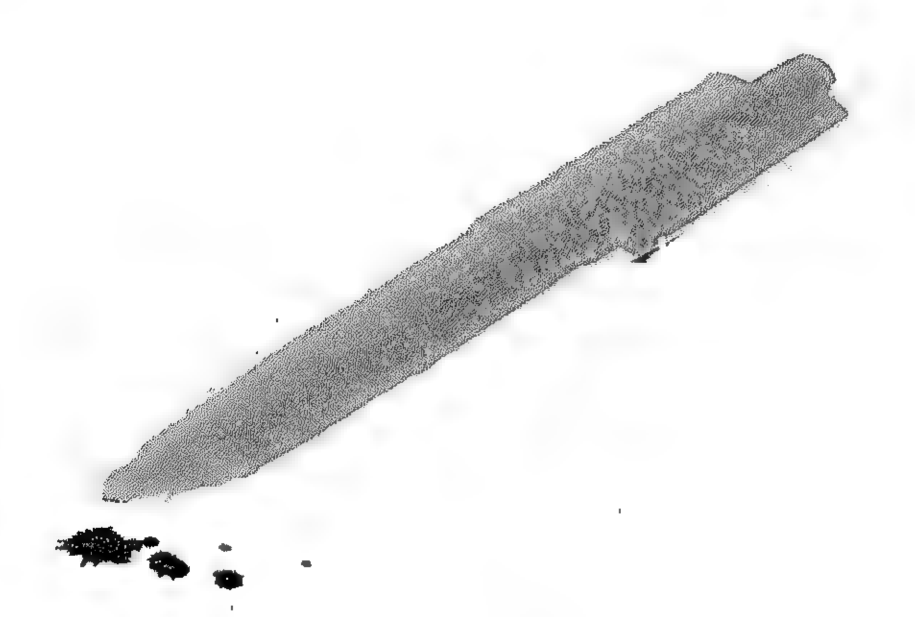


دموع القلم

شعر: طالب بن عبد الله آل طالب
السعودية

إلى أستاذي في الأدب، وشيخي في العربية العلامة الكبير: علي الطنطاوي.. غفر الله له، وأكرم نزله.. آمين

قف بباب الليل واستفت الثريا ... واستعرْ من دمعك المهراق زَيّا
وانتظر علّ الهوى يهديك شيئا ... من معاني الحب أو يُسْليك شيّا
أيها الباكي على عهدٍ مضى ... سِرْ بنا في مهْمَهِ الذكرى سويّا
نندبُ الماضي ولا نشتُمُه ... ونزورُ الربعَ حيّاً ثم حيّا
قد علت مرآيَ آياتُ الهوى ... وسبَتْ قلبي وأدمَتْ ساعديّا
لم يكن وجدي بليلى أو سعاد ... لا، ولا كان الهوى في ذكر ريّا
أيها المحتار تدري لوعتي ... وترى شدوي على الماضي شجيّا
سِرْ بنا نحو المعالي في عليٍّ ... نرسمُ المجد كتاباً عربيّا
عالمُ النحو وأستاذُ المعاني ... وأميرُ الشعر والنثر سويّا(1)
لاؤه «إي نعمٌ» لا نعم ... زادها التأكيدُ عزماً ومضيّا
دائمُ البشر على عِلاّته ... وصبوحُ الوجهِ، وضاء المحيّا
قامَ في وجه الدعاوي مشمخراً ... وارتقى في المجد تاريخاً عليّا
ومشى في الأرض يدعو ساكنيها ... فكساها من دموع الشوق زيّا
و«على مائدة الإفطار» كانت ... كلماتُ الشيخ سلسالاً رويّا
قد شربْنا من معينِ الشيخ عذباً ... وأكلنا من جنى الشيخ شهيّا



واستمعنا: فضحكنا منه حيناً ... وانصرفنا منه أحياناً بكيّا

يا عليَّ الفكر هذي أحرفي ... تركبُ الشعرَ وتطوي الأرض طيّا

لم تجد غيرَكَ أستاذاً لها ... نثرَ الحسنَ جمالاً لغويّا

في بلادي أيها الأستاذُ قومٌ ... لم ينالوا من صلاحِ الفكرِ شيّا

حرروا الشعر فشانوا رسْمَهُ ... وأحالوا صوتَه الصداحَ عِيّا

ومشوا بالنار في أفكارنا ... يفرضون العهْرَ منهاجاً سويّا

أيها الكتّابُ مهلاً دونكمْ ... ذكرياتِ الشيخ نبراساً جليّا

فابحثوا عن بعضكمْ في رسمها ... واقرؤوا فيها حديثاً أبويّا

واتركوا في آخر الصفحةِ سطراً ... زاد أشجاني وأبكاني مليّا

(ادعُ لي.. أمّنْ على ما قُلْتُهُ ... أيها القارئُ: لا تبخلْ عليا)

يا عليَّ الذكرِ.. في قلبي أسى ... بات يصلى من جوى الفقدِ صليا

لم أصدقْ ما اعتراني أبدا ... والتعازي لم تغادرْ مسمعيا

هكذا يا شيخُ تمضي بعدما ... تركبُ كفاك سفْراً لغويا

ودمشق الحسن في تحنانها ... تذرفُ الدمعات صُبْحاً وعشيا

ما على القلب جُناح في الأسى ... أو على الأعين إذ تبكي عليا

فارتحلْ تبكيك منّا مُهَجٌ ... دامعاتٌ قد كواها الوَجْدُ كيا

وسقتْ قبرك مزنٌ مثقلات ... غَدَقاً سحّاً وثجاجاً هنيا

---

* مجلة المعرفة: العدد (٤٩) ربيع الآخر ١٤٢٠هـ – السعودية.

(١) ليس للشيخ علي الطنطاوي شعر معروف، بله أن يكون أميره، ولكنه ذواقة للشعر وناقد (التحرير).

علي الأدب

شعر: سعود الصاعدي
مكة المكرمة

سح دمع كان من قبل عصيا ... وبكاء الكتب أضحى سرمدياً
قلم الآداب في غمد الثرى ... أي سفر قد طواه الموت طيّا
كان كالنخلة أنّى هزه ... بيمين أسقط الرُّطْبَ جنيّا
وهو للأعداء يرمي شهباً ... كلمات فعلها يبقى دويّا
أيها المدفون في أعماقنا ... أنت ما زلت بذكر الناس حيّا
«جلق» تبكي وبغداد لها ... ذكريات لم تكن عنها نسيّا
وبطاح الحرم المكي قد ... شفها الوجد فأطرقْنَ مليّا
كم تدفقت نميراً سلسلاً ... وقبسنا منك نبراساً وضيّاً
وبلاد الشرق لن تنساك بل ... تخذَتْ منك خليلاً وصفيّا
و«هتاف المجد» لو نصغي له ... بعدكم ما عاد باللحن شجيّاً
بُحَّ صوت المجد ما صيغت له ... من حروف صغتها من قبل زيّا
شهب كانت على أعدائنا ... ولنا كالماء للظمآن ريّا
كسرت أقلامنا وانتحبت ... هذه الأوراق صبحاً وعشيّا
ما يقول الحرف إن ندت به ... ألسن الأقلامُ أو مل عييّا
و«حديث النفس» لما تمتمت ... صغته لفظاً فما عاد خفيّا
فكسوت اللفظ حرفاً عابقاً ... بثه الحب بياناً عربيّا
«قصص التاريخ» كانت طللاً ... في سطور قد نأت عنا قصيّا
قد سكبت النور في أحشائها ... فتلألأن حديثاً أدبيّا
وبدت تخطر في ثوب الرؤى ... فجعلت المجد كالزهر شذيّا
«نفحات» الطهر من أم القرى ... شربتْهُ الروح إيماناً عليّا
لا تلمني يا أبي في حبكم ... قد شربت الحب في قلبي مريّا
أنت كالبحر إذا ما غصته ... عدتُ بالدر من القاع حفيّا
أنت في التاريخ سفر قد حوى ... درراً تزهو ومجداً نبويّا
زفرات الصدر إذ صعدتها ... لم تزد إلا أوار الشوق فيّا
«ودمشق» الحسن إذ صورتها ... سحبت ذيل الهوى فوق الثريّا
طرت بالأرواح حتى أنجبت ... كلمات قلتها شهماً أبيّا
وزرعت المجد في أمتنا ... ليتها تبقى له دوحاً وفيّا
يا علي الأدب السامق هل ... تنجب الأمة إذ مت عليّا؟!

* مجلة المعرفة، العدد (٥٢) رجب ١٤٢٠ - السعودية.
- هذه القصيدة معارضة لقصيدة الشاعر طالب بن عبدالله آل طالب التي بعنوان (دموع القلم) التحرير.



عندما تنزف الجراح

في جوف السحر!! وعند أفول القمر! تنزفُ روحي - على جثمان فقيد الأمة الأديب الداعية: «علي الطنطاوي»، هذه المشاعر..

شعر: ياسر جياكتا
مكة المكرمة

إليكَ عني، فقد أوْريت أحزاني ... يا أيها المنتحي: رفقاً بوجداني
رفقاً بمن هشمت منه المصائب ما ... قد شف من جسمه والروح في آن
حسبتني ضيغما ما ينثني أبداً ... لا الهمُّ يضني، ولا الآلام ترعاني
حتى نظرت، وإذْ بالخطب يجهدني ... أصبحْت كالشمع يذوي بين نيران
فيا رسول النوى: بوركتَ من بطل ... غادرتني بعدما زلزلت أركاني

• • • • •

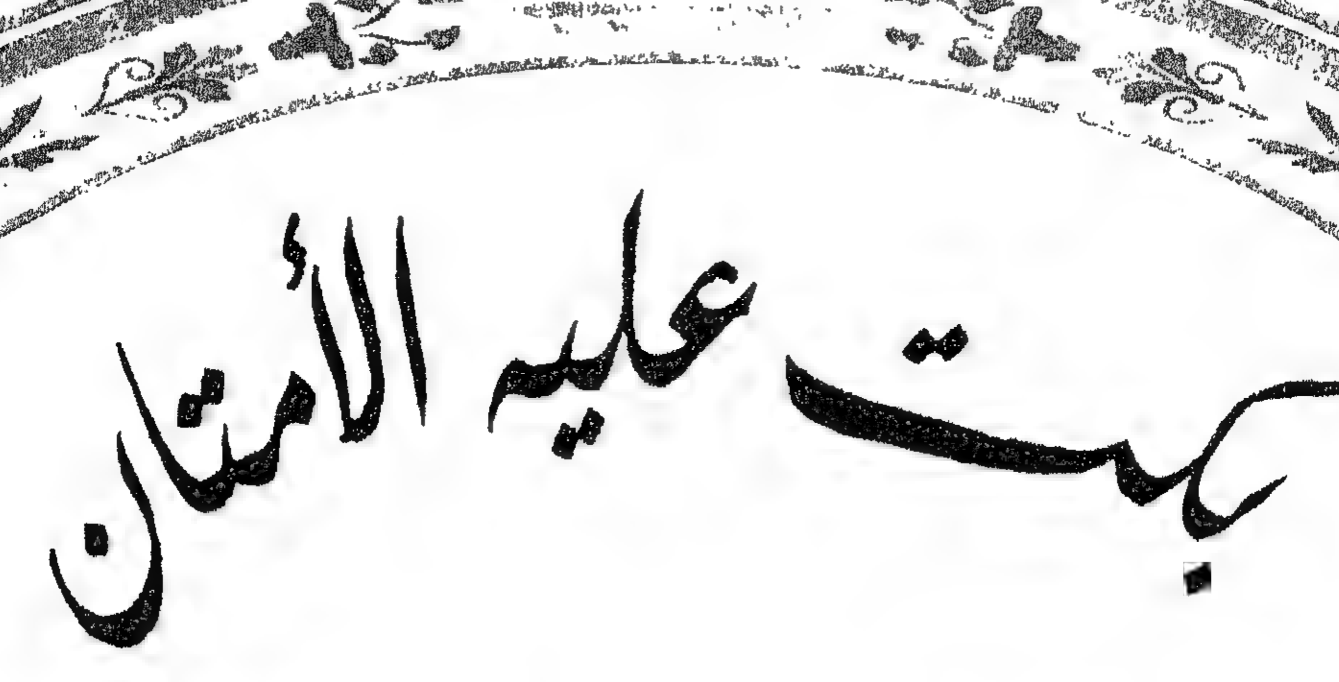
يا طارقاً - هز جوف الليل منتحباً ... ما جئت تنعاه، بل قد جئت تنعاني
أمات حقاً «عليٌ» بعدما نعمت ... به الممالك من أرض وسكان؟!
فيا دمشق ويا شهباءُ، يا حلبُ ... ويا ربوعَ الحمى من أرض لبنان
قد آن أن تلبسي ثوب الحداد فما ... لرزئكِ - اليوم - من صبر وسلوان
سلي الحجاز عن الآلام ما فعلت ... بأهلها، وسلي عن آل نجران
مررت بالبيت كي أسلو به فمضى ... يبكي على موته من غير أجفان
أستغفر الله ما إن كنت معترضا ... على القضاء، فذا من صلب إيماني
لكنَّ للخطب أفعال مفنِّدة ... ما كنت أحسبها تزري بسلواني

• • • • •

يا من تروت به الآداب ناعمة ... فزيد في مدها صاعٌ وصاعان
ويا أديباً - مضى ما زلت ألمحه ... كبلبل سادر يشدو على بان
ما زالت الشمس تتلو من صحائفكم ... والكون يصغي إليها غير وسنان
أنت الأديب الذي قامت بدولته ... ممالك الفكر، أنت الحاذق الباني
صاغت يداك علوم الدين في درر ... كما تصاغ الحلى في عقد مرجان
جبنت عن منهج قامت مشارعه ... على الرذيلة من زور وبهتان
بزت يمينك أهل الزيغ فاغتبقوا ... سماً زعافاً بقول منك طعان
بالأمس كنت بفلك المجد حاديها ... بل كنت ربانها يا خير ربان
لله درك! ما أسماك من بطل! ... يا طاهر الجنب، يا مستعظم الشان

• • • • •

يا قمة في رياض الحب، يا أملاً ... شعت به أمة من غير نيران
ويا أديباً مضت فينا مآثره ... فليس يجحدها قاص ولا دان
صح اليمين بأني لست أندبه ... إلا ودمعي على الخدين يصلاني
ليهنك اليوم ما تلقاه من نعم ... بجنة الله من حور وولدان
أخلقٌ بربٍّ الورى أن يصطفي بدلاً ... كما أتى بشبيب بعد سحبان



بكَيْت بحُرْقةٍ مما أتاني … من الحزن المؤجج في كياني

على العلَم الذي ما زال فينا … يرفرف بالمعارفِ والمعاني

على البحر المليء بكل دُرٍ … على شيخِ الفصاحةِ والبيانِ

بكَيْت فلا تلمني يا صديقي … فبوحُ الحزن في النفسِ اعتراني

فراقُ أحبتي أضنى فؤادي … وأدمَتْ لوعتي مهجَ الجنانِ

فإني إنْ حزنت على فقيدٍ … فقد حزِنَت عليه الأُمَّتانِ

بكتْه الأرض في أقصى الشمال … نعاه جنوبُها والمشرقان

نعته جلَّقٌ وبلاد مصر … وأرضُ عمانَ والقُطرُ اليماني

وأرضُ الرافدينِ وكلُّ قُطْرٍ … تعالت فيه أصواتُ الأذانِ

فقيدُ العلم لما غاب عنا … بكتْه الناسُ من قاصٍ ودانٍ

فقيد العلم كان لنا إماما … يشار إليه حقاً بالبنانِ

فكم ربّى من الأجيال فينا … وكم أفتى على طول الزمانِ

بنى بالعلم للإسلام مجداً … وباني المجد فينا خير بانِ

فقيهٌ عالمٌ فذٌ خطيبٌ … تحيَّر في مناقبه لساني

بليغٌ أعجز البلغاء طُراً … كأن كلامَه حبُّ الجمانِ

تألق في فصاحته فأعطى … لنا الإبداعَ في صورٍ حسانِ



شعر: رافع علي الشهري
السعودية

وقـد أضـفـى على الآداب فنًا ... رفـيـعَ القـدرِ في أعلى مكانِ
فكان العـالمَ النحـريرَ حـقّـاً ... وسـابق من يغـامـرُ بالرهانِ
إذا مـا خـاض في علمٍ وفنٍ ... فـإن عطاءَهُ ملْءُ الجـفـانِ
لأن مـداه ليس لـه حـدودٌ ... فـعَـرْضُ اليَمِّ يخـفى للعـيانِ
سمـا بشـبابه نحـو المعالي ... وأفنى منه زهرَ الأقـحـوانِ
فلم يُبْقِ لهـذا المجدِ جُـهْـداً ... ومـا ادخـر الدقـائقَ والثواني
قضى سبعين عـامـاً ثم عـشـراً ... إلى الرحـمن يدعـو في تفانِ
قـضـاها في تصـانيفٍ عظامٍ ... حـوت في دفـتـيـهـا خيـر شأنِ
قـضـاها في سـبيل الله يدعـو ... فـقـد جـابَ المدائن والمغـاني
قـضـاها عبـر أمـواج الأثيـر ... فـأسـمَعَ كل إنسيٍّ وجـانِ
ويشـهـدُ كلُ مُـذياع وراءٍ ... ويشـهـد في السـمـاء الفرقـدانِ
وتشـهـدُ أسطرُ التـاريخ صـدقـاً ... ويعـربُ والأعـاجمُ يشـهـدانِ
ونشـهـد أن غـيـبـتـه لَثَلْمٌ ... يحـار لسـده في النـاس ثانِ
ولكن أسـأل الرحـمن خـيـراً ... وداراً للفـقـيـدِ في الجنانِ

دمعتان

ماذا أقول لهذا الجفن لم ينم؟ ... وفيه ما فيه من هم ومن ألم

أ ماطلته الثواني؟ أم تدغدغه ... تلك الأماني بلا رسم ولا نغم؟

أم أنه الوجدُ يسري في حشاشته ... ولوعة الحب والتحنان والسأم؟

أم أنه الشوق في أشجان مغترب ... يلوح كالطيف جرحاً غير ملتئم؟

فهل له في الهوى ظلٌ وأشرعة؟ ... أن يذرع البحر في الإصباح والغسم [1]

وهل له بعد هذا الكرب من وَلَه؟ ... وهل له في لظى الأحزان من شبم؟

فما برحنا لنصحو من فجيعتنا ... في ذروة العلم والأخلاق والكرم

مات «ابن باز» وما تحكيه ألسنة ... إلا أريقت دموعُ العين كالديم

أضحت ليالي السنّا من بعده ظمأً ... وجف نبعُ القوافي من دم وفم

بكت عليه نجوم الليل خافتةً ... إذا ذوى البدر، هل للنجم من علم؟!

حتى أتانا غمارُ الغيب منتحباً ... في سكرة الدهر بالأرزاء والنِقَم

أتى يجر ذيولَ الحُزْن منهكةً ... تبدي خباياه وجه الموتِ والرجم [2]

مضى إلى رحمة الوهّاب مبتسماً ... شيخُ المظالم والإفتاء والقيم

لمّا مضى حدثتْني العينُ دامعةً ... هذا «عليٌّ» فلا تعذلْ ولا تلم

تلعثم الحرف من هول المصاب أسى ... وهل دمعُ جوى الوجدانِ كالحُمَم

رحلت يا «شيخ» إن القلب منفطر ... عليك، يغرق في بحر من الألم

والحب في الله والإسلام يجمعُنا ... لا في القرابة والأنسابِ والرحِم

فالنيلُ جذر لهُ والشامُ مولدُه ... والحب للبيت والأستار والحرم

شعر: حسن أحمد الصلهبي
السعودية

تتيه «طنطا» على أمثالها طرباً ... وارتْ بذورَ التقى في جهبذٍ هرمِ

وفي ذرى «قاسيون» السعدُ يسكنُه ... وفي «دمشقَ» أذابَ الحُلمَ بالهممِ

قالوا: «عليٌّ» فقلتُ: الكُل يعرفُه ... في حنكةِ الحُكْمِ والقرطاسِ والقلمِ

والكلُّ يعرفُه في كل مدرسةٍ ... في كل مختصَمٍ، في كل محتكمِ

ذاك الأديبُ الذي فاضتْ أناملُه ... بأعذبِ الحسّ والأشواقِ والحكمِ

ذاك الفقيهُ الذي كالبدرِ مخترقاً ... ينيرُ ليلَ الدجى في عتمةِ الظُلَمِ

وذلك العدلُ ما حطت حمائمُه ... لنصرةِ الحق، يومَ الحق لم تَصُمِ

ومن حكاياهُ فيضُ السحرِ منهمرٌ ... ومن تباريحه الإبحارُ في القَتَمِ

كم وقفةٍ لك في التلفاز مشرقةٌ ... تزاوج الحسنَ والإمتاعَ بالقيمِ

مع الشباب حوارٌ ما به شطط ... وقد هوى بعضُهم في مرتعٍ وخمِ

رددْتَ عن لغةِ القرآنِ مغرضَها ... وذدت عن بيضةِ الإسلام بالقلمِ

ما زلتَ تمخرُ يَمّ الجهل متشحاً ... عباءةَ الصبرِ والإحسانِ والهممِ

ما زلتَ تقشعُ وجه الحزن مرتحلاً ... في الذكريات بلا قيدٍ ولا شَكَمِ

«نورُ الهداية» و«الإفطارِ» موعدنا ... ونزهة القلب في عادٍ وفي إرمِ

من باتَ في كلِّ قلبٍ لم يمُتْ أبداً ... وأنتَ يا «شيخُ» نورُ العين في العتمِ

ما ماتَ من حبُّه في الجوفِ مضطرمٌ ... وفي الخمودِ لهيبُ النارِ والضرمِ

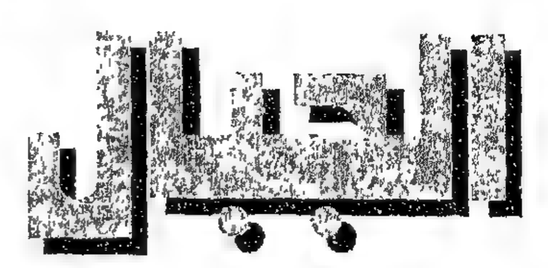
رحماك ربي بهذا الشيخ مرقدُه ... في جنةِ الخلدِ بين الحورِ والنِعَمِ

---

(١) الغسم: الظلام.

(٢) الرجم: القبر.

عندما تموت



شعر: سالم بن رزيق
السعودية

رسالة عزاء إلى جميع المسلمين في أصقاع الأرض في وفاة الداعية والإمام والأديب الشيخ علي بن مصطفى الطنطاوي رحمه الله تعالى ..

علام تسرج أحزاناً وأحزانا ... وترسل الدمع في العينين هتانا
علام تحرق أوراقي وسالفتي ... وتزرع النار في الأحشاء نيرانا
علام تعصر وجداني وتسكبه ... في راحتيك لهيبا فاض بركانا
علام يا هم تحدو بي على ظمأ ... حتى أظل أسيرَ الروح ظمآنا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

مهلاً عدمتك لا حييتك غادية ... تلازم الناس أشكالاً وألوانا
لقد أعرتك أذنا غير واعية ... فاسمع إذا شئت ألفاظاً وأوزانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

آه على أمة الإسلام تطحنها ... رحى المنايا فننسى فضل موتانا
كأن للموت في أوطاننا سكنا ... يرمي أواخرنا في ترب أولانا
فإن تنفس في الآفاق صبحنا ... وإن تعسعس في الآفاق مسانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

هذي مصائبنا تترى تقابلنا ... بالموت حينا وبالأرزاء أحيانا
كم أظلمت في ربيع العمر أنفسنا ... وأحرقت في سواد الليل أجفانا
هذي مصائبنا فيها مرارتنا ... فارحم أيا رب إخواننا وخلانا
كانوا مصابيح هذا الكون قاطبة ... فأصبحوا اليوم تحت الأرض جيرانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

هذي مصائبنا تترى تقابلنا ... همّا وغمّا وآلاماً وأحزانا

بالأمس ودعت الآفاق عالمها ... واليوم تبكي على الطنطاوي دنيانا
تبكيه من ألم الآلام أمتنا ... تبكي شموخاً وإجلالا وقرآنا
مات الأديب الأريب الحق مؤنسنا ... مات الذي كان بين الناس إنسانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يا رائد الحق في المذياع تنشره ... وراسما في جبين الراء إحسانا
تجلو عن القلب في التلفاز أقبية ... تهدي إلى الحق أطيارا وأفنانا
تدعو إلى الله لا تخشاه في أحد ... تسمو إلى الحق تلقي الروح قربانا
سجلت في دفتر التاريخ ملحمة ... وصغت ما شنف الآذان ألحانا
يا مدلجا في خريف العمر مؤتزرا ... بالمجد متشحا فُلاً وريحانا
سلكت للخير أحقاباً ملونة ... وخضت في الخير أنجادا ووديانا
كأن أفئدة الإنسين مزرعة ... تبني عليها لوجه الله بنيانا
صنعت في الناس أمجاداً رفعت بها ... إنسا وجنا وأقرانا وإخوانا
فما وطئت الثرى إلا غدا ذهبا ... ولا لمست الحصى إلا لنا لانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يا راحلاً في رحاب الله منطلقاً ... وسائرا في طريق الله جذلانا
تبكيك في لجة الأحزان أعيننا ... شاما ومصرا وأنجادا وسودانا
لبنان تصرخ في الأرجاء قاطبة ... لا تدفنوا في أديم الأرض لبنانا
كل القرابين للمولى نقربها ... حتى عليا جوار البيت قربانا
بغداد تكتحل الآلام مذ علمت ... أم القرى ودعت شيبا وشبانا
هول المصيبة أدمى كلَّ ساجعة ... فالطيرَ في يومه المحزون عطشانا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

تبكي الديارُ على الطنطاوي مشفقة ... من يخبر الدار إسرارا وإعلانا
كل الخلائق موسوم لها أجل ... تمشي أواخرنا في سير أولانا
وكل ما أفرح العينين منظرُه ... تفنى بشاشته، ينهدُّ قيعانا
حتى الملائك تفنى وهي عابدة! ... كيف المقيم على العصيان أزمانا؟
فاجمع قواك وسر في الناس مشتملا ... عدلا وصدقاً وإخلاصا وإيمانا
يا من وسعت جميع الخلق مرحمة ... إرحم أيا ربِّ هذا اليوم «مولانا»

مضى بركب الميامين

شعر: د. ظافر بن علي القرني
السعودية

أقبلتَ تهفو إلى حيثُ الهدى الهادي ... تطوي المسافاتِ والتقوى هي الحادي

ضاقت بعينيك كلُّ الأرض في زمن ... تقوى على جَوْبها من غير أضداد

لم تخلب اللبَّ فيحاءٌ وقفتَ بها ... وما أخذْتَ بذي ماءٍ وذي زادِ

ورُمْتَ مكةَ تواقاً لرؤيتها ... كَمَنْ يؤوب إلى مالٍ وأولادِ

هذي الغرابيبُ لم تقبل بها بدلاً ... كأنها دارُ أبناءٍ وميلادِ

أقمت فيها سنيناً لا تفارقها ... نِعْمَ المقيمُ ونعم الأهل والوادي

نهلتَ من بركات الوحي من كثب ... والوحيُ خيرُ رُواء المؤمن الصادي

وقمت تنشر قول الحق في ثقة ... فكان قولُك أوتاداً بأوتاد

لله درُّك من شخصٍ بَصُرْتَ بما ... عنه اشتغلنا بآمالٍ وآماد

ويا سعادة من تعليه منقبة ... في الغابرين ولم يعمل بإفساد

فكيف والشيخُ لا نحصي مناقبَه ... والفضل لله ذي شكر وإحماد

مؤدبٌ، حُجةٌ في العلم، ذو خلق ... سما به عن متاهات وأحقاد

وذو بيان، وذو فكر، وذو شيم ... علت به فوق أتراب وأنداد

يأتيك بالقول في حزم وفي أدب ... في غير ما عنت منه وإجهاد

يبصِّر الناس بالشرع الذي صلحت ... به حياة ذوي رشد وإرشاد

مجاهد بسنان الحبر ما فتئت ... أقلامه تتحدى كل ميّاد

يا ربِّ ترحمه، يا ربِّ تسكنه ... جنات خلدك، وارحم كل عباد

أحسن عزاء بني الإسلام في علم ... مضى بركب ميامينٍ وأجواد

في كل يوم لنا شيخ نودعه ... والموت يُلْحِقُ أطواداً بأطواد

ولم نزلْ نحسبُ الدنيا تقَرُّ لنا ... والعمرُ يذهبُ والآتي بمرصاد

لا نملك الأمرَ جلَّ اللهُ مالكُه ... والموتُ من كل إنسانٍ بميعاد

* صحيفة المدينة المنورة ملحق الأربعاء ١٦/٣/١٤٢٠هـ – السعودية

تَحْيَا عَلِيّاً وَيَحْيَا مِثْلُكَ الزَّهْرُ

شعر: جودت علي أبو بكر
سورية

يا صاحبي، الصدرُ مسكونٌ به الشعرَ ... تعانقا أبداً فاخضوضر النشرُ

يا صاحبي الحبُ في الأيام يرفدها ... فتصدح الطيرُ أو يجري بها النهرُ

من عاش للحب، للأمجاد في شمم ... فقد تسامى لديه النورُ والفخرُ

من عاش للناس، للإسلام، موعده ... مع الخلود وإن ضمَّ العُلا القبرُ

تلك الجنادلُ ما تنفك صارخة ... ماذا أخبئ ماذا يفعل الصخرُ..؟

بين الحجاز وبين الشام ألمحها ... تبكي الدموعُ، وقد فاضت بها مصرُ

في الغوطتين وفي العلياء هاتفة ... لا يرحل البدر حتى يطلع البدرُ

النور في النفس في الآفاق منبلج ... تهمي الخصائلُ، أو يأتي بها القطرُ

الحب نور وإن حلت بنا ظلم ... يجلو الظلامَ ويحيا الحب والفجرُ

النور في العلم، في الأعلام في قيم ... مع الصغار، إذا ما أبدع الفكرُ

فكيف يفنى؟ وريث النور يهتف بي ... في كل سطر يضيئ الحرف والسطرُ

مداده الخفق يجري في المدى ألقا ... ما زال يخفق قد أوحى به الحبرُ

قد يرحل الجسم قد نلقاه ملتحدا ... وفي التراب يفوح العطر والدرُ

المرء بالذكر، بالأفعال تَعرِفُه ... لا يُفقَدُ المرءُ حتى يُفقَدَ الذكرُ

وأنت فينا، فقيدَ العلم، في دمنا ... تحيا علياً ويحيا مثلُكَ الزهرُ

أراك في الشام في نجد وفي حلب ... مع الملايين لاح الوجه والبشرُ

على المحيّا وفي الأيام صورته ... تناثر الضوء، فاح الحب والسحرُ

ماذا نودع؟ قال الشعر، معذرة ... فليس في الشعر ما يرثي به الشعرُ

مع الملايين والإسلامُ يحشدها ... تمضي الحياة، ويحيا العلم والطهرُ

إن الملايين قد خطت بما فُجِعَت ... سيعجز الشعر والإفصاح والنثرُ

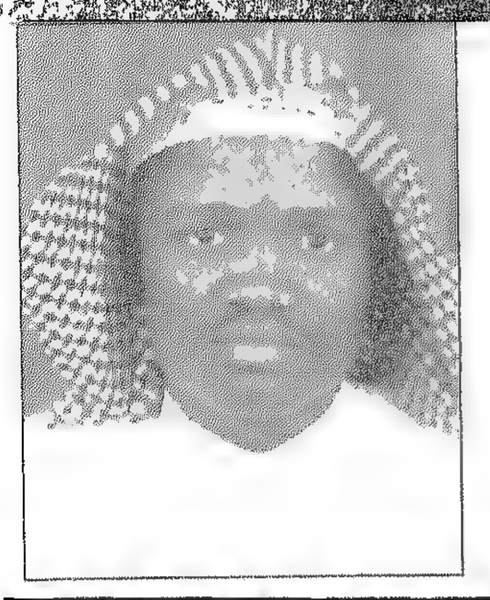
فالدمع يفحص، والآلام قد سُكِبَت ... والحرف يكتب: أين الصبر يا صبرُ..؟

لو كانَ في العمر ما يفدى به علم ... لأسرع الخلقُ صوب القبر والعمرُ

أرثي، أعزّي، عزانا أمة شمخت، ... منها الرسولُ، وفيها الفتح والنصرُ



مات الأديب



شعر علي بن جبريل أمين
مكة المكرمة

هيهات يبرد لا عجي ونواحي ... ونوائب تئد الثرى أفراحي

هيهات تسكن آهتي.. ومصائب ... تثري بكل المعضلات جراحي

هيهات ترقأ دمعتي، وأنا الذي ... كم قد رماني الشجو في أتراحي

هيهات والأنفاس تزفر من دمي ... غصصاً تهيِّج بالبلاء رياحي

هيهات.. لا ليلي سيمسح دمعتي ... كيما أسر به..ولا إصباحي

ما عاد يطربني الهزار بشدوه ... كلا.! ولا بغنائه الصداحِ

الحزن أرق مضجعي، ولواعج ... هيهات تطلق في الفضاء سراحي

لما أتاني نعيه غامت رؤى ... قلبي.! ومات الطير في أدواحي

نضبت مياهي، واستحالت أدمعي ... حمماً لبركاني، وهيض جناحي

ويلاه! كم تسقي الخطوب مباهجي ... بمدامة تجري بها أقداحي

سكر الفؤاد بخمرها! فكأنني ... صاح لمن يرنو.. ولست بصاحِ

كيف السبيل إلى الحياة وهذه ... فتن تكبل في الحياة مراحي

مات الأديب.. فيا لعيشٍ بعده ... ليست ترقصه خطا الملاحِ

مات الأديب..مصيبة جبارة ... ليس ابتهاجي عندها بمباحِ

خلعت وشاح السعد عن أرواحنا ... وكست قلوب الناس حزنَ وشاحِ

قتلت سروري.! وهي أسوأ قتلة ... بمُدى تلطخ راحة السفاحِ

مات الأديب.. فيا لعصر غائر ... في وحل جهل للعباد متاحِ

مات الذي حمل اليراعة قادرا ... كالموس بين أنامل الجراحِ

متفننا في حملها.. تشدو لنا ... شدوا له تصغي جميع الساحِ

رقصت بكل فضيلة كلماتها ... وغدت غياث الحب للأرواحِ

فلكم روت أرضاً يباباً بلقعا ... فغدت تزان بوردها وأقاح
صاغ الحديث - من الكتاب بهاؤه ... ومن الحديث رواؤه - بنجاح
فلكم شدا بالخير في عصر علا ... فيه النهيق.. وماج بين صياح
عصر يسيره الهوى، ويقوده ... لقراره المشؤوم كل إباحي
عصر يلمع كل من برذيلة ... يسري.! وكفر في العباد بواح
عصر به يبدو التدين ثلمة ... ويُرى به الأخيار كالأشباح
عصر يرقص بالقذى أوتاره ... ويدير كل كؤوسه بالراح
عصر به يبدو الجبان مناضلاً ... ينساب في الهيجا بغير سلاح
عصر النفاق! بهارج تبدو به ... لكنها كسرابه اللماح
وأتى الأديب بفكره ويراعه ... كيما يصوغ الحب في إصلاح
وأتى عليٌّ بالفضائل حاملاً ... لسيوف حق في الورى ورماح
أضحى ينير الدرب أسود حالكاً ... شمساً تزيِّن بالحبور بطاحي
كم من سرائر فكرة مغلوقة ... أدلى بها الأستاذ في إفصاح
كم قد أنار عقول قوم أظلمت ... يسري بكل عزيمة وكفاح
بضع وتسعون انقضت في همة ... قدماً يسيِّرها بغير جماح
حتى ذوى من بعد عمر حافل ... وخبا ضياء فتيلة المصباح
تبكي «دمشق» عليه وهي حزينة! ... مهلاً «دمشق» فكلنا لبراح
«والجامع الأموي» يحبس دمعه ... «بردى» يسيل بمدمع سحاح
«والأزهر» اضطربت رؤاه وقد ... بكى «اليمن السعيد» فهز كل نواح
مات الأديب فكم عيون تشتكي ... من حر دمع فاض في إلحاح
قلبي كواني حين أبصر جمعهم ... حملوا فقيدهم على الألواح
ساروا به يحدوهم حادي الأسى ... وأنا أداري دمعتي وألاحي
دفنوه في خير البقاع[1] يحفه ... ربح من الرحمن أي رباح

* * * * *

رباه جاز أديبنا واغفر له ... - رباه - كل خطيئة وجُناح
أسكنه في الفردوس مع أحبابه ... واجعل له - رباه - كل فلاح
واسكب شآبيب الرضا في قبره ... (في كل غدوة ساعة ورواح)

* دفن رحمه الله تعالى بمقبرة العدل بمكة المكرمة .

فراقك لم يكن سهلاً

شعر: حيدر مصطفى
سورية

رويدك شيخَنا مهلا ... فراقك لم يكن سهلا

فأنت الحب كل الحب ... والغالي بل الأغلى

وقربك لم يكن إلا ... كمثل الشهد أو أحلى

عميد الفكر يا علماً ... محوت بعلمك.. الجهلا

وكنت الغمد للإسلا ... م ضم السيف والنصلا

أخا أدب.. بدوحته ... وجدنا الأمن والظلا

تُعلّمنا علاج الصعـ ... ـب تجعل أمره سهلا

وتجعلنا تسير على ... طريقة ديننا المثلى

وكيف نكون في الدنيا ... لكل ملمة أهلا

فلا نأسى على شيء ... إذا ما زاد.. أو قلا

وسرت بدرب من سبقو ... ك لامناً ولا عذلا

ولم تبخل بعلمك.. لم ... تقصّر في العطا.. بذلا

عرفنا ذاك فيما قبـ ... ـل لسنا ننكر الفضلا

معاهد كَمْ عملت بها ... تنير القلب والعقلا

وفتوى كم صدحت بها ... أتت لتخفف.. الحملا

مقالات - وآداب ... يراعك فيهما أبلى

حثيثاً للهدى تسعى ... تؤمل ربك الأعلى

وكم سارعت في خير ... بفعل يسبق القولا

وفي دار القضا.. قدماً ... أقمت الحق والعدلا

إذا سألوك في فتوى ... غزلت خيوطها.. غزلا

وإن خبروك في خطب ... فأنت الثبت في الجُلّى

عملت وهذه الدنيا ... بكل مصيبة حبلى

قطعت هجيرها حتى ... تغير وجهها شكلا

لقد أسرجت.. أجياداً ... وكنت الغيث.. مُنْهلا

وكنت السعد للإخوا ... ن كنت الحب والخلا

وكم عاشت جوانحنا ... بقربك تزدهي جذلى

وهذي فيك أمتنا ... بفقدك قد غدت ثكلى

تسح الدمع مدرارا ... وشعراً باكياً يتلى

فأنت بحبها أحرى ... وأنت بشعرها أولى

نودع فيك يا علما ... خصال الخير والنبلا

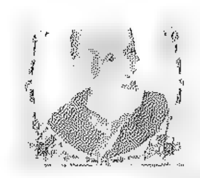
وندعو الله أن نلقا ... ك نجمع فيكم الشملا

بدار حيث لا الدنيا ... ولا دركاتها السفلى

فنم في الروض ميمونا ... تحفك رحمة المولى

وثق فيمن هديت له ... إله جلّ واستعلى

بأن الخير لا ينسى ... وأن.. البرَّ لا يَبْلى





البكاء

شعر: محمد بن أحمد الزيداني
السعودية

كتبت هذه الأبيات بعد وفاة شيخ المعلمين، وأستاذ المربين (علي الطنطاوي) بفترة طويلة، وذلك بعد أن رأيته - رحمه الله - بعين خيالي معاتباً وكأنه يقول: أين الوفاء للمعلم؟ أين العرفان له بطيب الأثر؟

عذراً فقد عقد الفراقُ لساني ... واستعجم الإعراب في تبياني
عذراً فقد يعيا الفصيحُ وإنني ... والله مجبول على العرفانِ
لكأنني والنعيُ يطعن مهجتي ... قلب بلا حس ولا خفقانِ
أنا يا أبي جرحٌ وفي أعماقه ... شاد الزمانُ معاقل الأحزانِ
مذ ودعتْ دنياك عطر رجالها ... ورحلْتَ يا أزكى من الريحانِ
ما زال في سجن التلعثمِ مقْولي ... يشدو وتخنقه يدُ السجانِ
هاجرْتُ ملتاعاً وليس بجُعْبتي ... إلا متاعُ مروعٍ حيرانِ
هاجرْتُ أبحث عن فضاءٍ آمنٍ ... من ثورة المأساةِ في شرياني
ظني بأن صواعقَ الترحال لمْ ... تحرقْ بلاهبها سوى وُجْداني
فإذا الحقيقةُ في ثياب حدادها ... تبكيك يا ربَّ البيانِ الباني
وتقولُ وهْي ترى خريطة أمتي: ... سهمُ الفراق أصابَ كلَّ مكانِ
أ عليُّ كمْ عطرتَ كالأزهار دنـ ... ـيانا بفنِّك يا عليَّ الشانِ
كم ها هنا لك باقةٍ فواحةٍ ... وهناك ريا العُودِ والألوانِ
كم فكرةٍ وإشارةٍ كانت كإنـ ... ـسانِ العيونِ لناظرِ الإنسانِ
لك فنُّها الفنيُّ في إخراجها ... والمنهجيةُ منهجُ الرحمنِ
كم يا عليَّ الفكر كنْتَ منارةً ... تَهْدي إلى التوحيدِ والإيمانِ
تدعو إلى الدين الحنيفِ بحكمة الد ... ـاعي وصدْقِ المؤمنِ المتفاني
ورحلْتَ والتسعون عمرٌ أولٌ ... وبناؤك الأجيالَ عمرٌ ثانِ



شعر: محمد راجح الأبرش
أبو ظبي

خَطْبٌ يحز بمهجتي وفؤادي ... موت الرجال وصفوة الرواد
الصادقين بقولهم وفعالهم ... والسائرين على هدى ورشاد
حملوا الرسالة مؤمنين بنصرهم ... وبنورها المتألق الوقاد
إني أرى جند المكارم والتقى ... تمتاز في بذل وطول جهاد
سماهم المختار من أحبابه ... وعليهم نور الهداية باد
هذا هو «الطنطاوي» عز فراقه ... قد غاب مَنْ يحيا بكل فؤاد
هو عالم الشام الجليل وفضله ... يمتد فوق مضارب وبلاد
فحديثه عذب بكل محلة ... رجل البيان وزين أهل الضاد
ما أبصرت عيناي قط محدثاً ... مثل الذي أنعي من الرواد
فهو الأديب إذا أردت فصاحة ... وهو الخطيب الألمعي الحادي
وهو الأديب إذا تشعبت الرؤى ... وهو البصير بما يُكِنُّ العادي
أسلوبه الأخاذ يملأ خاطري ... هو متعتي هو بهجتي ومرادي
يعتز بالإسلام منهاج العلا ... ويذود عنه بحكمة وسداد
موسوعة بالعلم والآداب ... والأخلاق والتاريخ والإسناد
قد عاصر الأجيال من آبائنا ... عرف الزمان وسر كل فساد
وتبصر الحق الصراح وصانه ... بالنصح والتوجيه والإرشاد
وأقول فاهنأ بالذي قدمته ... في جنة الفردوس خير معاد
كم من كتاب قد تركت وحكمة ... في مسمع الأجيال والأحفاد
الذكريات وأنت فارسها الذي ... ببيانه يروي غليل الصادي
يروي من الأخبار دون تكلف ... ويسوقها في غاية الإسعاد
وهو البريء من التصنع دائماً ... طوبى لنا بحديثه المعتاد
إني لأبكيه وأذكر فضله ... رجل تبوأ قمة الأمجاد

* نشرت في جريدة الاتحاد الإماراتية.

الوداع بدمع الحزن

شعر: محمد منير الجنباز
سورية

واروك يا شيخنا صمتاً فوا أسفي ... وودعوك بدمع الحزن وا لَهَفي

وغيَّبوك الثرى لو أنهم عرفوا ... أن المغيَّبَ مثلُ الدر في الصدفِ

لأسبلوا دمعهم هتان في حُرَقٍ ... وأرسلوا حزنهم من واله رهفِ

موتُ الغريبِ بدار شط منزلها ... كضائع في الفلا عن عين مكتشفِ

كم كنت ترجو مماتاً في دياركم ... وتشتهي جلّقاً للموت في دَنَفِ

وكنت تذرف دمعاً كلما اقتربت ... منك المنية حتى قيل لا تخفِ

لئن تركت دياراً قد درجْتَ بها ... ففي رحاب الهدى قد كنت في كنفِ

ألم تكن جارَ بيتِ الله من أمد ... وحفَّك اللهُ في ظل التقى الورفِ

فعشت أمْنا وقرت عينُكم وطنا ... وماءُ زمزمَ إرواء لمرتشفِ

وكان صوتُك في المذياع يأسرُنا ... فكنت تجمعُ بين الجِدِّ والطُرفِ

خمسٌ وعشرون في التلفاز تنفحنا ... بزاد «مائدة الإفطار» في شغفِ

«والذكرياتُ» بها فكر وتجربةٌ ... وما كتبتَ ينيرُ الدرب للخلفِ

لم تعط نفسك يوماً راحة أبداً ... وكنت داعيةً في منهج السلفِ

عُرِفْتَ في مشرق الدنيا ومغربها ... ونلت جائزةَ الإسلامِ في شرَفِ

فكان فيها الغنى وصلاً بذي شرفٍ ... ورَغْم ذاك فلم تنجرَّ للترفِ

وفي القضاء سمَتْ حقاً نزاهتكم ... فما تلوّت ولا انحازتْ لمنحرفِ

ضربْتَ للناس أمثالاً بجدِّكم ... وقد تحققَ ما أمّلْت من هدفِ

فنم «عليٌّ» بقبرٍ في حمى حرم ... ومنه تنتظرُ للجناتِ والغرفِ

تقضي غريباً فربُّ العرشِ نوّلكم ... أجرَ الشهادة لا يعطى لغير وفي

لكم ثوابٌ كجري النهرِ من عملٍ ... حرزٌ تُلَفُّ به.. طوبى لملتحفِ

كشاف بعض الموضوعات المنشورة في الصحف والمجلات العربية عن الشيخ علي الطنطاوي*

الموضوع	الكاتب	الإصدار	العدد	التاريخ	المكان
التطور الفني لشكل القصة القصيرة السورية	نعيم حسن يافي	**م/الآداب**	٥	مايو ١٩٦٥م	لبنان
ذكريات علي الطنطاوي.. علامة فارقة في الأدب العربي المعاصر	عبد الله زنجير	**ملحق الأربعاء**	صحيفة المدينة	٨ شعبان ١٤١٤هـ	السعودية
مرثية الطنطاوي	أبو تراب الظاهري	ملحق الأربعاء	صحيفة المدينة	١٦ ربيع١/١٤٢٠هـ	السعودية
الطنطاوي لم يدرس في جامعة الأزهر	عبد الله جبريل فلاته	ملحق الأربعاء	صحيفة المدينة	٢٨ جمادى٢/١٤٢٠هـ	السعودية
التكنيك السردي في ذكريات الطنطاوي	أحمد علي آل مريع	ملحق الأربعاء	صحيفة المدينة	٩-١٦-٢٢رجب ١٤٢٢	السعودية
رحيل الطنطاوي	التحرير	**مجلة الأسرة**	٧٤	جمادى ١/١٤٢٠هـ	هولندا
علي الطنطاوي فقيد القلم المؤمن	سعيد الأعظمي	**البعث الإسلامي**	٨	جمادى ١/١٤٢٠هـ	الهند
الشيخ علي الطنطاوي	التحرير	البعث الإسلامي	٨	جمادى ١/١٤٢٠هـ	الهند
مات رجل العصر علي الطنطاوي	التحرير	**مجلة التقوى**	٨٤	ربيع٢/١٤٢٠هـ	لبنان
ملحق خاص عن الشيخ علي الطنطاوي	عدد من الكتاب	**ص/ الجزيرة**	٩٧٣٧	١٤٢٠/٢/١٢هـ	السعودية
عام الرحيل	عبد المحسن المطلق	ص/ الجزيرة	٩٧٧٠	١٤٢٠/٣/١٥هـ	السعودية
والله هذه حالنا فلسنا نلومك	عبد الله السويكت	ص/ الجزيرة	—	١٤٢١/٧/٦هـ	السعودية
الشيخ علي الطنطاوي	عبد الله أبو داهش	ص/ الجزيرة	العدد ١٠٥٤٤	٢١ جمادى١/١٤٢٢هـ	السعودية
الشيخ علي الطنطاوي في ذمة الله	التحرير	**م/ الحرس الوطني**	٢٠٥	ربيع٢/١٤٢٠هـ	السعودية
وفاة الشيخ علي الطنطاوي	التحرير	**م/ الدعوة**	١٦٩٧	ربيع١/١٤٢٠هـ	السعودية
أرض النبوة	أمجد الطرابلسي	**م/ الرسالة**	٩٠	ذو الحجة ١٣٥٣هـ	مصر

الموضوع	الكاتب	الإصدار	العدد	التاريخ	المكان
ذكوان	زكي المحاسني	م/ الرسالة	٩٠	ذو الحجة ١٣٥٣هـ	مصر
العروبة رابطة وهدف	عيسى الناعوري	م/ الرسالة	١٠٠	ربيع١/ ١٣٥٤هـ	مصر
وداع صديقين	أمجد الطرابلسي	م/ الرسالة	١٧٠	رجب ١٣٥٥هـ	مصر
إلى الأستاذ سيد قطب	صلاح الدين المنجد	م/ الرسالة	٢٦٠	ربيع٢/ ١٣٥٧هـ	مصر
بين العقاد والرافعي	عبد الوهاب الأمين	م/ الرسالة	٢٦٠	ربيع٢/ ١٣٥٧هـ	مصر
بين الرافعي والعقاد	محمد اللبابيدي	م/ الرسالة	٢٦١	جمادى١/ ١٣٥٧هـ	مصر
حول نظرية التطور	كامل نصيف	م/ الرسالة	٢٦١	جمادى١/ ١٣٥٧هـ	مصر
كتاب في الدين الإسلامي	بهجة البيطار	م/ الرسالة	٣١٩	جمادى٢/١٣٥٨هـ	مصر
المعاملات في الإسلام	بهجة البيطار	م/ الرسالة	٣٢٣	رجب ١٣٥٨هـ	مصر
اختلافهم رحمة	حلمي الإدريسي	م/ الرسالة	٣٤٠	ذو القعدة ١٣٥٨هـ	مصر
الطنطاوي وكتابه في بلاد العرب	صلاح الدين المنجد	م/ الرسالة	٣٤٣	ذو الحجة ١٣٥٨هـ	مصر
ولكنها دمشق	شكري فيصل	م/ الرسالة	٣٥٩	ربيع ٢/ ١٣٥٩هـ	مصر
إلى الأستاذ علي الطنطاوي	أحمد الشرباصي	م/ الرسالة	٦٤٦	ذو الحجة ١٣٦٤هـ	مصر
العقل المؤمن	عبد المنعم خلاف	م/ الرسالة	٦٥٠	محرم ١٣٦٥هـ	مصر
من صميم الحياة	حسنين حسن مخلوف	م/ الرسالة	٦٩٧	ذو الحجة ١٣٥٦هـ	مصر
من يد ذات سوار إلى الطنطاوي	بديعة سبح الله	م/ الرسالة	٦٩٧	ذو الحجة ١٣٦٥هـ	مصر
إلى اليد ذات السوار رقم (٢)	بديعة سبح الله	م/ الرسالة	٧٠١	محرم ١٣٦٦هـ	مصر
ملامح من حياة الشيخ علي الطنطاوي	معالي الأستاذ عبدالعزيز السالم	**ص/ الرياض سبع مقالات**	١١٧٤٤/ ١١٧٥١ / ١١٧٥٨/ ١١٧٦٥/١١٧٧٢/١١٧٨٦/١١٧٩٣		السعودية
وفاة الشيخ الطنطاوي صاحب أشهر برنامج ديني في التلفزيون السعودي	محمد المنقري	**ص/ الشرق الأوسط**	–	١٩٩٩/٦/٢٥م	السعودية

الموضوع	الكاتب	الإصدار	العدد	التاريخ	المكان
أديب الفقهاء وفقيه الأدباء الطنطاوي	يوسف القرضاوي	ص/ الشرق الأوسط	٧٥١٠	١٩٩٩/٦/٢١م	السعودية
أنا وعلي الطنطاوي	عصام العطار	ص/ الشرق الأوسط	—	١٩٩٩/٧/٤م	السعودية
علي الطنطاوي فقيد العلم والأدب	ملف خاص	م/ **الشقائق**	٢٢	—	الشارقة
الشيخ الطنطاوي في سطور	التحرير	**م/ الصحوة..**	٣٦	محرم ١٤٢١هـ	الهند
الشيخ الطنطاوي	محمد عبده يماني	**م/ الصحوة..**	٣٦	محرم ١٤٢١هـ	الهند
علي الطنطاوي.. إلى رحمة الله	التحرير	**ص/العالم الإسلامي**	١٦٠٦	ربيع ١/ ١٤٢٠هـ	السعودية
باهلة القبيلة المفترى عليها	حمد الجاسر	**م/ العرب**	٥-٦	١٤١٠هـ	السعودية
الفائزون بجائزة الملك فيصل العالمية ١٤١٠هـ	التحرير	**م/ الفيصل**	١٥٨	شعبان ١٤١٠هـ	السعودية
ملحق خاص عن علي الطنطاوي	التحرير	م/ الفيصل	٢٧٣	ربيع ١/ ١٤٢٠هـ	السعودية
رحيل الشيخ علي الطنطاوي	التحرير	م/ الفيصل	٢٧٤	ربيع ١/ ١٤٢٠هـ	السعودية
الشيخ علي الطنطاوي العالم الأديب	التحرير	م/ الفيصل	٢٧٦	جمادى ٢/ ١٤٢٠هـ	السعودية
الطنطاوي.. العالم الموسوي	التحرير	**م/ قطر الخير**	٥١	جمادى٢/ ١٤٢٢هـ	قطر
لله درك يا شيخ الأدباء	أحمد عطية السعودي	**ص/ اللواء**	١٣٦٩	جمادى١/١٤٢٠هـ	الأردن
أنعي إليك أمتي	منير الغضبان	**م/ المجتمع**	١٣٦٢	٢٨ ربيع٢/ ١٤٢٠هـ	الكويت
أسرار في حياة الأدباء	أحمد بادويلان	**المجلة العربية**	١٤١	شوال ١٤٠٩هـ	السعودية
جوانب مجهولة من حياة الطنطاوي	عيسى فتوح	المجلة العربية	١٤٧	ربيع ٢/ ١٤١٠هـ	السعودية
من صحافة الماضي	التحرير	المجلة العربية	١٥١	شعبان ١٤١٠هـ	السعودية
صورة نادرة	محمد حسين غالب	المجلة العربية	١٩٤	ربيع ١/ ١٤١٤هـ	السعودية
صورة نادرة	صلاح الزامل	المجلة العربية	٢٢١	جمادى ٢/ ١٤١٦هـ	السعودية
أجل هؤلاء يستحقون أن يكرموا	عبد العزيز السحيباني	المجلة العربية	٢٣٥	شعبان ١٤١٧هـ	السعودية

الموضوع	الكاتب	الإصدار	العدد	التاريخ	المكان
علي الطنطاوي الأديب الفذ	يحيى المدخلي	المجلة العربية	٢٦٧	ربيع ٢/ ١٤٢٠هـ	السعودية
الطنطاوي..المكان الذي لا يشغله غيرك	علي العميم	المجلة العربية	٢٦٧	ربيع ٢/ ١٤٢٠هـ	السعودية
روائع الشيخ علي الطنطاوي	ممدوح القديري	المجلة العربية	٢٩٦	رمضان ١٤٢٢هـ	السعودية
الشيخ علي.. منارة المتحدثين	التحرير	**مساء/الأسرة**	٨	رجب ١٤٢٠هـ	هولندا
مثل الذي بك يا دمشق من الحزن والأسى بي	إبراهيم الألمعي	**م/ المعرفة**	٥٠	جمادى١/ ١٤٢٠هـ	السعودية
هذا هو المعلم الناجح	ماجد الوبيران	م/ المعرفة	٥٠	جمادى١/ ١٤٢٠هـ	السعودية
الطنطاوي الداعية الإسلامي العظيم	عبد المقصود عبدالمقصود	**م/ منار الإسلام**	٣	ربيع ١/ ١٤٢٢هـ	الإمارات العربية
هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي	غرناطة الطنطاوي	م/ منار الإسلام	٥	جمادى١/١٤٢٢هـ	الامارات العربية
الشيخ العلامة علي الطنطاوي	التحرير	**م/ المنهل**	٥٦٠	جمادى ١ و٢/١٤٢٠هـ	السعودية
قراءة في آثار علي الطنطاوي	أحمد العتيبي	م/ المنهل	٥٦١	رجب ١٤٢٠هـ	السعودية
الشيخ علي الطنطاوي	محمد رجب البيومي	م/ المنهل	٥٦١	رجب ١٤٢٠هـ	السعودية
بعد سبعين عاماً من الدعوة إلى الله يذهب الشيخ الطنطاوي إلى ربه	التحرير	**م/ نداء الإسلام**	—	يوليو ١٩٩٩م	باكستان
إلى أروى المؤيد العظم ...	التحرير	**م/ النور**	١٨١	محرم ١٤٢١هـ	الكويت
نظرات في أدب الشيخ علي الطنطاوي	محمد القضماني	م/ النور	١٩٤ –١٩٥ – ١٩٦ — ١٩٧– ١٩٨ – ١٩٩ – ٢٠٢ – ٢٠٤ – ٢٠٧ –٢٠٨–٢٠٩		الكويت
هكذا عرفت الشيخ علي الطنطاوي	محمد القاسمي	م/ النور	١٩٤	١٤٢٢هـ	الكويت
في حوار شائق مع علي الطنطاوي	عابدة العظيم	**م/ الوعي الإسلامي**	٣٨٤	شعبان ١٤١٨هـ	الكويت
الشيخ علي الطنطاوي	بدر القاسمي	م/ الوعي الإسلامي	٤٠٤	ربيع ٢/ ١٤٢٠هـ	الكويت

*** حاولنا في هذا الكشاف رصد ما نشر عن الشيخ علي الطنطاوي بعد وفاته، كما أضفنا إليه مانشر عنه قبل وفاته من موضوعات زودتنا بها مكتبة مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية بالرياض مشكورة . ولا نزعم إلاّ أننا رصدنا غيضاً من فيض ..**

التحرير


ردود ومناقشات

ما كان باكثير الرائد في الشعر الحديث

إنما هو جميل صدقي الزهاوي

يأتي هذا المقال استمراراً للمناقشة ولا نريد أن نقول: المعركة الدائرة بين الأستاذ عبدالله الطنطاوي والدكتور يوسف عز الدين حول ريادة شعر التفعيلة.

فقد نشرنا في العدد (٢٤) مقالاً للدكتور يوسف عزالدين بعنوان «أيهما الأسبق في الريادة نازك أم السياب..؟» فرد عليه الأستاذ الطنطاوي بالعدد (٣١) بمقال عنوانه «لماذا يتجاهل الدكتور يوسف عزالدين ريادة باكثير..؟» وفي العدد (٣٣) فتح الدكتور يوسف عزالدين ثغرة أخرى حين نسب الريادة للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي.

وفي هذا العدد يقدم الأستاذ عبدالله الطنطاوي الدلائل على ريادة باكثير لشعر التفعيلة.

و«الأدب الإسلامي» تأمل أن يكون الكاتبان الكبيران قد أفادا القراء والدارسين في هذا الموضوع بما فيه الكفاية.

«التحرير»

عبدالله الطنطاوي يرد على د. يوسف عز الدين:

علي أحمد باكثير رائد شعر التفعيلة

ملاحظ عابرة على رد الدكتور يوسف عزالدين

١- لو كنت أعلم أن تعليقي سوف يسبب للدكتور يوسف عزالدين كل هذا الحزن والثورة والقلق و(الإزعاج) لما كتبت ما كتبت، ولكنها مشيئة الله، وضعف الإنسان.

٢- البحث العلمي يجب أن يكون بعيداً عن سائر ألوان التعصب الإقليمي والعرقي والديني والمذهبي.. بعيداً عن الأهواء والأمزجة التي تلوي عنق الحقيقة لتقرر ما يخالف الواقع والحقيقة، وخاصة في العلوم الإنسانية، وإلا.. عدنا إلى مقولة الجاهلية الأولى: (كذّاب ربيعة أفضل من صادق مضر).

٣- كل ما تقدم من هذا التعليق على الرد، وأكثر ما جاء في (ردّ) الدكتور، خارج عن الموضوع، ويستحقّ الاعتذار من القرّاء الأعزاء، لأنني والدكتور قد أضعنا الكثير من أوقاتهم الثمينة.

والآن.. دعنا يا (دكتور) ندخل في لب الموضوع الذي نلخصه بهذا السؤال:

من رائد شعر التفعيلة؟

من رائد الشعر الجديد الذي استقر تسميته بشعر التفعيلة.. كما عرّفته نازك، ووافقها النقاد على تعريفه وعروضه؟

من الرائد؟

من أول من نظم القصيدة الأولى فيه؟

نازك؟ السيّاب؟ الزهاوي؟ أم باكثير، كما زعمت المقالة – يتيمة دهرها – ودراسات أخرى كثيرة؟ نحن نتحدث – طبعاً – عن ريادة شعر التفعيلة، وهو الشعر ذو الشطر الواحد، وليس له طول ثابت، إذ يجوز أن يتغير عدد التفعيلات في القصيدة الواحدة من شطر إلى شطر[1].

وهذا الشعر الذي نريد، هو الذي استقر عروضه أو كاد، وكان لباكثير فضل الريادة في ابتداعه واكتشافه، وفي إرساء بعض ملامح عروضه، ثم جاءت الشاعرة الكبيرة نازك، فأفاضت فيه، وقعدت عروضه.

وشعر التفعيلة هذا، «يختلف اختلافاً أساسياً عن الطريقة التي سلكها كثير من الشعراء المحدثين كالزهاوي وأبي حديد وغيرهما ممن أسموه الشعر المرسل، فالنظم على طريقتهم لا يختلف عن النظم العربي القديم إلا في إرساله من القافية»[2]

وهذا ما ذهب إليه الدكتور عز الدين إسماعيل في التعليق على شعر شكري.

زعمت وأزعم وأصر على أنَّ باكثير كان الأسبق إليه تاريخياً من كل الشعراء الآخرين.

السيّاب نفسه، رحمه الله، اعترف بريادة باكثير، وأثنى عليه، ولعل الدكتور لم يقرأ ما كتب في حينه في مجلة الآداب (التي يختلف مع صاحبها في توجهه الفكري)، وفي مجلة الأديب اللبنانية، عن باكثير وريادته شعر التفعيلة سلباً وإيجاباً، ولعله اطلع على ما كتبه الباحثون الذين نسبوا الريادة لباكثير، وأذكر منهم للدكتور الكبير:

الدراستين الطويلتين للناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل في مجلة (المسرح) القاهرية، في العددين: ٧٠ و ٧١ لعام ١٩٧٠م.

قال الدكتور عز الدين إسماعيل: «ولكن تجربة باكثير لم تقف عند حد التخلص من القافية الرتيبة، مع الاحتفاظ للبيت الشعري بوحدته، بل امتدت إلى وحدة البيت نفسه فحطمتها، واصطنعت – بدلاً منها– وحدة التفعيلة. وهنا تبين لباكثير أن أوزان الشعر المعروفة لا تصلح جميعها لهذا الشكل الجديد، وأنه لا يصلح منها إلا ما كان متجانس التفعيلات، كالرجز والكامل والرمل والمتدارك، ومن جهة أخرى، عرف باكثير بالممارسة أنه لم تعد هناك – عندئذ– ضرورة للالتزام بالسطر الواحد بعدد ثابت من التفعيلات، فالجملة الحوارية قد تطول وقد تقصر، وفقاً لما يقتضيه الموقف، ومن ثم حلت فكرة الجملة الشعرية المنطلقة محل البيت الشعري المغلق.

بهذا الأسلوب ترجم باكثير مسرحية (روميو وجولييت) لشكسبير، فكانت أول عمل شعري كامل يترجم إلى العربية في شعر مرسل منطلق».

ويقول الدكتور عز الدين إسماعيل – ومعذرة إذا طال الشاهد:

«ويحق لنا هنا أن نشير إلى أن هذه التجربة في مجال الشعر المسرحي قد تسربت فيما بعد إلى ميدان شعر القصيدة.. تسربت إليه بكل أبعادها الشكلية والمعنوية، فحركة الشعر الجديدة التي بدأت منذ أواخر الأربعينات في العراق، والتي امتدت – فيما بعد – إلى سائر الأقطار العربية، وما زالت حتى اليوم تنمو وتتطور، لم تحدث في شكل القصيدة في البداية إلا ما أحدثه باكثير، من كسر وحدة البيت، واطراح القافية بصورتها القديمة، واتخاذ التفعيلة أساساً للبناء الموسيقي. ومن الناحية المعنوية، كان الدافع والمبرر لاصطناع هذا الشكل الجديد للقصيدة هو تحقيق التلاحم بين لغة الشاعر وما يجول بنفسه من مشاعر وأفكار، حتى يصبح الشعر تعبيراً صادقاً عن الشاعر. وهذا الهدف المعنوي نفسه هو ما تطلبته طبيعة الحوار المسرحي من باكثير».

ويختم الدكتور مقاله الأول بقوله:

«ومهما يكن من أمر سبق باكثير لحركة الشعر الجديدة، وتأثر بعض روادها به، فإن هذه الحركة تدين بالكثير لتجربته الباكرة في ميدان الشعر المسرحي المرسل».

وكتب الدكتور عبد العزيز المقالح – وهو أستاذ وعميد ورئيس جامعة وكاتب وشاعر – كتب مقالة بعنوان: (باكثير رائد

التجربة، وبطل الانقلاب في الشعر المعاصر) في العدد الأول من مجلة (الأديب) اليمنية الصادر في ديسمبر ١٩٩٩ قال في بدايته:

«تقتضي الأمانة الموضوعية، الإشارة في مدخل هذا الحديث عن باكثير الشاعر إلى أن باكثير رائد التجديد الشعري.. إلخ».

وبعد أن نقل الدكتور المقالح بعضاً من كلام باكثير من كتابه «فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية» عن اكتشاف باكثير لهذا النمط الجديد من الشعر قال الدكتور المقالح: «ذلك هو الاكتشاف الخطير المثير الذي تسبب بعد عشرة أعوام في إيجاد هذا المنحى الشعري الجديد الذي أحدث انقلاباً في تاريخ القصيدة العربية، ودفع بأهم المواهب الشعرية العربية المعاصرة إلى اختياره طريقاً حديثاً ومتميزاً وأصيلاً ومتفاعلاً مع حداثة الواقع العربي، ومعبراً عنه، غير منعزل أو سجين في القوالب التاريخية الجامدة، ولم تكن ثقافة باكثير التقليدية في منأى عن هذا الاكتشاف المثير، فقد أمدّته معرفته العميقة بالشعر العربي، وامتلاكه لخصائصه وأدواته الفنية امتلاك معرفة وممارسة وبقدرة على التجاوز والتفكير في إمكانيات الخروج على القافية أولاً، ثم على وحدة البيت ثانياً.



د. يوسف عزالدين

وقد ظلت هذه التجربة أكثر من عشر سنوات موضع ريبة وخوف قبل أن تتحول إلى ثورة في شكل الشعر العربي، فلا أحد يستطيع أن يتصور شعراً يقوم على التفعيلة لا على الشطر، وأن تكون القصيدة منفصلة عن الصورة التي تشكلت بها تراثياً، وعلى مدى ستة عشر قرناً».

ويتحدث الدكتور المقالح حديث البصير بما يقول، عن الشروط الأربعة التي وضعتها نازك للريادة فيقول:

«.. نعود إلى الموضوع الرئيسي في هذا الجانب من البحث، وهو ريادة باكثير لحركة الشعر الجديدة».

«وقد اعترفت الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة كما اعترف زميلها في الريادة للجديد الشاعر الكبير بدر شاكر السيّاب بالأثر الذي تركته محاولات باكثير، وبدوره الواضح في التجربة الشعرية الجديدة، وإن كانت الشاعرة الكبيرة قد عادت فقصرت التأثير العام والشامل على دورها ودور زميلها السيّاب. وهي، لكي تحقق لنفسها ولزميلها هذا الدور، تضع شروطاً أربعة ينبغي – كما تقول – أن تتوافر لكي تعتبر قصيدة ما أو قصائد، هي بداية هذه الحركة. والشروط الأربعة هي:

١– أن يكون ناظم القصيدة واعياً إلى أنه قد استحدث بقصيدته أسلوباً وزنياً جديداً سيكون مثيراً أشد الإثارة حين يظهر للجمهور.

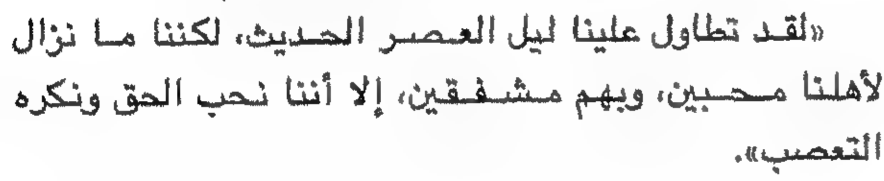
٢– أن يقدم الشاعر قصيدته تلك «أو قصائده» مصحوبة بدعوة إلى الشعراء، يدعوهم فيها إلى استعمال هذا اللون في جرأة، شارحاً الأساس العروضي لما يدعو إليه.

٣– أن تستثير دعوته صدى بعيداً لدى النقاد والقراء، فيضجوا فوراً، سواء أكان ذلك ضجيج إعجاب أم استنكار، ويكتبوا مقالات كبيرة يناقشون فيها هذه الدعوة.

٤– أن يستجيب الشعراء للدعوة، ويبدؤوا فوراً باستعمال اللون الجديد، وتكون الاستجابة على نطاق واسع يشمل العالم العربي كله[٣].

يقول الدكتور المقالح تعقيباً على هذه الشروط: «ولن أتردد عن القول بأن هذه الشروط الأربعة لا تنطبق على أحد من الرواد، أو على من اصطلح على تسميتهم برواد القصيدة الجديدة، كما تنطبق على الشاعر علي أحمد باكثير.. فإن تجربة باكثير رائدة، ومثيرة بكل المقاييس، وتحت كل الشروط».

ويختم الدكتور المقالح مقاله المنصف بقوله الذي نؤمن به ونردده على مسامع الناس، وخاصة المثقفين منهم:



«لقد تطاول علينا ليل العصر الحديث، لكننا ما نزال لأهلنا محبين، وبهم مشفقين، إلا أننا نحب الحق ونكره التعصب».

وكتب الدكتور نذير العظمة مقالاً مهماً حول هذا الموضوع في مجلة الفيصل، في العدد ١٠٧ بعنوان: «علي أحمد باكثير وريادة الشعر الحر» أدعو الدكتور إلى الرجوع إليه وإلى إطروحة الدكتوراه للدكتور العظمة، أو ما نشر منها في اللغة العربية.. جاء في المقال:

«إلا أن ريادة هذا النوع الشعري ليست لنازك الملائكة ولا لبدر شاكر السيّاب كما يعترف هو نفسه في واحدة من مراسلاته لمجلة الآداب عام ١٩٥٤م».

ويقول: «تجربة باكثير تجربة كاملة، رغم أن شرارة البداية فيها كانت ترجمته لرواية «روميو وجولييت» لشكسبير ثم في مسرحيته الشعرية المرسلة الجيدة «إخناتون ونفرتيتي» التي أنجزها بما لا يقل عن عقد من السنين لمحاولات بدر شاكر السيّاب وجيله».

ويخلص الدكتور العظمة إلى القول:

«وعلى هذا، فالتجربة والظاهرة، ظاهرة الشعر الحر كما شاعت، وكان حقاً أن تسمى بالمنطلق، كما ذهب إليه أصل المصطلح بالإنجليزية، وتمسك به السيّاب نقلاً عن باكثير. هذه التجربة واضحة الانتماء إلى بدايات علي أحمد باكثير».

«إذن، فريادة النظام الجديد في بنيته الإيقاعية المولدة لحركة الشعر الحر لم تكن لشعراء العراق أو مصر أو الشام، بل لشاعر من حضرموت».

«نازك الملائكة، رغم أنها في قصيدتها «الكوليرا» أطلقت البحر نفسه «المحدث» الذي أطلقه باكثير في مسرحيته، تزعم بداية مستقلة تبرر اعتقادها أنها مكتشفة ورائدة، والحيدري لا يقول شيئاً، لكن بدر شاكر السيّاب أبكرهم إلى المحاولة والتجربة الجديدة يعترف بفضل باكثير».

ثم يقول:

«هذه التجربة التي كان لها أكبر الأثر في شعرنا العربي الحديث والمعاصر، تمت إذن على يد شاعر حضرمي من الجزيرة العربية ينزل في القاهرة».

والكاتب يشير إلى ما نشره السيّاب في مجلة الآداب، العدد السادس (حزيران ١٩٥٤م):

«وإذا تحرينا الواقع، وجدنا أن الأستاذ علي أحمد باكثير هو أول من كتب على طريقة «الشعر الحر» في ترجمته لرواية شكسبير «روميو وجولييت».

وكتب الأستاذ الناقد كمال النجمي في مجلة «المصور» المصرية، في العدد ٢٢٧٣ تاريخ ٣ أيار (مايو) ١٩٨٦م بمناسبة صدور الطبعة الجديدة من مسرحية «إخناتون ونفرتيتي» وتحت عنوان: «مخترع الشعر الجديد يعيد تسجيل اختراعه»:

«.. فإذا قلنا إن الشعر الجديد له مخترع، وإن هذا المخترع قد سجل اختراعه سنة ١٩٣٨ ثم عاد في سنة ١٩٦٨ فسجل اختراعه مرة ثانية، لكيلا يجرؤ أحد، فيدعي ملكية هذا الاختراع..»، «وتم له – لباكثير– هذا الاختراع منذ ثلاثين عاماً، في هدوء، وبساطة، ولا مبالاة، قبل أن يفكر فيه أو في مثله أحد من شعراء مصر والبلاد العربية كلها..

ثم رأى – باكثير – أن «المخترعين» قد تكاثروا على اختراعه، كلهم يدعيه لنفسه، ويلصق اسمه ولقبه على أبرز مكان منه، فنهض باكثير كالأسد الغيور يدافع عن اختراعه، وأصدر طبعة جديدة من مسرحيته الشعرية «إخناتون ونفرتيتي» أعلن فيها بصراحة لا تدع مجالاً للشك، أنه هو – دون سواه – صاحب هذا الاختراع. بدأ باكثير اختراعه عندما ترجم «روميو وجولييت» لشكسبير شعراً عربياً منذ اثنين وثلاثين عاماً أو أكثر قليلاً..

«ولكن هناك من يقول: لقد سبقه إلى هذه الطريقة جميل صدقي الزهاوي في العراق، ومحمد فريد أبو حديد في مصر.. ويرد باكثير قائلاً:

«إن النظم على طريقة الزهاوي وأبي حديد لا يختلف عن النظم العربي القديم إلا في إرساله من القافية، وإذا اتفق أحياناً أن البيت ليس وحدة من حيث المعنى أو الإعراب فإنه، على أي حال، يكون وحدة مستقلة من حيث النغم الموسيقي، أي أنَّ النظم لا يطرد في بيتين، بل ينقطع عند نهاية البيت الأول، ويبتدئ من جديد في أول البيت التالي.. وهكذا.



عبدالله الطنطاوي

ويؤكد باكثير: «في نظري أن هذه الطريقة الجديدة لم يسبقني إليها أحد».

ويقول باكثير: «هذه مسرحية إخناتون ونفرتيتي.. صارت نقطة انقلاب في تاريخ الشعر العربي الحديث كله، فقد قدر لها أن تكون التجربة الأم فيما شاع اليوم تسميته بالشعر الحر، أو الشعر التفعيلي، وأسميته أنا قديماً الشعر المرسل المنطلق.. تجربة ظهر صداها أول ما ظهر في العراق لدى الشاعرين المجددين الكبيرين: بدر شاكر السيّاب ونازك الملائكة بعد انطلاقها بعشرة أعوام، ثم ما لبث أنْ شاعَ هذا الشعر الجديد في العالم العربي كله».

ويتابع الأستاذ النجمي: «وما زال باكثير يجد في قلبه برداً وسلاماً مما كان يسمعه أو يتلقاه من الشاعر بدر شاكر السيّاب من كلمات تؤكد اعتراف هذا الشاعر المجدد الكبير بسبق باكثير إلى «اختراع» الشعر التفعيلي.. فإن شهادة السيّاب في هذا المقام فوق جميع الشهادات، لأنه الشاعر الذي زعم له كل النقاد تقريباً – وإن لم يزعم لنفسه– أنه (باكثير) الأب الشرعي للشعر التفعيلي بصورته التي نطالعها الآن».

يقول باكثير: «كان الشاعر السيّاب – رحمه الله – يذكر لي هذا السبق في كلمات الإهداء التي كان يخطها على كتبه المهداة إليّ».

– وانظر مقال النجمي في كتاب «علي أحمد باكثير في مرآة عصره» تأليف الدكتور محمد أبو بكر حميد ص ١٠٦ – ١٠٧ – ١٠٨، وهو بعنوان: «الحضرمي الأندونيسي شاعر المسرح المصري» ففيه شفاء لصدور الباحثين عن الحقيقة.

وكذلك ما كتبه الأستاذ أحمد فضل شبلول في مجلة

«إبداع» اللبنانية – العدد ٢٨٧٧ بتاريخ ١٩٩٤/١١/٨م تحت عنوان: «علي أحمد باكثير ابتكر الشعر الحر، ثم انصرف إلى النثر».

ويقول الدكتور محمد عبد المنعم خاطر في مقاله «علي أحمد باكثير وبداية الشعر الحر: «إخناتون ونفرتيتي» المنشور في مجلة (الكاتب) العدد ٢٠٦ مايو ١٩٧٨م .

«وفي هذه الدراسة نعرض لإخناتون ونفرتيتي وللون آخر يعتبر امتداداً للشعر المرسل، وتطويراً له، هو الشعر الحر. ونتفق هنا مع باكثير في ريادته لهذا اللون، تلك الريادة التي سبقت زمنها بعشر سنوات على الأقل، سبقت محاولات بدر شاكر السيّاب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وغيرهم من الشعراء المجددين، وفي سبيل ذلك، قمنا بتحليل واف عن أول عمل من هذا اللون هو مسرحية «إخناتون ونفرتيتي».

وقال الأستاذ محمد الحسناوي في كتابه القيم: (الفاصلة في القرآن ص ٣٦٨): «إن الأديب الكبير علي أحمد باكثير تلميذ نابه من تلامذة القرآن الكريم، يشهد له بذلك أدبه الإسلامي الضخم في المسرح والرواية والشعر، كما يشهد له نقاده، وهو رائد الشعر الجديد بلا منازع، فقد ترجم مسرحية «روميو وجولييت» على شكل الشعر الجديد عام ١٩٣٥م ثم كتب بعدها مسرحية «إخناتون ونفرتيتي» على الشكل نفسه عام ١٩٣٨م قبل أن يعرف أي من أعلام هذا الشعر كنازك الملائكة».

والدكتور عبد القادر القط في محاضرته التي ألقاها بمقر «جمعية محبي الفنون الجميلة» في القاهرة، فجر مفاجأة كبيرة إذ اتهم كلاً من الشاعرة نازك الملائكة والشاعر بدر شاكر السياب بالتقليدية والسباحة في أمواج الرومانسية، وبأنهما لم يأتيا بالجديد الذي يجعل منهما رائدين لشعر التفعيلة.. ثم قال: «أما علي أحمد باكثير فقد سبق إلى الشعر الحر، مقدماً لمسرحيته «إخناتون ونفرتيتي» بما أسماه «النظم المرسل».

ويتابع الدكتور القط: ويقول في تقديمه لهذه المسرحية: «لما ترجمت «روميو وجولييت» استعملت هذا النظم المرسل المنطلق كما عليه الأصل، إذ اهتديت إلى أنه الأصلح لترجمة شكسبير إلى العربية، وقد وجدت أن البحور التي يمكن استعمالها على هذه الطريقة، هي البحور التي تفعيلاتها واحدة مكررة، ثم لاحظت أن أصل هذه البحور هو المتدارك، فالتزمته في ترجمة هذه المسرحية، وهو أيضاً الأساس الذي اعتمد عليه الشعراء المحدثون رواد الشعر الحر في اجتراحهم للنوع الجديد من الشعر» (٤).

وانظر ما كتبه الدكتور محمد أبو بكر حميد في الحلقة الثالثة بجريدة الشرق الأوسط اللندنية عدد ٥٨١٨ بتاريخ ١٩٩٤/١١/١٢م، تحت عنوان: «علي أحمد باكثير بين خذلان اليمين وحرب اليسار.. سنوات الانتشار والازدهار» ففيه القول الفصل في ريادة باكثير.

– وكذلك أقر له بالريادة الأستاذ عباس خضر في مجلة «الثقافة» القاهرية (٥٢/٤) يناير ١٩٧٨م - ص ٤٠ وكتاب «علي أحمد باكثير في مرآة عصره» للدكتور محمد أبو بكر حميد ص ٦٢.

– وكذلك الدكتور محمد أبو بكر حميد في مقاله في مجلة الفيصل العدد ١٦٨.

– وكذلك الأستاذ عبد الحكيم الزبيدي في مقاله «فلسطين في شعر باكثير» المنشور في مجلة «فلسطين المسلمة» عدد آب ١٩٩١م.

– وكذلك الأستاذ محمد الحسناوي في كتابه «في الأدب والأدب الإسلامي . ص ٢٦٣».

– وانظر مقال الدكتور عبده بدوي الموسوم بـ«التجديد العروضي عند علي أحمد باكثير المنشور في المجلة العربية العدد ٢١١ يناير ١٩٩٥م.

– وكذلك ما كتبه الأستاذ حسن محمد كتبي في مقاله «باكثير وذكرياته في الطائف» في كتاب: «علي أحمد باكثير في مرآة عصره» تأليف الدكتور محمد أبو بكر حميد ص ١٩.

– وكذلك ما كتبه الأستاذ أنور الجندي في كتاب الدكتور محمد أبو بكر حميد ص ٥٧.

– وما قاله الأستاذ الأديب الإعلامي فاروق خورشيد في الكتاب آنف الذكر ص ٩٦.

– وانظر كتاب:

«اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير» تأليف الدكتور عدنان محمد وزان ص ١٤٢ و ١٥٠.

وانظر مقدمة ديوان: «أزهار الرُّبى في شعر الصبا» لباكثير. تحقيق وتقديم الدكتور محمد أبو بكر حميد: ص ١٥.

وما كتبه الدكتور أحمد عبد الله السومحي في كتابه: «علي أحمد باكثير حياته.. شعره الوطني والإسلامي ص ٦٧.

وانظر ما كتبته الباحثة الدكتورة مديحة عواد سلامة في رسالة الماجستير بعنوان: «مسرح علي أحمد باكثير – دراسة نقدية. بإشراف الدكتورة: سهير القلماوي.

وانظر ما كتبه الأستاذ أحمد الجدع في كتابه: «علي أحمد باكثير شاعر من حضرموت» ص ١٤ و ١٧ – ٢٩.

– وكذلك ما كتبه الدكتور محمد صالح الشنطي في كتابه القيم: «في الأدب الإسلامي: ٤٢١».

– وكذلك الأستاذ محمد بركة في مقاله المعنون بـ« علي أحمد باكثير.. أديب كتب تحت راية القرآن» المنشور في جريدة الشرق، بتاريخ ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩م. فقد اعتبر تجربة باكثير في ترجمة «روميو وجولييت» أول تجربة في الشعر

المرسل، ثم في «إخناتون ونفرتيتي».

- استنكر الدكتور محمد أبو بكر حميد إنكار «الآخرين» ريادة باكثير للشعر الحر. في مقاله «ثلاثة أدباء عرب قتلهم النقاد في حياتهم»[5].

- اعترف المحرر الأدبي في مجلة الطليعة القاهرية في مقاله «باكثير من الريادة إلى الانتكاس» في العدد ١٢ السنة الخامسة عدد ديسمبر ١٩٦٩م اعترف بريادة باكثير للشعر الحر، وقال: «ولم تقتصر محاولة باكثير في تجديد الشكل الشعري على الترجمة فحسب، بل أعاد المحاولة في مسرحية كاملة من تأليفه هي «نفرتيتي وإخناتون» اسمها الصحيح: «إخناتون ونفرتيتي»، ولم يكن التجديد الشعري الخالص هو «تجربة» باكثير في هذه المسرحية وغيرها، وإنما كان تجديداً لروح المسرح الشعري الذي توقف عند شوقي وعزيز أباظة».

- ويقول الأستاذ إبراهيم الأزهري في مجلة الطليعة القاهرية، في العدد الثاني (فبراير ١٩٧٠م): «ومن هنا يمكن القول بأن باكثير - رغم عملية التجهيل السائدة في هذا المجال - هو المجدد الحقيقي للشعر العربي، ذلك لأنه بضربة واحدة استطاع أن يصل إلى التفعيلة الواحدة، وأن يكتب بإمكانياتها الغزيرة».

وقد جمع الدكتور محمد أبو بكر حميد عدداً من المقابلات التي أجريت مع باكثير وحققها، وعلق عليها في كتابه «علي أحمد باكثير من أحلام حضرموت إلى هموم القاهرة»، وفيه الكثير مما يمكن الاستشهاد به في هذا المقام، كقول الأديب الإعلامي الشاعر المبدع فاروق شوشة سائلاً باكثير عبر إذاعة البرنامج الثاني في القاهرة في ١٩٦٦/١١/٥م: «في الحقيقة - أستاذ باكثير - يمكن أن تكون التجربة الأهم هي مسرحية «إخناتون ونفرتيتي» التي يؤرخ بها بداية حركة الشعر الحديث في الأدب العربي، لأنها تعد أول كتابة عربية بالشعر الحر»ص ١٣٣.

وعدّ الأستاذ شوشة كتابة إخناتون ونفرتيتي بالشعر التفعيلي قد فتحت أفقاً كبيراً في الشعر العربي، وأفقاً كبيراً في المسرح الشعري العربي. (نفسه: ١٣٧).

وكذلك كان رأي الأستاذ شوشة في المقابلة التلفزيونية مع باكثير في تلفزيون الكويت في ١٩٦٩/٤/٦م.

وجواباً لسؤال الدكتور نجم عبد الكريم في إذاعة الكويت في ١٩٦٨/٦/١٠م: «إن ترجمتك لمسرحية «روميو وجولييت» وترجمة المرحوم محمد فريد أبو حديد لمسرحية «ماكبث» لشكسبير بالشعر المرسل كانت من أهم الإرهاصات التي سبقت حركة الشعر الحديث المتحرر من القافية والكثير من الأوزان والقيود. لماذا هذا النمط من الشعر؟».

أجابه باكثير: «يجب التفرقة بين ما حاولته أنا في الشعر الحر، أو الشعر المرسل، وبين ما حاوله المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

الأستاذ محمد فريد أبو حديد كان من أوائل الناس الذين جربوا هذا النوع من الشعر، ولكن تجربته تختلف عن التجربة التي قمت بها - بعده - بكثير. التجربة التي قام بها هي أنه أرسل الشعر من القافية ولكنه التزم حدود الشعر القديم. كل ما هنالك أنه أرسل الشعر من القافية، أما الذي قمت به، فهو التجربة الأم لهذا الشعر المرسل أو الشعر الحر الذي انتشر فيما بعد في العالم العربي، واحتذاه أول من احتذاه الأستاذ بدر شاكر السيّاب ونازك الملائكة» ص ١٦٤.



د. محمد أبو بكر حميد

حشدت كل هذه الاستشهادات إرضاء لخاطر الدكتور، حتى تهدأ بلابله، حين يعلم أن هناك مقالات ودراسات كثيرة، وهي أخوات لمقالي «يتيم دهره».. كلها أثبتت الريادة للشاعر والمسرحي والروائي الحضرمي الكبير علي أحمد باكثير وليست لسواه من شعراء العربية في العراق غيره..

نم قرير العين يا دكتور! ودع عنك التعصب لهذا وذاك من شعراء العراق، فالحق أحق أن يتبع، كما تعلم..

وأخيراً أحب أن أذكر نفسي ومن يشاء أن يتذكر قول الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي- رحمه الله:

«والثواب وحده الذي يبقى، على حين يفنى الإعجاب، وتذهب الأموال، ويعود إلى التراب ما خرج من التراب، ولدعوة واحدة لي بعد موتي، من قارئ حاضر القلب مع الله، أجدى علي من مئة مقالة في رثائي، ومئة حفلة في تأبيني، لأن هذه الدعوة لي، أنا، والمقالات والحفلات لكتّابها وخطبائها، وليس لي فيها شيء، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وأسألك حسن الخاتمة والوفاة على الإيمان».■

الهوامش:

(١) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر: ٥٨.

(٢) باكثير: إخناتون ونفرتيتي: ط ٢ - ص ١٣.

(٣) قضايا الشعر المعاصر: ١٦.

(٤) جريدة «المدينة المنورة» بتاريخ ١٤٢١/١/٢٨هـ.

(٥) جريدة الخليج، في ١٩٨٨/١٠/٢م.

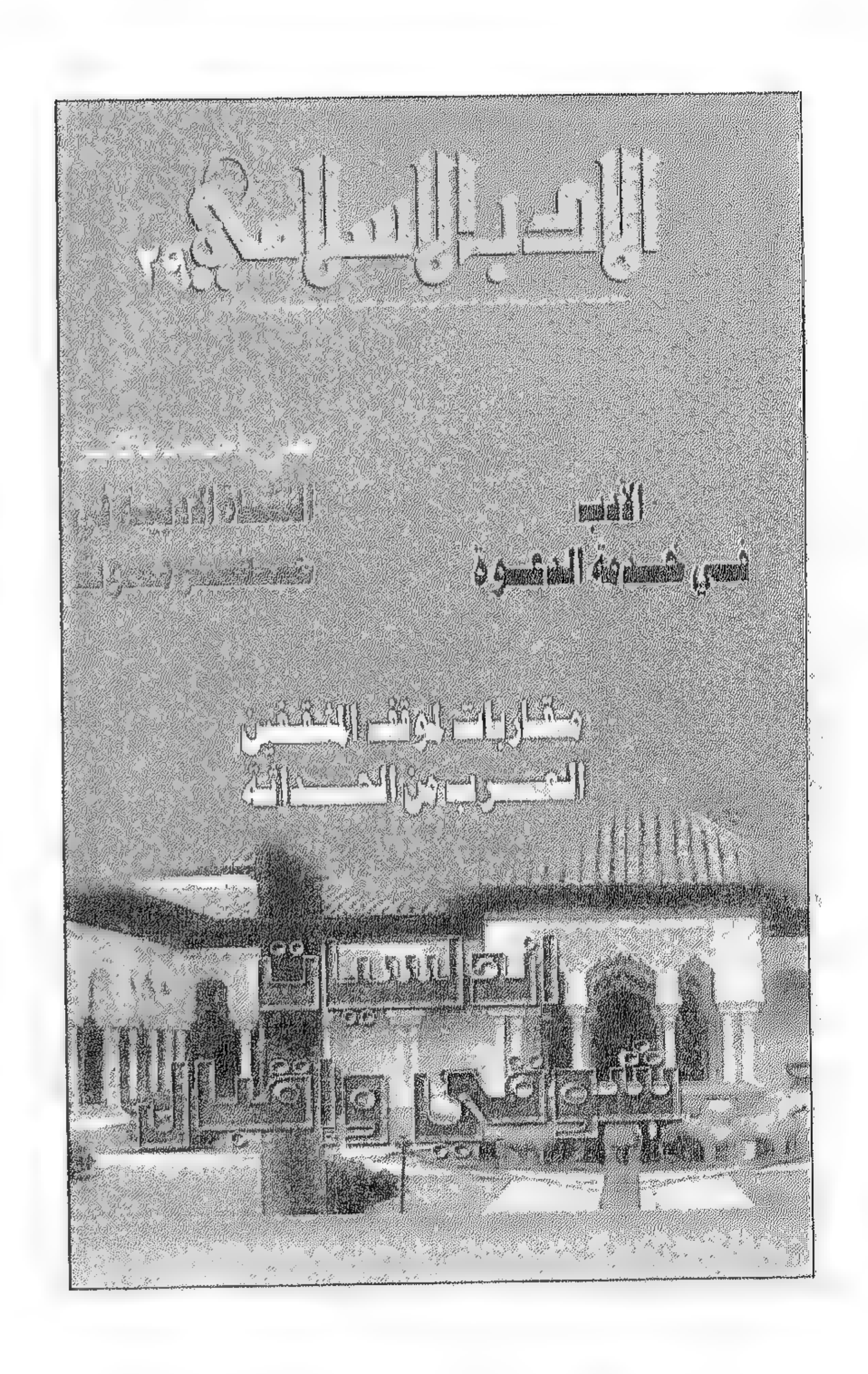
نشرنا في العدد (٢٩) من مجلة الأدب الإسلامي دراسة مقارنة بين أندلسيات شوقي وإقبال للدكتور عبدالماجد الكشميري، عقب عليها في العدد (٣٢) الأستاذ صلاح حسن رشيد بمقالٍ اتهم فيه الدكتور عبدالماجد بأن مقاله مأخوذ من كتاب الدكتور حسين مجيب المصري (الأندلس بين شوقي وإقبال).

وقد رفض عدد من النقاد والباحثين المختصين في دراسات آداب الشعوب الإسلامية المقارنة هذا (الاتهام)، وقدموا الأدلة على بطلانه، وفيما يلي ثلاثة ردود وصلت إلى المجلة في وقت واحد، نضعها جميعاً بين يدي القراء ونأمل أن يجدوا فيها الفائدة والقول الفصل.

التحرير

ثلاثة ردود حول:

أندلسيات شوقي وإقبال



الكشميري:

ما كتبه صلاح رشيد إساءة للعرب الذين نعتبرهم قدوة في أدب الخلاف.

جابر قميحة:

الكشميري أستاذ في ترجمة إقبال وليس بحاجة إلى وسيط ينقل منه أو عنه.

سمير عبدالحميد:

الكشميري علامة وأستاذ جليل، وفرق كبير بين دراسته وكتاب المصري.

رد الدكتور عبدالماجد الكشميري على صلاح حسن رشيد:

تعليق صلاح حسن رشيد حول مقالي أندلسيات شوقي وإقبال تهمة مردودة لجهله حقيقة الموضوع

بقلم: د. عبدالماجد الكشميري*

بالإشارة إلى تعليق السيد صلاح حسن رشيد المنشور في مجلة الأدب الإسلامي العدد ٣٢ في فصل «ردود ومناقشات» بعنوان « مقال شوقي وإقبال في العدد ٢٩ مأخوذ من كتاب الدكتور حسين مجيب المصري بنفس الاسم» أود أن أتناول بعض النقاط التي أثارها الكاتب بالدراسة والتحليل حتى تستبين الحقيقة.

فمن الناحية المنهجية سوف نترك مجال البت والفصل للقراء الأفاضل الذين سنحتكم إلى وعيهم وثقافتهم. ومن المناسب كذلك أن أشير إلى أنني قد أعددت دراستي تلك حول أندلسيات شوقي و إقبال وقدمتها في مؤتمر دولي حول الأدب المقارن بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كراه الإسلامية في فبراير ١٩٩٨، وقد أرسلته للنشر بمجلة الأدب الإسلامي وبقيت قيد الدراسة لدى التحرير زمناً طويلاً حتى يئست من نشره إلى أن تم نشره في العدد ٢٩ من المجلة الغراء فشكراً لهيئة تحرير المجلة على هذا التكريم والتشجيع.

---

* الجامعة الملية الإسلامية - نيودلهي - الهند.

لم اطلع على كتاب المصري

وكذلك لا أتعدى السياق إذا اعترفت أن كتاب الأستاذ الكبير الدكتور حسين مجيب المصري حول الأندلس وإقبال وشوقي الذي أشار إليه الأخ الفاضل صلاح حسن رشيد – لم أسمع به ولم أره ولم أطلع على وجوده إلا من خلال تعليق الأخ الفاضل، وقد أشار إلى أنه طبع قبل عامين في القاهرة، وكما أسلفت في البداية أنني انتهيت من تحضير هذه الدراسة في فبراير ١٩٩٨م فلا بد أن الكتاب المذكور قد صدر بعد مدة لا بأس بها من مجيء دراستي إلى حيز الوجود. والمثقفون يقدرون ويعرفون أن آلاف الكتب تصدر في العالم العربي ولا يصل منها إلى بلادنا البعيدة عن العربية والعروبة إلا القليل النادر جداً. والحقيقة أنني لم أكن سمعت باسم الأستاذ الكبيرالدكتور حسين مجيب المصري عندما قمت بإعداد تلك الدراسة، وقد قرأت اسمه لأول مرة في السنة الماضية عندما بدأت التحضير لكتابة مقال حول كتاب « روائع إقبال » للشيخ الندوي رحمه الله، واطلعت على أن له أعمالاً وترجمات لمؤلفات الدكتور إقبال، وذلك من خلال بحث للأستاذ الدكتور محمد اجتباء الندوي باللغة الأوردية، إلا أن معرفتي به لم تتجاوز من الاسم إلى الرسم، ولم أستطع الحصول على أي كتاب له إلى هذا اليوم.

وقد كان هذا التعليق أثار فضولي واشتياقي لكتابه وبحثت عنه في مكتبات دلهي واستفسرت أساتذة اللغة العربية والمثقفين المعنيين بالدراسات العربية والمقارنة فلم أجد هذا الكتاب، ولا كتاباً آخرللمؤلف عند أحد من هؤلاء. وقصدي وراء الخوض في هذه التفاصيل هو بيان قلة حظي بفرصة الاستفادة من مؤلفات الأستاذ حسين مجيب المصري، وكذلك بيان براءتي من تهمة السرقة والانتحال والسطو، لأنها تهمة لا أساس لها من الواقع ولا حظ لها من الصحة ولا تستند إلى دليل، فهي لذلك مردودة على صاحبها.

وقد قرأت تعليق الأخ الفاضل صلاح حسن رشيد من أوله إلى آخره عدة مرات لأعرف سبب امتعاضه وانفعاله الشديد ولجوئه إلى هذا الأسلوب الذي لم نعهده لدى المثقفين العرب من التسرع إلى إصدار الأحكام الطائشة. وقد وجدت في السطور وما بينها ما يدل على أن ذلك يرجع لأسباب يمكن استخلاصها في النقاط التالية:

أولاً: قلة معرفته بالموضوع المطروح، فكل من له أدنى إلمام بالموضوع (أندلسيات شوقي وإقبال) يدرك حتى بدون القراءة المتأنية في هذا التعليق أن صاحبه يرسل الحديث جزافاً ويعالج محتوى الدراسة رجماً بالغيب دون الاطلاع على المادة الأساسية التي تناولتها دراستي. وقد وشت بعض عباراته دلالة مَرة وصراحة أخرى أنه يدلي برأيه في موضوع لا يعرف أبجدياته، ومعروف أن الدارس الذي يخوض مجالاً ليس من رجاله يأتي بالمعجزات والأعاجيب، وإليكم بعض هذه المعجزات:



ردود ومناقشات

دراسة مقارنة

أندلسيات شوقي وإقبال

مقال « أندلسيات شوقي وإقبال » في العدد ٢٩ مأخوذ من كتاب للدكتور حسين مجيب المصري بنفس الاسم !!

صلاح حسن رشيد

– مصر –

٨٠

يقول الأخ الفاضل«.....حتى إن الموضوعات التي عقد الدكتور حسين المقارنة بينهما هي هي بلحمتها وسداها عند الدكتور عبد الماجد تدل بنفسها على صاحبها وعلى اقتفائه أثر الدكتور حسين في موضوعاته داخل الكتاب وتقسيماته المتشعبة وموازناته بين أشعارهما».

أبعاد الموضوع وملابساته

تفادياً من الارتباك والشرود نحن هنا في حاجة إلى أن نطلع على أبعاد الموضوع وملابساته التي اقتصرت فيها دراستي حسب ما تفرض علينا المنطقية والمنهجية، فإن أندلسيات شوقي عبارة عن القصائد التي قرضها شوقي في إسبانيا خلال منفاه أو بعد عودته، منها ما تناول فيها – بصفة أساسية – أيام إقامته بها أو انطباعاته حولها والدروس والعبر التي تلقنها بوحي الظروف والآثار والتاريخ. وعدد هذه القصائدأربع فقط وهي:

١– الرحلة إلى الأندلس.

٢ – أندلسية.

٣- صقر قريش.
٤ - بعد المنفى.

بينما المنظومات التي جادت بها قريحة إقبال خلال رحلته إلى إسبانيا هي ست :

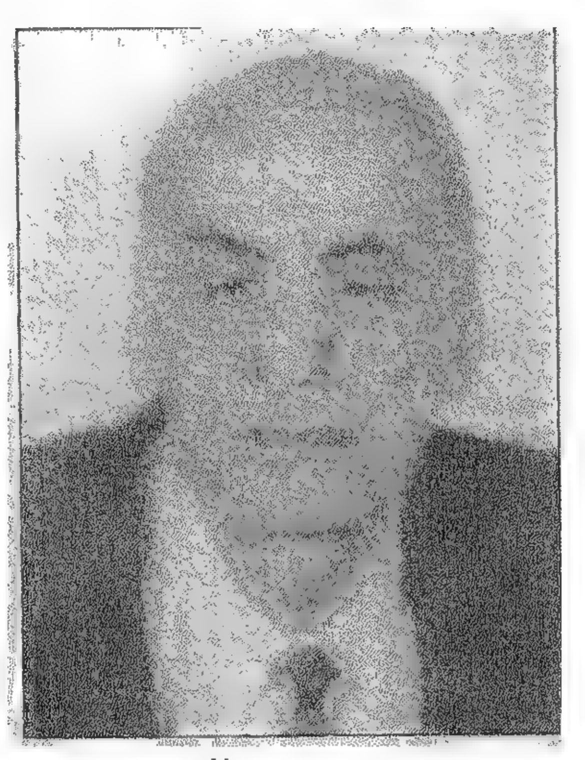
١- مسجد قرطبة وهي أطولها.
٢ - الدعاء.
٣- إسبانيا.
٤- شكوى الشاعر المعتمد بن عباد.
٥- مناجاة بين عبدالرحمن الداخل ونخلته.
٦- دعاء طارق بن زياد في ميدان المعركة.

وغني عن البيان أنه إذا كان موضوع دراستي تلك هو المقارنة بين القصائد الأندلسية لشوقي الموجودة في ديوانه «الشوقيات» وبين منظومات إقبال حول الأندلس الموجودة في ديوانه «بال جبريل» باللغة الأوردية فلا بد أن يتناول الحديث محتويات هذه القصائد ويتعرض للموافقات التي توجد فيها ويستعرض الفروق التي تنطوي عليها، ودراستي لا تخرج قيد شعرة من إطار هذه المادة، فكلها مستفادة ومستلهمة من «الشوقيات» ومن «بال جبريل» ولم آخذ ولم أستعر كلمة واحدة من أحد غيرهما. والمجال مفتوح لاختبار صحة هذه الدعوى بالرجوع إلى مصدري دراستي للتحقيق والمقارنة والمقابلة، وسوف يستكشف الدارس أن مهمتي في تلك الدراسة المتواضعة لم تتعد التنصيص على هذه المواضع واستخلاص بعض النتائج البادية الرأي، وأنني لم آخذ ولم أستعر من أحد غير شوقي وإقبال.

فإذا كان أحد غيري تناول نفس المادة، ودرس المصدرين، وقارن بينهما فسوف يصل إلى النتائج المتقاربة أو المتشابهة، أو نفسها. ولا يستلزم هذا بالضرورة أن أحداً من الباحثين أخذ من الآخر أو «سطا» أو «تعدى» كما تفضل الأخ الفاضل، وخاصة إذا كانت بينهما مسافات تتخللها البحار والجبال والصحارى، وكانا في قارتين مختلفتين لغة وثقافة، ولذلك فإن التشابه أو التقارب أو التوارد الذي اعتبره الأخ الفاضل أخذا غير مشروع هو ليس كما ظن وادعى لسبب أن دراستي ودراسة الأستاذ حسين المصري تعتمدان على المادة المرجعية نفسها، وتدوران حول نقطة واحدة من مصدر واحد، وينعكس هذا المصدر في الدراستين بصورة وضاءة.

ولمزيد من تبسيط هذه القضية على المستوى النظري والعملي نأخذ على سبيل المثال شعر النقائض بين جرير والفرزدق، يقوم بدراسته وتحليله ومقارنته باحث في مصر، كما يتناول الموضوع طالب هندي ويركز جهوده في دراسة أدبية في إطار الموضوع، فهل يعد عمله هذا أخذاً أو ابتساراً أو اقتباساً من عمل نظيره المصري - ولا يغرب من البال أن الأول لم يطلع على نتائج بحث الأخير-؟ فإذا كان الجواب نعم، فتاريخ الأدب العربي والنقد الأدبي كله «أخذ» و «ابتسار» و «تعد» و«سطو»، والعقل لا يقبل هذا.

وأما إذا أوَّلنا ملاحظات الأخ الفاضل بأنه يقصد بها بيان أنه إذا تناول باحث موضوعاً ما وخصه للبحث والدراسة، وكتب فيه شيئاً فإن هذا الموضوع قد أصبح ملكه الخاص، ولا يجوز لأحد أن يعالجه، ويخوض فيه، أو يتعدى عليه، فإنه إذا فعل ذلك فإنه سوف يعتبر متعدياً ويواجه حراساً مثل الأخ صلاح حسن رشيد مدججين بسلاح السلاطة والطيش- فلا تقبل هذه الإقطاعية العلمية كذلك، لأن المواضيع الأدبية أو الفكرية ليست حكراً على شخص أو أشخاص مهما كانت مكانتهم، ولم نسمع بقانون اتخذته مجالس التشريع في أي بلد من العالم المتحضر يقر منح البراءات لأشخاص معينين للحديث في مواضيع أدبية أو فكرية معينة.


د . حسين مجيب المصري

بين مسجد قرطبة وقصر الحمراء

والدليل الآخر الذي يشهد بقلة معرفة الأخ الفاضل بحقيقة الموضوع ومادته المرجعية أنه يقول «لقد تحدث الدكتور حسين مجيب المصري عن تناول إقبال لمسجد قرطبة وانبهاره به فقط بدلاً من قصر الحمراء وهو نفس الأمر الذي تناوله د. عبدالماجد بنفس الأسلوب والفكرة والعرض».

هنا اتضح تماماً أن الأخ الفاضل لا يعرف شيئاً عن المواضيع التي تناولها إقبال في منظوماته الأندلسية. إن إقبال لم يتحدث عن قصر الحمراء فكيف أدعي في دراستي أنه تحدث عنها، أو أحمل قصائده من المعاني التي لا تحتملها. فكيف يستدل بهذا على أنني اقتبست هذا من كتاب الأستاذ حسين المصري. هذا افتراء لا يستند إلى دليل، بل الحقيقة أن كلاً منا اقتبس من المصدر الواحد وهو إقبال. وبهذا يبدو أن الأخ صلاحاً سمع أشياء لم يستوعبها إحاطة وفهماً واختلطت عليه لقلة اطلاعه على حقيقتها،

وأسرع إلى الحكم فيها قبل الدراسة المتأنية في مصادرها الأولية. وقد بلغ الأخ ذروته في براءته الصبيانية وتطفله البالغ عندما لاحظ «.... أن كتابة إقبال عن جامع قرطبة كان شعراً في حين كان نثراً عند الدكتور عبدالماجد، لكن هذا لا يمنع أن جوهر المضمون واحد بين الرجلين». الأخ الفاضل يدعي أن الفرق بيني وبين الدكتور حسين المصري هو أن إقبالاً يتحدث عن جامع قرطبة شعراً، وتحدثت عنه نثراً، فهل يعد هذا شيئاً بيني وبين الدكتور حسين المصري أم بيني وبين إقبال ؟! ثم قوله « لكن هذا لا يمنع أن جوهر المضمون واحد بين الرجلين» أي بيني وبين إقبال، أليس هذا مما يرثى عليه.

إن الكاتب الفاضل لا يعرف أن إقبال لم يقرض الشعر بالعربية، و أن قصيدته حول مسجد قرطبة هي باللغة الأوردية وأن النثر الذي يقارن بينه وبين شعر إقبال هو ليس انتحالاً أو اقتباساً بل هو ترجمة وليس شيئاً آخر. أما تعقيبه هذا بقوله: « إن الندوي سطا على كتابات الدكتور حسين مجيب المصري » أليس هذا تحاملاً جاهراً وخروجاً عن الموضوع وتكراراً للافتراء والتهمة المكذوبة. مفاد حديثه أن الشاعر إقبالاً تحدث عن مسجد قرطبة شعراً، وتحدثت عنه نثراً فلذلك يعد عملي سطواً على كتابات الدكتور حسين المصري.

ومما يؤكد جهله المطلق بحقيقة الموضوع قوله: « حتى في حديثه عن تأثر شوقي بآثار الأندلس العظيمة ووقوفه أمام أطلالها وأمجادها الباقية، وإحساسه بعظمة الماضي وحسرة الحاضر، كذلك في تعلق إقبال بالروحانيات ورؤيته للمظاهر على أنها جواهر، كل هذا مأخوذ بنصه من كلام الدكتور حسين المصري».

أقول، لم تتناول دراستي إلا ما ورد عند شوقي وإقبال في قصائدهما وما تضمنت هذه القصائد من الدروس والانطباعات. ولم يكن دوري فيها إلا تناولها بالتفسير والمقارنة والوقوف ببعض النقاط المستلهمة من هذه القصائد فلا ينشأ هنا سؤال الأخذ أو الاقتباس من أحد. وأنا متأكد من أن الأستاذ حسين مجيب المصري في كتابه الذي أشار إليه الأخ الفاضل – ولم أطلع عليه – قد ركز على هذه القصائد واستخلص منها النتائج، فأنا والدكتور حسين مجيب المصري استقينا مادتنا من مصدر واحد، ومن المعقول بل من اللازم – إذا كان مجال جهودنا واحداً بتناولنا نفس القصائد بالدراسة والتحليل والمقارنة – أن يكون هناك تقارب أو توارد وحتى التوافق في أشياء كثيرة – على أن الأسلوب يجب أن يكون مختلفاً لأن لكل كاتب أسلوبه الذي يخصه، فكيف استلزم أنني أخذت مقالي « كله بنصه» من كتابه، وأين الدليل الذي يؤيد ادعاءه، ألم يكن بإمكان الأخ أن يثبت عظمة مكانة الدكتور حسين مجيب المصري والإشادة بجلائل أعماله إلا بالنيل من كرامة عجمي يتجرأ على الكتابة باللغة العربية، وهل تستلزم جلالة شأن كاتب وتقدمه في مجال البحث والعلم استهانة الآخرين الذين يبذلون جهوداً متواضعة في المجالات ذاتها حسب مقدراتهم وكفاءاتهم؟.

ورغم احترامي وتقديري للأستاذ حسين مجيب المصري وأعماله الجليلة أرى من المناسب أن أشير إلى جانب آخر من القضية، وهو أن دواوين إقبال الشعرية كلها إما بالفارسية أو بالأوردية، والموضوع المطروح على طاولة البحث يتناول ديوانه الأوردي «بال جبريل»، وبالنسبة لي ليست هناك حاجة إلى وسيط عربي لاستيعابها والاطلاع على أسرارها بحكم التفاهم و الوحدة الذوقية والانسجام الطبيعي الذي يحصل بصفة تلقائية بين أفراد أسرة لغوية واحدة.

حبذا لو كان الأخ الفاضل قدم على وجه الحصر والتخصيص شيئا مما أخذته من كتاب الدكتور حسين مجيب المصري سواء كان معلومة أو فكرة أو جملة أو عبارة، لأنه لو كان خص شيئاً ونص عليه لكان ذلك استيفاء لمتطلب أساسي من الأمانة العلمية والموضوعية. لكنه أحب أن يعزف على وتر واحد من تهمة السطو والتعدي والأخذ والاقتباس لضيق أفقه وضآلة معرفته بالموضوع.

بين جهله لإقبال وإهماله لشوقي

ولنتقدم خطوة أخرى لاستعراض الجزء المتبقي من تعليق أخينا الفاضل حيث جمع فيه شواهد كثيرة على جهله بأعمال الشاعر إقبال – وله العذر في ذلك لأنها أصلاً باللغة الأوردية والفارسية– وكذلك أعمال أحمد شوقي – ولا نعذره في ذلك، لأن الشوقيات كانت في متناول يده. فمن الشواهد التي تدل دلالة واضحة على جهله بأبجديات المادة المرجعية (قصائد شوقي وإقبال) قوله: « وفي المقال المذكور كذلك تحدث الدكتور عبدالماجد عن قصيدة إقبال التي خصصها لصقر قريش ولنخلته التي ذكرته بماضيه السعيد، وحنينه الدافق تجاه بلاد الآباء والأجداد، القصة بحذافيرها هي هي مع اختلاف في الألفاظ والعبارات لكن يبقى المضمون واحدا بين الرجلين» طبعاً يبقى المضمون واحداً لأن الحديث يدور حول موضوع واحد بالتركيز على نصوص شعرية معينة، حديثي كان عن تحديد محتويات هذه المنظومة الصغيرة التي تتكون من عشرة أبيات فقط فإذا درسها باحث آخر وتناول سرد أغراض المنظومة بالذات فهل تتغير محتوياتها عنده؟ فإذا ذكرت النخلة التي تحدث عنها إقبال وأطلقت عليها تسمية النخلة، وذكرت عبدالرحمن الداخل الذي ذكره إقبال، وذكرت الحنين إلى الوطن الذي تضمنته هذه القصيدة، ثم يأتي باحث آخر يتناول نفس هذه القصيدة بالدراسة والتفسير فيذكر النخلة ويذكر عبدالرحمن الداخل والحنين إلى الوطن فهل يسمي الأشياء تسمية أخرى؟ وهل نقول: إن القصة بحذافيرها هي هي وهي مأخوذة ؟ أم كلاهما مأخوذان من مصدر واحد ويدوران حول أصل واحد وموضوع واحد؟ العقل يعتبره ظاهرة وحدة الموضوع، فأية تسمية نختارها يا ترى؟

ويقول الأخ الفاضل « وأيضاً في حديث شوقي عن مأساة المسلمين في أدرنة بالبلقان.... نجد د. عبدالماجد يتحدث بنفس المنطق والروح عند الدكتور حسين مجيب المصري بلا إضافة»، منشأ هذا السؤال هو نفس المنهج الذي مشى عليه الأخ من التطاول رغم التطفل وقلة المعرفة. كان الاعتراض واردا لو خرجت دراستي عن إطار المعاني التي تضمنتها قصائد شوقي، وألحقت بها شيئاً من عندي وعزوته إلى الشاعر، فإذا تحدثت بما في هذه القصائد بدون نقص أو زيادة، وتحدث باحث آخر كذلك في المعاني التي جاءت في القصائد نفسها، فالمنطق يحتم علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها، ونعتبر هذا الاتفاق ناتجاً من وحدة المصدر ووحدة الموضوع، وكل منا – أنا والأستاذ الكبير– اقتبس من شوقي، فلا غرو أن يتشابه ويتوارد شيء كثير في دراساتنا.

وهناك ركيزة أخرى في سياق حديثنا عن شعر إقبال، ولها أهمية مبدئية في نقد وتقويم الدراسات حول شعره والتي تجاوز عددها ألفين بمختلف اللغات العالمية. وهي أن شعر إقبال قد بلغ في التماسك الفني والوضوح الفكري مكاناً يصعب على الباحثين سلوك شتى المناحي في تعبيره وتأويله، ولا يرخي جبروت عبقريته الشعرية زمام الدارس إرخاء يبعده عن نقطة تركيزه، فلذلك لا يبقى هناك مجال لضروب القول للباحثين. فلو كان هناك خمسون محاولة أخرى في الموضوع الذي تناوله الدكتور حسين مجيب المصري لكانت كلها خاضعة لهذه الظاهرة.

العرب قوم يقرؤون

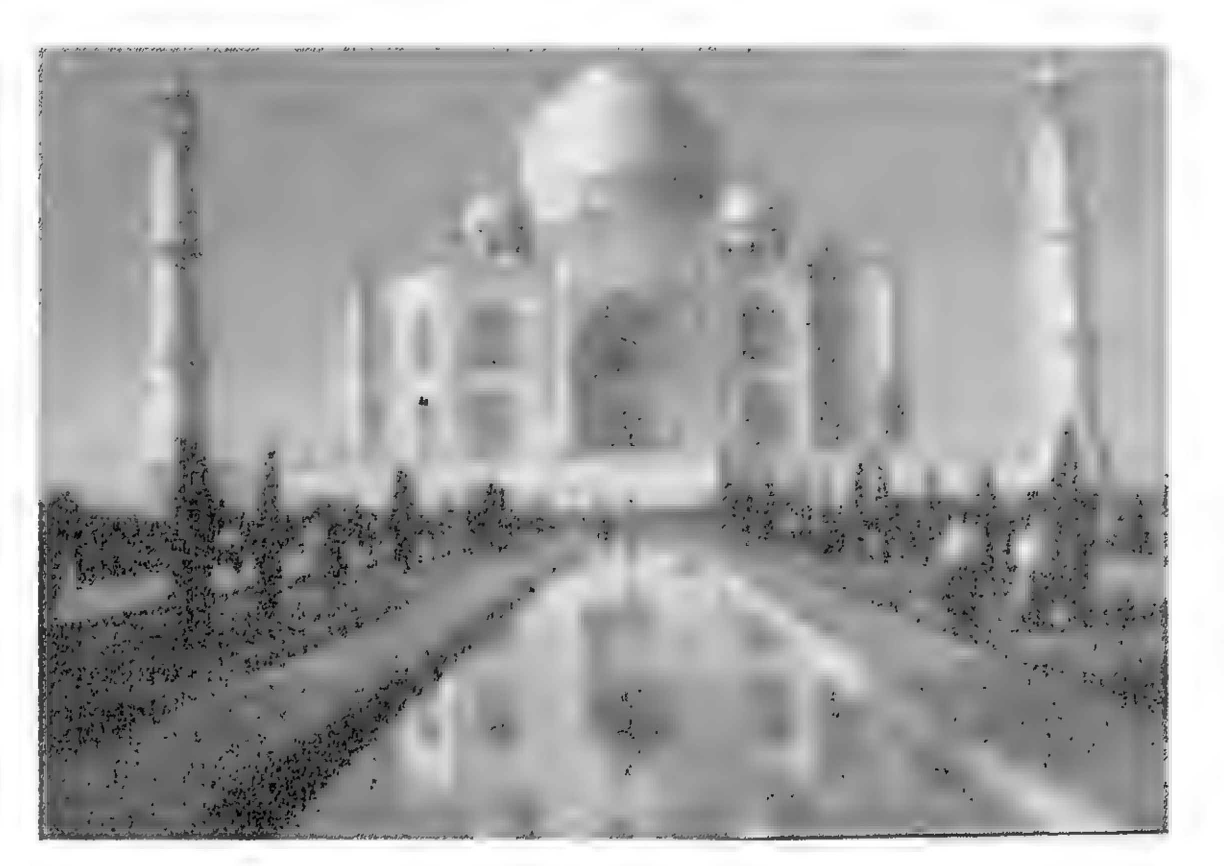
ومن الاستنباط الخاطئ إن لم نسمه بهتاناً وافتراء قوله: «وقع د. عبدالماجد في الخطأ عندما ظن أن أحداً لم ولن يقرأ كتابات الدكتور حسين مجيب المصري، وفي المقدمة منها كتابه القيم: الأندلس بين شوقي وإقبال،!!! أخطأ د. عبدالماجد عندما اعتقد أن فعلته هذه لن يكشفها أحد لقناعته بأن العرب قوم لا يقرؤون ».

هذه الفقرة لا تحتاج إلى تعليق لأنها تصور العقلية المعوجة والنفسية المعقدة و الغموض والشرود الذي اتصف به الكاتب، وتدل كذلك على أن تفكيره لا يمشي خطاً مستقيماً من الاتزان والتعقل، إنه يدعي انطلاقاً من التحيز السافر أنني ظننت « أن أحداً لم ولن يقرأ كتابات الدكتور حسين مجيب المصري..» النفي هنا مؤكد ومزدوج يتناول الماضي والمستقبل !! من أين اطلع أخونا على هذا السر.

هل يعقل أن دارساً عجمياً يكتب مقالاً ويحاول جهده أن تكون لغته مفهومة لدى القراء العرب، وتكون المعلومات التي يضمنها فيه صحيحة ومنسقة منطقياً ، ويرسل مقاله إلى مجلة ذات مستوى رفيع للنشر – وهو على وعي تام من حرج الموقف إذا لم يلتزم بالمنهجية العلمية، لأنه يخاطب صفوة المثقفين العرب، ويعرف « أن صاحب البيت أدرى بما فيه » بخصوص المواضيع التي عالجها الكتاب العرب – هل يعقل أن هذا الدارس الذي يقدم باكورة جهده بيديه المرتعشتين إلى الأساتيذ العرب مستميحاً العذر بأنها بضاعة مزجاة، ويرجو أنها تقبل برحابة صدر. هل يعقل أن هذا الدارس جاء ليمحو اسم الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري ويبعثر كتبه، ويقتلع من أذهان العرب وعقولهم تقديره، ويشغلهم عن كتبه القيمة بمقالته المتواضعة ويسحر العرب ويعمي العيون والعقول والأفئدة والأذواق» حتى يحل محل الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري؟ هل يعقل أنه يفعل كل ذلك اقتناعاً بأن العرب قوم لا يقرؤون شيئاً ولكن يقرؤون مقاله؟!!! لكن يا لسوء حظي قرأ الأخ صلاح حسن رشيد مقالتي !! ولا يزال في الأمة العربية رجل يقرأ، ويا ويلتي إنه كشف القناع عن هذه المؤامرة !!! على حد زعم الأخ الفاضل.

وقد رأيت في تعليق الأخ الفاضل نموذج التخبط والعشوائية الذي يتولد إذا ازدوج الجهل بالتحيز، وامتزجت نزعات العنصرية بالإفراط في تقديس بعض الشخصيات والازدراء بالآخرين، ورغم أن هذا التعليق لا يرتقي من الحياد والموضوعية أدنى درجاته التي يستحق بها تسمية النقد، فبحكم أنه نشر في مجلة الأدب الإسلامي فكان من واجبي التجاوب وإبانة موقفي في ضوئه. إن كافة الاعتراضات التي وردت فيه ناتجة أساساً عن قلة معرفة الموضوع ونوعيته وتقوم على أساس هش من الاعتقاد الخاطئ.

وبمجرد قراءة الفقرة الأولى من تعليقه يدرك الدارس أن الكاتب تقوده الأهواء والانفعالات بدلاً من الموضوعية والاتزان، حيث تدل بدايته على أنه بمجرد قراءة العنوان على غلاف المجلة أصدر حكمه أنه منتحل ومأخوذ. فالدارس الذي يصل إلى النتائج ويخلص إلى الخواتم قبل قراءة البحث لا يرتجى منه أن ينصف الموضوع لأنه قرر شيئاً مسبقاً، يقول: «.... إذ سرعان ما طالعت على غلافها – المجلة – حادثاً مهولاً أعادني بالذاكرة إلى الوراء إلى عامين على الأقل، رأيت فيها الأصل الذي ضل طريقه في المجلة بفعل فاعل، ربما لا يدري مغبته ما تخطه يمينه من جهد الآخرين وعرقهم وبحثهم وهو السبب الذي جعله لا يشير للأصل في مقاله بذات المجلة».



وإني لحلو تعتريني مرارة

لقد ضل الأخ نفسه عن الطريق السوي في فهم الموضوع وأبعاده وأصله ومادته ومصدره، إنه حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء. حفظ فقط أن الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري ألف كتاباً في الموضوع، ثم هو لا يعرف شيئاً من أساسيات الموضوع ومقوماته، ولا يعرف إقبالاً ولا يعرف شوقي. إنه تورط في مأزق الضلال التي لا يرى منها إلا الدكتور حسين مجيب المصري، وكلما أمعن في الرؤية أمعن في الضلال، ونجاته تنحصر في تقويم نفسه وإعادة الأمور إلى نصابها ومجراها الطبيعي حتى يراها من المشهد المنظور الصحيح، ولأن مشكلته الأساسية هي سوء الفهم الناتج عن قلة المعرفة والاطلاع، ولا تنحل هذه المشكلة ما دام يتيه في أودية خياله. يجب عليه أن يرجع أولاً إلى الشوقيات، وثانياً إلى تراجم ديوان إقبال « بال جبريل»، ثم يقرأ كتاب الأستاذ حسين مجيب المصري ويقرأ دراستي ويقارن بينهما، وعندها سيرى الفرق، سيرى ذاتيتي وأصالتي في دراستي رغم وحدة الوضوع.

واستهدافه إياي شخصياً بهذه الصفة المتكررة يؤكد سوء النية والأسباب الشخصية الغامضة، وقد خرج من حد المعقول في سلبيته وتعتمه، وتدل عباراته كأنه مطارد بكابوس مخيف يتراءى له في كل مكان.

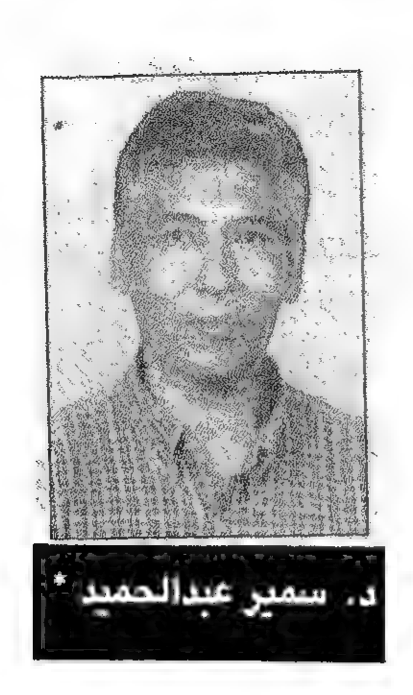
أما الأسلوب الذي اختاره الأخ صلاح في التعبير عن آرائه فلم نتوقع أن أحداً من حملة القلم – الذي أقسم به جل وعلا في محكم تنزيله وأقسم بما يخط القلم ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ سينحط إلى هذا المستوى الداني في التعبير بدون الاستناد إلى دليل علمي على دعاويه، نجد عباراته مليئة بالتبجح والتطاول وكلماته تنم عن التحامل والذاتية الطائشة التي باتت تراوده خلال كتابته هذا التعليق.

فكانت هذه إساءة إلى العرب الذين ما زلنا نعتبرهم قدوة في أدب الخلاف – قبل أن تكون إساءة في حقي – كما أنها إساءة إلى الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري نفسه، لأن محاماة «قضيته» بهذا المستوى الثقافي والعلمي، وهذه الحصيلة المعرفية استهانة به وتشويه لصورته، كما أنها إساءة إلى مجلة الأدب الإسلامي التي هي ذات رسالة سامية، وصفحاتها تتطلب درجة من التأدب والالتزام بمبادئ السلوك والمعاملة الحسنة التي تليق بالمثقفين في إبداء الرأي المعارض أو الخلاف.

معذرة من القراء إذا ندت كلمة قاسية من قلمي « وإني لحلو تعتريني مرارة».■

تعقيب الدكتور سمير عبدالحميد إبراهيم:

أستاذنا د. المصري يرى أنه لا بأس في إعادة الكتابة عن الموضوع الواحد وترجمة ما ترجم



د. سمير عبدالحميد *

لا شك أن مجلة الأدب الإسلامي تمثل اليوم نافذة تطل على الدراسات الشرقية وآداب الشعوب الإسلامية، واهتمام الباحثين والدارسين في مجال اللغات الشرقية يثري هذه المجلة بلا شك ، وقد تثير المجلة أحياناً قضايا مهمة تحتاج إلى نقاش وحوار، قد يؤدي إلى نتائج تفيد القراء وبخاصة المهتمين بالدراسات الشرقية وآدابه. وفي العدد ٣٢ من مجلة الأدب الإسلامي طالعت ما كتبه السيد صلاح حسن رشيد من مصر بعنوان: مقال أندلسيات شوقي وإقبال في العدد ٢٩ مأخوذ من كتاب للدكتور حسين مجيب المصري بنفس الاسم!!

قرأت ما كتبه السيد صلاح حسن رشيد. وأعجبني أسلوبه الجميل، وأخذ عليه هجومه الشديد على الدكتور عبدالماجد الكشميري الندوي، فليس هكذا يكون النقاش والحوار، خاصة في مجلة «الأدب الإسلامي»، وكنت أتمنى على السيد صلاح حسن أن يحسن أولاً الظن بالدكتور عبدالماجد، ثم يناقش فيما بعد القضية التي يثيرها.

وكنت أتمنى أيضاً أن يحسن الظن بمجلة «الأدب الإسلامي» فقد كتب : "... طالعت على غلافها حادثاً مهولاً أعادني إلى الوراء.. إلى عامين على الأقل، رأيت فيها الأصل الذي ضل طريقه إلى المجلة بفعل فاعل.... إلخ. ثم يتهم السيد صلاح الدكتور عبدالماجد الكشميري الندوي، فيكتب:

"... ربما لا يدري مغبة ما تخطه يمينه من جهد الآخرين وعرقهم وبحثهم... إلخ". ويكتب عن مقال الدكتور عبد الماجد الذي نشر في العدد ٢٩ من مجلة «الأدب الإسلامي» ما يلي:

" المقال من أوله إلى آخره مأخوذ ومقتبس بعناية.. من عمل للعلامة الدكتور حسين مجيب المصري.... لقد تحدث الدكتور حسين مجيب المصري عن تناول إقبال لمسجد قرطبة وانبهاره به فقط بدلاً من قصر الحمراء الأمر الذي تناوله د. عبدالماجد بنفس الأسلوب والفكرة والعرض...".

ويشدد السيد صلاح حسن من هجومه على الدكتور الندوي: ".... لكنه (أي الندوي) سطا على عمله (أي الدكتور حسين مجيب المصري) جهاراً نهاراً ثم تجاهله كأنه نسي

* أستاذ اللغات الشرقية وآدابها - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

منسي. وفي المقال تحدث الدكتور الندوي عن قصيدة إقبال التي خصصها لصقر قريش ولنخلته... وكلامه هو هو مع اختلاف في الألفاظ والعبارات لكن يبقى المضمون واحداً بين الرجلين.. إلخ».

وأخيراً يقول الأستاذ صلاح رشيد: « إن الدكتور عبدالماجد أجاد في تغيير الألفاظ من بداية مقاله إلى منتهاه لكي تعمى العيون والعقول والأفئدة عن روح الدكتور المصري في عمله وفي كتابه الرائد». انتهى.

ترددت في الكتابة عن الموضوع لكني رأيت أن هذه فرصة للكتابة عن الأبحاث والكتب التي تطبع هذه الأيام وتتناول موضوعات في أدب الشعوب الإسلامية وبخاصة في الفارسية والأوردية، وأتساءل هل تناول أحد الباحثين لموضوع ما يجعله يمتلك البحث في هذا الموضوع، لايقربه غيره، أم أن موضوع البحث مفتوح للجميع:؟!


قصر الحمراء

أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري الذي عشت معه أسبوعين أو أكثر حين زار لاهور ضيفاً على أكاديمية إقبال يجيب بنفسه بالإيجاب على هذا التساؤل، كيف؟!

١ - لقد ترجم الأستاذ الدكتور محمد سعيد جمال الدين ديوان إقبال «جاويد نامه» من الفارسية إلى العربية وجعله موضوع أطروحته للدكتوراه، وطبع الكتاب القيم فيما بعد طبعة جميلة، ونال إعجاب الباحثين... ماحدث هو أن أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري قام بترجمة نفس الديوان شعراً، وسماه « إلى السماء»، وطبع الكتاب أيضاً، فلا حرج في ذلك.

٢ - ترجم كاتب هذه السطور ديوان إقبال "أرمغان حجاز" من الفارسية والأردية إلى العربية، ضمن بحثه للماجستير بعنوان إقبال وهدية الحجاز، وطبع الكتاب في لاهور قبل زيارة أستاذنا المصري للاهور، وبعد فترة قام أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري بترجمته إلى العربية شعراً، ولم يترجم القسم الأردي.

٣ - وأكثر من هذا أن أستاذنا يفكر الآن مع بعض المتخصصين في الأوردية في القيام بترجمة كليات إقبال أي جملة دواوين إقبال، ومنها ما ترجمه الدكتور عبدالوهاب عزام شعراً مثل الأسرار والرموز ورسالة المشرق وغيرها، ومنها ما ترجمه الشيخ صاوي شعلان بالواسطة شعراً، ومنها ما ترجمه بعض أدباء سوريا والعراق شعراً أو نثراً بالواسطة، وبعض ما ترجمه الزبيري اليمني شعراً أيضاً.

والخلاصة أن أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري لا يرى بأساً في أن يقوم الباحثون بالكتابة عن الموضوع الواحد وحتى إعادة ترجمة ما ترجم !! وأذكر أنني استأذنت من أستاذي الدكتور يحيى الخشاب - يرحمه الله - الكتابة عن الأسرار والرموز التي ترجمها الدكتور عزام فسمح لي فقمت بكتابة مقدمة للديوان، وترجمت الأشعار التي لم يثبتها عزام في ترجمته، ثم نشرت كل هذا مع ترجمة الدكتور عزام للأسرار والرموز في طبعة صدرت في باكستان، ثم صدرت بعد ذلك في مصر بعنوان الأسرار والرموز، لأنني لا أتفق مع الرأي القائل بإعادة دراسة العمل الواحد من قبل أكثر من باحث، ومن الأفضل التوجه في الوقت الحالي إلى الكشف عن كنوز « اللغتين الفارسية والأوردية والتركية » بدلاً من الدوران في نفس الحلقة، لاستكمال سلسلة الأبحاث بحلقات جديدة.

وقد لاحظت في الآونة الأخيرة مثلاً عدم وجود تنسيق بين الباحثين في الآداب الشرقية، وأسوق مثلاً واحداً عن محاولة البعض ترجمة قصة لأديب معين، سبق أن

ترجمت، تحت دعوى أنها ترجمة عن الإنجليزية، أو دعوى أنه لم يعرف أنها ترجمت من قبل ! فمثلاً الأديب الهندي بريم تشاند له قصة بعنوان «الكفن» قامت الأستاذة مآثر المرصفي مدير تحرير مجلة الشرق بترجمتها عن الإنجليزية، ولا أدري تاريخ نشرها، لكن نفس القصة لبريم تشاند «الكفن» ترجمها الدكتور إبراهيم محمد إبراهيم وزوجته الدكتورة تبسم منهاس، ونشراها في كتاب ضمن مجموعة قصصية بعنوان: قصص من الهند وباكستان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ثم جاء الدكتور جلال الحفناوي فترجم نفس القصة ونشرها ضمن مجموعة قصصية صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر، لكنه أشار إلى أن مآثر المرصفي ترجمت القصة عن الإنجليزية وأنه « أضاف إليها بعض الجمل والكلمات عند ترجمته لها عن الأوردية وقارن بين النصين!» وقد صدر الكتاب مؤخراً، وربما لم يطلع الدكتور جلال الحفناوي على ترجمة الدكتور إبراهيم محمد إبراهيم التي نشرت منذ أربع سنوات تقريباً أي عام ١٩٩٩م.

وكاتب هذه السطور ليس بصدد مقارنة للترجمات الثلاث، ولكن أنقل عدة أسطر فقط هي الفقرة الأولى من ترجمتين لأن الترجمة الإنجليزية لا تدخل مجال المقارنة، حتى يدرك القارئ الاختلاف في ترجمة نص واحد إلى العربية من لغة واحدة، ناهيك عن وجود اختلاف في كتابة الأسماء أيضاً، لكني أرجعه - بحسن نية - لأخطاء الطباعة، والله أعلم :

النص الأول

«جلس الأب وابنه في سكون على عتبة كوخهما، وقد خمدت النار التي أشعلاها بجوارهما، وبداخل الكوخ، كانت زوجة الابن الشابة «بدهيا» تعاني آلام المخاض، فتطلق بين الحين والآخر صرخات من فرط قوتها أن توقف دقات قلبيهما، وكان السكون يلف الليل، والقرية بأسرها غارقة في الظلام » ترجمة الدكتور جلال.

النص الثاني

« في ليلة من ليالي الشتاء القارس حيث الصمت يلف المكان، والقرية كلها تسبح في ظلام دامس، جلس الأب والابن صامتين عند باب بيتهما الطيني القديم أمام كومة من النيران تكاد تنطفئ، وداخل البيت كانت زوجة الابن الشابة «بدهيا» تتلوى من آلام الوضع، وتخرج منها بين الفينة والفينة صرخات مدوية تمزق القلب وتكتم أنفاس الأب والابن معاً». ترجمة الدكتور إبراهيم والدكتورة تبسم.

وأعود إلى الموضوع الأصلي لأقول للسيد صلاح حسن رشيد إن موضوع « أندلسيات شوقي وإقبال » موضوع سبق للكثير من المتخصصين الكتابة فيه، وشوقي مشهور في الهند كما هو مشهور في العالم العربي، وكتب البروفسور وقار أحمد رضوي مقالاً في مجلة «كاروان أدب» التي تصدر عن مكتب شبه القارة الهندية لرابطة الأدب الإسلامي في الهند بعنوان «التراجم النثرية الأوردية لمنظومات أمير الشعراء أحمد شوقي بك العربية» (كاروان أدب - يونيو / يوليو ١٩٩٨م) كما أن الموضوع ذاته نشرت عنه أبحاث بالأوردية في المجلد الضخم (٧٩٠ صفحة) الذي أصدرته الجامعة الإسلامية الدولية بعنوان أندلس كي إسلامي ميراث « أي التراث الإسلامي في الأندلس».

ومن الأبحاث المتعلقة بموضوعنا بحث الدكتور القدير محمد رياض بعنوان الأندلس والعلامة إقبال، وبحث آخر بعنوان إقبال في مسجد قرطبة للدكتور محمود الرحمن، وفيهما ما جاء في كتاب الدكتور المصري، ونفس الموضوع كتب عنه أستاذ دراسات إقبال مرزا محمد منور - يرحمه الله - الذي كان قد أهدى كتبه لأستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري، كتب عن الموضوع في مجلة الكلية الشرقية عام ١٩٨١م إقبال ومسجد قرطبة، وهو الذي أشار على أستاذنا بالكتابة عن إقبال وشوقي، والباحثون في شبه القارة يركزون على إقبال ومسجد قرطبة، وليس على إقبال وقصر الحمراء، وهكذا فعل الندوي المفترى عليه، فهو كما ذكر السيد صلاح رشيد من الهند.

د . جلال الحفناوي

وفي الهند كتب محمد بديع الزمان من بتنه بحثاً قيماً بعنوان « إقبال وسرزمين أندلس» أي إقبال وبلاد الأندلس يتكون من سبعة عناصر، تضم ما ذكره السيد صلاح رشيد وأكثر، وقد استفاد من هذه الأبحاث وغيرها الدكتور جلال الحفناوي وكتب أيضاً بحثاً عن نفس الموضوع بعنوان الأندلس بين إقبال وشوقي.

فرفقاً بالدكتور الندوي... لقد كتب معتمداً على مصادر أوردية أصيلة أخذ منها واستفاد وكتب مقاله القيم، وليس ذنبه أن الدكتور المصري كتب كتاباً عن الموضوع نفسه واستفاد مما كتب عن الموضوع باللغة الإنجليزية، مترجماً عن الأوردية، فكلاهما غرفا من طبق واحد!

وأتمنى أن تثير مجلة الأدب الإسلامي قضايا الكتابة والترجمة عن آداب الشعوب الإسلامية لأن في هذا إثراء للأدب الإسلامي وتعريفاً للقارئ العربي بالتراث الإسلامي لدى الشعوب المسلمة. ■

تعقيب الدكتور جابر قميحة

السرقة الأدبية طعن يجب أن نبرأ منه ما لم نكن على يقين

طالعتنا مجلة الأدب الاسلامي في العدد(٣٢) بمقال للأستاذ صلاح رشيد (مصر) (ص٨٠-٨١) يتهم فيه الدكتور عبدالماجد الكشميري الندوي اتهاما صريحاً صاخباً بأن دراسته التي نشرها في العدد (٢٩) من المجلة (ص٤-١٠) عن (أندلسيات شوقي وإقبال) قد سرقها برمتها من كتاب الدكتور حسين مجيب المصري (الأندلس بين شوقي وإقبال).

ونحن المسلمين - مطالبون بأن نتبين حتى لا نصيب قوماً بجهالة، فنصبح على ما فعلنا نادمين. وعن ميراث النبوة أن أحدهم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يمسك بخناق رجل وقال : يارسول الله، إن هذا الرجل سرق مني كذا.. وكذا، فزجره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا تقل سرق، ولكن قل أخذ». ولقد علمنا ديننا أن الأصل في الناس البراءة، ولا اتهام إلاّ بدليل، ولا عقوبة إلاّ بنص.

وإذا كانت مراجعة المواد المقدمة إلى المجلة شكلاً وموضوعاً من الواجبات الملزمة للمسؤولين عنها، فإن مراجعة المواد التي تلقي الاتهام على الآخرين، وتدينهم بالسرقة، أو ما دار في فلكها، تشدد من هذا الواجب، ومن الالتزام به، ومن مظاهر هذا التشدد - في رأيي - ألا يكتفى في مراجعتها والحكم عليها بالنظرة الأحادية، أو القراءة العابرة العجلى. وخصوصاً إذا كان المتّهم يحمل من المؤهلات العلمية أرقاها وأعلاها.

كانت هذه مقدمة لا بد منها بعد أن قرأت ما كتبه الدكتور عبدالماجد أكثر من مرة، وقرأت «قرار الاتهام» الذي كتبه الأستاذ صلاح أكثر من مرة، ووقفت طويلاً أمام العملين، وقرأت كذلك كتاب الدكتور حسين مجيب المصري (٢٣٠ ص - الدار الثقافية للنشر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٩م)، ورجعت إلى طبعة سابقة للكتاب، نشرتها دار الوعي بحلب سنة ١٩٩٤م، ولا خلاف بين الطبعتين في كلمة واحدة، ولا نقص، ولا زيادة.

وابتداء.. وقبل أن نقف وقفة موضوعية أمام مضامين الاتهام في مقال الأستاذ صلاح نلاحظ ما يأتي:

١- جاء عنوان المقال حكماً نهائياً حاسماً بالسرقة، ونصه «أندلسيات شوقي وإقبال» في العدد ٢٩ مأخوذ من كتاب للدكتور حسين مجيب المصري بنفس الاسم.

وهذا غير صحيح فعنوان مقال الدكتور عبدالماجد في العدد ٢٩ دراسة مقارنة: أندلسيات شوقي وإقبال.

أما عنوان كتاب الدكتور المصري فهو «دراسة في الأدب الإسلامي المقارن : الأندلس بين شوقي وإقبال»، وبين العنوانين فرق شاسع في الدلالة، وكمّ مفردات الدراسة وشرائحها.

وحتى لو فرضنا تماثل العنوانين، فإن ذلك لا يوحي بشبهة السرقة، ففي مجال الإبداع والنقد والتاريخ الأدبي من ذلك الكثير. وعلى سبيل التمثيل هناك ديوانان من الشعر بعنوان (أغاني الغربا) لنجيب الكيلاني، وأحمد عبدالهادي. وديوانان باسم (في غيابة الجب) الأول لعلي الفقي، والثاني لمحمد الحسناوي.

إيهام بالصورة

٢- جرت العادة في إثبات السرقات الأدبية أو العلمية أن تعرض صورة لجزء من مقال السارق، وصورة لجزء من المصدر

المسروق حتى يثبت المدعي مصداقية الاتهام، ولكن الذي حدث- وهو شيء مؤسف- أن مقال الاتهام صُدِّر بصورة بمساحة ربع صفحة من مقال الدكتور عبد الماجد بخط صغير جداً. وذيلت الصفحة بنصف الصورة السابقة، مما قد يوهم القارئ بأن الصورة الأخيرة لجزء من صفحة من كتاب الدكتور حسين المصري (مع ملاحظة أن الخط صغير لايقرأ).

تهويل.. مرفوض

٣ – ويسوق مقال الاتهام عبارات تهويلية تجافي الروح العلمية مثل العبارات الآتية:

– طالعت على غلاف المجلة حادثاً مهولاً (يقصد مقال الدكتور عبدالماجد).
– لقد ذهلت (هكذا) عندما قرأت مقالاً تحت عنوان «أندلسيات شوقي وإقبال».
– والدكتور عبدالماجد ربما لايدري مغبة ما تخطه يمينه.

منهج إثبات السرقة

وأبسط قواعد المنهج العلمي في البحث كانت تقتضي صاحب الاتهام أن يحدد الأجزاء المسروقة بذكر أرقام الصفحات وخصوصاً أن كتاب الدكتور المصري كتاب موسوعي جاء في ٢٣٠ صفحة. ولكن كل ما قرأناه للأخ صلاح لا يتعدى عبارات منفوشة فضفاضة لا تصلح أن تكون أدلة، أو شبه أدلة للإدانة. ومن هذه العبارات:

– المقال من أوله إلى آخره مأخوذ، ومبتسر، ومقتبس بعناية فائقة وحرفنة في إجادة السطو من عمل قيم وكبير للعلامة الدكتور حسين المصري.

– الدكتور عبدالماجد سطا على عمل الدكتور المصري جهاراً نهاراً، ثم تجاهله.

– والغريب المؤسف أن الأخ صلاح دخل « جوانية» الدكتور عبدالماجد، واكتشف سريرته ونواياه وظهر ذلك في ادعائه بأن الباعث للدكتور عبدالماجد على السرقة هو « قناعاته.. (كذا) بأن العرب قوم لا يقرؤون». وكذلك في ادعائه بأن الدكتور عبدالماجد أجاد في تغيير بعض الألفاظ في المادة المسروقة، وهدفه من ذلك – وليتنبه القارئ- أن يعمي العيون والعقول والأفئدة والأذواق عن روح الدكتور المصري في عمله وكتابه الرائد.(!!!؟؟).

الأحكام الخاصة

وأعني بها تلك التي لا تخلو من تحديد، وإن تمتعت كذلك بالتسيب والانتفاش، ففي مقاله الاتهامي يذكر السيد صلاح أن الدكتور عبدالماجد سرق من كتاب الدكتور المصري:

١- الموضوعات التي تناولها بلحمتها وسداها.
٢ – تقسيماته المتشعبة، وموازناته بين أشعار إقبال وشوقي.
٣ – ما نظمه الدكتور المصري – ترجمة عن إقبال- في إعجابه بجامع قرطبة (سطا عليه عبدالماجد أسلوباً وفكرة وعرضاً وإن حوله إلى نثر).
٤ – ما كتبه المصري عن تأثر شوقي بآثار الأندلس (سرقة بالنص).
٥ – ما كتبه المصري عن تعلق إقبال بالروحانيات، ورؤيته للمظاهر على أنها جواهر.
٦ – ما كتبه د. المصري عن قصيدة إقبال في صقر قريش ونخلته.
٧ – منطق د. المصري وروحه فيما كتبه عن رائعة شوقي «يا أخت أندلس عليك سلام....».



الشاعر محمد إقبال

* * *

والأحكام والكلمات السابقة يصعب.. بل يستحيل اعتبارها أحكاماً نقدية، لأنها – مجتمعة- تعني أن الدكتور عبدالماجد سرق الدكتور المصري "كله" بما فيه روحه ومنطقه، مع أن الدكتور عبدالماجد ذيل مقاله بالمراجع التي استعان بها، وهي لأساتذة متخصصين مثل د. شوقي ضيف، والدكتور طه وادي، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ محمد سعيد العريان، وبأمانة نسب كل نص إلى مرجعه. فهل قرأ الدكتور عبدالماجد كتاب الدكتور المصري، وسرق منه، وأغفله عن عمد؟ ولماذا لا يكون الفرض الأقوى أن الدكتور عبدالماجد (وهو يقيم في الهند) لم يسمع بكتاب الدكتور المصري (وهو مقيم في القاهرة)؟ وأنا مثلاً من سكان القاهرة، ومع ذلك لم أسمع بكتاب الدكتور المصري إلا في منتصف

جامع قرطبة

أغسطس٢٠٠٢م. وهذا طبعاً لا ينقص من مكانة الدكتور حسين المصري، ولا من قيمة كتابه.

وتماثل الموضوعات والمحاور عند كل من يبحث في (الأندلس بين شوقي وإقبال) لا يدل – بأية حال على أن اللاحق سرق من السابق، وخصوصاً إذا عرفنا أن أندلسيات إقبال لا تزيد على ست قصائد، وأن أندلسيات شوقي لا تزيد عن أربع. ولكن الفوارق والتأثر والتأثير والسرقة لا يستدل عليها من منهج التناول وأسلوب المعالجة والأداء التعبيري، وخصوصيات الطوابع الوجدانية.

وللحق كذلك لم أفهم ادعاء المقال الاتهامي بأن الدكتور عبدالماجد قد سطا على التقسيمات المتشعبة للدكتور المصري، وأتساءل: أين هذه التقسيمات المتشعبة في مقال من بضع صفحات إذا ووزن بكتاب موسوعي يغلب عليه الاستطراد الطويل، ويقع في ٢٣٠ صفحة ؟؟!!.

ترجمة عن ترجمة !! لماذا؟؟

ومعروف أن الدكتور عبدالوهاب عزام ترجم كثيراً من شعر إقبال إلى العربية شعراً، وترجم الدكتور حسين مجيب المصري كذلك كثيراً منه شعراً، وهي مسألة صعبة جداً لأنها تقتضي أن يكون المترجم شاعراً موهوباً، ولأنه مضطر إلى التقديم والتأخير والحذف والزيادة حتى يستقيم له الوزن والقافية، وهذا ما فعله الدكتور المصري كما سنرى.

ولنقف أمام المثل المحدد الذي قدمه الأخ صلاح رشيد للقطع بأن الدكتور عبدالماجد سارق ساط معتد. ففي العمود الأول من ص ٨١ (من العدد ٣٢) يذكر ما خلاصته: أن عبدالماجد سطا على الترجمة الشعرية التي نظمها الدكتور المصري لقصيدة إقبال في جامع قرطبة بنفس الأسلوب والفكرة والعرض، ولكن في أداء نثري.

سبحان الله ياسيد صلاح؟؟ هل نسيت أن الدكتور عبدالماجد عالم هندي، يتقن الأوردية والإنجليزية والعربية وربما الفارسية ولغات أخرى، فهو من جنسية إقبال، ويتكلم لغته – أو لغاته – ويعيش في جو إقبال. فما الذي يدفعه إلى سرقة ما ترجمه الدكتور المصري من نصوص إقبال-الأوردية إلى العربية، وبين يديه المصدر الأصيل؟!!.. وأنا على يقين أن الدكتور عبدالماجد ترجم من إقبال مباشرة، ويؤسفني أن أقرر أن ترجمته كانت أكثر التزاما ودقة وانضباطاً فيما ترجم دون نقص أو زيادة أو تقديم كما نرى في الترجمات الشعرية للدكتور المصري بسبب ضغوط الوزن والقافية وأنا لا أعرف اللغة الأوردية، ولكني طرحت هذا الحكم مستعيناً بترجمة جزء من قصيدة « جامع قرطبة» لعلماء ثلاثة، ثم أخلص إلى حكم آمل أن يجيء صحيحاً.

أ – ترجمة أبي الحسن الندوي:

إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب، فليست دجلة في العراق، ودانوب في أوروبا، والنيل في مصر، إلاّ موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم. إن له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب وله حكايات، ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب. هو الذي أمر العصر العتيق – العصر



إيوان إقبال- لاهور

الجاهلي – بالرحيل وافتتح العصر الجديد. إنه إمام رجال الحب والعاطفة، وفارس ميدان الإيمان والحنان، لسانه لبن وعسل، وسيفه علقم وحنظل، يعيش في ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متدرعاً بالتوحيد، كلما اشتد به الخطب، وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله ».

(من كتاب : روائع إقبال- ص١٣٦- ط٤ -١٩٨٣ – كراتشي).

٢ - ترجمة الدكتور حسين مجيب المصري:

وفي بره كلَّ حـد أزالْ	وفي بحره كلَّ نهرٍ أسالْ
بأخباره زال عهد الظلامْ	بأنواره لاح فجر الأنامْ
وفارس شوق وأهل نظرْ	رحيق بكأس وسيف بترْ
وسلاح له تحت ظل السيوفْ	إذا قال (لا) فاحتمى من حتوفْ

(لا: شهادة لا إله إلاّ الله. انظر ص ٢١٨ من كتاب الدكتور المصري).

٣ - ترجمة الدكتور عبدالماجد الندوي:

(من مقاله المتهم)

« إنه لا يحتبس في الحدود الجغرافية، بل إن آفاقه مفتوحة بلا غاية ولا نهاية. وليس النيل ودجلة وديبوب إلاّ أمواجاً من محيطه، تاريخ حافل بالعجائب والمعجزات، وهو الذي كان رائد النهضة البشرية الكبرى وقائد الثورة التاريخية التي أخرجت الركب البشري من مآزق الظلمات والجهل إلى آفاق العلم والهداية، كان علماً في مجال العلم والثقافة كما كان بطلاً في مجالات الحياة الأخرى. كان يستقي من المنهل الروحي الصافي وكان سيفه لا ينبو. هو جندي درعه التوحيد وترسه في ظلال السيوف هوالتوحيد كذلك».

وقراءة النصوص الثلاثة السابقة تقودنا إلى ملاحظة التشابه القوي بين نصي العلامة أبي الحسن الندوي، والدكتور عبدالماجد، مما يقطع بأن الرجلين تقيدا- إلى حد الالتزام- بمضمون نص إقبال: أساسياته وجزئياته.

أما ترجمة الدكتور المصري فجاءت موجزة شديدة الإيجاز وفيها غموض وانغلاق. كما نرى في تعبيره عن شهادة التوحيد (لاإله إلاّ الله) بكلمة واحدة فقط هي (لا) مما ألجأه إلى الشرح الهامشي. وواضح كذلك أن أداءه التعبيري لا يرقى إلى مستوى المضمون الفكري. وهي واحدة من جنايات ترجمة الشعر بالشعر. فنص الدكتور المصري – بصورته هذه – لا يشي أبدا بأن الدكتور عبدالماجد قد سرقه، وغير بعض ألفاظه « بحرفنة» ومهارة ذراً للرماد في العيون.

ولم يبق أمامنا – إحقاقاً للحق – إلاّ أن نجزم بأن الدكتور عبدالماجد إنما ترجم إلى العربية من نصوص إقبال مباشرة دون وسيط، لأنه لا حاجة له أن يترجم عمن ترجم عن إقبال. ■

إعداد: شمس الدين درمش

ندوة عالمية الأدب الإسلامي

أقامت جامعة الملك فيصل في إنجمينا بتشاد، بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومركز رسائل النور في تركيا - ندوة علمية دولية عنوانها: «عالمية الأدب الإسلامي». وذلك في الفترة من ٢٨/٧/١٤٢٣هـ إلى ١/٨/١٤٢٣هـ الموافق ٥/١٠/٢٠٠٢م إلى ٧/١٠/٢٠٠٢م.

وقد ألقيت محاضرات الندوة في قاعة وزارة الشؤون الخارجية والتكامل الأفريقي، برعاية معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني السيد آدم قيميسو، وإشراف معالي رئيس جامعة الملك فيصل، وعضو الشرف في الرابطة د. عبد الرحمن عمر الماحي.

د. عبدالرحمن الماحي

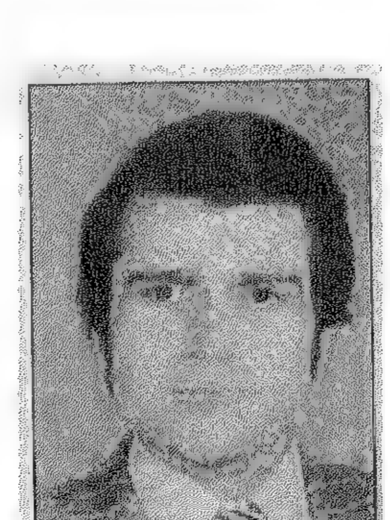
وقد حضر حفل افتتاح الندوة الذي بدأ في الساعة التاسعة صباحاً من يوم السبت ٢٨ رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٥/١٠/٢٠٠٢م معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني، ومعالي رئيس جامعة الملك فيصل ونائب رئيس البرلمان التشادي، ورئيس جامعة إنجمينا، وعدد من سفراء الدول والنواب، وعدد من أساتذة الجامعات وجمع غفير من المهتمين.

بدأ حفل الافتتاح بالقرآن الكريم، ثم ألقيت على التوالي كلمة اللجنة التحضيرية، وكلمة رئيس جامعة الملك فيصل، وكلمة رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وكلمة مركز رسائل النور بتركيا، ثم كلمة معالي الوزير التي أشاد فيها بالندوة، وبين أهمية الأدب ودوره في الحياة، وأعلن رسمياً افتتاح الندوة. وقد انتظمت بحوث الندوة ثلاثة محاور أساسية هي:

المحور الأول: «عالمية الأدب الإسلامي»

وقدمت في هذا المحور البحوث التالية:

١- الأدب الإسلامي: مسوغاته وخصائصه للأستاذ الدكتور وليد قصاب «الكلية العربية الجامعية بعجمان»، عضو الرابطة.


د. وليد قصاب

٢- الأدب الإسلامي ورابطته بين الخصوصية والعالمية، للأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح «السعودية» رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية».

٣- التراث الشفاهي وعالمية الرؤية للأدب الإسلامي للدكتور كياري إبراهيم الشريف «نيجيريا - جامعة مايدغري».

٤- موقف الإسلام من الشعر، للدكتور عبد الله الصويعي «ليبيا - جامعة الفاتح».

٥- الأدب الإسلامي وخصائصه في أراجيز الرحلة لعلماء برنو، للأستاذ عبد الله قوني التجاني «نيجيريا - جامعة مايدغري».

المحور الثاني: «الأدب العربي الإسلامي في تشاد»

وقدمت في هذا المحور البحوث التالية:

١- تاريخ الأدب العربي الإسلامي في تشاد، للأستاذ سليمان إبراهيم يوسف «تشاد - جامعة الملك فيصل».

٢- أثر الأدب العربي التشادي في إقامة التواصل بين تشاد والعالم الإسلامي للدكتور محمد عمر الفال «تشاد - كلية الدراسات العربية والإسلامية».

٣- أثر الأدب العربي الإسلامي التشادي في إقامة التواصل بين تشاد والعالم الإسلامي للدكتور الشاعر لنقبة عبد العزيز «تشاد - جامعة الملك فيصل».

٤- الشيخ عبد الحق السنوسي أمير الشعراء في القطر التشادي للأستاذ محمد مدني فضل «تشاد - جامعة الملك فيصل».

٥- رواد الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي في تشاد للأستاذ آدم حسن عمر «تشاد - جامعة الملك فيصل».

٦- رواد الشعر العربي الإسلامي في تشاد، عباس محمد عبد الواحد أنموذجاً للأستاذة ثريا تجاني كندل «تشاد - ثانوية الجيل الصاعد».

٧- من رواد الأدب التشادي عبدالله يونس المجبري شاعر القطرين، للأستاذ حسب الله مهدي فضلة «تشاد - ثانوية ابن سيناء».

٨- فن المديح النبوي في الشعر التشادي - رؤية تحليلية فنية، للدكتور محمد فوزي مصطفى «مصر - جامعة إنجمينا».

٩- وقفات مع شعر المدح التشادي المعاصر للأستاذ عثمان محمد آدم «تشاد - جامعة الملك فيصل».

١٠- الشعر الدعوي التشادي الواقع والواجب، للدكتور مرتضى الزين أحمد «السودان - جامعة الملك فيصل» ألقاه نيابة عنه الأستاذ محمد مدني فضل.

١١- دور الطرق الصوفية في الأدب التشادي للأستاذ أحمد الرفاعي «تشاد - ثانوية الملك فيصل».

١٢- في القصة العربية التشادية المعاصرة - رؤية نقدية لواقع مرفوض للدكتور علي عبد الوهاب مطاوع «مصر - جامعة الملك فيصل».

١٣-. النثر الفني في مملكة كانم - الرسائل السلطانية أنموذجاً، للأستاذ حامد عبد الله أحمد «تشاد - كلية الدراسات العربية والإسلامية».

١٤- الأدب العربي الإسلامي التشادي رؤية تاريخية موضوعية، للأستاذ محمد جرمة خاطر «تشاد - شركة عرجون».

١٥- ديوان بوادر الفتح للشاعر محمد جرمة خاطر - رؤية تحليلية - للدكتور مصباح السيد «مصر - جامعة الملك فيصل».

المحور الثالث: «الأدب الإسلامي في رسائل النور»:

وقدمت في هذا المحور البحوث التالية:

١- عالمية الأدب الإسلامي في رسائل النور للأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس «مصر - مركز رسائل النور»، عضو الهيئة الإدارية لجمعية رابطة الأدب الإسلامي في مصر.

٢- رسائل النور والأدب الإيماني، للأستاذ الدكتور إحسان قاسم الصالحي «تركيا - مركز رسائل النور».

٣- شذرات الخاطر عن الخطاب الأدبي في رسائل النور للأستاذ الدكتور عوني لطفي أوغلو «تركيا - مركز كوبري للدراسات»، عضو الهيئة الإدارية للمكتب الإقليمي للرابطة في تركيا.

كما تضمنت الندوة مجموعة من القراءات الشعرية قدمت في جلستين، وشارك فيها شعراء من دولة تشاد وغيرها، وهم:

وليد قصاب، عوني لطفي أوغلو - قرأ ترجمة قصيدة للنورسي - علي عبد الوهاب مطاوع، محمد فوزي، بشير عربي «السودان»، أما الشعراء التشاديون، فهم:

محمد عمر الفال، عباس عبد الواحد، محمد جرمة خاطر، عبد الواحد السنوسي، إسحاق عيسى يوسف، محمد عبد الرحمن آدم، عبد القادر محمد أبه، حسب الله مهدي فضلة، أحمد عبد الرحمن إسماعيل، حامد هارون محمد، محمد صلاح صالح، والشاعرة صبورة أرمياء قمبو.

واختتمت الندوة أعمالها في مساء يوم الاثنين ١٤٢٣/٨/١هـ الموافق ٢٠٠٢/١٠/٥م بحضور السيد الدكتور محمد صالح سعيد، مدير التعليم العالي ممثلاً لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني، وانتهت الندوة إلى التوصيات الآتية:



د. عبد الحليم عويس

توصيات الندوة

(١) الاهتمام بعقد المؤتمرات والندوات التي تسهم في تعميق الأدب الإسلامي، وترسيخ مصطلحاته ومسمياته، وتقريب مفاهيمه.

(٢) دعوة أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية والإسلامية إلى تبني مادة الأدب الإسلامي وإدخالها في مناهجها الدراسية.

(٣) الاهتمام بأدب الطفل.

(٤) الدعوة إلى دراسة آداب الشعوب الإسلامية والتنظير لها من وجهة نظر إسلامية.

(٥) الاهتمام بترجمة الأدب الإسلامي للشعوب الإسلامية إلى لغات بعضها بعضاً...

(٦) الاهتمام بالأدب الإسلامي عند الشعوب الأفريقية، والتعريف به...

(٧) إمداد مكتبات تشاد بإصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومركز رسائل النور بتركيا...

(٨) الاهتمام بالمرأة التشادية، وتشجيعها على الكتابة والإبداع...

(٩) الاهتمام بالأدب العربي الإسلامي التشادي، بطباعة نتاج كبار أدبائه، وال الإسلامية...



د. عوني لطفي أوغلو

(١٤) دعوة الأدباء الإسلاميين إلى الاطلاع الدائم على أحدث المذاهب والتيارات الأدبية في جميع ثقافات الأمم الأخرى...

(١٥) طباعة أعمال هذه الندوة ونشرها وتوزيعها على نطاق واسع...

وأخيراً قدم المنتدون الشكر إلى الحكومة التشادية ممثلة في وزارة التعليم العالي، وأثنوا على جهود الجهات المنظمة لهذه الندوة.■



مكتب الرياض

وفد الرابطة في زيارة المفتي العام

قام وفد من رابطة الأدب الإسلامي العالمية بزيارة لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ المفتي العام للمملكة العربية السعودية، رئيس هيئة كبار العلماء.

وتألف الوفد من سعادة د.عبدالقدوس أبو صالح رئيس الرابطة ، ود. ناصر الخنين نائب رئيس المكتب الاقليمي في الرياض ، ود. عبدالله العريني وشمس الدين درمش عضوا الرابطة، حيث عرض د. عبدالقدوس أبو صالح بشكل موجز نشأة الرابطة وأهدافها وبعض إنجازاتها والحاجة إلى الأدب الإسلامي للوقوف أمام التيارات الأدبية المنحرفة. وإنقاذ الأجيال الناشئة من سلبياتها. وقد أبدى سماحة المفتي العام اهتماماً كبيراً بالرابطة، وأكد على الحاجة إلى الأدب الإسلامي، وأثنى على دوره في المجتمع.

التجربة الشعرية

أقيم الملتقى الأدبي الأول في مقر الرابطة بالرياض يوم ١٤٢٣/٧/٢٥هـ وتحدث فيه سعادة الدكتور محمد بن سعد الدبل الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عن تجربته الشعرية النشأة والبدايات، حيث ألقى عدداً من القصائد التي حازت على استحسان الحضور، تلمس من خلالها آمال الأمة الإسلامية وآلامها، والقضية الفلسطينية بخاصة.

وكان ضيفا الشرف في الملتقى كل من الملحق الثقافي في السفارة التشادية الأستاذ محمد طاهر آدم، والملحق الثقافي في السفارة السودانية الأستاذ أحمد عبد الرحمن سوار الذهب.

وحضر الملتقى وفد من طلبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء بصحبة الأستاذ أحمد العثمان المعيد في الكلية، وكان الطلبة قد اجتمعوا مع كل من: د. عبد القدوس أبو صالح، رئيس الرابطة، ود. ناصر الخنين نائب رئيس المكتب الإقليمي، حيث دار الحديث عن الأدب الإسلامي وأهميته، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية وإنجازاتها.

الشكل والمضمون في الأدب الإسلامي

* وفي ٣٠ شعبان ١٤٢٣هـ استضاف الملتقى سعادة د. سعد أبو الرضا الأستاذ بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ونائب رئيس مكتب البلاد العربية وكان موضوع اللقاء هو قضية «الشكل والمضمون في الأدب الإسلامي»، وقد حضر اللقاء عدد كبير من أعضاء الرابطة والمدعوين الذين أثروا اللقاء بمداخلاتهم القيمة. ومنهم د.عبدالقدوس أبو صالح، ود. محمد الفاضل، ود. محمد أبو بكر حميد، ود. حسين علي محمد، ود. غالب الشاويش، والأستاذ محمد عقدة، ود. ناصر الخنين، ود. منجد مصطفى من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا. وأدار اللقاء الأستاذ عبدالله الوشمي المعيد بكلية اللغة العربية بالرياض.

وفي ختام الملتقى قدم ثلاثة أدباء مشاركات إبداعية في الشعر والقصة والخاطرة وهم محمد منذر قبش وأحمد صوان، ومنصور اليوسف.

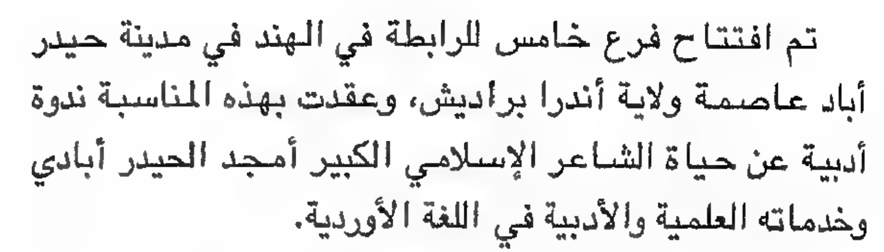
إهداءات

هذا، وقد تم توزيع عدد من مؤلفات أعضاء الرابطة في الملتقى الأدبي الشهري الأول والثاني لهذا العام. ففي الملتقى الأول وزعت خمسة كتب للأستاذ عبدالكريم بن حمد الحقيل وهي: «معجم المؤرخين السعوديين، أسر تحضرت في الجزيرة العربية، تراجم مختصرة...، أسئلة وأجوبة .. في جزأين»، وكتاب من فقه الصلاة للدكتور محمد الصيقل، وشريط مسجل للشاعد حفيظ الدوسري تحت عنوان كلمة حق.

وفي الملتقى الثاني وزع كتابان من تأليف د. عدنان النحوي هما ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين، وكتاب الشعر المتفلت. وعدة دواوين شعرية لحفيظ الدوسري هي : قحط المحبة، ليل الغربة، مياه الرهبة، سدرة الحرف، أغاريد العذاب.



مكتب شبه القارة الهندية:



افتتاح فرع للرابطة في حيدر أباد وندوة أدبية حول الشاعر أمجد الحيدر أبادي

محمد إقبال / الرائد

تم افتتاح فرع خامس للرابطة في الهند في مدينة حيدر أباد عاصمة ولاية أندرا براديش، وعقدت بهذه المناسبة ندوة أدبية عن حياة الشاعر الإسلامي الكبير أمجد الحيدر أبادي وخدماته العلمية والأدبية في اللغة الأوردية.

وقد حضر حفل الافتتاح فضيلة الشيخ الداعية الكبير محمد الرابع الندوي نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ورئيس مكتب شبه القارة الهندية للرابطة، حيث تحدث في كلمة الافتتاح عن دور الأدب الإسلامي، وأشاد بأدب الشاعر أمجد الحيدر أبادي، وشارك في الندوة عدد من الباحثين منهم: الأديب الشاعر نذر الحفيظ الندوي، والشيخ محمد رضوان القاسمي والشيخ عبد الكريم باريك، والشيخ يوسف سرمست، ود. إقبال حسين الندوي، والشيخ محمد واضح الندوي، والحاج المكرم عبد الرزاق، والأستاذ عبد الباسط الندوي، والمكرم شاهد حسين، وقد أقيم هذا الحفل بتاريخ ٢٤/٦/٢٠٠٢م.

ندوات أدبية أخرى

عقد فرع الرابطة في بنجلور جنوب شرق الهند ثلاث ندوات عن كل من العلامة عبدالحي البنجلوري، وأديب الملك الشيخ الشاه أبي الحسن أديب، والشيخ السيد حياة علي الملقب «مير حياة».

كما عقد فرع الرابطة في بهاتكل جنوب غرب الهند ندوة أدبية حول الشيخ عبدالحميد الندوي- رحمه الله- مدير الجامعة الإسلامية في بهاتكل سابقاً، وعقد ندوة أخرى في ولاية كيرالا أيضاً كما أجرى الفرع عدة مسابقات أدبية ووزعت جوائز على الفائزين.

وعقد فرع الرابطة في بهوبال وسط الهند ندوة حول الشيخ أبي الحسن الندوي – رحمه الله –

وشملت الندوات الحياة الأدبية والخدمات العلمية لشخصيات المنتدى حولهم وقدمت بحوث عديدة.

ومكتب شبه القارة الهندية بصدد عقد ندوات عدة عن الأدب الإسلامي في كل من نيبال وإندونيسيا وماليزيا وسيرلانكا.

الجدير بالذكر أن الأستاذ الأديب نذر الحفيظ الندوي نال هذا العام جائزة رئيس الجمهورية الهندية لامتيازه العلمي في اللغة العربية لعام ٢٠٠٢م.

محمد الرابع رئيساً لهيئة الأحوال الشخصية

تم انتخاب فضيلة الشيخ محمد الرابع الندوي رئيس ندوة العلماء في الهند ورئيس مكتب شبه القارة الهندية رئيساً لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية، وتم هذا الانتخاب في الدورة السادسة عشرة للهيئة التي عقدت في مدينة حيدر أباد في الفترة من ٩ – ١١ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ الموافق ٩ – ١٠/٦/٢٠٠٢م.

ويأتي هذا الاختيار لما لفضيلته من مكانة رفيعة بين المسلمين في الهند بخاصة وفي العالم الإسلامي بعامة، وقد خلف بذلك الشيخ أبا الحسن الندوي- رحمه الله - في هذا المنصب كما خلفه في رئاسة ندوة العلماء لكنو في الهند.



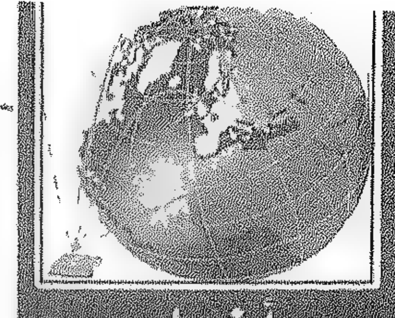
محمد الرابع الندوي

فرع جديد للرابطة في دكا

تم افتتاح فرع جديد للرابطة في مدينة «دكا» عاصمة بنغلاديش، ويرأسه الأستاذ محمد سلمان.

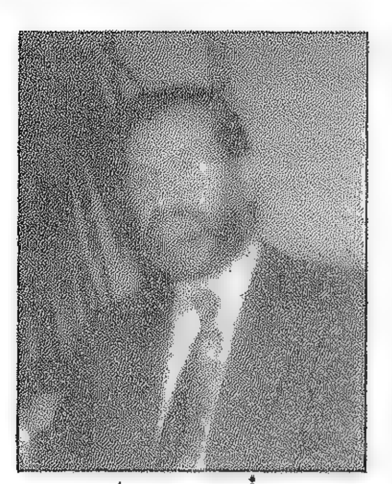
وسيقيم المكتب الإقليمي في بنغلاديش ندوة أدبية في منتصف شهر شوال بمدينة دكا كما قام المكتب بترجمة التعريف بالرابطة ونظامها الأساسي إلى اللغة البنغالية. ووزعت على أعضاء الرابطة في بنغلاديش.

أخبار المكاتب



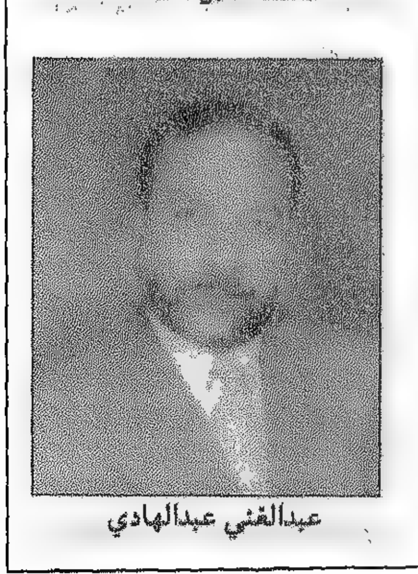
مكتب الأردن، عمان، عماد الرفاتي:

«الأدب الإسلامي في الأردن وفلسطين»


مأمون فريز جرار


عودة الله القيسي


محمد شلال الحناحنة


عبدالغني عبدالهادي

بمناسبة اختيار عمان عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٢م، أقام مكتب الرابطة في عمان موسماً ثقافياً خاصاً من ١٠/٥ إلى ٢٠٠٢/١١/٢م، اشتمل برنامجه على محاضرات ثقافية متنوعة شارك فيها زهاء ثلاثة عشر باحثاً وأديباً. وذلك تحت عنوان: الأدب الإسلامي في الأردن وفلسطين خلال القرن الماضي، وحتى مشارف الألفية الثالثة الحالية، وكان نشاطه في خمس حلقات تناولت القصة، والرواية، والشعر، والنقد، وأدب الأطفال على النحو التالي:

الحلقة الأولى: في ثلاث فقرات في مجال القصة.

١- ثبت «ببيلوغرافيا» القصة القصيرة، لعبد الغني عبد الهادي، تقديم د. سليم إرزيقات.

٢- الواقعية الإسلامية في قصص «حيدر قفة»، د. عمر الساريسي، تقديم د.عودة أبو عودة.

٣- الشعرية في قصص «محمد السيد»، لمحمد صالح حمزة، تقديم علي فهيم الكيلاني.

- الحلقة الثانية: في فقرتين في مجال الرواية:

١- ثبت الرواية الإسلامية لنعيم الغول، تقديم أحمد أبو شاور.

٢- الرواية الإسلامية (جهاد الرجبي.. أنموذجاً» للدكتور عودة الله القيسي، تقديم الأستاذ كمال عفانة.

الحلقة الثالثة: في ثلاث فقرات في مجال الشعر.

١- ثبت الشعر الإسلامي، د. عدنان حسونة، تقديم غازي الجمل.

٢- الشعر الإسلامي «يوسف العظم.. أنموذجاً» د. عودة الله القيسي، تقديم د. صالح أبو صيني.

٣- الشعر الإسلامي «نبيلة الخطيب.. أنموذجاً» لمحمد الحسناوي، تقديم عبدالغني عبد الهادي.

الحلقة الرابعة في فقرتين في مجال النقد.

١- ثبت الدراسات النقدية، د. مأمون فريز جرار، تقديم د. سليم إرزيقات.

٢- نحو نقد أدبي إسلامي متميز، لعباس مناصرة، تقديم كمال مقابلة.

الحلقة الخامسة والأخيرة في ثلاث فقرات في مجال أدب الأطفال.

١- ثبت أدب الأطفال، لمحمد بسام ملص، تقديم محمد جمال عمرو.

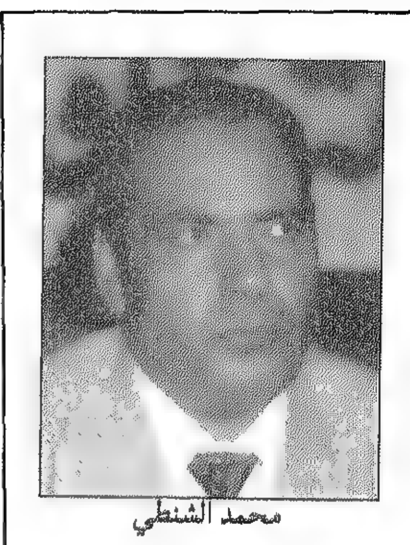
٢- قراءات في نصوص الأطفال، د. عمر الأسعد، تقديم محمود أبو فروة الرجبي.

٣- نشيد الأطفال المعاصر، لمصطفى حيدر الكيلاني، تقديم د. عبد القادر رمزي.

أقام المكتب الإقليمي للرابطة في عمان عدداً من الأنشطة الأدبية والفكرية الأسبوعية في الفترة من ٧/١٣/ إلى ٢٠٠٢/٩/٢٨م وذلك في مقر المكتب، وجاءت على النحو التالي:

- **أمسية شعرية بعنوان:** ملحمة جنين، لعدد من شعراء الرابطة، تقديم د. عودة أبو عودة.
- **محاضرة:** الحكمة في الموروث الطبي الإسلامي، د. عبد الجبار دية، تقديم أحمد أبو شاور.
- **قراءة نقدية:** في الشعر اليهودي المعاصر لمحمد شلال الحناحنة، تقديم نعيم الغول.

أنشطة فكرية وأدبية


محمد الشنطي


عباس مناصرة

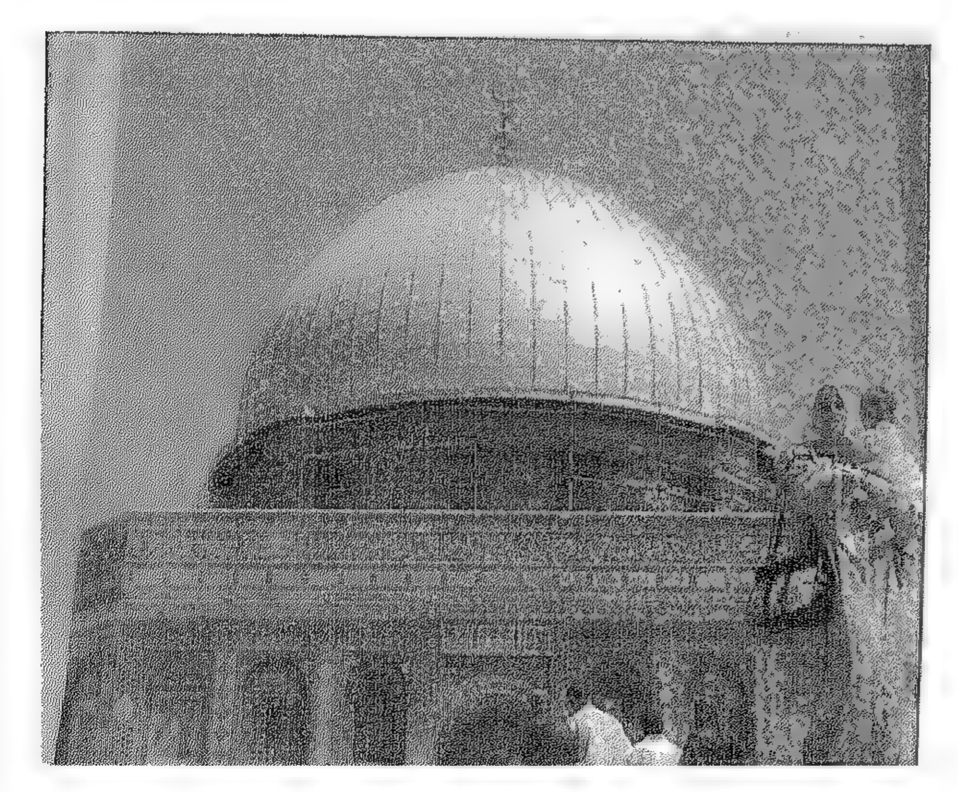
- **محاضرة:** أشكالية العلاقة بين الأدب والدين في الرواية، د. محمد الشنطي، تقديم محمد الحناحنة.
- **أمسية شعرية:** لعبد الله عيسى السلامة، تقديم محمد الحسناوي.
- **محاضرة:** الأدب الإسلامي مصطلح وتاريخ، لعباس مناصرة، تقديم محمد الحناحنة.
- **أمسية شعرية:**لماجد المجالي، تقديم علي الكيلاني.
- **محاضرة:** أدب الطفل المسلم، للأستاذ عبد التواب يوسف، تقديم محمد جمال عمرو.
- **أمسية شعرية:**، لنبيلة الخطيب، تقديم د. سميرة الخوالدة.
- **محاضرة :** اللغة العربية أصل اللغات، لعبدالرحمن البوريني، تقديم د. عودة أبو عودة.

وفي شهر رمضان المبارك أقيم في مقر المكتب بعمان ثلاثة لقاءات ثقافية وأدبية في الفترة من ٤ رمضان إلى ١٨ رمضان ١٤٢٣هـ الموافق ١١/٩ إلى ٢٠٠٢/١١/٢٣م على النحو التالي:

- **محاضرة:** الإعجاز القرآني لعباس أمير، تقديم د. عودة أبو عودة.
- **أمسية قصصية:** للأديبين محمد السيد ومحمد الحسناوي، تقديم د. مصطفى الفار.
- **أمسية شعرية:** نفحات إيمانية، بمشاركة عدد من شعراء الرابطة، تقديم د. عودة الله القيسي.

مسابقة القدس الشعرية

يسر المكتب الإقليمي لرابطة الإسلامي العالمية في الأردن أن يعلن نتائج مسابقة القدس الشعرية التي نظمها بمناسبة إعلان عمان عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٢م . وقد بلغ عدد المشاركين في المسابقة ٣٤ شاعراً وشاعرة. وجاءت النتائج التي قدمتها لجنة التحكيم على النحو التالي:



* الجائزة الأولى: عبدالله أمين أبو شميس على قصيدته «شيماء».
* الجائزة الثانية: إيمان محمد حسني عبدالهادي على قصيدتها «أنت القصيدة».
* الجائزة الثالثة: أحمد نور فهيم على قصيدته «الصفحات الأخيرة من مذكرات شهيد».
* الجائزة الرابعة: خالد يونس الحسن على قصيدته «سأبقى أحبك».
* الجائزة الخامسة: هشام عطية القواسمة على قصيدته «أغنيات الأرض».

هذا وسيتم تحديد موعد لتوزيع الجوائز في حفل خاص يقيمه المكتب لذلك.

من أخبار أعضاء الرابطة

- فاز كل من د. سعد أبو الرضا نائب رئيس مكتب البلاد العربية، و د. حبيب بن معلا المطيري عضو الهيئة الإدارية للمكتب الإقليمي بالرياض، والأستاذين بقسم البلاغة والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، بجائزة المدينة المنورة للبحث العلمي في مجال أدب الأطفال، لعام ١٤٢٣هـ.
- شارك الأستاذ عبد التواب يوسف في ندوة مستقبل الثقافة العربية بعمان / الأردن ببحث عنوانه «الطفل وعصر المعلومات» وتحدث عن التجارب العالمية في تعليم الأطفال وتربيتهم وتأديبهم.
- ألقى الأستاذ الشاعر محمد التهامي عدداً من القصائد في الأمسية الشعرية التي أقامتها السفارة السعودية في القاهرة، وبدأها بتحية الملتقى الذي يعقد كل يوم ثلاثاء. كما شارك في الأمسية الشاعر عبد المنعم عواد يوسف وكان الشاعر الثالث في الملتقى هو الشاعر الفلسطيني المعروف هارون هاشم رشيد. وقد أنشد الشعراء الثلاثة قصائدهم لأهلنا المجاهدين في الأرض المحتلة، وللقدس والمسجد الأقصى.
- شارك عدد كبير من الشعراء العرب والأردنيين في مهرجان الرمثا للشعر العربي وكان من أبرز المشاركين الشاعرة الأردنية نبيلة طالب الخطيب الفائزة بعدد من الجوائز الأولى في الشعر.وشدت قصائدها انتباه الحضور.
- أعد د. وليد قصاب لإذاعة الشارقة برنامجاً عن بلاغة القرآن من ثلاثين حلقة لشهر رمضان المبارك ١٤٢٣هـ، مدة كل حلقة خمس عشرة دقيقة تعرض كل حلقة قضية من قضايا إعجاز القرآن البياني اللغوي.
- شارك الدكتور عبد الرزاق حسين في دورة علي بن المقرب العيوني بالتعقيب على بحث «شعر الانتفاضة الفلسطينية ديوان الشهيد محمد الدرة نموذجاً» والذي ألقاه د. وهب رومية. وهذه هي الدورة الثامنة لجائزة البابطين للإبداع الشعري والتي يرأس مجلس أمنائها الأستاذ الأديب عبد العزيز سعود البابطين عضو الشرف في رابطة الأدب الإسلامي العالمية .
- ألقى الأستاذ عبد الله بن حمد الحقيل محاضرة بعنوان «الحجاز في أدب الرحلات» وذلك ضمن الموسم الثقافي للنادي الأدبي بالطائف في السعودية كما شارك في الندوة التي عقدت في البحرين عن الشاعر علي بن المقرب العيوني.
- قام د. محمد أبوبكر حميد عضو الهيئة الإدارية لمكتب البلاد العربية بزيارة إلى الأردن والتقى بعدد من دور النشر فيها، وذلك في إطار سعيه لطباعة الأعمال الشعرية المخطوطة للأديب الإسلامي الكبير علي أحمد باكثير - رحمه الله.

تكريم ابن ادريس

أقام النادي الأدبي بالرياض حفل تكريم للشيخ عبدالله بن إدريس بمناسبة انتهاء عمله رئيساً للنادي، وأقيم الحفل في مركز الملك فهد للثقافة بالرياض يومي ١٢و١٣ رمضان المبارك وشارك في الندوة العلمية عن جهود ابن ادريس الشعرية والنقدية والصحفية كل من:

١ - د . ناصر الرشيد، ابن ادريس شاعراً ، حيث عرض بالنقد على كتاب شعراء نجد المعاصرون، وديوان في زورقي.

٢ - د. حسن الهويمل، ابن ادريس ناقداً.

٣ - عبدالعزيز بن سلمة . ابن ادريس صحفياً.

ويعد الأديب الشاعر عبدالله بن ادريس من الأدباء الذين التزموا المنهج الإسلامي في أدبهم ودافعوا عنه إبداعاً ونقداً وصحافة، وقد ارتبط اسمه بمجلة الدعوة السعودية منذ بداياتها رئيساً لتحريرها.

مشاركات الأعضاء في ندوة الوفاء

شارك عدد من أعضاء الرابطة في ندوة الوفاء الثقافية والأدبية للشيخ أحمد محمد باجنيد عضو الشرف في رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وذلك كالآتي:

- د . حسين علي محمد بموضوع: الشعر والموهبة.
- د. علي عبدالعزيز الخضيري بموضوع :الشورى في المملكة.
- د . ناصر بن عبدالرحمن الخنين بموضوع: نماذج تحليلية من البلاغة القرآنية.
- د . خالد سعود الحليبي بموضوع : تجربة القلق عند الشاعر عمر بهاء الدين الأميري.
- د . محمد أبو بكر حميد بموضوع: فلسطين واليهود في أدب باكثير.

وألقيت هذه الموضوعات في الفترة الأولى من برنامج الندوة الواقعة بين ١٣/٧/ إلى ٢٤/١٠/١٤٢٣هـ.



● **مكتب المغرب:**

صدر العدد ٣٩ من مجلة المشكاة، وخصص للشعر المغربي وتضمن العدد دراسات نقدية في الشعر لكل من د. حامد أبو أحمد، ود. محمد خرماش، ود. إسماعيل علوي، وياسر الزعاترة، ود. عمر بو قرورة، ومحمد المتقن، وجمال أمين، وإبراهيم نويري. وشارك في العدد أربعة عشر شاعراً بواقع أكثر من قصيدة لبعض الشعراء، ومن بينهم ثلاث شاعرات هن: أمينة المريني، وسعاد الناصر، ونجاة رجاح.



● **مكتب باكستان:**

أبيات سلطان باهو، أول ديوان شعري يعرب من اللغة البنجابية، ترجم الديوان د. ظهور أحمد أظهر رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في باكستان وعميد كلية الدراسات الشرقية والإسلامية في جامعة بنجاب سابقاً.

والشاعر سلطان باهو عاش قبل ثلاثة قرون، ويتمتع بمكانة متميزة في شبه القارة الهندية. وتعد هذه الترجمة خطوة على الطريق في التعريف بالأدباء الإسلاميين في شبه القارة الهندية خلا محمد إقبال المعروف عالمياً.

● **مكتب تركيا:**

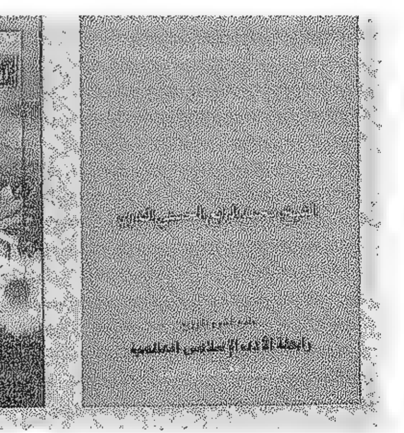
صدر العدد «٣٧» من مجلة الأدب الإسلامي التركية، وتضمن موضوعات متنوعة في الدراسات الأدبية والنقدية للأدب التركي القديم والمعاصر، ومشاركات في الشعر والقصة. ومن عناوين الموضوعات:

– الافتتاحية: أين موقعنا في الأدب الاسلامي؟

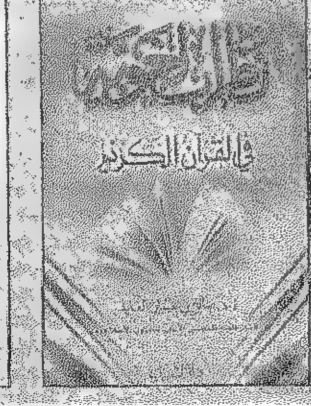
– الشعر التركي الأصيل في واقعنا المعاصر. – مرثية أبي العلاء المعري. – إستانبول الفتح ومسجد الفاتح.

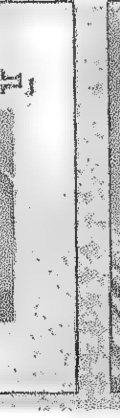
من إصدارات أعضاء الرابطة:

- صدر عن مكتب الرابطة ودار العلماء في لكنو بالهند كتاب: أضواء على الأدب الإسلامي من تأليف الشيخ محمد الرابع الندوي رئيس المكتب ورئيس ندوة العلماء، ط١/١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م
- اتجاهات حديثة في أدب الأطفال – تأليف د. سعد أبو الرضا نائب رئيس مكتب البلاد العربية للرابطة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. الناشر دار هاجر، بنها – مصر.
- ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين، تأليف د. عدنان النحوي. يقع الكتاب في ثلاثة أبواب: الباب الأول تعريف الملحمة الإسلامية، والباب الثاني مرحلة جديدة في قضية فلسطين، والباب الثالث الملحمة الشعرية. الناشر دار النحوي الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- نظرات لغوية في القرآن الكريم تأليف د. صالح بن حسين العايد الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- محاربة الإسلام من داخله، تأليف د. سارة بنت عبد المحسن رئيسة تحرير مجلة الشقائق، صدر عن مركز الأمير عبد المحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية في الشارقة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- رداء الذاكرة، مجموعة قصصية، تأليف فهد المصبح، تضم ثلاث عشرة قصة قصيرة، إصدار دار الكنوز الأدبية – بيروت ط١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- سندريلا المدينة – قصة للأطفال، تأليف إبراهيم محمد شيخ مغفوري ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

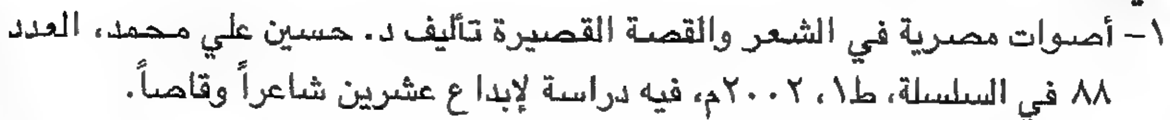








من إصدارات أعضاء الرابطة



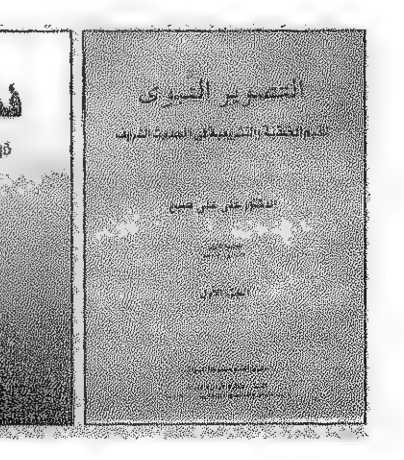
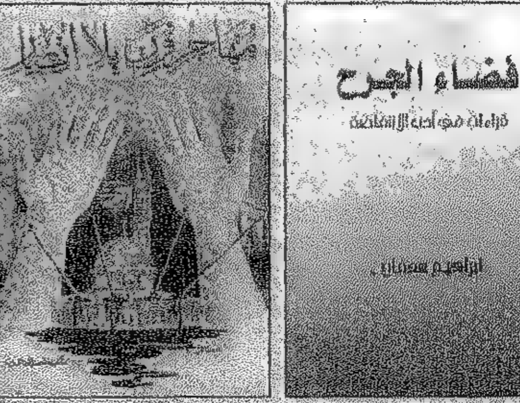
- **في سلسلة أصوات معاصرة صدر:**

  ١- أصوات مصرية في الشعر والقصة القصيرة تأليف د. حسين علي محمد، العدد ٨٨ في السلسلة، ط١، ٢٠٠٢م، فيه دراسة لإبداع عشرين شاعراً وقاصاً.

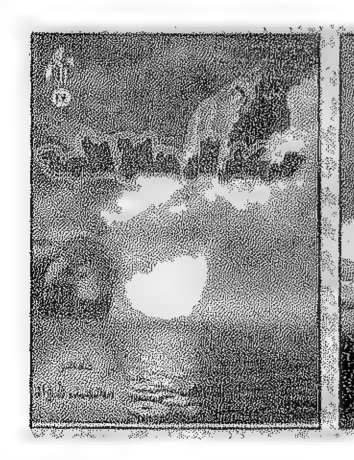
  ٢- دراسات معاصرة في المسرح الشعري - تأليف د. حسين علي محمد، العدد «٨٩» ط٢، ٢٠٠٢م. تضمنت دراسة لخمس مسرحيات هي: كليوباترة لشوقي، العباسة لعزيز أباظة، شهيد بني عذرة لهاشم الرفاعي، وملك غسان لمحمد رجب البيومي.

  ٣- الرؤية الإبداعية في شعر عبد المنعم عواد يوسف، تأليف د. خليل أبو ذياب ود. حسين علي محمد، العدد ٩١، ط١، ٢٠٠٢م.

- التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، الجزء الأول تأليف د. علي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- فضاء الجرح : قراءات في أدب الانتفاضة، تأليف إبراهيم سعفان، من إصدارات دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة ط١، ٢٠٠١م. يتضمن الكتاب دراسة نقدية لنماذج من الشعر والقصة القصيرة التي كتبت في الانتفاضة.
- حالة موت، مجموعة قصصية، تأليف نعيم الغول، تضم ست عشرة قصة، دار الفرقان، عمان - الأردن - ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- مهاجرون بلا أنصار - ديوان للشاعرة علية الجعار يضم ٣٩ قصيدة عمودية، الناشر: المكتب المصري الحديث - القاهرة ط١، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م.
- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، تأليف د. مكارم محمود الديري، جامعة الأزهر بالقاهرة - مصر.
- قطوف دانية، من أدب الناشئين، للشاعر خالد سليم ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م القاهرة - مصر.
- الموت على قارعة النشيد، شعر أيمن صادق، ديوان يضم ثلاثاً وعشرين قصيدة، يغلب عليها شعر التفعيلة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م الاسكندرية، مصر.
- أغنية للزيتون - ديوان للشاعر د. عبد الرزاق حسين، يضم ثلاثين قصيدة متنوعة، ويغلب عليها الشعر العمودي، ط١، ٢٠٠٢م، دار الكرمل للنشر والتوزيع - عمان - الأردن.
- بؤرة الروح - ديوان للشاعر علي زيد الكيلاني، يقع الديوان في ثلاثمئة صفحة، وقسم إلى محاور عدة: نفحات إيمانية، مشاعر إنسانية، شجون وطنية، وجدانيات وغزل ونسيب، رثاء وتعزية، نقد وتصويب، نفثات، ط١، وزارة الثقافة عمان - الأردن.
- الركض إلى حدائق الأحبة، ديوان للشاعر محمد فؤاد محمد، يضم أربعاً وعشرين قصيدة متنوعة، صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- إثنينية النعيم الثقافية: إعداد وتأليف محمد بن صالح النعيم، صاحب الندوة الثقافية الأسبوعية في الأحساء / السعودية، يضم الكتاب ملخصاً عن الندوات الأسبوعية التي تعقد، وعن المفكرين والأدباء المتحدثين في الندوة.
- آفاق التربية وأفياء التعليم- تأليف عبد الله بن حمد الحقيل يشتمل على موضوعات متنوعة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- البوح، مجموعة قصصية، تأليف د. وليد قصاب تضم ست عشرة قصة قصيرة متنوعة الموضوعات، دار الفكر، دمشق، ط١ ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- نفحات قلب في حب أهل البيت، شعر سيد سليم العربي من إصدارات الجمعية المصرية لرعاية المواهب - شبرا - القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.







كتب وصلت إلى المجلة

● **أهدت دار الفكر في دمشق مكتبة المجلة عدداً من الكتب الأدبية والنقدية وهي:**

– بارقة أمل، تأليف حنان أسد، الرواية الفائزة بجائزة دار الفكر لعام ١٩٩٩م ، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

– المنهج الإسلامي في النقد الأدبي، تأليف د. سيد سيد عبد الرازق، الكتاب الفائز بجائزة دار الفكر في النقد الأدبي، ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

– المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي – تأليف د. محمود سالم محمد ٥٨٩ صفحة، ط ١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

– مموزين، من روائع الأدب الكردي، للشاعر أحمد الخاني، ترجمها إلى العربية نثراً د. محمد سعيد رمضان البوطي.

– شخصيات استوقفتني – تأليف د. محمد سعيد رمضان البوطي، يتضمن ثماني شخصيات من التاريخ الإسلامي القديم والحديث.

– في سلسلة موكب النور للناشئين من تأليف الأديبة فاطمة محمد شنون:

١– أخوان في أم القرى، ٢– الطريق إلى يثرب، ٣– طلع البدر علينا، ٤– السيوف تنتصر للحق.

وتجدر الإشارة إلى أن القاصة فاطمة شنون فازت بالجائزة الأولى في القصة القصيرة، في مسابقة الأديبات التي أجرتها الرابطة.

– أشياء صغيرة «أشعار للناشئة – تأليف راوية أباظة – ط ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

– أوراق فتاة حائرة، تأليف هدايت سالم، ط ٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

– لا أحد يعرف ما أريد – تأليف أحمد القاري، الرواية الفائزة بجائزة دار الفكر لعام ١٩٩٧م.

– أمهات المؤمنين وبنات الرسول –صلى الله عليه وسلم – تأليف وداد سكاكيني.

● **من إصدارات النادي الأدبي في أبها:**

١– بيادر، العدد ٣٦ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، تضمن العدد دراسات، شخصيات، واحات الشعر، سرديات القصة، وأبواباً أخرى، وكان شخصية العدد هو الأستاذ عبد الله بن إدريس عضو الشرف في الرابطة ورئيس نادي الرياض الأدبي سابقاً.

٢– مزار الخلخال المبحوح، ديوان للشاعر أحمد إبراهيم الحربي، ط ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣ – المتشظي: مجموعة قصصية، تأليف حسن عامر الألمعي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

● القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية، دراسة مقارنة، تأليف د. حسين مجيب المصري، ٢٢٤ صفحة ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، الدار الثقافية للنشر – القاهرة –.

● هكذا يا بغداد، ديوان شعر، د.يوسف عز الدين، ط ١، ٢٠٠١م، دار الإبداع الحديث، القاهرة.

● قديم لا يموت.. وجديد لا يعيش – آراء نقدية صريحة في الحداثة والشعر والمجتمع، تأليف د. يوسف عز الدين – دار الإبداع الحديث – القاهرة.

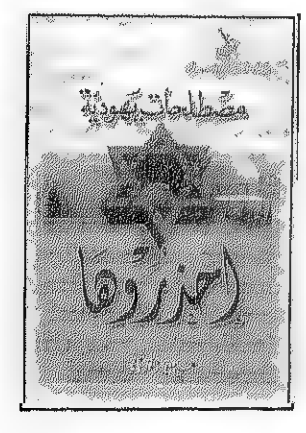
● للحب أكثر من معنى، شعر بدر عمر المطيري، من إصدارات النادي الأدبي بحائل – السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

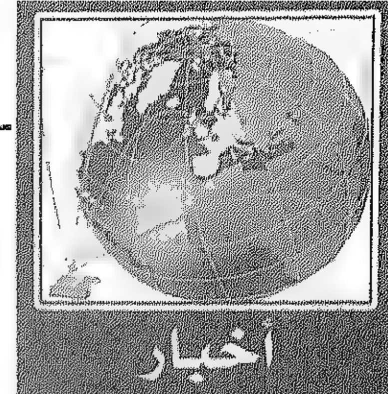
● ينابيع الحنين، شعر عبد الحفيظ بورديم، من إصدارات رابطة إبداع الثقافية في الجزائر، ط١، ٢٠٠٢م.

● حنيناً إلى النجوم، من قصص الخيال العلمي، تأليف أشرف إحسان جعفر، ٢١٢ صفحة، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض.

● سر العودة، قصة للأطفال، تأليف دعد الناصر، عمان – الأردن.

● مصطلحات يهودية.. احذروها، تأليف عيسى القدومي، إصدار مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، ينبه الكاتب إلى ثلاثين مصطلحاً تحاول وسائل الإعلام الصهيونية تغييرها عبر وسائل الإعلام المختلفة لتغيير المفاهيم المتعلقة بالأرض المباركة المحتلة في فلسطين، ط ١ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، بيت المقدس للطباعة، نابلس، فلسطين.

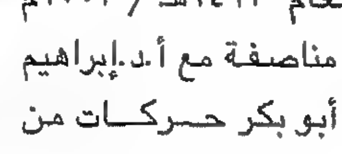






أخبار متنوعة

جائزة الملك فيصل العالمية للدكتور عز الدين موسى



حصل أ.د. عز الدين عمر أحمد موسى – العضو العامل في رابطة الأدب الإسلامي العالمية – على جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م مناصفة مع أ.د.إبراهيم أبو بكر حركات من المغرب في فرع الدراسات الإسلامية وموضوعها: الدراسات التي تناولت التاريخ الاقتصادي عند المسلمين لمنطقة أو حقبة في مجال أو أكثر.

فقد ألف د. عزالدين موسى كتاب: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، الذي يتميز بالمنهجية والموضوعية مما يجعله مرجعاً لا غنى عنه للمهتمين بدراسة الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي. **والجدير بالذكر أن رابطة الأدب الإسلامي العالمية إحدى الجهات التي رشحت د. عزالدين لنيل الجائزة.** علماً أن د. عزالدين من السودان، ولد عام ١٩٣٦م. ويشغل وظيفة أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الملك سعود بالرياض منذ عام ١٩٨٣م . كما عمل في عدة جامعات منها: الجامعة الأمريكية في بيروت، وجامعة أحمد بلو في نيجيريا، وجامعة الخرطوم في السودان.

جائزة الملك فيصل العالمية
King Faisal International Prize

الرقـم : ٢٣٦
التاريخ : ١٤٢٣/٠٩/٢١هـ
الموافق: ٢٠٠٢/١١/٢٦م

فاكس رقم (٤٦٤٩٧٠٦)

سعادة الدكتور عبد القدوس أبو صالح — الموقر
رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية
ص.ب. ٥٥٤٤٦ الرياض ١١٥٣٤

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

يسرني أن أهنئكم بفوز مرشحكم سعادة الأستاذ الدكتور عز الدين عمر موسى بجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية (بالاشتراك) لهذا العام ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

ولكم تحياتي،،،

خالد الفيصل بن عبد العزيز
رئيس هيئة

رحيل عبدالله بلخير شاعر الملاحم الإسلامية

انتقل إلى رحمة الله الشاعر السعودي الإسلامي الشيخ عبدالله عمر بلخير في ١٤٢٣/١٠/٤هـ، الموافق ٢٠٠٢/١٢/٨م عن عمر جاوز التسعين عاماً، والشاعر من مواليد حضرموت باليمن . هاجر إلى السعودية في سن الرابعة عشرة واستقر فيها. درس بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ثم ابتعث للدراسة بالجامعة الأمريكية ببيروت وتخرج منها سنة ١٩٣٦م.

ويعد الراحل من الأدباء السعوديين الرواد الذين ظهروا واشتهروا في عهد الملك عبدالعزيز –رحمه الله–.

وقد عمل بلخير سكرتيراً للملك عبدالعزيز لشؤون الإعلام، وأصبح أول وزير للإعلام في عهد الملك سعود. وتفرغ للكتابة والترجمة بعد إحالته للتقاعد سنة ١٩٦٢م.

وكان مترجم اللقاء الشهير بين الملك عبدالعزيز وتشرشل وروزفلت سنة ١٩٤٦م.

اشتهر عبدالله بلخير بشعره الإسلامي، ويعد من كتاب أضخم الملاحم الشعرية في العصر الحديث، وملاحمه الأندلسية السبع تعد من أهم أعماله التي بلغت أبياتها الشعرية الآلاف. وعني في شعره بقضايا العرب والمسلمين حتى لقب بشاعر الأمة. وستصدر مجلة الأدب الإسلامي ملفاً خاصاً عنه تقديراً لأدبه.

رؤى ومقترحات

لاختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة لعام ٢٠٠٣م

كتب سعادة الأستاذ حمد القاضي رئيس تحرير المجلة العربية وعضو مجلس الشورى وعضو الشرف في رابطة الأدب الإسلامي العالمية في المجلة العربية في عدد شعبان مايلي:

«مكة المكرمة عاصمة للثقافة، ووطن للإشعاع ومنبع للنور المعرفي قبل أن تولد المؤسسات العالمية التي ترشح «مكة المكرمة» عاصمة للثقافة..!

إنها خير بقاع الدنيا أرضاً، ومولد النور حرفاً، ألم يقل عنها الشاعر العراقي المغترب «يحيى السماوي»:

«لو لم تكن خير البقاع جميعها
ما كان بيت الله فوق ترابها»

ولقد جاء اختيار مكة المكرمة حبة القلب ونور العين وسكينة الروح لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٣م تأكيداً لرسالتها الثقافية عبر القرون، وهي فرصة لإبراز جوانب من منظومتها الثقافية المشرقة في هذا العصر.

وأطرح بعض الرؤى والمقترحات لتفعيل هذه المناسبة والإفادة منها ليكون لهذا الاختيار - بحول الله - أثره في بلورة القيم الثقافية الإسلامية التي انطلقت من مكة المكرمة منذ أن شع منها نور الإسلام، وتنهض بهذه المناشط المؤسسات الثقافية بمكة المكرمة.

أولاً: مقترح إقامة «ندوة ثقافية إسلامية كبرى» يشارك فيها عدد من كبار الأدباء والمثقفين من المملكة ومن البلاد الإسلامية حول موضوع «الأدب الإسلامي رسالته وغاياته» يتولاه نادي مكة الثقافي وذلك بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

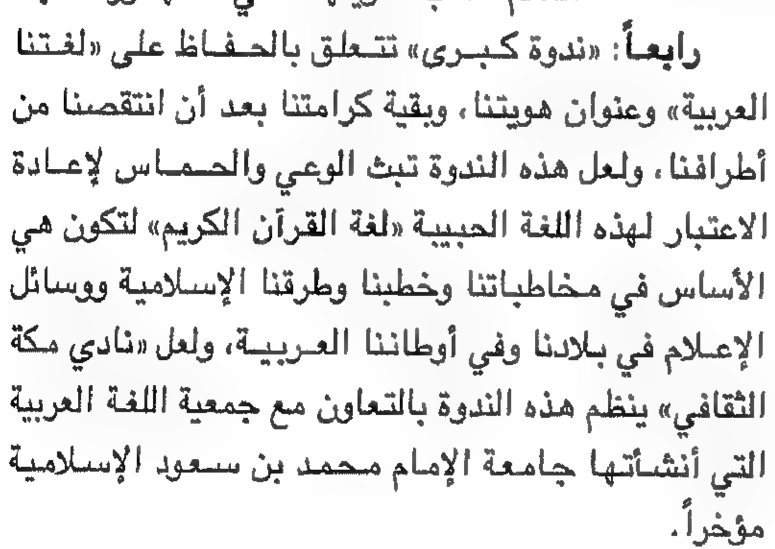
ثانياً: «ملتقى عالمي إسلامي» يشمل المحاضرات والندوات التي تهدف إلى كشف وبيان سماحة الإسلام وتعايشه مع الآخرين في ظل المستجدات العالمية المعاصرة التي أظهرت الإسلام - زوراً - أنه دين التعصب والتطرف!!

ولعل اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة يكون فرصة مواتية في مثل هذه الظروف لبلورة قيم الإسلام التي شعت أنوارها من الحرم وحراء والحطيم وزمزم، ولعل رابطة العالم الإسلامي بإمكاناتها وعلاقتها ورسالتها وحرص معالي أمينها قادرة على أن تقوم بتنظيم مثل هذا المنشط الثقافي الإسلامي في رحاب مكة المكرمة.

ثالثاً: ندوة ذات محاور متعددة يشارك فيها نخبة من مفكري الأمة الإسلامية تنظمها جامعة «أم القرى»، ويكون موضوعها «التاريخ الهجري» -حيث لاحظنا - مع الأسف- تجاهل هذا التاريخ في أغلب بلدان العالم الإسلامي، وفي كثير من المؤسسات في بلادنا رغم التوجيهات السامية الداعية إلى الاهتمام به واعتماده، مع أنه ذاكرة هذه الأمة وتاريخ أمجادها وغزواتها، ومواعيد عباداتها.. وهذا التاريخ هو أحد الوشائج التي بقيت من ارتباطنا بتاريخنا وماضينا التليد بعد هجمة العولمة واستئثار الدول الكبرى بتوجيه دفة العالم حسب «هويتها» التي قننتها ورسمتها.



حمد القاضي



رابعاً: «ندوة كبرى» تتعلق بالحفاظ على «لغتنا العربية» وعنوان هويتنا، وبقية كرامتنا بعد أن انتقصنا من أطرافنا، ولعل هذه الندوة تبث الوعي والحماس لإعادة الاعتبار لهذه اللغة الحبيبة «لغة القرآن الكريم» لتكون هي الأساس في مخاطباتنا وخطبنا وطرقنا الإسلامية ووسائل الإعلام في بلادنا وفي أوطاننا العربية، ولعل «نادي مكة الثقافي» ينظم هذه الندوة بالتعاون مع جمعية اللغة العربية التي أنشأتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مؤخراً.

إن هذه بعض الرؤى والأفكار أقدمها لعلها تسهم إسهاماً حفياً وباقياً في تفعيل هذه المناسبة لكيلا تأتي وتمر بوصفها «احتفالية» شكلية لا يكون لها أثر ولا يبقى لها تأثير.

إننا نريد أن يخلف اختيار «مكة المكرمة» عاصمة للثقافة الإسلامية عطاء باقياً لأمتنا كما هي معطيات مكة المكرمة على مدى التاريخ، وبخاصة في هذه الظروف التي تستهدف أمتنا الإسلامية والعربية عقيدة وتاريخاً وهوية.



الأدب الإسلامي في الأندية والمنتديات العامة والخاصة في السعودية

رمضان في آداب الشعوب الإسلامية

أقام النادي الأدبي في الرياض مساء التاسع عشر من رمضان ١٤٢٣هـ ندوة بعنوان « رمضان في آداب الشعوب الإسلامية».

فقد تحدث د. سمير عبدالحميد من جامعة الإمام بن سعود الإسلامية في الرياض عن شهر رمضان في الأدب الفارسي والأدب الأردي والأدب التركي ، وتناول في حديثه نماذج من الشعر والقصة والمقالة وأدب الرحلات لعدد من الأدباء في تلك اللغات مثل الشاعر نديم من الأدب التركي، وعمر الخيام والحافظ الشيرازي من الأدب الفارسي، وشبلي النعماني ومحمد اقبال وأكبر إله أبادي وسيد أحمد خان، وعبادة البريلوي والشيخ أبي الحسن الندوي من الأدب الأوردي. حيث عقد بعض المقارنات بين نتاج هؤلاء الأدباء من حيث الاتفاق والاختلاف.

أما د . شاه رستم موساروف من جامعة الملك سعود بالرياض فقد تحدث عن الأدب الأوزبكي مشيراً إلى ما لاقاه المسلمون من معاناة أيام الحكم الشيوعي مما غيب كثيراً من النتاج الأدبي والفكري للأدباء المسلمين.

وقد جمع د . شاه رستم ما كتبه الشعراء الأوزبكيون عن رمضان وجعل ذلك في ديوان سماه «أماني الشهر العظيم» . وقرأ مقتطفات مترجمة من الشاعر حاج عارف عبدالله. كما قرأ نصوصاً لشعراء مجهولين إذ كان الشاعر يخشى أن ينسب إلى نفسه شيئاً من التعبير عن الإسلام في فترة الحكم الشيوعي.

أما الاستاذ عبدالله الغفيصي من جامعة الإمام فرع القصيم فقد تحدث عن رمضان في الشعر السعودي المعاصر ، وهو موضوع رسالته للماجستير، حيث جمع ما يزيد عن ثلاثة آلاف بيت من الشعر جمعاً غير استقصائي، مما يدل على الكم الهائل لنتاج الأدب الإسلامي في الشعر السعودي المعاصر في موضوع واحد مثل رمضان فضلاً عن سائر الموضوعات التي تلك في نطاق الأدب الإسلامي.

ولخص الأبعاد الموضوعية للشعر الرمضاني السعودي بالنقاط الآتية:

١ – مشاعر الفرح لاستقبال شهر رمضان.

٢– حث النفوس المؤمنة على اغتنام هذه الشهر بالعبادات.

٣ – تلمس حالة الفقراء والحث على الصدقات.

٤ – تلمس آلام الأمة واستلهام التاريخ للنهوض بواقعها والتفاؤل بقدوم رمضان.

٥– رؤية وحدة المسلمين في مظهر وحدة الصيام بهذا الشهر الكريم .

وقد حث د . محمد الربيع رئيس النادي الأدبي في الرياض على الاهتمام بالأدب الإسلامي المقارن . كما وعد بعقد مثل هذه الندوة في السنوات القادمة في شهر رمضان ليشمل الحديث عن آداب شعوب إسلامية أخرى.

- وفي خميسية الشيخ حمد الجاسر – رحمه الله – بالرياض تحدث الأديب السفير الشيخ أحمد بن علي المبارك عضو الشرف في الرابطة عن الأدب في منطقة الأحساء وذلك من خلال الرسائل الإخوانية التي تميزت بالرصانة والرقة، وكان حديثه ممتعاً شد الحضور وأدار هذا اللقاء د. حسن الهويمل رئيس المكتب الإقليمي للرابطة بالرياض، وحضره عدد كبير من الشخصيات الأدبية والثقافية. والمعروف أن للشيخ أحمد بن علي المبارك ندوة أسبوعية تعقد كل يوم أحد في الأحساء.
- وفي نادي جازان الأدبي شارك عضوا الرابطة القاص حسن حجاب الحازمي، والشاعر أحمد يحيى البهكلي في أمسيات قصصية وشعرية.
- وأقام الشاعر الكبير عبد الرحمن العشماوي عدداً من الأمسيات الشعرية في كل من النادي الأدبي في الباحة، ومجمع العليان التعليمي في عنيزة وفي مهرجان الهدا السياحي بالطائف.
- وشارك الشاعر حسن محمد الزهراني في عدد من الأمسيات الشعرية في كل من الباحة ونادي الحجاز في بلجرشي وفي محافظة ناوان.
- أحيا الشاعر د. عبد الرحمن بارود عضو الرابطة أمسية شعرية ضمن فعاليات لقاء الشباب الصيفي الثامن في جامعة الملك خالد بأبها قرأ فيها عددا من قصائده عن معاناة أهلنا في فلسطين وجهادهم ضد العدو الصهيوني.

الأدب العبري من وسائل إيجاد الدولة اليهودية في فلسطين

أقام اتحاد الكتاب المصري ندوة حول «الأدب العبري» أكد فيها د. محمد ضيف أستاذ الأدب العبري بجامعة المنوفية الدور الكبير الذي لعبه الأدب العبري في إقامة الكيان اليهودي الاستيطاني في فلسطين. وقال: إن اليهود أحيوا اللغة العبرية التي كانت تعد ميتة منذ ألفي سنة، فجعلوها لغة مشتركة بين اليهود ولغة ثقافة وفكر وأدب.

وقال: إنه يوجد لديهم ما يسمى بالأدب الاستيطاني، وأدب النكبة «أي أحداث النازي» وأدب «٤٨» وأدب «٦٧»، وأدب الانتفاضة. كما أكد د. محمد محمود أبو غدير أستاذ الأدب العبري بجامعة الأزهر أن الحركة الصهيونية في بداية الهجرة إلى فلسطين في أوائل القرن العشرين طالبت بتجميل الأدب العبري وانخرطت الغالبية العظمى في هذه الحملة وخاصة الشباب، وقال: لا يوجد أدب في إسرائيل يعبر عن السلام وأغلب الأدب العبري هو أدب حرب.

مقاضاة روائي فرنسي أهان الإسلام

قررت أربع جمعيات إسلامية في فرنسا بينها مسجد باريس مقاضاة الروائي الفرنسي ميشيل هوليبيك الذي فاز بجائزة إيمباك العالمية في الأدب سابقاً.

وقال الشيخ دليل أبوبكر إمام مسجد باريس أن رواية «بلا تفورم» موجهة ضد الإسلام من خلال شخصياتها التي تعبر عن فرحها بمقتل الفلسطينيين وتسميهم إرهابيين كما أنها تمتدح الفساد الأخلاقي.

جائزة نوبل للآداب ضد الإسلام مرة أخرى

نال الكاتب المجري إيمري كيرتيش جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٢م بنتاجه الذي يروي تجربة الفرد الهشة في مواجهة تعسف التاريخ الوحشي.

والروائي المجري ولد في بودابست لأسرة يهودية وسخر قلمه وأدبه في التعريف بقضايا اليهود ومعاناتهم في الحرب العالمية الثانية على يد النازية حسب ماهو معروف من الإعلام الصهيوني المساند له.

ريح شعواء .. رواية محظورة

حظرت الحكومة البنغلاديشية رواية «ريح شعواء» للكاتبة تسليمة نسرين المعروفة بكتاباتها المعادية للإسلام، وتمت مصادرة النسخ التي وزعت من الرواية، وهذه هي المرة الثالثة خلال عشر سنوات التي يحظر فيها عمل أدبي لهذه الكاتبة.

ومن المعروف أن تسليمة نسرين وجدت دعما إعلامياً عالمياً شأنها شأن سلمان رشدي في روايته «آيات شيطانية» التي أساء فيها إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجاته الطاهرات.

تعليق:

لماذا يجد الأدب المضاد للإسلام العناية مرة بعد أخرى من جهات عالمية تمنح لأصحابها الجوائز، وتؤمن لهم غطاء إعلاميا لحمايتهم ؟!وأليس هذا كافيا ليتنبه المسلمون في مختلف بلادهم إلى دور الأدب الإسلامي في الوقوف أمام الآداب العالمية المضادة لهم؟

مرثية الطنطاوي

بقلم: العلامة أبي تراب الظاهري
مكة المكرمة

مات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، وكان عالماً جليلاً وحبراً عظيماً، كأنه شمس بازغة أفلت، وبدر سافر توارى، وهو ليث غيل، وأسد شرى، وبموته هاض منا الجناح، وطار منا اللب، وارتمض القلب أسى، وتوالى الكمد مدلهماً، وفت العضد، ونالتنا المصيبة والفجيعة الموجعة.

وما كان إلاّ كالسحابة أقلعت ... وقد تركت في الناس مرعى ومرتعا

فإنا لله وإنا إليه راجعون. نسأل الله أن يمن على المسلمين بالعوض، وأن يمتعهم بالبدل، ومثله قليل في العالم، وموت العالِم موت العالَم، وموت مثله خسارة كبرى، ورزيئة عظمة. فقد كان نصوحاً لوعظه، منوحاً بفضله، مذكراً بربه. وقد منحه الله علماً جماً وحلماً عمّاً، وأوتي قوة في البيان، وطريقة عجيبة في التبيين، يخرج اللفظ من لسانه دراً منظماً ولؤلؤاً منضداً، وإذا كتب فكأن كتابه ديباج خسرواني، وإذا زبر جاء الحرف زبرجداً معقوداً.

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه ... تُنظم دراً أو تفتح جوهرا

يمتع السامعين بحلو اللفظ وعذب المعنى، فمنطقه معين سلسل وينبوع دفوق ونبع ثر. كان الطنطاوي رحمه الله تولى القضاء، وذلك بسعة علمه بالفقه، وتولى تدريس أمهات الكتب في شتى الفنون. وكتب حتى بز الأقران، وتميز على كثير من الأساطين، وتفنن في التأليف، وكان في أسلوبه عجباً عجاباً.

وكان رحمه الله في عداد العلماء الكبار المثقفين المحققين، وكان عفيفاً جداً وزاهداً، قضى عمره في خدمة العلم، وإلقاء المحاضرات القيمة ذات الفوائد، تنم عن النبوغ والثراء العقلي، وقد ذهب مأسوفاً عليه

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما ... هذا عليها وهذا تحتها بالِ

حدثني رجل من صالحي مكة المكرمة أنه رأى رؤيا حسنة، كان ملكاً من الملائكة يقول له: إن الله قد بنى للطنطاوي قصراً في الجنة، فقلت للرجل: لقد قال عليه الصلاة والسلام إن الرؤيا الحسنة بشرى المؤمن يعجل الله له بها في الدنيا.

واستأذنته أن أبلغ الشيخ فقال: إن شئت . فأتيت الشيخ فحدثته، فبكى رحمه الله، ودعا لي وله. نور الله قبره، ولقاه ما ارتجاه من ربه، وجمعنا به في دار الكرامة. آمين.

قسيمة اشتراك

السيد /

رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي

أرجو تسجيل اشتراكنا فى مجلة الادب الإسلامى

لمدة ــــــ ومرفق طيه شيك باسم:

رابطةالأدب الإسلامى العالمية ـ حساب المجلة

بمبلغ: ....

بيانات المشترك

الاسم: ....

الجنسية: ....

الوظيفة أو العمل: ....

العنوان: ....

هاتف المنزل: .... هاتف العمل ....

ملاحظات أخرى: ....

التوقيع

....

قيمة الإشتراك السنوى: الافراد ما يعادل (١٥) دولاراً (البلاد العربية) و(٢٥) دولاراً خارج البلاد العربية

الهيئات والمؤسسات: ما يعادل (٣٠) دولاراً

يرسل الشيك بقيمة الاشتراك مسحوبا على شركة الراجحى المصرفية للاستثمار بالرياض فرع العليا العام (١٦٦) على عنوان المجلة ـ أو تودع حوالة لحساب المجلة رقم (٣/٨٠٠٨) وترسل إلى المجلة صورة الحوالة مع قسيمة الاشتراك السعودية ـ الرياض ١١٥٣٤ ص ب ٥٥٤٤٦ هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ ـ ٤٦٣٤٣٨٨ فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال ٠٥٣٤٧٧٠٩٤

قسيمة اشتراك (هدية ـ تبرع)

السيد /

رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي

أرجو تسجيل اشتراكنا فى مجلة الادب الإسلامى

لمدة ــــــ يرسل هدية إلى:

الاسم: ....

العنوان: ....

ومرفق طيه شيك باسم: رابطة الأدب الإسلامى العالمية ـ حساب المجلة

بمبلغ: ....

بيانات طالب الاشتراك

الاسم: ....

الجنسية: ....

الوظيفة أو العمل: ....

العنوان: ....

هاتف المنزل: .... هاتف العمل ....

عدد النسخ المطلوب الاشتراك فيها: ....

المبلغ المدفوع: ....

التوقيع

....

قيمة الإشتراك السنوى: الافراد ما يعادل (١٥) دولارا ـ **الهيئات والمؤسسات:** ما يعادل (٣٠) دولارا

خارج البلاد العربية (٢٥ دولارا)

يرسل الشيك بقيمة الاشتراك مسحوبا على شركة الراجحى المصرفية للاستثمار بالرياض فرع العليا العام (١٦٦) على عنوان المجلة ـ أو تودع حوالة لحساب المجلة رقم (٣/٨٠٠٨) وترسل إلى المجلة صورة الحوالة مع قسيمة الاشتراك السعودية ـ الرياض ١١٥٣٤ ص ب ٥٥٤٤٦ هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ ـ ٤٦٣٤٣٨٨ فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال ٠٥٣٤٧٧٠٩٤

أخى القارىء :

* قراءتك للمجلة تطلعك على مسيرة الأدب الإسلامى.

* اشتراكك فى المجلة دعم للأدب الإسلامى ورابطته العالمية.

أخى القارىء :

* إهداء المجلة إلى صديق لك يجعله من أنصار الأدب الإسلامى.

* إهداء المجلة إلى أحد المراكز الإسلامية يتيح لعدد كبير من القراء أن يطلعوا على الأدب الإسلامى ومسيرة رابطته العالمية.



رابطة الأدب الإسلامي العالمية
على شبكة الإنترنت
الأدب الإسلامي
الالتزام في الأدب لا يعني التضييق على الأدباء
جماليات الشعر عند الأطفال
رغبة في الإفادة من أحدث وسائل الاتصال الحديثة اتخذت الرابطة موقعا لها على شبكة الإنترنت. ولتحقيق أكبر قدر من العالمية جُعل الموقع باللغة العربية
❑ يخاطب هذا الموقع أعضاء الرابطة وجميع الأدباء الإسلاميين، وسائر المهتمين بالأدب الإسلامي والراغبين بالتعرف عليه.
❑ يجد المتعامل على شبكة الإنترنت سائر المعلومات عن الرابطة ونشاتها ونظامها الأساسي وندواتها ومؤتمراتها وإصداراتها وأخبارها المتجددة.